Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





تشرشل



ونستون تشرشل

مذكرات تشرشل

الجزء الأول

منشورات مكتبة المنار بغداد



الفصل الاول

جهل المنتصرين

١٩١٩ _ ١٩٢٩

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، كان هناك اعتقاد شامل ، في العالم كله ، بان السلام سيسود العالم• وكان ممكنا تحقيق هذه الامنية القلبية لدى الشعوب ، وذلك بواسطة التزام الثبات على المعتنقات العقائدية الصحيحة ، والمنطق السليم ، وبعد النظر • وكان شعار « حرب من اجل انهاء الحرب » يتردد على كل لسان وقد اتخذت الاجراءات اللازمة لتحويل هذا الشعار الى حقيقة واقعة • وقد تمكن الرئيس ولسن ، عن طريق نفوذ الولايات المتحدة من جعل مفهوم عصبة الامم ، يطغي ويدخل جميع العقول • وشكلت الوكالة البريطانيه في فرساي هذه الفكرة وكونتها وحولتها الى آلة ستبقى دائما مقاسا لطريق تقدم الانسان • وكانت جيوش الحلفاء ، المنتصرة ، بالنسبة لهزيمة الاعداء مضطرة الى مجابهة مصاعب داخلية ، لا تعرف كيف تقضي عليها ، لكن القوة التوتونية المتكتلة في اوروبا الوسطى قد اضحت مطروحة امامهم الآن ، كما ان روسيا التي هشمتها المطارق الالمانية كانت هي الاخرى مضطربة نتيجة للحرب الاهلية التي اوقعتها في قبضة الاحزاب البلشفية او الشيوعية •

* * *

في صيف عام ١٩١٩ وقفت الجيوش الحليفة على ضفاف الراين ورؤوس جسورهم امتدت داخل المانية المهزومة، المنزوعة السلاح، والجائعة•

واجتمع قادة الدول المنتصره في باريس ليبحثوا في امر المستقبل ويخططون له٠ وامامهم كانت خريطة اوروبا كي يعيدوا رسمها حسبما يروه ويتفقوا عليه ٠ لقد اصبح التكتل التوتوني تحت رحمتهم بعد اثنين وخمسين شهرا من الالم والمخاطر ٠ ولم يكن في امكان اية دولة من دوله الاربع ، ان تعارض مشيئة المنتصرين ٠ والمانية المعتبرة الرأس المدبر للاذية وواجهتها والسبب الاول المكارثة التي احاقت بالعام ، اصبحت الان تحت رحمة المنتصرين الذين كانوا يترنحون من العذاب الذي قاسوه اثناء الحرب ٠ لقد كانت الحرب حرب شعوب لا حكومات ٠ فقد امتزجت جميع طاقات الحياة داخل اتونها الملتهب٠ وفي اجتماع قادة الحرب في باريس ، كانت التيارات العنيفة تتجاذبهم من كل صوب ٠ فقد ولت ايام معاهدات او تراخت وفينا ، عندما كان الساسة والدبيلوماسيين الارستقراطيين ، سواء اكانوا من الفريق المنتصر ام المهزوم ، يجتمعون ليدخلوا في نقاش لطيف مهذب ، بعيدا عن هتافات الديمقراطية وصخبها، كي يصلوا بالنتيجة لوضع الانظمة التي لا خلاف حولها في الاساس٠ وكانت الشعوب التي تشربت بالتعاليم والدعاوات تطالب بانزال اقصى العقوبات بالمنهزمين ، ثأرا لملايين الضحايا من البشر ٠٠ والويل للذين يفرطون بمكاسب الجنود ويضيعونها على طاولة المؤتمر ٠٠٠

كان زمام القيادة في يد فرنسا التي اسكتتبه بفضل جهودها وخسائرها الفادحة ، وبفضل المليون والنصف من الضحايا من الجنود الذين لاقوا حتفهم دفاعا عن الارض الفرنسية ٠ فقد شاهدت كنيسة نوتردام ، خلال قرن من الزمن ، خمس مرات وميض المدافع الالمانية ، وسمعت ضجيجها الرهيب خلال اعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ و ١٨٧٠ و ١٩١٤ و ١٩١٨ ٠ وخلال السنوات الاربع الرهيبة ، وقعت تحت نير الاحتلال العسكري الروسي ثلاث عشرة مقاطعة فرنسية ، وقد دمر العدو مساحات كبيرة من الاراضي الفرنسية ، ولم تخل مزرعة واحدة او عائلة واحدة من العائلات الفرنسية التي تعيش بين فردان وطولون من مأساة لفقدان عزيز ، او رجوعه مشوها من الحرب ٠ لقد كان الفرنسيون يعيشون في رهبة مستديمة من الامبراطورية الالمانية الجبارة ٠ وكانت ذكرى الحرب الوقائية التي اراد بسمارك شنها عام ١٨٧٥ لا تزال عالقة في اذهانهم بالاضافة الى التهديد الذي ادى الى سقوط حكم دكلاسيه عام ١٩٠٥ ٠ وكانت خطب غليوم ، النارية ، وتهديداته التي كانت تقابل بالسخرية في انكلترا واميركا ، كانت تدخل الهلع في قلوب الفرنسيين الذين عاشوا خمسين عاما تحت ظل الارهاب الالماني وتهديداته ٠ والان لقد جنوا ثمرة الدماء والتضحيات ، فزال الخطر والظلم ، وحل محله السلم

والامن· وكنت تسمع الشعب الفرنسي يردد عبارة واحده لا غير هي « ابدا ، مره اخرى »

لكن الخوف من المستقبل لا يزال قائما · فالشعب الفرنسي لا يبلغ بعدده ثلثي الشعب الالماني ، الذي يزداد نموه سريعا · ولن يمض وقت طويـــل حتى يتضاعف عدد القادرين على حمل السلاح في المانيا · وقد جابهت المانيا العالم كله وحاربته منفردة تقريبا ، وكادت ان تبلغ النصر · وكان المراقبون يعلمون ان نتيجة الحرب كانت ، اكثر من مرة ، تميل بفضل بعض الحوادث العرضية وحسن الحظ ، نحو الحلفاء ·

وعندما عادت الجيوش الالمانية ، يوم الهدنة ، الى وطنها قال الجنرال فوش ، القائد الاعلى للقوات الحليفة : « لقد حاربوا بشجاعة ، لذلك يجب ان تتركوهم يحتفظوا بسلاحهم » · وفي نفس الوقـــت طلب ان تصبح حدود فرنسا على نهر الراين ، منذ الان · وربما ستجرد المانيا من السلاح ، وقـد يتلاشى جهازها العسكري وتجرد قلاعها من سبل الدفاع ، وربما سيفرض الفقر على المانيا بعد ان تفرض عليها اعباء ضخمة من التعويضات · لكـن هذه باكملها ستبقى ظروفا طارئة وستزول بعد عشر سنوات او بعد عشرين سنة · وستنطلق من جديد صيحة القبائل الالمانية بمجموعهـا وتـرتفع نيران بروسيا المحـاربة من اخرى · لكن الراين ذلك النهر الكبير الشديد العمق ، سيكون بمثابة الدرع الواقعي الذي تركن وراءه فرنسا وتشعر بالاطمئنـان لاجيال قادمة طويلـة · لكن اراء العالم الاخر النـاطق باللغة الانكليزيـة ، ومشاعره كانت تختلف عن ذلك · وهذا العالم له قيمتـه واهميتـه الكبرى · فلولا معاونته لها لما استطاعت النجاة · وهكذا جـاءت الاتفاقات في معاهدة فرساى منسجمة مع وضع المانيا ، اذ تركتها بلدا سليمـا غير مجزأ ، فبقيت المانيا اكبر مجموعة عنصرية في قـارة اوروبا · وعندمـا استمع المارشـال فوش الى نص اتفاقية الصلح في فرساي ، علق عليها بقوله : « انها ليســت سلاما ، بل هدنة لمدة عشرين سنة »

* * *

وكانت البنود الاقتصادية في تلك المعاهدة سخيفة الى حد جعلت منهـا بنودا غير صالحة · فقد وجب على المانيا ان تدفع مبـالغ هائلة كتعويضات · وكان هذا المطلب ليس الا تعبيرا عما يشعر به المنتصرون من غضب ومن فشل لدى الشعوب في تفهم الحقيقة الواقعـة وهي ان ليس في وسـع اي شعب ان

يقوم بدفع هذه الجزية التي تتفق مع متطلبات الحرب العصرية ·

وكانت الشعوب غـارقة في الجهل لابسط القواعد الاقتصادية ، وكـان قادة الشعوب ، بدافع من حرصهم على الاصوات الانتخابية ، لا يتجرأون على توضيح هذه الحقيقـة · ولكن بعض الاصوات الضعيفة ارتفعت لتوضح ان دفع تلك التعويضـات لن يتم الا عن طريق الخدمـات او عن طريـق شحـن البضائع بواسطة القطارات او البواخر · وعند وصول تلك البضائع الـى البلاد التي فرضتها فستطغى على الصناعة المحلية · وكانت الطريقة الوحيدة لسلب شعب مهزوم ، هي في نقـل كل مـا هو قـابل للحركة ، ثم في سوق قسم كبير من رجاله الى العبودية الدائمة او المؤقتـه · لكن الارباح الناجمة عـن عمليات كهذه لا تتناسب مع نفقـات الحرب · ولم يكن في وسـع اي زعيم ان يجروء على الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة للجماهير الناخبة · لذلك استمر الحلفاء بتبجحهم بأنهـم سيستمرون في عصر المانيـا حتى « يسمع صرير أنابيبهـا » وبالتالي تختنق · وكـان لهذا اثر كبير في ازدهـار العـالم ، وفي اوضـاع العنصر الالماني ·

لكن هذه البنود من المعاهدة لم تنفذ ، فقد حصل العكس تماما · فبعد ان صادر الحلفاء موجودات المانيا بمبلغ الف مليون جنيه ، قاموا هم انفسهم فيما بعد وعلى رأسهم بريطانيا واميركـا باعطـاء المانيـا قرضا بمبلغ الـف وخمسماية مليون جنيه ، وذلك لترميم ما دمرته الحرب في بلادهـا وبأسرع وقت ممكن · كل هذا ولم يزل سـاسة الشعوب المنتصرة يذكرون ان المانيـا ستدفع لاخر بنس كل التعويضات رغما عنها ·

ان التاريخ سيصف هذه العمليات بالجنون · لقد ساعدوا علـى تنمية اللعنة العسكرية و « الزوبعة الاقتصادية » · وبدأت المانيا بالاستدانـة مـن جميع الجهات وتبلتع بسهولة جميع المساعدات الممنوحة اليهـا بسخاء · ان هذه هي قصة محزنة من الغباء المعقد الذي استنزف فيها الكثير من الجهـد والفضائل ·

* * *

لقد استنزفت الحرب دمـاء فرنسا ، وانتصر الشعب الفرنسي بعد ان ظل منذ عام ١٨٧٠ يحلم بالثأر، لكن هذا الانتصار كلفه غاليا· ولكن الخوف من المانيا ظل يعكر صفو احتفالات الشعب الفرنسي بالنصر · ولا شك كـان هذا الخوف المتأصل هو الذي دفع المارشال فوش الـى المطالبـة بجعل نهـر

الراين حدا فاصلا لفرنسا ، وذلك كي يضمن سلامة فرنسا من جارتها القوية ٠ لكن الساسة البريطانيون والاميركيون اصروا على تمسكهم بالنقاط الاربعة عشرة ، التي تتعارض مع مطالبة فرنسا بضم جزء من الاراضي الالمانية الى ممتلكاتها ، بالاضافة الى ان هذه المطالبة تتعارض مع مبادىء القومية وحق تقرير المصير التي قامت معاهده الصلح هذه على اسسها ٠ وقد تمكن هؤلاء من كسب كليمنصو الى صفوفهم حين تمكنوا من اقناعه بانهم سيفومون بضمان حدود فرنسا ، واقامة منطقة غير عسكرية ثم تجريد المانيا من السلاح بصورة كلية ودائمة ٠ وسرعان ما وافق كليمنصو على هذه الضمانات بالرغم من معارضة المارشال فوش لهـا ، ولم يلبث ان وقـع ريلسون ولويد جورج وكليمنصو على معاهدة الضمان تلـك ، الا ان مجلس الشيـوخ الاميركـي رفض ان يصدق على توقيع الرئيس ويلسون ٠ وقد قيل لنا نحن بأنه يترتب علينا ان نكون على علم ومعرفة بنصوص الدستور الاميركـي ، نحن الذيـن كنا نرضخ لاراء الرئيس ويلسون ورغباته بما يتعلق بقضايا السلام ٠

لكن الشعب الفرنسي اسقط الرجل الصلب كليمنصو ، في احدى نزواتـه الخائفة الغضبة ٠ وكما قال بلوتارك « ان الجحـود نحو الرجال العظام ، هو من ميزات الشعوب القوية » ٠ وكانت ضربا من الحماقة ان تلجأ فرنسـا الى هذا الاسلوب ، سيما في الوقت الذي اصبحت فيه شديدة الضعف ٠ وجاء بوانكاريه الى سدة الحكم ، الرجل ذو الشخصية القوية ، خليفا لكليمنصو، فحاول ان يجعل من المنطقة المحيطه بالراين ، ارضا مستقلة تحت حماية فرنسا واشرافها ٠ الا ان هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ٠ وكانت محاولته فـي غزو منطقة الروهر كمحاولة لفرض التعويضات على المانيا ٠ لكن هذا الغزو اثار النقمة لدى الرأي العام البريطاني والاميركي ، بالرغم من اتفـاقه مـع نصوص معـاهدة فرسـاي ٠ وكـانت النتيجة ان تدهورت اوضـاع المانيـا الاقتصادية والمالية ، وادى ذلك الى تدهور المارك الالماني بسبب التعويضـات الباهظة التي دفعتها خلال عـامي ١٩١٩ و ١٩٢٣ ٠ كمـا ان موجه الغضب والكراهية التياجتاحت المانيا، نتيجة لغزو منطقةالروهر، دفعت بالمسؤوليين الى طبع كميات هائلة من الاوراق النقديـة ، بقصد القضـاء علـى النظـام الاقتصادي برمته ٠ واصبح الجنيه الاسترليني يعـادل ثلاثة واربعين مليون مليون مارك الماني ٠ وقد ادى هذا التضخم الفظيع الى تلاشي المبالغ التـي وفرتها الطبقات الوسطى ومالت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية ٠ وتشوه النظام الصناعي الالماني باكمله نتيجة لنمو الاحتكارات ٠ واختفـى الرأسمال العـامل من البلاد ، وبالتالـي الغيت القروض الداخلية والديون

الصناعية القائمة على الرهونات والفوائد · لكن هذه لم تعوض عن خسارة الراس المال العامل · واسفرت النتيجة عن قروض خارجية تعطي لامة مفلسة ، وهي الصورة التي تبلور عنها الموقف في السنوات التالية ·

اما بالنسبة لبريطانيا فقد تحول موقفها تجاه المانيا ، تحول من العنف الى العطف · ونشبت الخلافات بين لويد جورج وبوانكاريه واتسعت حدة الشقاق بين الشعبين قلبا وقالبا · ووجد العطف الانكليزي على المانيا ، او الاعجاب بها ، صدى حسنا قويا ·

وما ان ظهرت عصبة الامم الى الوجود حتى تلقت ضربة قوية، اذ تخلت عنها الولايات المتحدة· واصيب الرئيس ويلسون بالشلل، بعد ان كان مستعدا للكفاح من اجل مثله العليا وعقائده · واصبح بعد ذلك كتلة من الحطام واصيبت سياسته وسياسة حزبه بهزيمة ساحقة في معركة الرئاسة ، وفاز الديمقراطيون في عام ١٩٢٠ · وفي عشيه فوز الديمقراطيين، سيطرت المفاهيم الانعزالية على الناحية الاخرى من المحيط الاطلسي ، وكان على اوروبا ان تجني ما زرعته وتدفع ثمن ديونها، وفي نفس الوقت ازدادت التعرفة الجمركية وذلك للحؤول دون دخول البضائع التي يمكن لوارداتها ان تسدد بعض الديون · وراحت بعد ذلك الحكومتان البريطانية والامريكية تحطم وتغرق بواخرها ومنشآتها العسكرية ، وذلك لانه من غير اللائق ان ينزع السلاح من يد المغلوب ويبقى في يد الغالب ··· كما إعترضت اميركا لدى بريطانيا عن ان الاستمرار في علاقاتها الودية مع اليابان سيشكل بعض الخطر على مجرى العلاقات البريطانية ، الامريكية ، مع ان اليابان كانت تحترم هذه العلاقات وتحافظ عليها بكل صدق · وبناء لهذا التحذير ، اضطرت بريطانيا الى قطع تلك العلاقات مع اليابان مما ادى الى استياء الحكومة اليابانية ، واعتبرت ان هذا التصرف يعتبر امتهانا من بلد اوروبي نحو شعب اسيوي صديق ·

لقد كان باستطاعة اليابان ان تعتبر نفسها ثالث دولة بحرية بعد هزيمة المانيا وروسيا فتتمع بمركز مرموق· ورغما عن ان الاتفاق البحري يقضي بان يخصص لليابان نسبة خمسه الى ثلاثة من السفن المخصصة الى الدولتين الكبيرتين ، الا ان هذه النسبة كانت مناسبة لامكانيات اليابان المالية للسنوات التالية ، وبالتالي راحت تراقب الانخفاض الكبير في الانتاج الاميركي والبريطاني بالنسبة لامكاناتهما المالية ومسؤولياتهما الجسيمة · وبذلك يكون الحلفاء قد مهدوا لتجدد الحرب في اوروبا واسيا ، وباعتقادهم ان هذا قد يؤدي الى السلام الدائم ·

وفي اوروبا اخذ الخلاف الجديد الاكثر فظاعة يبرز الى حيز الوجود ، هذا الخلاف الرهيب الذي خلفته الحرب الاهلية الروسية وانتصار الثورة البلشفية الساحق · فبالرغم من ان الجيوش السوفياتية المتقدمة نحو بولنده ، قد صدت في معركة وارسو ، الا ان المانيا وايطاليا قد بدأتا تذعنان للدعاوة الشيوعية ومشاريعها · كذلك هنغاريا التي سقطت في قبضة الدكتاتور الشيوعي بيلاكون · وبالرغم من ان المارشال فوش لاحظ بحكمة بان « البلشفية لم تتخطى حدود النصر » ، الا ان اسس الحضارة الاوروبية اهتزت في السنوات الاولى بعد الحرب · فالفاشية كانت ظل الشيوعية او وليدها البشع · وبينما كان العريف هتلر يحاول تقديم خدماته على الضباط الالمان في ميونيخ ، ويحرض الجنود والعمال ويغذي في صدورهم الحقد على الشيوعية واليهود الذين القى بمسؤولية الهزيمة عليهم ، كان هناك مغامر اخر ، بينيتو موسوليني الذي قدم لايطاليا نموذجا جديدا من الحكومة التي صرحت بانها ستنقذ الشعب الايطالي من الشيوعية ، ورفع نفسه الى قمة الدكتاتورية · وكما انبثقت الفاشية عن الشيوعية ، كذلك النازية تطورت من الفاشية · وهكذا تمكنت هذه الحركات من الوقوف على قدميها وتمكنت بعد ذلك من جر العالم الى صراع عنيف لا يمكن للمرء ان يقول انه انتهى بانتهائها ···

* * *

في هذه الصفحات ، ساحاول ان اقص قصة إسوأ مأساة تعرض لها الجنس البشري في تاريخه المضطرب · ان المأساة المخيفة لم تقتصر على الضحايا رعلى الدمار الذي لا بد منه في الحروب ، ففي الحرب العالمية الاولى وقعت مجازر رهيبة ، كما فقدت كنوز كثيرة من الثروات التي جمعتها الشعوب ··· واذا ما استثنينا الاعمال العنيفة التي حصلت اثناء الثورة الروسية ، فان الحضارة الاوروبية ، بقيت ولم تزل حال انتهاء الحرب العالمية · كما ان الشعوب المتحاربة عادت لتعترف ببعضها البعض ، وبقي الجميع يحترمون القوانين والاعراف الحربية · كما ان معاهدة الصلح كانت منسجمة مع المبادىء المتبعة في القرن التاسع عشر بين الشعوب المتحضرة· كذلك يمكن القول انالجهاز الدولي الذي انشيء لحمايتنا كلنا، وخاصةحماية اوروبا نفسها ضد اخطار جديدة ·

الا ان الحرب العالمية الثانية ، لم تكن كذلك · لقد زالت الروابط التي كانت تربط بين الانسان واخيه الانسان· لقد قام الالمان، تحت الحكم الهتلري باقتراف جرائم منكرة وحشية لا مثيل لها · ولا شك ان المجازر التي اودت

بحياة ستة او سبعة ملايين رجل وامرأة وطفل في معسكرات الاعتقـــال الالمانية قد تطغي على جرائم جنكيز خـان الهائلة ، وتفوقها وحشية · وقـد رسمت المخططات اثناء الحرب في الجبهة الشرقية لافناء شعوب باسرها علـى ايدي الجنود الالمان والروس · أما من ناحية الحلفاء أنفسهـم فقد قامـوا بغارات وحشية تفوق الغارات الالمانية عشرين مرة ، بل كانت تزداد حـدة يوما بعد يوم ، الى ان بلغت ذروتها في القاء القنبلة الذرية على هيروشيمـا وناكازاكي وازالتهما من الوجود ·

والان بعد ان خرجنا من جو الخراب المادي والمعنوي ، نجد اننا لا نزال نواجه نفس المشاكل والاخطار التي تخلصنا منها باعجوبة ، هذا اذا لم نقل انها اشد وادهى ·

ساحاول ان اكشف للقارىء كيف كان بامكاننا تجنب وقوع حـــرب عالمية ثانية ، نظرا لكوني عشت هذه الايام وعملت فيها · ساحاول ان ابين كيف ان ضعف الفضلاء قد ادى بالنتيجة الـى تقوية الاشرار ، كمـا سأبيـن أن أجهزة الدول الديمقراطية تفتقر الى مقومات الايمان ما لم تندمج مع أجهزة اقوى واكبر منها · ان مقومات الايمان والثبات هي التي تتمكن من احلال الامن والسلام والطمأنينة في نفوس الجماهير · كما اني سابين كيف ان لا يمكن لاي سياسة ان تستمر لعشرة او لخمسة عشرة سنة في آن واحد ، وذلك في قضية الدفاع عن النفس والمحافظة عليها · وسنرى كيف ان اتباع سياسة التردد قد تصبح عاملا اساسيا للخطر ، وكيف ان الحل المعقول الذي ينبع من الرغبة في السلامة والحياة الهادئة قد يؤدي بنتيجته الى مواجهة الكارثة · كما اننا سنرى انه من الضرورة القيام بعمل دولي مشترك بين دول يرجع تآلفهـــا الى سنين سابقة ، دون الالتفات الى التيارات المتماوجة في السياسة القومية ·

لقد كانت سياسة ابقاء المانيا مجردة من السلاح ، سهلة الحفاظ عليهـا ، وابقاء المنتصرين بسلاحهم الكامل لمدة ثلاثين سنة على الاقل ، وبنفس الوقـت بذل المحاولات لجعل مسالة التفاهم مع المانيا حقيقة واقعة ، وانشاء عصبة للامم قوية قادرة على الحفاظ على المعاهدات وتطبيقها ، ولا تغير او تبـدل دون اللجوء الى المفاوضات والاتفاقات · وعندما تتعاون ثلاث او اربع دول قوية ، وتطلب من شعوبها تقديم اقصى ما يمكنها من تضحيات ، وتقوم هذه الشعوب بتضحياتها في سبيل الهدف المشترك ، عند ذلك تصبح النتائج المطلوبة معقولة جدا ، الا ان قوة المنتصرين وعلمهم وثقافتهم كانت عاجزة عن الوصول الى هذه النتيجة المتواضعة · فقد ظلوا يعيشون ليومهم دون التفكيـر بالغد ،

وعندما دقت طبول الحرب العالمية الثانية ، كان من الواجب ان نكتب عن ابناء الذين حاربوا وقتلوا بكل اخلاص :

كتف الى كتف ، وجنبا الى جنب

اجتازوا نور الحياة المشرقة ٠



الفصل الثاني

ظهور هتلر

في شهر تشرين الاول عام ١٩١٨ كان العريف الالماني ادولف هتلر طريح الفراش في احدى المستشفيات بعد ان اصيب بالعمى المؤقت من قنبلة الغاز ، في احدى المعارك التي شنتها القوات البريطانية بالقرب من كوفنز • وبينما كان طريح الفراش في المستشفى حلت الهزيمة بالمانيا وعمت الثورة البلاد •

كان هذا العريف ابنا لموظف من موظفي الجمرك نمساوي الاصل • وكانت الاحلام تراوده بان يصبح فنانا عظيما ، لكنه بعد ان فشل في الالتحاق باكاديمية الفنون في فينا ، اضطر الى البقاء في العاصمة فقيرا سيء الحال • وما لبث ان غادرها الى ميونيخ وعمل هناك كدهان ، وكعامل مؤقت ،وعاش حياة شقية يغذيها الحقد على العالم كله ، والنقمة عليه لانه حرمه من نعمة النجاح • الا ان الشقاء والفقر لم يدفعا به الى احضان الشيوعية ، بل ظل يقدس الولاء العنصري الذي كان يتملكه بالاضافة الى اعجابه الشديد بالمانيا وبالشعب الالماني • وقد التحق بالجيش الالماني عند نشوب الحرب العالمية الاولى ، وبقي لمدة اربع سنوات في الجبهة الغربية ملتحقا مع احد الافواج البافارية •

وعندما كان في مستشفاه في شتاء عام ١٩١٨ ، بدى له فشله السابق وكانه اختلط مع الكارثة التي حلت بالشعب الالماني كله ، فسادته نزعة عارمة من الحزن على نفسه وعلى شعبه ، خاصة بعد ان حلت الثورة وعمت الفوضى جميع البلاد •

لم يتمكن ادولف هتلر من فهم او من تفسير الاسباب التي ادت الى

هزيمة المانيا ، الا انه كان متيقنا من ضروب الخيانة الشديدة التي طعنت الجيش الالماني من الخلف • وراح يفكر في تلك الاسباب العديدة التي ادت الى الهزيمة من خلال تجاربه الشخصية • فهو قد اختلط بفئات عديدة متطرفة في فينا واستمع الى قصص الغدر والخيانة الذي قام به عرق غريب اخر هو عدو لدودللشعب الجرماني العريق ، الا وهم اليهود • وهكذا تطورت نقمته الاولى المنصبة على الاغنياء والناجحين وتحولت الى كراهية عارمة •

وعندما خرج من المستشفى ، رأى بعينيه التي ابصرت النور من جديد نتائج ما خلفته الهزيمة وما يدور في المدينة من ملامح ثورة حمراء مرعبة ، وشاهد السيارات تطوف بالمدينة ، تلقي بالمنشورات وتطلق العيارات النارية على المتشردين من ابناء الشعب • ورأى زملاءه في الجيش يضعون الاشرطة الحمراء على اذرعهم ، فوق بزاتهم العسكرية ، ويهتفون بغضب شعارات غريبة تتنافى مع كل ما يعتقده ويؤمن به • وهكذا صدمته الحقيقة المرة ، ورأى ان المانيا قد اصيبت بطعنة غادرة من الخلف ، كان ابطالها من اليهود الذين امنعوا تقطيعا بها ليرغموها على الاستسلام بدسائسهم ومؤامراتهم ويؤيدهم في ذلك حلفاء لهم من البلاشفة ليتمموا تنفيذ مخططات ومؤامرات دولية يقوم بها المثقفون اليهود • وشعر بالواجب يحتم عليه بان يخلص المانيا من هذا المرض الخبيث ، والاخذ بالثأر من الذين الحقوا بها الاساءات العديدة ، ثم النهوض بالشعب المتفوق الى مستقبل افضل •

وانطلق ادولف هتلر يصعد بخطى سريعة نحو القيادة والزعامة ، يناصره في ذلك ضباط فوجه • وفي مساء احد الايام من شهر ايلول عام ١٩١٩، ذهب لحضور احدى اجتماعات حزب العمال الالمان في احد المصانع • وسمع لاول مرة في حياته اناسا يتحدثون بما كان هو يؤمن به من خيانات اليهود ومجرمو شهر تشرين الثاني • الذين دفعوا بالمانيا الى الهزيمة • فانضم الى هذا الحزب وخلال فترة بسيطة أصبح ادولف هتلر زعيم الحزب الاول • وغدا يحمل لقب الزعيم او « الفوهرر » وأصدر جريدة تنطق باسم حزبه هي جريدة « الفولكشاير بيوختر » •

الا ان الشيوعيين لم يقفوا مكتوفي الايدي ، فحاولوا تحطيم حزبه وتفريق اجتماعاته الناجحة • واضطر هتلر الى انشاء حرس خاص لصد الهجمات الشيوعية ، ونشأت بذلك الوحدات الاولى لقوات العاصفة • وكان نشاطه محصورا في تلك اللحظة على بافاريا فقط ، وكان الجميع في كافة انحاء الرايخ

الالماني كانوا يستمعون بشغف لتعاليم هذا الانجيل الجديد • فقد كانت النقمة على الاوضاع الحالية تعم المانيا كلها • وأدت موجة الغضب التي عصفت بالشعب كله من احتلال فرنسا للروهر عام ١٩٢٣ الى انضمام الالوف من أبناء الشعب الى الحزب الجديد الذي أصبح الان « الحزب الاشتراكي الوطني » •

ومنذ البداية وضح هتلر ، ان السبيل الوحيد للوصول الى الحكم هو في الثورة والعنف ضد حكم ويمار وجمهوريته التي خلقت في عار الهزيمة • وانضم الى دعوة الفوهرر فئة ضمت بين صفوفها ، غورنغ وهيس وروزنبرغ وروهم ، الذين من ثم اتفقوا على وجوب استلام السلطة في بافاريا ، وانضم اليهم الجنرال فون لوندورف الذي كان رئيس أركان الجيش الالماني أثناء الحرب الاولى وسار على رأس قوة مجهزة لاحتلال بافاريا • الا ان رجال الامن من شدة احترامهم للجنرال لم يطلقوا عليه النار بل اكتفوا بالتصويب على المتظاهرين ، وتمكنوا من اعتقال فئة كبيرة منهم ومن بينهم هتلر نفسه الذي حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة اربعة سنوات ، خفضت الى ثلاثة عشر شهرا • وفي سجنه هذا تمكن من تأليف القسم الاكبر من كتابه « كفاحي » الذي أصبح فيما بعد من أهم الكتب التي اقبل على قراءتها قادة الدول الحليفة وزعمائها العسكريين •

وفي عام ١٩٢٤ خرج هتلر من السجن وصرح انه لن يتمكن من اعادة تنظيم حزبه قبل خمس سنوات • وفي عام ١٩٢٨ لم يكن لحزبه في البرلمان الالماني « الرايشستاغ » سوى اثني عشر مقعدا • ومن ثم ابتدأ الرقم بالارتفاع الى ان أصبح البرلمان في عام ١٩٣٢ يضم ٢٣٠ عضوا من الحزب ، كما اصبحت الدولة الالمانية كلها خاضعة لنفوذ الحزب الاشتراكي الالماني ، وبدأت حركة الاضطهاد بمختلف أنواعها وانصبت النقمة كلها على رؤوس اليهود انتقاما لما اقترفوه في السابق من جرائم وخيانات ودسائس •

وما ان اطل عام ١٩٣٣ حتى وصل هتلر الى سدة الحكم • أولا كمستشار لالمانيا • وكانت اولى أعماله ان اصدر امرا يمنع فيه الحزب الشيوعي من العمل في البلاد • وبدأت حملة قوية عمت البلاد كلها لمصادرة الاسلحة من أيدي الشيوعيين • ونشبت الاضطرابات وبلغت ذروتها حين هب حريق في دار الرايشستاغ ، فاستدعيت فرق رجال القمصان السوداء للعمل وللمحافظة على الامن • وفي نفس الليلة تم اعتقال أربعة الاف زعيم شيوعي ومن بينهم أعضاء اللجنة المركزية التابعة للحزب الشيوعي • وكان غورنغ الامر لهذه

الاجراءات كلها بعد ان أصبح وزيرا للداخلية ، وبذلك يكون قد أمن هزيمة الشيوعيين خصوم الحزب الاشتراكي الاشداء لكي تكون مقدمة للفوز بالانتخابات الجديدة المقبلة ٠

وفي الانتخابات فاز النازيون بـ ٢٨٨ مقعدا في البرلمان واقترع الى جانبهم ٠٠٠ر٣٠٠ر١٧ ناخب ٠ وبذلك تمكن هتلر من السيطرة نهائيا ٠ وفي الحادي والعشرين من شهر اذار عام ١٩٢٣ افتتح هتلر أولمجلس للرايشستاغ في الرايخ الثالث ٠ وجلس حوله كبار القادة ، وضباط جيش العاصفة والحرس النازي الخاص الذين يمثلون المانيا الجديدة ٠ وفي الرابع والعشرين من الشهر ذاته وافق الرايشستاغ على منح هتلر سلطات استثنائية لمدة أربع سنوات ٠



بينما كان هذا التغيير المخيف يجري في المانيا ، كانت حكومتنا مضطرة الى التخفيض والتقنين انسجاما مع الاوضاع والازمات المالية الراهنة التي حدت من تسلحنا ٠ وبقيت حكومة مكدونالد بالدوين مصمة اذانها عن سماع أو رؤية الاخطار المحدقة بنا نتيجة التغيرات في اوروبا ٠ ثم حاولت الحكومة ان تطبق قوانين معاهدة فرساي القاضية بنزع السلاح من المنتصرين ، فقدمت عدة مشاريع ومقترحات الى عصبة الامم لتضمن تطبيق هذه القوانين ٠ كما أصرت فرنسا على وجوب بقاء جيشها الذي تعتبره محور حياتها ووجودها ٠ وقد شجعت هذه المحاولات ، الحكومة الالمانية ، وادعت ان هذا السلوك انما هو نابع من صميم المجتمع البرلماني الديمقراطي الضعيف والمنحط بطبيعته ٠ وراح الالمان بدافع من هتلر الذي أوحى اليهم بهذه الافكار ، يبدون أكثر عجرفة وكبرا ٠ وما كان من أعضاء الوفد الالماني الذين حضروا مؤتمر نزع السلاح ، الا ان انسحبوا من الاجتماع في تموز عام ١٩٣٣ ٠ وحاول الحلفاء مزاضاة الالمان بشتى الوسائل الى ان توصلوا الى اقرار مشروع اقتراح دعي مشروع هريو ، وهو يقضي باعادة تنظيم جميع القوات العسكرية الدفاعية في اوروبا ، وجعلها جيوشا محدودة العدد ، وفرض المشروع على وجوب تخفيض عدد الجيش الفرنسي من خمسمائة الف الى مائتي الف جندي، بينما يرتفع عدد الجيش الالماني الى هذا الرقم ٠ الا ان الجيش الالماني قد أصبح عدده يجاوز المليون متطوع مجهز بأحدث الاسلحة التي تنتجها المصانع الالمانية التي تم تحويلها الى مصانع للسلاح ٠ وكانت النتيجة الغير منتظرة هي في الاوامر الصادرة عن هتلر والقاضية بالانسحاب من كل مؤتمر ومن عصبة الامم ٠

لقد كان في وسع عصبة الامم ان ترد على تحديات هتلر وتهديداتـــه العسكرية ، وذلك بفرض العقوبات عن طريق القانون الدولي · كما ان الحكومة الاميركية لم تكن تكترث لهذه التهديدات الى ان حان الوقت بعد عدة سنوات ، فوجدوا انفسهم عند ذلك مضطرين للتضحية بأرواحهم لينقذوا انفسهم مـــن الخطر المميت ···

* * *

وفي مطلع عام ١٩٣١ سافرت برحلة الى الولايات المتحدة الاميركيـــة لالقاء سلسلة محاضرات هناك · وفي نيويورك تعرضت لحادث سيارة كاد ان يودي بحياتي · فقد نزلت من سيارتي من الجانب المعاكس وعبرت الشارع الخامس ، وكانت انظمة السير المطبقة في اميركا وخاصة فيما يتعلق بالسيـر المعاكس والاضواء الحمراء التي لم يكن معمولا بها في بريطانيا في ذلك الحين · وفجأة وقع اصطدام عنيف كانت نتيجته ان لازمت الفراش في المستشفى لمـدة شهرين وانا محطم شر تحطيم · ومر هذا العام وانا بصحة سيئة للغاية ، الى ان بدأت استعيد صحتي تدريجيا بعد ذلك ·

لقد كانت السنوات ما بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ من أمتع سنوات عمري، فقد انصرفت الى التاليف والى القاء المحاضرات ، وقد كسبت الكثير مـــن عائدات مقالاتي وكتبي التي لاقت رواجا كبيرا في بريطانيا العظمى وفـــي الولايات المتحدة الاميركية ، كذلك في القارة الاوروبية كلها ·

وفي عام ١٩٣٢ اضطررت للسفر الى ميونيخ وذلك لمتابعة تاليف أحـد كتبي عن تاريخ حياة مارلبورو · وقد امضيت في ميونيخ حوالي الاسبوع ، ونزلت في فندق ريجينا · وهناك تعرفت الى شخص يدعى الهر هانفستانغل الذي كان من المتحمسين لهتلر والذي كان على علاقات طيبة معه · وقد دعوته في احد الايام لتناول العشاء معنا بعد ان اعجبتني لباقته · واثناء العشاء حدثنا كثيرا عن هتلر وعن نشاطاته وارائه ، وكنت اشعر وانا اصغي اليـــه ، ان الرجل كان واقعا تحت سحر هتلر دون ريب · وقد علمت ان الاوامر قـــد صدرت اليه بالاعتناء بي · وبدا انه يرغب في ادخال السرور والبهجة الـى نفسي · لقد كان الرجل لطيفا الى ابعد الحدود ، ومن المقربين الى الفوهرر ، وقد دعاني الى الاجتماع به وتطوع الى اعداد الموعد معه ، اذ ان الفوهرر يتردد كل يوم الى الفندق في الساعة الخامسة مساء ، وسيسره الاجتماع بي شخصيـــا ·

في ذلك الحين لم اكن أي عداء لهتلر بالذات ، ولم اكن أعلم الكثير عن عقيدته وفلسفته وشخصيته · بل كنت معجبا به ، لانه تمكن من النهوض ببلاده بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بها · وفي اثناء حديثي مع الهر هانغستانغل تطرقت الى الحديث عن اليهود بشكل لاحظت انه لم يكن راضيا عنه · وفي اليوم التالي عندما اجتمعت به للمرة الثانية قال لي ان الفوهرر لن يتمكن من الاجتماع بي ، فهو لن يأتي الى الفندق في هذا اليوم · وكانت هذه اخر مرة رأيت فيها « بوتزي » وهو اسمه الصغير ، بالرغم من انني أمضيت عدة أيام اخرى في الفندق · وهكذا اضاع هتلر فرصته الوحيدة في مقابلتي · وفيما بعد تلقيت عدة دعوات من الفوهرر ، بعد ان أصبح في ذروة القمة ، لكنني كنت أعتذر عن قبولها ، لان أشياء عديدة حدثت أثناء ذلك ·

* * *

أما في الشرق الاقصى ، فكان الاستعداد للحرب ينبع من اليابان بصورة خاصة · فقد أثرت الازمة الاقتصادية عليها بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣١ بشكل كبير · فقد ارتفع عدد سكانها من خمسين مليونا الى سبعين مليونا وازدادت اعداد مصانعها من خمسين الى مئة وثمانية وأربعين مصنعا ، كما ارتفعت نسبة المعيشة · وبقي انتاج الارز على ما هو فيما كان استيراده من الخارج باهظ التكاليف · واشتدت الحاجة الى المواد الاولية والى الاسواق الخارجية فاضطرت بريطانيا واربعون دولة اخرى الى زيادة التعرفة الجمركية العالمية على البضائع المستوردة من اليابان ، لمواجهة الكارثة الاقتصادية ، وخوفا من طغيان تلك البضائع على البضاعة الوطنية · فتحولت أنظار اليابان الى الصين السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها من القطن ، بالاضافة الى كونها المورد الوحيد لاحتياجاتها الهائلة الى الفحم والحديد · لذلك أصبحت السياسة اليابانية تقضي بفرض السيطرة على الصين ووضعها تحت اشرافها وسيطرتها واختلقت اليابان عذرا تافها وانقضت على منشوريا واحتلت منطقة سكة الحديد ، ثم طالبت بحل المنظمات الصينية المعادية لليابان · الا ان الحكومة الصينية رفضت هذا الطلب ، فانزلت اليابان قواتها عند ذلك الى المنطقة الشمالية من شنغهاي · وقد قاوم الصينيون ببسالة لمدة شهر واحد ، الا أنهم اضطروا بعد ذلك الى الانسحاب ، وتقدمت القوات اليابانية متوغلة في داخل الصين الى ان بلغت سورها العظيم · ومن ذلك الوقت بدأت الاستعدادات اليابانية تزداد وتقوى ، خاصة قواتها البحرية ·

الفصل الثالث

المنظر القاتم

لقد كانت فكرة احتلال النمسا تراود مخيلة هتلر منذ البداية ، فقد كتب في كتابه كفاحي العبارة التالية وفي الصفحة الاولى منه « يجب على النمسا الالمانية ان تعود الى الوطن الام الكبير » ٠ لذلك فقد كانت النظرات الاولى تتجه نحو فينا منذ تسلم الحكومة النازية السلطة في عام ١٩٣٣ ٠٠٠ الا ان هتلر كان يخشى الاصطدام مع موسوليني الذي كان يطمح ويطالب بمصالحه في النمسا ، خاصة وان الدوتشي لم يكن متحمسا لوصول هتلر الى سدة الحكم ٠ لذلك فقد تحتم على المانيا ان تكون على حذر شديد في اعمالها ونشاطاتها السرية ٠ وبالرغم من ذلك فقد بدأ الضغط على النمسا يظهر منذ الشهور الاولى ٠ وراح الحزب النازي يطالب الحكومة النمسوية بشده بوجوب ادخال أعضاء من الحزب النمسوي النازي في الوزارة وفي المراكز الحساسة في الدولة ٠ وبدأ النمساويون النازيون يتلقون التدريبات العسكرية في معسكرات اعدت خصيصا لهم في بافاريا ٠ وراحت الطائرات الالمانية تلقي المنشورات على سالزبورج واينزبروك ، والتي كانت تنغص عيش الجمهورية الوادعة ٠

وفي عام ١٩٣٤ وصل كبير مستشاري موسوليني في الشؤون الخارجية الى فينا ، وكانت زيارته بمثابة تحذير للحكومة الالمانية ، وما لبث ان صرح ان ايطاليا تؤيد استقلال النمسا وتحافظ عليه ٠ ولم تمض اسابيع ثلاثة على هذه الزيارة، حتى قامت الحكومة النمسوية بسلسلة من الاجراءات ضد الاحزاب الاشتراكية في فينا ، وقامت بعد ذلك بحملة عنيفة لنزع السلاح من ايدي المنظمات الشبه عسكرية التابعة للاشتراكيين النمسويين ٠ واسفرت

هذه الحملة عن اصطدامــات عنيفــة بيــن الاحزاب والقوات الحكومية ، وادت الى انهزام الاشتراكيين ، كما ادت الى تقوية مركز ايطاليا مستقبلا في صــد تسلل النــازيين وتآمرهــم · الا ان عددا كبيرا من الاشتراكيين والشيوعيين انضموا الى المعسكر النــازي ، كتعبير عن سخطهم الشديــد · وادى ذلــك بمجموعة الى تقوية النازيين والنازية ·

وفي شهر حزيران من العام نفسه ، طار موسوليني الى البندقيه لمقابلــة الفوهرر لاول مرة في حياته ، وعندما نزل هتلر من طائرته فوجيء بمظاهرة عسكريــة يرأسهــا الدوتشي بنفسه وهـــو يتالق ببزة عسكريـــة انيقــة · وكانت اول كلمة قالها موسوليني لمرافقه حين راى هتلر « لم احب شكل هذا الرجل » · وقد جرى الاتفاق في هذه المقــابلة على تخفيف حدة الضغط علــى حكومة النمسا ، وقد اكد له هتلر ذلك بوعود قاطعة ·

ولم تكــن هذه التــاكيدات او هــذا التوقف ، بسبــب مــن مداخــلات موسوليني ، بل بسبب انشغال هتلر بمشاغل داخلية محضة ···

* * *

نشبت الخلافات بين هتلر وبين الذين حملوه الى سدة الحكم · وكان جيش الصاعقة يمثل الفئة الثورية في الحزب ، تحت قيادة روهم · وفي ربيــع عام ١٩٣٤ بلغ عدد أفراد هذا الجيش ثلاثة ملايين مجند من ذوي القمصان البنية · وشعر هتلر بالقلق نتيجة لهذا النمو الهائل ، بالرغم من يقينه بولاء جميع أفراد هذا الجيش ، وتعلقهم بشخصه · وكان يردد أمام قادة جيشه هذا، بانه سوف يقاوم ويقمع اية محاولة لتغيير نظام الحكم القائم بمنتهى الشــدة والبطش ، وان كل من يجرؤ على رفع رأسه ضد الدولة فسيحطمه بكل شدة وقسوة · وكانت هواجس هتلر ومخاوفه صحيحة ، اذ ان روهم قائد جيش الصاعقة ، بدأ محاولة للاطاحة بحكم هتلر · وفي كانون الاول من العام نفسه، عندمــا اعلنت الوحدة بين الحزب والدولــة ، غدا روهم عضــوا في مجلس الوزراء وبحث في أمر دمج ذوي القمصان البنيــة مع بقية أفراد الجيــش النظامي · الا ان روهم خاف من هذه التضحية بجيشه الذي مضى السنيــن الطويلة في انشائه ، ومن ذلك الوقت بدأ الخلاف يذر قرنية بين روهم ورئيس الاركان الجنرال فون بلومبرغ ، الذي كان يبدي تذمره الشديد أمــام الفوهرر من تصرفات ذوي القمصان البنية الحمقاء · وكان على هتلر ان يختار بيــن أمرين اثنين اما التضحية بقادة جيشه المنظم او بقادة جيش الصاعقة الــذي

رفعه الى قمة المجد • واخيرا قرر التضحية بقادة جيش الصاعقة واستدعى روهم واجتمع به لمدة خمس ساعات حاول خلالها التفاهم مع روهم المتعصب الشاذ دون جدوى ••••

وكانت قد تالفت من جيش الصاعقة فرقـا جديدة من ذوي القمصـان السود ، ليكونوا بمثابة الحرس الخاص للفوهرر ، وللقيام بالمهـام السريـة الخطرة • وقد تولى قيادة هذه الفرق الجديدة هنريك هملر !

وهنا تختلف الاقاويل عن الاسباب التي جعلت هتلر يقوم بضربته القوية ضد روهم ورفاقه • فمنهم من كان يقول انه بسبب وجود مؤامرة تحاك ضده ، ومنهم من كان يقول ان الفوهرر أراد القيام بحركة تطهير شاملة وهو لا يزال في اوج عظمته وجبروته• وعلى كل حال، فقد تطورت الاحداث في يوم الخامس والعشرين من شهر حزيران ، اذ طلب هتلر من رجال الجيش البقاء في ثكناتهم ثم قام بتوزيع السلاح والعتاد على افراد الحرس الخاص من ذوي القمصان السود ، وبنفس الوقت اصدر امرا لذوي القمصان البنية ليكونوا على اهبة الاستعداد ، وطلب من جميع قادة جيش الصاعقة الحضور الى اجتماع يعقد في الثـلاثين من شهر حزيران • وترددت شائعـات ، وصلت الى هتلـر ، أن مساعد روهم يحاول القيام بثورة • عندئذ قرر هتلر القيام بعمل سريع يقضي به على خصومه دفعة واحدة • فأمر غورنغ بالدخول الـى برلين والسيطرة عليها ، وطار هو الى ميونيخ ليقوم بمفاجئة خصومه شخصيا ويعتقلهم بنفسه يساعده في ذلك اثنا عشر رجلا من ذوي القمصـان السود • وما ان وصـل الى مقر قيادة جيش الصاعقة ، حتى فاجأ كبار القادة بنبأ اعتقالهم ، ثـم استقل سيارة يرافقه هذا العدد القليل من الحرس واتجه الـى ويبسي حيـث كان روهم • فوصل الى هناك في تمام السابعة صباحا •

ترجل هتلر من سيارته واتجـه الى المنزل وحيدا دون سـلاح واقتحم غرفة نوم روهم الذي اذهلته المفـاجأة الشديدة ، وتم اعتقـاله مع عدد مـن اركان حربه • وعاد الجميع مع الاسرى الى ميونيخ ، حيث وضعوا جميعهم في نفس السجن الذي أعتقل فيه هتلر قبـل عشر سنين • وفي نفس اليوم بدأ تنفيذ حكم الاعدام بجميع المعتقلين دون استثناء واستمرت عملية الاعدام طيلة بعد الظهر ، وقد امر هتلر بتغيير الفرق التي كـانت تقوم بمهمـة الاعدام ، بسبب الاجهاد العقلي الذي اصابهم نتيجة للوحشية التي تم فيها تنفيذ حكم الاعدام •

وفي برلين تمت نفس العملية التي جرت في ميونيخ، فقد قام غورنغ بتنفيذ حكم

الاعدام بجميع الذين اعتقلهم ، وبلغ عدد الذين اعدموا في ذلك اليوم سبعة الافشخص !!

ورجع هتلر الى برلينحيث اطل من شرفةدار المستشارية ليتلقى هتافات الجماهير ، التي كانت تعتقد ان الفوهرر كان ضحية مؤامرة رهيبة خرج منها سالما بفضل قوته وسرعة بديهته • وهكذا تمكن هتلر بفضل هذه المجزرة الرهيبة من تثبيت اسس حكمه وترسيخ عقيدته ، كما حافظ على وحدة المانيا الاشتراكية الوطنية ، لتحمل لعنتها تلك الى العالم باسره •••

وأظهرت هذه المذبحة ان الفوهرر لن يردعه اي شيء عن تنفيذ كل ما يريده ، وبدت الاوضاع القائمة ، بالنسبة للعالم الخارجي ، اوضاعا لا يمكن وصفها بالاوضاع المتمدنة • وأصبح على هذا العالم ان يواجه حكما دكتاتوريا يقوم على الارهاب وسفك الدماء •



نشطت الحركة بين بافاريا والحدود النمساوية في شهر تموز من عام ١٩٣٤ ، وبدأ الاعداد للثورة وقلب نظام الحكم فيها • وفي صباح الخامس والعشرين من الشهر نفسه غدتالثورة واضحة اذ دخلت جماعة من المسلحين دار المستشارية، وقتلوا الرئيس دلفوس، كما استولت فصيلة اخرىمن الثوار النازيين على دار الاذاعة واعلنت حل حكومة الرئيس دلفوس ، وتعيين رينتلين رئيسا جديدا •

الا ان هذا الانقلاب المفاجيء لم يعمر طويلا ، اذ قام رئيس الجمهورية بالرد على الحركة الانقلابية ، ايده في ذلك موسوليني من ايطاليا وارسل ثلاث فرق عسكرية الى ممر برينر ، مما اضطر هتلر الى التراجع ، وطلب من وزير المانيا المفوض وبعض الذين اشتركوا في المؤامرة الرجوع الى بلادهم فورا حيث فصلهم من الخدمة ، وبذلك انهى المحاولة الاولى للاطاحة باستقلال دولة النمسا •

وقد قربت هذه الاحداث بين ايطاليا وفرنسا ، فقد ادى هذا التهديد لاستقلال النمسا الى اعادة النظر في العلاقات بين فرنسا وايطاليا • كما شملت الابحاث موضوع توازن القوى واوضاع فرنسا وايطاليا بالنسبة الى جنوب ايطاليا الشرقي • وكان هدف موسوليني الحفاظ على مصالح ايطاليا الاستعمارية في افريقيا ، بالاضافة الى تقوية مركزه في اوروبا ضد التهديدات الالمانية •

أما فرنسا التي كانت ترغب منذ وقت طويل في الوصول الى اتفاق رسمي حول اجراءات الامن والسلامة في الشرق · الا ان تردد بريطانيا في التورط بأية تعهدات وراء نهر الراين ، ورفضها عقد محالفات مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، كما ان مخاوف دول التحالف الصغيرة من نوايا الروس ومطامحها ، بالاضافة الى شكوك روسيا في الغرب · كل هذا أدى الى فشل برامج فرنسا ، الا ان السيد بارتو وزير خارجيتها عزم على المضي في برنامجه واتبع برنامجا يقضي بعقد اتفاق يضم المانيا وروسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ودول البلطيق ، تقوم فيه فرنسا بضمان حدود روسيا في اوروبا ، وتضمن روسيا حدود المانيا الشرقية · الا ان المانيا وبولندا عارضتا الفكرة ، لكن بارتو نجح في اقناع روسيا بوجوب الدخول الى عصبة الامم ·

وكان هدف فرنسا الاول هو البحث عن حلفاء جدد ضد المانيا ، فاتجهت نحو روسيا محاولة ان تبعث فكرة توازن القوى التي كانت قائمة قبيل الحرب العالمية الاولى ، الا ان مأساة وقعت في شهر تشرين الاول حين دعي الملك الكسندر اليوغوسلافي لزيارة رسمية الى باريس · وعندما نزل في مرسيليا ، كان في استقباله المسيو بارتو والجنرال جورج، بينما كانت الجماهير محتشدة في الشوارع تهتف معربة عن فرحها الكبير · وفجأة ظهر شخص من بين الحشود وتسلق سيارة الملك واطلق عليه الرصاص من مسدس كان يحمله ، وهجمت الحرس عليه وامعنت فيه ضربا بالسيوف وقطعته اربا · وقد قتل الملك على الفور ، واصيب المسيو بارتو والجنرال جورج باصابات بلغة ، ولم يتمكن الوزير بارتو من المقاومة فتوفي بعد بضع ساعات · وبوفاته اصيبت السياسة الخارجية الفرنسية بضربة قاصمة ، وخلفه في الوزارة بيير لافال ·

ان تاريخ لافال المشين اللاحق ، ومصيره لن يحولا بيننا وبين الاعراب عن حقيقة قوته الشخصية ومقدرته · فقد كانت وجهة نظره صافية وصلبة ، فهو قد آمن بضرورة تجنب الحرب ، خاصة بالنسبة لفرنسا ، وهدف الى اجراء ترتيبات مع حكام المانيا وايطاليا ، اللذين لا يحمل ضدهما اي ضغينة · وكان لا يثق بروسيا ونواياها ، كما انه كان لا يحب بريطانيا ، بالرغم من مظاهر الصداقة التي كان يظهرها تجاهها ، وكان يعتقد بانها حليف لا نفع منه·لذلك قرر الابتداء بالتفاهم مع ايطاليا ، سيما وان الخوف من المانيا اصبح كبيرا جدا ، الا انها كانت مستعدة للتساهل طمعا في كسب صداقة ايطاليا ··· وسافر في كانون الثاني عام ١٩٣٥ الى روما حيث عقد عدة اتفاقات بين

الدولتين لازالة العقبات التي تعترض طريق التفاهم بينهما ، وخاصة الاتفاق حول معارضة اعادة تسليح المانيا · وتعهدت فرنسا بالتساهل مع الايطاليين في تونس ، كما سلمت لايطاليا مساحات شاسعة من الاراضي الواقعة على حدود ليبيا والصومال ، واعطاء ايطاليا نسبة ٢٠٪ من عائدات سكة حديد جيبوتي – اديس ابابا · وكان من المقرر ان تكون هذه الاتفاقات بداية محادثات رسمية تشمل فرنسا وايطاليا وبريطانيا العظمى ، لاقامة جبهة تقف في وجه الخطر الالماني المتزايد · الا ان الصدام بين الجنود الايطاليين والحبشيين على حدود الحبشة والصومال الايطالي ، كان الحجة التي استخدمتها ايطاليا في المطالب التي وجهتها الى الحبشة · وهكذا ادى مصير الحبشة الى اضطراب فكرة التضييق على المانيا وحصرها في القارة الاوروبية ·



الفصل الرابع

فقدان التوازن الجوي والعقوبات ضد ايطاليا

لم تكن المانيا تعتقد ان في امكانها اعادة تسليح جيشها تسليحا كاملا متفوقا قبل عام ١٩٤٣ ، الا ان الاكتشافات العلمية الحديثة، وخاصة اختراع الالة ذات الاندفاع الداخلي ، وتقدم فن الطيران ، جعلا من مسالة التفوق العسكري والقوة العسكرية امرا يتوقف على جهود الدولة في ميدان العلم والمعرفة • وكانت المانيا تتمتع بامكانات ضخمة في هذه الميادين ، فتمكنت المانيا من خلق هيكل سلاح جوي في الجيش ، بعد ان كان محروما من هذه القوة الجوية الهامة • ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت امام اعيننا الحقيقة المرعبة فقد توصل هتلر الى الرقم المعادل في عدد الطائرات ، الذي وصلت اليه بريطانيا • ولم يتبق عليه الا ان يصدر اوامره بزيادة الانتاج والاسراع به كي يرفع من مستوى الطائرات الموجودة ويحسنها • واصبحت لندن مهددة من الجو ، ووجب علينا ان تاخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الثابتة في جميع القرارات التي نتخذها ، اذ لم يعد في امكاننا اللحاق بالمانيا ، الا اننا بذلنا مجهودات ضخمة جبارة ، وحلقت في سماء العاصمة طائرات « الهاريكين » و «السبيتفاير» في عام ١٩٣٥ ، الا ان العدد لا يزال ضئيلا ، وعندما نشبت الحرب شعرنا بتفوق السلاح الجوي الالماني الذي بلغ بمجموعة ضعف سلاحنا الجوي الملكي •

وفي اليوم التاسع من شهر اذار عام ١٩٣٥ اعلن هتلر بصورة رسمية انشاء السلاح الجوي الالماني، كما اعلن عن التجنيد الاجباري في جميع البلاد • وفي نفس الوقت اعلنت فرنسا تمديد مدة الخدمة العسكرية الى

سنتين · وشرعت المانيا في تنظيم جيشها على اسس حديثة · كما اصبح الجيش تابعا للفوهرر مباشرة ، وغدا القائد الاعلى له ، واصبح على كل جندي ان يحلف يمين الولاء لهلتر لا للدستور ، كما اصبحت وزارة الحربية تابعة لاوامره مباشرة · واتخذت الاجراءات اللازمة لتدريب الشباب الالمان ، فما ان ينشأ الولد حتى ينضم الى شبيبة هتلر التي تضم جميع اولاد المانيا ، ثم ينتقلون بعد ذلك الى الحرس النازي بعد ان يبلغوا سن الثامنة عشرة ويعملوا فيه لمدة سنتين · وعندما يصبح الشاب في سن العشرين يفرض عليه تأدية الخدمة العسكرية لمدة ستة اشهر يقضيها في شق الطرق وبناء المعسكرات وتجفيف المستنقعات ، وبعد ذلك ينتقل للعمل مع القوات المسلحة ·

وفي الخامس عشر من تشرين الاول عام ١٩٣٥ افتتح هتلر كلية اركان الحرب الالمانية، وبدأ بذلك الاعداد الكبير لتدريب الجيش وتوسيع صفوفه·· كما استدعيت الفئة الاولى من مواليد عام ١٩١٤ للخدمة العسكرية حيث تقرر اعداد وتدريب ٥٩٦ الف رجل على فنون القتال · وهكذا قفز رقم الجيش الالماني الى ٧٠٠ الف رجل · الا ان هذه الارقام المخيفة لم تبلغ بعد عدد وقوة الجيش الفرنسي و احتياطيه الكبير · وكان بالامكان حتى هذا التاريخ اتخاذ اي قرار من جانب عصبة الامم لوقف هذه العمليات الرهيبة المخالفة لمعاهدات الصلح واتفاقاته · كما كان بالامكان تقديم المانيا الى المحاكمة امام هيئة دولية ، تقدم فيه بيانا عن تسلحها وتسمح للجان الحلفاء بالتحقيق في هذه الاوضاع · اما في حالة رفضها الاذعان لهذه الاجراءات ، تقوم الجيوش الحليفة باحتلال جميع المنافذ والمعابر على نهر الراين حتى يضمن الحلفاء تنفيذ المانيا لتعهداتها · وبذلك يصبح بالامكان تأجيل وقوع الحرب العالمية الثانية الى اجل غير مسمى ···



كانت الضربة الثانية للسلام العالمي ، بعد خسارة بريطانيا للتعادل الجوي ، حين انتقلت ايطاليا الى جانب المانيا · وبذلك تمكن هتلر من التقدم في طريقه نحو القتال · فبعد ان ساعد موسوليني النمسا على الحفاظ على استقلالها ، قرر ان ينتقل الى الجانب الاخر · ولم تعد المانيا وحيدة في الميدان العسكري بفضل اطماع ديكتاتور ايطاليا لتوسيع رقعة امبراطوريته التي شرع في انشائها ·

وقد ظهرت جلية استعدادات موسوليني لاحتلال الحبشه ، بعد مؤتمر

ستريزا • وكان من الواضح ان الراي العام البريطاني سيعارض مثل هذا الاعتداء الصارخ • كما ان البعض كان يجد في هذه المعارضة تشجيعا لايطاليا في المضي نحو المانيا ، خاصة وهي الدولة المعتبرة من الدول الكبرى، فبانضمامها الى المانيا ستخسر بريطانيا حليفا مهما •

ولا ازال اذكر الحديث الذي جرى بيني وبين المستر دف كوبر حول هذا التبدل في الميزان الاوروبي الذي جاء معاكسا لمصالحنا ، وقد اقترح البعض ان نؤلف وفدا لمقابلة موسوليني يشرح له النتائج التي ستؤدي اليها حركته في بريطانيا • وبالطبع لم يؤلف هذا الوفد ، فلم يكن هذا سيؤدي الى اي نتيجة ، فقد كان موسوليني يعتقد ان بريطانيا اصبحت عجوزا ضعيفة لا تستطيع القيام باي عمل حربي عدا الصراخ والضجيج •

وكانت وجهة نظري في هذه المسالة هي في حمل القضية الى عصبة الامم ضد ايطاليا ، ومطالبة فرنسا بتاييدنا ، الا انني حذرت من الضغط عليها ، وذلك بسبب ارتباطاتها مع ايطاليا، وانشغالها في المشكلة الالمانية• كما انني نصحت بعدم تزعم هذه القضية والتحمس لها ، وذلك بسبب خوفي من المانيا ومن الاوضاع التي وصلت اليها اجهزتنا الدفاعية ••• الا ان الحكومة وقفت موقفا مكشوفا وصرحت بأن بريطانيا ستقف الى جانب التزاماتها والى جانب ميثاق عصبة الامم • وسافر بعد ذلك وزير الخارجية الى جنيف ليجمع تاييد الدول الاعضاء في عصبة الامم لفرض عقوبات على ايطاليا ، اذا هي قامت بضرب الحبشة • وكانت هذه العقوبات تعني قطع المساعدات المالية ، والمواد الاقتصادية عن ايطاليا ، وتزويد الحبشة بها • وكانت هذه العقوبة شديدة الخطورة على ايطاليا التي تعتمد على إستيراد البضائع التي تحتاج اليها في الحرب ، من الخارج •

وفي الثاني عشر من شهر ايلول وصلت البارجتان البريطانيتان « هود » و ريناون » الى جبل طارق بالاضافة الى سرب من الطرادات والمدمرات • كما اتخذت عصبة الامم قرارا باغلبية خمسين صوتا يقضي باتخاذ اجراءات جماعية ضد ايطاليا ، وعينت لجنة قوامها ثمانية عشر عضواً لتقوم بمحاولة اخيرة للوصول الى حل سلمي • وعندما اصدر موسوليني بيانه التاريخي بقوله : « ان ايطاليا ستواجه العقوبات بالنظام والاقتصاد والتضحية » الا انه اضاف ان ايطاليا اذا وجدت أن هذه العقوبات ستعرقل برنامجه لغزو الحبشة فسيشن الحرب على كل دولة تقف في طريقه ، وقد اضاف معلقا على

قرار عصبة الامم بقولــه « خمسون دولة ، نعم هذه الدول كلهـا تقودها دولة واحدة !

* * *

أثار سفك الدماء في ابسينيا ، والكراهية للفاشية وتطبيق العقوبات من قبل عصبــة الامم ، هياج الطبقــات العــاملة في بريطانيــا ، وحزب العمــال البريطاني · ولم يكن النقابيون وعلى راسهم المستر ارنست بيفن ميالين الى المهادنة والسلام · واجتاحت الرغبة العازمة في محاربة الدكتاتور الايطالي ، وتطبيق اقصى العقوبات عليه ، وتدخل الاسطول البريطاني اذا لزم الامر · وكان عدد كبير من اعضاء مجلس العموم يشــاطر النقــابات رأيهـا في هذا الصدد · واستقــال مستر لا نسبوري من رئاسة الكتلــة البريطــانية لحزب العمال ، وتولى الميجور اتلي الرئاسة خلفا له ·

وفي هذا الوقت حل البرلمان واجريت انتخابات جديدة ، واعلن رئيس الوزراء ان العقوبات تعني اولا الحرب لكنه كــان مصمما علــى ان لا تكون هناك حرب ، الا انه مصمم في نفس الوقت على العقوبات · وتجنبت عصبة الامم، بطلب من بريطانيا ، فرض العقوبات خوفا من استفزاز ايطاليا واكراهها على الحرب · فاكتفت بمنع بعض السلع من الوصول الى ايطاليــا وبعض المواد الحربية ، ولم تقطع الزيت عنها واستمر في الوصول اليها بكل حرية · اذ ان قطعه يعني الحرب بصورة قاطعة · وكان من جملة السلع الممنوعة ، تصدير الالومنيوم · الا ان هذا المعدن كانت ايطاليا تنتجه بشكل ضخم يفوق حاجاتها· وبالاجمال كانــت ألعقوبات المفروضة لا تعتبــر عقوبــات بالمعنى الصحيح ، يقصد منها شل حركة المعتدين ومنعهم من العدوان ·

اما بالنسبة لبريطانيا فقد كان بامكانها منع ايطاليا من المرور في قنــاة السويس ، وان تخوض معركة بحرية مع الاسطول الايطالي ، بالرغم من ان بوارجنا كانت قديمة ، وان الاسطول يفتقر الى المدافع المضادة للطائرات كما يفتقر الى الغطــاء الجوي الضروري · الا انه باستطاعتنــا قطع الامدادات والمواصلات الايطالية مع الحبشة · وكنت واثقــا مــن ان موسوليني لم يكن ليجرؤ على الاشتباك مع قواتنا ، فقد كان العــالم كله ضده في ذلــك الوقت ، وكان من المنتظر ان يتعرض حكمه للخطر ، في حاله خوضه غمار الحرب مع بريطانيــا · ومع انني كنت اعــارض فكرة القيــام باي عمل فردي تقوم بــه بريطانيا ، الا اننا قد اقطعنا شوطــا بعيدا في هذه المرحلــة ، ومن العــار ان

نتراجع الان · لكن الحقيقة كـانت ظاهرة في حب الحكومة الحاضرة للسلام والحفاظ عليه ، هذا الحب الذي جر العالم الى حرب اكثر فظاعة ·

* * *

أدى سقوط البلاد الحبشية وضمها الى الممتلكات الايطالية ، الى نتائج ايجابية في المانيا ، فقد بدا الاعجاب بموسوليني وطريقته الفذة السريعة التي انهت فيهـا ايطاليا الحملة علـى الحبشه · وكـان الراي العام السـائد ان بريطانيا خرجت من هذه الازمة مقهورة ضعيفة · وقال احد ممثلينا في بلغاريا: « ان اشارات الاحتقار لبريطانيا اصبحت ظاهرة سافرة في جميع الاوساط · وهذا مما جعل المانيا تتصلب في مواقفها للتفاوض لايجاد تسوية في اوروبـا الغربية وتسوية اكبر لجميع الشؤون الاوروبية والعالمية » · وكـانت هـذه الاقوال صحيحة تماما · فقد تولت حكومة جلالته ، دون تفكير بالامر ، زعامة خمسين دولة للتعبير عن الشجاعة لوقف ايطاليا عند حدها · وما ان واجهت الحقائق القاسية حتى تراجعت الحكومة عن موقفها الشجاع وتخاذلت · وبذلك اصابت عصبة الامم بخيبة امل كبيرة والحقت بها اشد الاضرار ·



الفصل الخامس

هتلر يضرب

لقد كان الاحتلال الوحشي للحبشة ، الصدمة القوية التي احسن بهـا الشعب البريطاني من اتفاق هور ـ لافال وفشل عصبة الامم من العوامـل التي غيرت اوضاع حزب العمال وحزب الاحرار بالاضافة الى الراي العام الحسن النية • وبدت فكرة قبول نشوب الحرب ضد الطغيان الفاشي والنازي، تلاقي صدى حسنا في النفوس ، حتى اللذين يحبون السلام ويعتزون بالمهادنة • وبالرغم من معارضة حزبي المعارضة لجميع الاجراءات المؤدية الى اعـادة التسلح ، الا ان مجال الاتفاق كان واسعا ، ولو حاولت حكومة جلالتـه ان ترتفع الى مستوى الاحداث ، لتمكنت من تزعم جبهة شعبية متحدة ، تقودها في طريق حملة قوية للتاهب والاستعداد •

الا ان الحكومة بقيت متمسكة بسياسة الاعتدال وانصاف الحلول • وقد اذهلني عدم اهتمامها بالبحث عن توحيد الانسجام الذي اخذ يسود صفوف الشعب • ولو انها حاولت البحث عن هذا التوحيد ، لقوت بذلك مركزهـا وكسبت قوة كانت ضرورية للبلاد •

اما بالنسبة لالمانيا ، فقد ادى تسليحها من جديد الى اقتراب موعـد الحرب العالمية ، واصبح نشوبها امرا مؤكدا • فبعد ان تاخرنا عن توقيف هتلر عند حدوده ، وبعد ان فرض هتلر الخدمة الاجبارية في الجيش ، متحديا بذلك جميع المعاهدات • وبعدان غفرت بريطانيا له هذا التحـدي العجيب ، وعقدت معه اتفاقا وسمح لهباعادة بناء اسطوله البحري الذي يضم عددا من الغواصات يوازي عدد الغواصات البريطانية • وبعد ان صرحت المانيا بنفسها

انها اصبحت تملك سلاحا جويا يضاهي السلاح الجوي الملكي البريطاني بدأت الان تدخل عامها الثاني في الاستعداد والعمل النشيط لانتاج العتاد الحربي الرهيب • واصبحت بريطانيا واوروبا كلها ، واميركا التي كانت تعتقد انها بعيدة عن الخطر ، تواجه الان قوة ضخمة منظمة ، بالاضافة الى التصميم على خوض حرب ضروس ضد سبعين مليونا من البشر •

وكانت من جملة بنود معاهدة فرساي ، البنود القائلة بعدم السماح لالمانيا باقامة تحصينات دفاعية على الجهة اليسرى من نهر الراين ، والى خمسين كيلو مترا من الجهة اليمنى من النهر ، كما انها منعت اي وجود لقوات عسكرية المانية في هذه المنطقة • كما ان معاهدة لوكارنو التي نصت على حفظ الحدود القائمة بين المانيا وبلجيكا ، وبين المانيا وفرنسا • وتعهد الفرقاء بعدم القيام باي هجوم عبر هذه الحدود ، واذا ما خرقت احدى الدول هذه الاتفاقات ، فان عملها هذا يعتبر عملا عدوانيا لم يسبقه استفزاز ، ويتوجب على الدول المعتدى عليها ان تقوم باعمال افرادية ، وتنقل المشكلة الى عصبة الامم ، وان تطلب معاونة الدول الاخرى الموقعة على هذه الاتفاقية •

وفي نفس اليوم الذي عهد فيه تسليم هذا الاقتراح لعقدة كميثاق يعمل به لمدة خمسة وعشرين عاما اعلن هتلر انه قرر احتلال منطقة الراين ، وزحفت القوات الالمانية فورا لتأخذ مواقعها على طول المنطقة وعرضها •

وهبت فرنسا تطلب العون من حلفائها ، وتشكو امرها الى عصبة الامم • وكان من حق فرنسا ان تطالب بريطانيا بتنفيذ اتفاقها القاضي بحماية حدودها ضد اي اعتداء من المانيا ، نتيجة للضغط الذي قمنا به في السابق لاجلائها عن منطقة الراين • وكان المسيو سارو ، رئيس الوزراء ، يرتأي اعلان التعبئة العامة فورا ، الا انه لم ينفذ هذا الرأي قبل الحصول على موافقة بريطانيا عليه اولا • الا ان حكومة جلالته اقنعت فرنسا بوجوب الانتظار ، حتى تقوم الدولتان بعمل مشترك ، بعد ان يتمكنا من درس الوضع دراسة شاملة وافية • اما الرد الغير رسمي ، الذي اجابت به لندن ، فقد بعث في نفسي القشعريرة ، اذ سارع المستر لويدجورج الى القول ، ان جريمة هتلر الكبرى كانت في الاستفزاز لا في خرقة الفاضح للمعاهدة ، وانه كان يامل باننا سنبقى رؤوسنا منخفضة • كان الاستفزاز في الظاهر ، هو فشل الحلفاء في نزع السلاح ، اكثر مما فعلوا حتى اليوم •

لقد اخطأت الحكومة الفرنسية في انصياعها لمشيئة بريطانيا وعرضها للمشكلة على عصبة الامم ، وهي التي اصبحت ضعيفة لا قيمة لها بعد فشلها

الذريع في مهزلة العقوبات · فلو نفذت الحكومة الفرنسية تعبئتها العامة ، وجهزت مئة فرقة لكانت تمكنت من حمل هتلر على التراجع والانسحاب ، فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت من القوة بحيث تتمكن وحدها من ارغام الالمان على الانسحاب ·

وعندما اجتمع هتلر بقادته العسكريين بعد نجاح حملته في احتلال منطقة الراين ، كان في وده ان يصارحهم بان مخاوفهم السابقة كانت كاذبة ، لكنه برهن لهم بعمله هذا ان احكامه وآراءه الخاصة اهم واقوى من احكام القادة العسكرين ، ولهذا احنى القادة رؤوسهم باحترام · وكانت الفرحة تغمرهم ، كالمان مخلصين ، حين رأوا ان بلادهم قد بدأت تستعيد مكانتها السابقة في القارة الاوروبية في هذه السرعة الهائلة · بالاضافة الى ان اعداءهم السابقين قد اصبحوا ممزقين مشتتين · واعلن الفوهرر للعالم : لقد حققت المانيا جميع مطامحها الاقليمية ····

واصيبت فرنسا بالتفكك وسيطر على البلاد الخوف من الحرب ، والرغبة في اجتنابها · اما الانكليز السذج فقد ابلغتهم صحافتهم : « ان الالمان ، على كل حال ، لم يفعلوا شيئا سوى انهم عادوا الى بلادهم ، اذ كيف يمكن ان نشعر نحن الانكليز ، لو تحتم علينا ان نبقى بعيدين عن يوركشاير مثلا لمدة عشر سنوات او خمس عشرة سنة ؟ » ···· الا انهم لم يفكروا ان الحدود الامامية قد تقدمت الى الامام مئة ميل ، واصبح غزو فرنسا اقرب واسهل···

* * *

مرت سنتان على الاستيلاء على منطقة الراين ، لم تضع المانيا خلالها اية دقيقة من وقتها · اذ بدأت التحصينات تظهر على طول الخط في تلك المنطقة · واخذت المصانع الالمانية تعمل ليلا ونهارا لتجعل من صناعة المانيا كلها جبخانة مسلحة ، وتحول الشعب باسره الى آلة للحرب ·

وافتتح هتلر عام١٩٣٦ ، مشروع السنوات الخمس لاعادة تنظيم الاقتصاد الالماني واعداده لمرحلة الاكتفاء الذاتي اثناء الحرب · كما حقق في الخارج « التحالف القوي » الذي كتب عنه في كتابه « كفاحي » وبين اهميته لسياسة المانيا الخارجية ، فتفاهم مع موسوليني وتم تشكيل محور برلين ـ روما ·

كانت سياسة هتلر العدوانية لا تعتمد على القوة العسكرية ، بل تعتمد على الخلافات الناشبة بين فرنسا وبريطانيا ، وعلى شدة خوفهما بالاضافة

الى عدم اكتراث الولايات المتحدة الاميركية · وكانت اعماله وتحدياته الاولى عبارة عن مغامرة يعرف انه لن يتمكن من الصمود لنتائجها ، اذا ما شعــر بان لدى الحلفاء قليلا من الجدية الصادقة · وكان احتلاله لمنطقة الرايــن واقامته للتحصينات فيها اولى هذه المغامرات التي نجح فيها نجاحا كبيرا · اما خصومه فقد كانوا على اشد ما يكونوا من الضعف والتردد ، الى درجة انهم لم يشعروا بهذه « البلفة » التي قام بها · اما حين تحركت جحافله في عام ١٩٣٨ لم تكن هذه التحركات عبارة عن « بلفة » اخرى ، فقد اصبـــح العدوان الجديد مدعوما بالقوة المتفوقة ، وما ان بدأت الدولتان البريطانيــة والفرنسية تشعران بهذا التحول المفاجيء ، كان الوقت قد فات ·

* * *

اما في اسبانيا فقدتدهور النظام البرلماني فيها عام ١٩٣٦ الى حد ادى لنمو حركة جديدة تتجه الى اقامة نظام شيوعي او حتى فوضوي في البلاد ، ومن ثم الى قيام ثورة عسكرية مبيتة · وكانت التعاليم الشيوعية وكتبهــا المدرسية التي ألفها لينين نفسه ، تقول بان الواجب يقضي بضرورة التعاون مع جميع الاحزاب والحركات اليسارية في البلاد ، ودعمها للوصول الى الحكم · عندئذ يصبح من السهل الانقلاب عليها ونسفها من الداخل ، واقامة الدولــة الماركسية · وكانت هذه التجربة التي نجحت في روسيــــا ، تحدث الان في اسبانيا · الا ان الجيش الاسباني كان محتفظا بقوته ، لذلك فقد سار مــع الحركات الشيوعية ، بينما كان يبيت ضدها مؤمراة عكسية ·

وكانت اعمال العنف والقتل بين الفرقاء المتخاصمين تنتشر انتشار الوباء في البلاد ، وازداد الوباء الشيوعي حدة جعل من مسالة حمل الخصوم السياسيين من بيوتهم وقتلهم دون محاكمة امرا طبيعيا · وقد حدثـــت حوادث كثيرة من هذا النوع في العاصمة مدريد بالذات · وبلغت هذه الحوادث حدتها حين قتل الزعيم الاسباني المحافظ السنيور سوتيلو ، وكانت هــذه الحادثة اشارة الانطلاق للقادة العسكريين لابتداء العمل · وكان الجنرال فرانكو قبل شهر من هذا الحادث قد ارسل الى وزير الحربية الاسبانية رسالة قال فيها انه اذا لم تتمكن الحكومة من المحافظة على الضمانات العادية للحياة، فان الجيش سيضطر للتدخل فورا ··· وعندما تمرد الجنرال فرانكو وحمل راية الثورة ، انضمت اليه فرق الجيش كلها ، واصبح السيد المطلق علـــى الكثير من الولايات · اما البحارة الاسبان فقد هبوا لفورهم وقتلوا ضباطهم وانضموا الى ما سمي بعد ذلك بالجانب الشيوعي · وقد استطاع الشيوعيون

ان يسيطروا بعد ان انهارت الحكومة وراحوا يطبقون نظرياتهم وتعاليمهم ٠

وبدأت الحرب الاهلية المخيفة ، وقام الشيوعيون بجرائـــم عديدة وقتلوا خصومهم السياسيين ، والاغنياء ٠ اما قوات فرانكو فقد قامت بدورها بقتل العديد من الشيوعيين وانتقمت للضحايا ٠ وسارت هذه القوات تحتل القرى الشيوعية وتنتقم من كل شيوعي تجده ٠

ووقفت الحكومة البريطانية موقف عدم التدخل ، واقترحت كذلك فرنسا مشروعا بعدم التدخل ، وترك الفريقين يحلان مشاكلهما دون مساعـــدات خارجية ٠ وايدت الحكومة الايطالية والالمانية والروسية هذا المشروع ٠ وقد حافظت بريطانيا العظمى على هذا الاتفاق ، الا ان المانيا وايطاليا من جهة ، وروسيا من جهة اخرى ، سارعت الى خرق هذا الاتفاق ، وراحـــت ترسل بالامدادات العسكرية لفريق من الفرقاء المتخاصمين ٠ وراحت الطائرات الالمانية تغير على المدن الصغيرة بشكل وحشي ٠ ولم تلبث فرنسا هي الاخرى ان راحت تبعث بطريقة سرية باسراب الطائرات للدفاع عن الجمهورية ٠٠٠٠

* * *

في الثامن والعشرين من ايار عام ١٩٣٧ ، إعتزل المستر بلدوين منصب الحكم ، بعد تتويج الملك جورج السادس ٠ وقد نال لقـــب اللورديه تقديرا لخدماته الطويلة ، بالاضافة الى وسام ربطة الساق ٠ وقد خلفه في الحكم المستر نافيل تشمبر لين وزير المالية السابق ، والذي كان يقوم فعليا باعباء الحكم طيلة السنوات الخمس الماضية ٠ وكان من اقدر الوزراء ،يتمتـــع بمزايا ومواهب جمة ٠ وقد رحبت بتسليمه مقاليد السلطة ، لانه كان مـــن الشخصيات المرموقة النابضة بالحيوية ، بالاضافة الى كفاءته ٠

ان باستطاعتي اجراء مقارنة بين الشخصيتين المستر تشمبرلين والمستر بلدوين ، اللذين عرفتهما مدة طويلة وكان مقدرا لي ان اعمل معهما ٠ فقد كان ستانلي بلدوين يتمتع بشخصية حكيمة بعيدة النظر ، الا انـــه كان يفتقـــر الى المقدرة علي التنفيذ واتخاذ القرارات ٠ وكان بعيدا عن شؤون الحرب والجيش والشؤون الخارجية ، فقد كان لا يعرف شيئا عن اوروبا ، واذا عرف شيئا فكان يكره ما يعرفه عنها ، الا انه كان يعرف بدقة مجرى السياســـات الحزبية البريطانية ٠ وكان قد ترشح خمس مرات عن حزب المحافظين باعتباره زعيما للحزب ، ففاز في ثلاث مرات ٠ اما رباطة جاشه فكانت صامدة قوية ، فقد كان يتمتع بموهبة فذة في الصمود تجاه الاحداث والانتقادات العاديـــة ٠

وكان ماهرا في تحوير الاحداث الى خدمته ، وانتهاز اللحظة المناسبة عندما تحين ·

اما المستر نافيل تشمبر لين فقد كان يقظا ، متشبثا برأيه ، وشديد الثقة بنفسه الى حد المبالغة · وكان على عكس زميله يعتقد في نفسه المقدرة على تفهم جميع المسائل المتعلقة باوروبا ، بل وفي العالم · وقد حافظ على سياسة تضييق الخناق على الانفاق الحربي طيلة عهده في الوزارة سواء حين كـان وزيرا للمالية ام حين اصبح رئيسا للوزارة · وكان العدو اللدود لجميـع اجراءات الطوارىء · وقد سن قوانين واحكام على الشخصيات السياسية المعاصرة لعهده ، سواء في داخل بريطانيا ام في العالم الخارجي ، وكان يشعر بانه قادر على التعامل مع جميع تلك الشخصيات · وكانت اماله وامانيـه في ان يحصل على لقب بطل السلام ، لذلك عمل مخلصا لتحقيق هذه الغاية ، وقد عرض نفسه بذلك لاشد الاخطار كما عرض البلاد ايضا · لكنه وقـع في تيارات لم يتمكن من تقدير قوتها ، فواجه ازمات لم يتمكن من حلها او من الابتعاد عنها ولا الصمود في وجهها ·

لقد كنت اؤثر العمل مع المستر بلدوين في تلك السنين التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، على العمل مع تشمبرلين · الا انني كنت اشعر ان ايا من الاثنين لم يكن راغبا في التعاون معي الا عند الضرورة القصوى ·



في ذات يوم من عام ١٩٣٧ قابلت سفير المانيا في بريطانيا الهر فـون ريبنتروب · وكنت قد كتبت مقالا شرحت فيه ان الهر ريبنتروب قد اسـيء فهمه نتيجة لخطابه الذي القاه مؤخرا · وقد التقيته في احدى الحفلات ، وطلب مني ان اقوم بزيارته في السفارة ، لنتحدث سوية · وقد استقبلنـي في دار السفارة ، حيث قضينا ساعتين في الحديث · وكان ريبنتروب طيبـا دمث الاخلاق ، دبلوماسيا الى ابعد الحدود · وقد قال لي ان المانيا لا تريد الا كسب صداقة انكلترا ، وقال انه كان في استطاعته ان يصبح وزيرا لخارجيـة المانيا ، الا انه طلب من هتلر ارساله سفيـرا الى انكلترا ، كي يتمكـن مـن العمل لتحقيق فكرة عقد اتفاق او محالفة بين انكلترا والمانيا · وقد كان في وسع المانيا ان تصبح حارسا للامبراطورية البريطانية ، وبالطبع ستطلـب استعادة مستعمراتها السابقـة ، الا ان ذلك لا يعتبر امرا اساسيا · لكـن ما تطلبه المانيا هو ان يسمح لها باطلاق يدها في اوروبا الشرقية · اذ ان من

حق المانيا ان تحصل على مداها الحيوي ، لتضمن العيش لشعبها الذي يتكاثر عدده · لذلك فمن الواجب على المانيا ان تهاجم بولندا وممر دانزيغ · ولا يمكن للرايخ الكبير ان يحيا ، وهو يضم سبعين مليونا من البشر ، بـدون روسيا البيضاء واوكرانيا · ولا يمكن للرايخ الالماني ان يكتفي باقل من هذا · لذلك فمطلبه الوحيد هو ان لا تتدخل بريطانيا في شؤونه تلك · وكانت في الغرفة، حيث جلسنا ، خارطة ضخمة معلقة على الجدار ، وكان يشير اليها السفيـر ريبنتروب ليبين لي ما يقوله ·

وبعد أن انهى حديثه ، اجبته برأيي الصريح ردا على كل أقواله · ومما قلته : « ان الحكومة البريطانية لن توافق على اطلاق يد المانيا في أوروبـــا الشرقية · فبالرغم من علاقاتنا السيئة مع روسيا السوفياتية ، وبالرغم من عدائنا الشديد للشيوعية الذي لا يقل عن عداء هتلر لها ، فانه لو ضمنا سلامة فرنسا فاننا لن نتخلى عن اوضاع القارة الاوروبية ونترك المجال امام المانيـا لتسيطر على شرقي اوروبا ووسطها » ·

والتفتتت فون ريبنتروب الي فجأة وهو يقول : « اذن ، فـــلا بد من الحرب ، ولن يكون هناك اي سبيل لتجنبها ، فالفوهرر مصمم ، ولن يقف شيء في طريقه »

وأجبت السفير بقولي : « عندما تتحدث عن الحرب ، فستكون حربـا عامة شاملة ، وهنا يجب علي ان انبهك بأن لا تستهين بقوة انكلترا ، فهي بلاد عجيبة ، يصعب على الاجانب فهمها · ولا يمكنك ان تحكم عليها مـن موقف حكومتها الحاضر · فعندما تعرض للشعب قضية عادلة ، فستتحقق عندئـذ بنفسك ان هذه الحكومة بالذات بالاشتراك مع الشعب سيقومان بأعمال عظيمة غير متوقعه ··· ، لذلك لا تستهن بقوة انكلترا ابدا ، فهي حادة الذكاء ، واذا ما اردتموها حربا عالية ، فستحرض انكلترا العالم كله ضدكم ، تماما كما حدث في الحرب الاولى » ·

وهنا ظهر الغضب على وجهه ، فهب من مقعده واقفا وهو يقول : « ربما تكون انكلترا ذكية كما تقول ، لكنها هذه المرة لن تتمكن من تحريض العالـم ضد المانيـا » ·

وانتقلنا بالحديث الى مواضيع اخرى اكثر سهولة · وعندمـا جـــرت محاكمة فون ريبنتروب بعد انتهاء الحرب ، ذكر حديثنا هذا ، لكن بصورة مغلوطة ، واصر على استدعائي للشهادة · ولو طلب الـي ذلك لما زدت أو أنقصت حرفا واحدا عما كتبته هنا ···

الفصل السادس

المستر ايـدن في وزارة الخارجية ـ واستقالته

ان وزير الخارجية في انكلترا يتمتع بمكانة خاصة · ومع انـه يعامـل بمنتهى الاحترام واللباقة ، الا ان اعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائما تحت المراقبة ، ان لم يكن من جميع اعضاء وزارته ، فمن المتنفذين منهم على الاقل · كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كامله لزملائه · كما انـه يتحتم على وزير الخارجية اطلاع رئيس الوزراء على جميع الاسـرار مهمـا كـانت ·

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر ايدن وزيرا للخارجية في حكومـة المستر بلدوين الذي كان معروفا بميله الشديد الى السلام والحياة الهادئـه، كما انه لم يكن يسهم اسهاما فعالا في السياسة الخارجية · اما بالنسبة للمستر تشمبرلين فكـان الوضع مختلفا ، فهو يريـد الاشراف الفعلـي علـى وزارة الخارجية وكانت له اراء ووجهات نظر قوية في الشؤون الخارجية · لذلـك فقد اكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الاجانب · ولهذاالسبب ادى توليه منصب رئيس الوزراء الى تغيـر ملحـوظ في وضع وزير الخارجية المستر ايدن · بالاضافة الى بعض الامور الاخـرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية · لقد كان رئيس الوزراء راغبا في اجراء شبه تفاهم مع الدكتاتورين الاوروبيين ، وكان اعتقاده ان هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء اليهما بالاضافة الى روح التفاهم الخالصة · · · اما ايدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول اوروبا ضد موسوليني

لدرجة انه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو ادى ذلك الى نشوب الحرب وكان ايدن يؤمن اشد الايمان بفرنسا ، كما انه كان يرغب في اقامة علاقــات متينة مع روسيا السوفياتيه ، لانه كان يشعر بخطر هتلر ، وكان يخا فـضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية· لذلك كنت واثقا ان الخلاف سيدب بين هذين الرجلين ، خاصة بعد تأزم الاوضاع العالمية واشتدادها ·

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس ، زميلا ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام · وكنــت افضل ، والحاله هذه ، لو اعتمده وزيــرا للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة ، وان يعهد بوزارة الحربية الى المستر انتوني ايدن · وهكذا بدأت الخلافات تذر قرنيها الى ان توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام ، الى ان اضطر بعد ذلك المستر ايدن الى تقديم استقالته في شهر شباط من عام ١٩٣٨ ·

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه المانيا ، مــن اهــم اسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر ايدن · فقد قرر المستر تشمبرلين ان يتابع سياسة التقرب من الديكتاتورين ، واستدعى في شهر تموز من عــام ١٩٣٧ سفير ايطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دواننغ ستريت · وكان المستر ايدن يعلم مسبقا موضوع الحديث ، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا · وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع ايطاليا ، واقترح عليه السفير ان يبعث برسالة الى موسوليني يطلب اليه ذلك ، ويناشده العمل فــي هذا الاتجاه · وسارع المستر تشمبرلين الى كتابه هذه الرسالة ، اثناء المقابلة، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضعـــة خطوات من مكان الاجتماع · ولم تسفر هذه الرسالة عن اي نتيجة ايجابيــة بالطبع ، بل ظلت علاقاتنا مع ايطاليا تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون اسبانيا الداخلية ·

وكان المستر تشمبرلين ، يشعر بأن رسالته تتلخص في خلق جو مـــن العلاقات الودية بين الدكتاتورين ، وخيل اليه انه قادر على ذلك · وكـــان راغبا في ان يعترف بحق ايطاليا في احتلال الحبشه كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لايجاد حل شامل لجميع الخلافات · كما انه كان يرغب في التنــازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية · وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين اوضاع التسلح في بريطانيا · او في ايجاد تعاون وثيق مــع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية ام في الشؤون السياسية · اما المستر ايدن فكانت نظرته تقضي بأن أي تعاون مع ايطاليا ، يجب انيشمل جميع الشؤون

المتعلقة بالبحر الابيض المتوسط ، بما في ذلك مشكلة اسبانيا · وكان يريد ان يجعل من مسألة الاعتراف بحق ايطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها اثناء المفاوضات · لذلك وجد ان الاعتراف بهذا الحق اولا ثم الرغبة في اجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر ·

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات ، واعتبر المستر تشمبرلين ان وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الدكتاتورين وفي الشروع في اجراء المحادثات مع المانيا وايطاليا ، كما شعر المستر ايدن ان رئيسه متسرع جدا في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لا سيما في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على اشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية ·

* * *

على الرغم من خلافاتي مع الحكومة ، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر ايدن · فقد ظهر لي انه أكثر الوزراء شجاعة وتصميما ، على الرغم من انه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية ، من قبل ، كان مجبرا على ان يكيف نفسه مع امور عديدة كنت اهاجمها شخصيا ، الا أنني كنت أشعر انه في قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها ، كما انه بدا لي عنصرا طيبا وممتازا · وكان يدعوني مرارا الى وزارة الخارجية ، وكثيرا ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية · ولم يكن هذا الامر مستغربا ، فقد كان المستر ايدن شأنه شأن بقية الوزراء ، يرغب دائما في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية ···

وكنت قد انتهيت الى وجه نظر مشابهة مع وجهة نظر ايدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الاهلية الاسبانية · وكنت دائما أؤيده عندما يقف موقفا صامدا في مجلس العموم ، مهما كانت اهمية المواضيع المطروحة ، فقد كنت عارفا بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات ، وكنت على يقين من ان تشجيعي له سيبعث في نفسه روح الامل والقوة · وما ان نشبت ازمة جديدة في البحر المتوسط ، حتى عالجها بعزم ومهارة ، واستطاع الوصول الى حل أتبعته الوزارة على الفور · فقد حدث ان أغرقت غواصات ايطالية عدة سفن تجارية ، بينما ادعت ايطاليا ان الغواصات ليست ايطالية بل اسبانية · ودعي مؤتمر الدول البحرية الى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول · وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيتارت واللورد شاتفيلد ، لورد الاميرالية

الاول · وقرر المؤتمر ايفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط ، وتحمل أوامر مشددة باغراق كل غواصة تقابلها · وفي الحال رضخت ايطاليا الى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة ·

ويعتبر هذا الحادث دليلا ظاهرا على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا ، اذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتورين الاوروبيين · ان مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا ان تمنع نشوب الحرب بل ان تؤجل وقوعها على الاقل · فالحقيقة الماثلة أمامنا هي ان سياسة التهدئة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتورين ، وتزيد من شعبيتهما ، وان أي هجوم ايجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي فورا الى التخفيف من حدة هذا العدوان · وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧ ، اما بعد ذلك فقد تغيرت الاوضاع وتبدلت كل التبديل ·

وشعر ايدن بقلق يتزايد يوما بعد يوم من بطء تسلحنا ، وما كان منه الا ان قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه ، وكان رد رئيس الوزراء عليه بان نصحه ان يعود الى منزله ويتناول قرصين من الاسبيرين ·

أما الخلاف الحقيقي فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة · ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٨ ، قام وكيل وزارة الخارجية الاميركية ، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن · وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت الى المستر تشمبرلين · فقد شعر الرئيس الاميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور ، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معينة الى اجتماع لبحث المشاكل الحالية ، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح ، ان يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا الاقتراح · وطلب ان يكون الرد جاهزا قبل السابع عشر من كانون الثاني ، وأشار في رسالته الى انه اذا وجد أقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق ، فعندئذ ، وفي هذه الحالة فقط ، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا والمانيا وايطاليا ··· وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الانسان ·

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة الى لندن ، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها باسرع وقت ممكن · وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخا عنها في الثاني عشر من كانون الثاني الى منزل رئيس الوزراء في الريف · وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء الى مكتبه ، وارسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت ، حسب تعليمات

رئيس الوزراء • أما المستر إيدن فكان في اجازة قصيرة يمضيها في جنوب فرنسا • وكان رد المستر تشمبرلين ، انه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بازالة حدة التوتر في اوروبا ، الا أنه يريد أولا ان يشرح له الموقف بالنسبة الى الجهود التي يقوم بها للوصول الى اتفاق مع المانيا وايطاليا ، لا سيما ايطاليا بصورة خاصة • ومضى يقول في رده : «انحكومة جلالته مستعدة ، بتفويض من عصبة الامم ان امكن ، للاعتراف باحتلال ايطاليا للحبشة ، اذا ما وجدت ان الحكومة الايطالية ، على استعداد هي الاخرى لتبرهن عن رغبتها في الاسهام في أعادة الثقة والعلاقات الودية • » وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله انه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما اذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا ، وما اذا كان الرئيس يرى أنه من الافضل تأجيل اقتراح مشروعه الاميركي هذا •••

وكانت خيبة الامل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد • وقد قال للسفير البريطاني بانه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له في السابع عشر من الشهر الحالي ، اما ايدن ، وزير الخارجية ، فقد قطع اجازته وعاد الى لندن على وجه السرعة ، بعد أن علم من موظفيه المخلصين في الوزارة ، ما جرى أثناء غيابه • وقد انزعج ايدن من هذا الحادث كثيرا ، فقد عمل طويلا لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا • وحاول ان يخفف من تأثير الرد فأبرق الى المستر رونالد ليندسي ، حول الموضوع •

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت الى لندن في الثامن عشر من الشهر الحالي ، وفيها قال الرئيس انه يوافق على تأجيل اقتراحاته لان الحكومة البريطانية تفكر في اجراء مفاوضات مباشرة ، وأضاف معربا عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال ايطاليا للحبشة • وقال ان مثل هذا الاعتراف سيترك أثرا سيئا على سياسة اليابان في الشرق الاقصى، وعلى الرأي العام الاميركي أيضا • وقد اضاف المستر كوردل هل ، الذي قام بتسليم الرسالة الى السفير البريطاني ، بقوله : « ان هذا الاعتراف سيبعث على الازدراء ، وسيرسم صورة واضحة للمساومة القذرة التي ستنفذ في اوروبا على حساب المصالح الاميركية في الشرق الاقصى والتي تهم أميركا كثيرا •• »

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدرس رسالة الرئيس روزفلت ، وبعد سلسلة من الاجتماعات ارسلت الى واشنطن رسالتين مضمونهما

ان رئيس الوزراء يرحب كثيرا برسالة الرئيس روزفلت الا أنه لا يتحمل أي مسؤولية في حال فشلت العروض الاميركية · كما انه يلفت نظر الرئيس روزفلت الى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة الى الاعتراف· وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة موقفنا · فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءا من تسوية عامة مع ايطاليا ·

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمنر ويلس الرسالتين قال له : « ان الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر ، الا أنه يجب علينا ان نشربه معا ، كما انه يريد ان نشرب هذا الدواء معا وفي آن واحد ·· »

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت ، علما ان نفوذ الولايات المتحدة كان ضخما مع ما يمكن لها ان نستعمله من قوة جبارة !

* * *

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط ، جاءني الخبر الى غرفتي القديمة في شارنويل بان المستر ايدن قد قدم استقالته من الوزارة · وهنا يتحتم علي ان اعترف بأني حزنت كثيرا ، وشعرت باليأس يسيطر علي · لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتي ، وفي سنين الحرب ، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم · ففي أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي ، وفي السنوات الخمس التي تلتها، كنت فريسة للقلق والفزع ، الا انني كنت أمضي الى فراشي واغرق في سبات عميق ، واستيقظ في الصباح نشيطا ، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل امضي الى عملي لاواجه المشاكل الضخمة واحاول ان اعالجها · أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨ ، وفي هذه المناسبة فقط ، شعرت بالارق ، ولم أنم طوال الليل ، وبقيت حتى الصباح في فراشي افكر بكثير من الاسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام ، ومن الحسابات الخاطئة ، والدوافع الضعيفة ····

الفصل السابع

اغتصاب النمسا

عندما تنهزم دولة من الدول أثناء الحرب ، فانها تبقى محتفظة بكيانها وجهازها وسرية وثائقها • وقد استطعنا ان نحصل على اسرار العدو بكامله ، بعد ان خضنا غمار الحرب الى نهايتها • وكان بامكاننا ان نتأكد من صحة المعلومات التي توفرت لنا في السابق ، وما قمنا به أثناء الحرب على ضوء تلك المستندات والوثائق التي حصلنا عليها في النهاية • ففي شهر تموز عام ١٩٣٦، كان هتلر قد أصدر أوامره باجراء الاستعدادات ووضع الخطط لاحتلال النمسا عندما يحين الوقت المناسب • وقد دعيت هذه العملية عملية « اوتو » • وقد كشف عن مخططه هذا في الخامس من شهر تشرين الثاني عام ١٩٣٧ عندما قال لقادة القوات المسلحة بانه يترتب على المانيا ان تضمن لنفسها « مداها الحيوي » وهذا المدى يمكن ضمانه في شرقي اوروبا ، أي بولندا وروسيا البيضاء واوكرانيا • أما احتلال هذه البلدان فيعني حربا رئيسية وابادة للشعوب التي تعيش في تلك المناطق • لذلك وجب على المانيا ان تصفي حسابها أيضا مع « العدوين المكروهين » انكلترا وفرنسا اللتين تعتبران ان قيام العملاق الالماني وسط اوروبا سيكون غير محتملا • ولكي تستغل المانيا ما وصلت اليه من تفوق في الميدان العسكري ، وما بعثه الحزب النازي من حماس وطني صادق ، فان من الواجب عليها ان تقوم بالهجوم في أول فرصة ممكنة ، لكي تقضي على هاتين العدوتين ، قبل ان تتمكنا من الاستعداد •

لقد كان هناك سببان اخران دفعا بهتلر الى اغتصاب النمسا خلاف ما ذكره من تصميم في كتابه « كفاحي » من رغبته في ضم جميع الشعوب التوتونية

الى الرايخ · فاحتلال النمسا يعني فتح ابواب تشيكوسلوفاكيا من جهة ، ومداخل جنوب شرق اوروبا من جهة اخرى ·

أما داخل النمسا فكانت الحركة النازية تنمو مع كل انتصار يحققه هتلر سواء في داخل المانيا ام في خارجها · وقد صدرت تعليمات خاصة الى فون بابن لكي يبقى على أحسن العلاقات مع الحكومة النمساوية بالاضافة الى محاولته الحصول على اعتراف رسمي من الحكومة بالحزب النازي النمسوي كمؤسسة مشروعة · واتقن فون بابن دوره وعمل بذكاء كبير داخل النمسا ، وقد رضخ الكثير من الزعماء النمساوين لضغطه ومكائده · وكانت الحركة السياحية التي تعتمد عليها النمسا ، قد تاثرت الى حد كبير نتيجة للأضطرابات الداخلية ولاعمال الارهاب ولحوادث القنابل التي كانت تهز أسس الجمهورية النمسوية ·

وساد الاعتقاد ان الوقت قد حان لاستلام زمام الامور عن طريق ادخال زعماء الحزب النازي النمسوي الى الحكم عن طريق الوزراء ، بعد ان تم الاعتراف به مؤخرا ··

وفي الثاني عشر من شهر شباط عام ١٩٣٨ استدعى هتلر المستشار النمساوي الهر فون شوشنيغ الى مقره في برختسغادن · وحضر المستشار برفقة وزير خارجيته غيدو شميدت · وبين أيدينا الان نسخة عما كتبه شوشنيغ عن هذه المقابلة التي جرت بينه وبين هتلر ، وننقل النص الحرفي لهذا الحوار ·

وقد بدا هتلر بالسخرية من التحصينات العسكرية التي اقامتها الحكومة النمسوية على الحدود وقال انها لا تتطلب أي مجهود من المعتدي سوى عملية عسكرية بسيطة لازالتها من الوجود · ثم استطرد قائلا :

هتلر : لن احتاج الا لاصدار أمر ، وستختفي هذه الخيالات المضحكة التي وضعتوها على الحدود ، في ليلة واحدة · ولا أظن انكم تصدقون ان في امكانكم الوقوف أمامي أكثر من نصف ساعة · ومن يعلم ، فقد أصل الى فينا فجاة كعاصفة من عواصف الربيع · وعندئذ ستختبرون تجربة جديدة · لكني اريد ان أوفر عليكم هذه التجربة ، التي ستكلفكم الكثيرين من الضحايا · فبعد الجيش ، سيصل جيش الصاعقة ، ثم الحرس النازي · وعندئذ لن يتمكن أحد من ان يمنعهم من الثار ، حتى انا نفسي · فهل تريد ان تجعل من النمسا اسبانيا اخرى · ان كل ما أريده أنا هو تجنيبكم كل هذا ·

شوشنيغ : ساوقف عملية التحصينات الدفاعية على الحدود في الحال ، كما اني واثق من انك تستطيع ان تزحف على النمسا · ولكن ، يا سيدي

المستشـــار ، ان زحفكم هذا سيؤدي الى سفك الكثيـــر مـــن الدمـــاء وربمـــا سيؤدي الى حرب عالمية ، فانت تعلم اننا لسنا وحيدين في العالم !

هتلر : انه لمن السهل ان تقول كل هذا وانت جالس على كرسيك المريح ، الا ان وراء هذه الاقوال الكثير من الويلات والدماء · فهل انت على استعداد لتحمل مسؤولية كلامك ؟ لا تعتقد ان في هذا العالم من يستطيع ان يقف بيني وبين ما قررت ان أنفذه · أتقصد ايطاليا ؟ لقد تفاهمت مع موسوليني ونحن الان على خير ما نكون· مـ ن ؟ انكلترا ؟ لن ترفع اصبعا واحدا من أجلكم ! فرنسا ؟ لقد غامرت ، منذ سنتين ، عندما زحفت لاحتلال منطقة الرايـــــن بمجموعة من الكتائب · ولو قابلت فرنسا هذا الزحف بالهجوم لاضطررت الى الانسحاب ···· أما الان فقد أضاعت فرنسا الفرصة على نفسها ·

حصلت تلك المقابلة الاولى في تمام الساعة الحادية عشرة صباحا · وبعد الغذاء استدعي النمسويون الى غرفة صغيرة كان بانتظارهم فيها ريبنتروب وبابن ، حيث قاما بتسليمهم الانذار الخطي الذي لم يكن يقبل أي مناقشة · وقد تضمن الانذار تعيين · سايكس۔ انكورات وهو نمسوي نازي ، وزيرا للامن في الحكومة النمساوية · كذلك تضمن الانذار عفوا شاملا عن جميع النازييـــن المعتقلين ، ثم ضم الحزب النازي النمسوي رسميا الى الجبهة الوطنية التـــي تشرف عليها الدولة ·

وبعد ذلك استقبل هتلر المستشار شوشنيغ وقال له : « ساكرر عليك ، ان هذه هي فرصتكم الاخيرة · واني منتظر تنفيذ الشروط خلال ثلاثة أيام » · وفي مذكرات « يودل » عن نفس هذه الحادثة العبارة التالية : « وقد تعـــرض فون شوشنيغ وغيدو شميدت الى أعنف ضغط سياسي وعسكري ، الى ان وقع البروتوكول في تمام الساعة الحادية عشر مساء » وعندما عاد فون بابن مـــع شوشنيغ قال له : « هذه هي طريقة الفوهرر ، وقد اختبرتها بنفسك ، ولكن في المرة المقبلة سيكون الفوهرر شخصا اخرا ، انه للحقيقة ساحر كبير »

ومضت المهزلة بأن أرسل موسوليني برسالة شفوية الى شوشنيغ يقول له ان ما جرى في برختسغادن كان مشرفا وعادلا · ثم اكد له ان موقف ايطاليا من النمسا لن يتغير ابدا ، كذلك اعرب له عن اخلاصه وصداقته الشخصية له· وفي الثالث من شهر اذار بعث شوشنيغ برسالة سرية الى موسوليني يعلمه فيها انه قد عزم على اجراء استفتاء شعبي عن الوضع السياسي · وبعد اربـــع وعشرين ساعة جاءه الرد من الملحق العسكري لبلاده ، يخبره باجتماعـــه بموسوليني ويحذره من مغبة هذا الاستفتاء الذي وصفه بانه « خطيئة » وقال

ان كانت النتيجة مرضية فسيقول الناس ان الاستفتاء لم يكن نزيها ، أمـا اذا لم يكن مرضيا فسيصبح وضع الحكومة حرجا للغاية ٠ واذا كانت النتيجة ...ـة فلن تكون ذات نفع على الاطلاق ٠ الا ان شوشنيغ لم ياخذ بنصيحـــة موسوليني وتحذيره ، فقد اعلن في اليوم التاسع من شهر اذار عن رغبته في اجراء استفتاء عام في جميع البلاد صباح الاحد القادم في الثالث عشر مـن الشهر الجاري ٠

وفي بداية الامر ، بدا ان سايكس ـ انكوارت قد قبل بالفكرة ٠ الا انه في صباح يوم الحادي عشر تلقى شوشنيغ مكالمة هاتفية من مركز الشرطة في فيينا تقول ان الحدود الالمانية في سالزبورغ قد اقفلت ، وسحب موظفـــي الجمارك الالمان وقطعت مواصلات السكك الحديدية ٠ ووصلت رسالة ثانيـة من القنصل في ميونيخ تقول ان القوات الالمانية متاهبة للتوجه الى النمسا ٠٠٠

وبعد قليل وصل سايكس ـ انكوارت ليخبره ان غورنغ طلب منـــه ان يلغي الاستفتاء خلال ساعة ٠ واذا لم يصله الرد بالالغاء خلال المدة المذكورة فسيفترض ان سايكس ـ انكوارت قد منع من استخدام الهاتف للاتصال به ٠ وانه سيتصرف على ضوء هذا الافتراض ٠ وعندما علم شوشنيغ ان الجيش لا يمكن الاعتماد عليه ، ابلغ سايكس ـ انكوارت ان الاستفتاء قد الغي ٠ وبعد ربع ساعة عاد هذا يحمل اليه خبرا سجله على ورقة كتب فيها :

« لا يمكن انقاذ الوضع الا باستقالة شوشنيغ في الحال ، واذا لم يعين سايكس ـ انكوارت خلال ساعتين مستشارا ، فان غزو المانيا للنمسا سيتلـوه فـورا » ٠

وفي خلال هذا الوقت انتظر شوشنيغ وصول الرئيس ميكلاس ليقدم لـــه استقالته ٠ وعندما دخل الى مكتب الرئيس جاءته رسالة بالشيفرة من الحكومة الايطالية تقول انه ليس في امكانها تقديم النصح مرة اخرى او ان تقوم باي عمل من اجلهم ٠ ورفض الرئيس تعيين المستشار النازي ، وقرر ان يجبر الالمان على القيام باعمال عنيفة معيبة ٠ لكنهم كانوا علـــى اتم الاستعداد لارتكاب هذه الاعمال ، فاصدر هتلر اوامره بالزحف على النمسا ومباشرة عملية « اوتو » ٠

وفي محاكمات نورمبرغ قدمت هذه المحادثة الهاتفية التي دارت بين هتلر وبين الامير فيليب هيسي ، مبعوثه الخاص الى الدوتشي ، التي قدمت كوثيقة هامة ، وجدنا ان ننقلها بنصها الحرفي :

هيسي ـ لقد وصلت لتوي من قصر البندقية ٠ وقد وافـق الدوتشي علـى الموضوع بروح ودية ٠ وهو يرسل اليك بالتحيات والاحترام ٠ وقد وصلته المعلومات من النمسا ومن شوشنيغ بالذات ٠ واعلن ان تدخل ايطاليا هو مستحيل ، وهو لن يعدو ان يكون الا كذبة كبيرة او « بلفة » وليس في امكانه ان يقوم بها ٠ وهكذا افهم شوشنيغ ان سوء الحظ قضى بذلك ، ولا يمكن تبديل الامور الان ٠ ولم يلبث ان أعلن موسوليني ان امر النمسا لا يهمه على الاطلاق ٠

هتلـر ـ حسنا ، اخبر موسوليني ، اني لن انسى عمله هذا ٠

هيسي ـ نعـم

هتلـر ـ ابدا ، ابدا ، مهما حصل ٠ وانـــا لا زلت مستعدا لاجراء معاهدة مختلفة معـه ٠

هيسي ـ نعم ، وقد اخبرته بذلك ايضا ٠

هتلـر ـ وعندما تنتهي عملية النمسا ، ساكون مستعدا للمضي معه الى آخر الطريق ٠ ولن يهمني شيء ٠

هيسي ـ نعم ايها الفوهرر

هتلـر ـ اسمع ، ساعقد اي معاهدة ٠ ولن اخشى بعد الان عما سيترتب من الناحية العسكرية اذا ما اشتبكنا في صراع ما ٠ ويمكنك ابلاغـه شكري العميق ، ولن انسى مطلقا عمله هذا ٠

هيسي ـ نعم ، ايها الفوهرر

هتلـر ـ لن انساه مطلقا ، مهما حدث ٠ واذا ما احتاج الى اي مساعدة ، أو حين يجد نفسه في اي خطر فليثق بأني سالازمه مهما حدث ، ولـو كان العالم كله ضده ٠

هيسي ـ نعم ، ايها الفوهرر

ولا شك عندما قام بانقاذه من الحكومة المؤقتة الايطالية عام ١٩٤٣ قد وفى هتلر بوعده ٠

* * *

لقد كانت امنية العريف النمساوي ، ان يدخـــل الـى فيننا دخـول المنتصرين ٠ وفي يـوم السبت في الثانـــي عشر من شهر اذار ، اعد الحزب النازي استقبالا حافـــلا للبطل المظفر ٠ الا انه لم يصل اي شخص الـــى

العاصمة ، بل وصل ثلاثة من الجنود البافاريين الذين قدموا لاعداد الترتيبات اللازمة للجيش المحتل ، فرفعوا على الاكتاف · وبدأت الاخبار تتسرب ببطء ، فقد توقف الجيش عند الحدود مترددا ، ثم بعد ذلك عند لينز · وبالرغم من الاحوال الجوية المؤاتية وسهولة المواصلات ، فقد تحطمت معظم الدبابات · وبانت نقائص المدفعية الثقيلة وعيوبها ، التي سدت الطريق من لينز الى فيينا المتوقفة عن الحركة · وقد القي باللوم على الجنرال فون ريخناو ، وهو من اقرب المقربين الى الفوهرر ، الذي كشف التقصير الفاضح في تجهيزات الجيش الالماني ·

وقد استاء الفوهرر كثيرا حين مر في شوارع لينز ورأى هذه الفوضى في حركة السيارات ، وامر بفصل الدبابات الخفيفة لتستمر في مسيرها ، وهكذا دخلت العاصمة في صباح يوم الاحد ، ثم نقلت السيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة وغيرها في شاحنات ضخمة لتصل الى فيينا في الموعد المحدد وتشترك في الاستعراض · ولا شك ان صورة هتلر ، لا تزال ماثلة امام اعيننا ، حين عبر بسيارته شوارع فيينا بين الوف الجماهير المحتشدة ، منهم المتحمس له ومنهم الخائف منه · الا ان الفوهرر لم يكن راضيا عن فشل آلياته الثقيلة ، وراح يوزع التهم على جنرالاته الذين ردوا عليه بأنهم جذروه من مغبة هذا الهجوم لان الجيش لم يكن مهيئا بعد للاشتراك في صراع كبير · الا ان الجميع سيطروا على اعصابهم ، فاحتفظوا بالمظاهر ، وسارت الاحتفالات الرسمية والاستعراضات في مواعيدها · وبانتهاء الاستعراض وقف هتلر واعلن حل الجمهورية النمسوية ، وضمها الى الرايخ الالماني ·

* * *

في هذه اللحظة كان الهر فون ريبنتروب يستعد لمغادرة لندن لاستلام مهام منصبه الجديد كوزير للخارجية · وقد دعى المستر تشمبرلين ، في هذه المناسبة الى حفلة غذاء تقام على شرف السفير بمناسبة سفره ·· وكنت من جملة المدعوين · وكانت زوجتي تجلس قرب السير الكسندر كادوغان على مقربة من طرف الطاولة · وبينما كنا نتناول الطعام جاء رسول من وزارة الخارجية يحمل رسالة الى السير الكسندر ، الذي ما ان قرأها حتى هب واقفا من مكانه ، ثم تقدم من رئيس الوزراء وسلمه الرساله · وقد لاحظت ان الرئيس قد غرق في قراءة الرسالة ، التي بدت هامة للغاية ، بينما عاد السير الكسندر الى مكانه بكل هدوء · وكانت محتويات الرسالة ، كما علمت بعد

ذلك ، ان هتلر قد غزا النمسا في هذه اللحظة ، وان قواته تتقدم نحو العاصمة· وبعد قليل ، قامت السيدة تشمبرلين ودعت الحضور الى شرب القهوة في غرفة الجلوس · وبدا في هذه الدقيقة ان المستر تشمبرلين وزوجته ارادا انهاء المأدبة باسرع وقت ، فسيطر شعور من الخوف والقلق على الحضور ، وقاموا ليودعوا ضيف الشرف ·

اما فون ريبنتروب فكان محتفظا بهدوئه ووقاره ، كأنه غير عالم بما يحدث في تلك اللحظات · وتقدمت من السيدة ريبنتروب ، وقلت لها « ارجو ان تتمكن المانيا وانكلترا من الحفاظ على صداقتهما ··· » وقد اجابتني بلهجتها الرقيقة ··· « أرجو أن تحرصوا على ان لا تفقدوا هذه الصداقة » · وتأكد لي ان السفير وزوجته كانا على علم بما جرى ، وانهما يحاولان ابعاد الرئيس تشمبرلين عن عمله وعن جهاز الهاتف · الا انه اضطر الى ان يقول للسفير « انا آسف جدا ، لاضطراري للذهاب لامر هام جدا ··· » ثم غادر الغرفة على الفور · وبقي فون ريبنتروب وزوجته ، حتى اضطر الجميع بعد ذلك الى مغادرة المنزل · وكانت هذه اخر مرة شاهدت الهر ريبنتروب قبل ان يشنق ·

وتحرك الروس هذه المرة ، ليدعوا الى مؤتمر عام لبحث الوضع العام· واقترحوا اعادة البحث في مشروع تنفيذ الميثاق الفرنسي ـ السوفياتي ، ضمن حدود عصبة الامم ، في حال تكررت تهديدات المانيا للسلام · الا ان باريس ولندن استقبلتا هذا الاقتراح بكثير من البرود · فقد كانت فرنسا منشغلة بأشياء اخرى · وكان المستر تشمبرلين لا يزال على تشاؤمه وانهيار معنوياته ، ولم يكن ليتفق معي حول تفسير الاخطار المتوقع حصولها وامكانية تجنبها او معالجتها حين تحصل · فقد كنت في ذلك الوقت احبذ هذه الفكرة ، اي فكرة قيام تحالف فرنسي ـ بريطاني ـ روسي ، وكنت متأكدا ان هذا هو الحل الوحيد لكبح جماح النازيين ·

الفصل الثامن

تشيكوسلوفاكيا

عندما كان هتلر متجها في سيارته نحو فيننا ، التفت الى الجنرال فون هولدر وقال له « لا شك ان خطوتنا هذه ستقلق التشيكيين » • وادرك هولدر على الفور ما قصده هتلر بكلمته تلك ، وظهرت له نواياه المقبلة •

وقد سمعنا ان غورنغ ، يوم دخلت الجيوش الالمانيـة أراضي النمسا ، قال للوزير التشيكي المفوض في برلين ، مؤكدا له بصورة قاطعة بانه ليس لالمانيا اية نوايا سيئة ضد تشيكوسلوفاكيا • كما اعلن المسيو بلوم ، رئيس وزراء فرنسا يوم الرابع عشر من شهر اذار ، في حديث له مع الوزير المفوض في باريس ، اعلن له بكل جدية ووقار ، ان فرنسا ستقوم بالتزاماتها تجـاه تشيكوسلوفاكيا دون اي قيد أو شرط • الا ان جميع هذه التأكيدات لم تستطع أن تغير شيئا من الحقيقة الرهيبة •

ومن جهة ثانية ، حاولت بريطانيا الوصول الى اتفاق مع ايطاليا حـول البحر الابيض المتوسط ، رغبة منها في وقف المانيا عند حدها ، كما ان مثـل هذا الاتفاق سيقوي من مركز فرنسا ، ويمكنها هي من مراقبه ما يجري مـن احداث في أواسط اوروبا • وقد حاول موسوليني ان يتخذ لنفسه مركزا قويـا للمساومة خاصة بعد ان اطمأن لسقوط ايدن • فقرر الاتفاق مع بريطانيا ، وتم توقيع الاتفاق الانكليزي الايطالي في السادس عشر من شهر نيسان عام ١٩٣٨، الذي يقضي بالسماح لايطاليا بالعمل في الحبشه واسبانيا على هواها ، مقابل حسن نيتها في أواسط اوروبا • وكانت وزارة الخارجية كثيرة التشكك في هذه

الاتفاقية · وقد قال لنا مؤرخ حياة تشمبرلين ، فيلينغ ، انه كتب في رسالة شخصية خاصة : « لو رأيت مسودة الاتفاقية التي قدمتها وزارة الخارجية ، لقلت انها كافية لان تجمد دبا قطبيا ! »

وكنت من ناحيتي اشاطر وزارة الخارجية مخاوفها تلك ·

وكان هتلر من جهته يراقب الوضع باهتمام ، فهو يعلم ان موسوليني بحاجة الى مساعدته حين تطلق يده للعمل في الحبشة ، وهذا ما سيفرض عليه قبول ما ستعمله المانيا في تشيكوسلوفاكيا · وراحت الدوائر الرسمية تدرس البيانات الانكليزية والفرنسية ، وشعرت بارتياح لعزم الدولتين الغربيتين على اقناع التشيكيين بوجوب التروي حفاظا على السلام في اوروبا · وفي هذه الاثناء ، بدأ الحزب النازي السوديني بزعامة هانلاين ، بوضع لائحة بمطالبه المتضمنة الحصول على الحكم الذاتي في المناطق المجاورة لالمانيا · وسارع الوزيران البريطاني والفرنسي الى زيارة الوزير التشيكي لاقناعه و « للاعراب عن املهما الصادق في ان تمضي الحكومة التشيكية الى هذا الحد ، رغبة منها في تسوية النزاع وحسمه » ·

وفي شهر ايار ، وصلت التعليمات من المانيا ، الى الالمان في تشيكوسلوفاكيا، بزيادة الاضطرابات · وكان موعد الانتخابات قد حان ، وبدأت الحكومة الالمانية تساعد الفوضى ، بحملة مركزة من حرب الاعصاب ، والاشاعات القائلة ان القوات الالمانية تتجمع على الحدود التشيكية · ولم تؤد التطمينات التي اذاعتها حكومة المانيا ، الى تهدئة التشيكيين الذين اعلنوا هم ايضا التعبئة العامة في صفوفهم ·

لقد كان هتلر متيقنا ان انكلترا وفرنسا لن تدخلا الحرب دفاعا عن تشيكوسلوفاكيا · لذلك دعا مستشاريه واصدر التعليمات بالاستعداد للهجوم على تشيكوسلوفاكيا · الا ان هذا الهجوم المطلوب لم يكن بالامر السهل ، اذ يترتب على المانيا ان تقذف نحوا من خمس وثلاثين فرقة عسكرية لتتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية التشيكية ، فالجيش التشيكي يعتبر من احدث الجيوش كفاءة وتجهيزا · هذا بالاضافة الى ان روسيا السوفياتية مرتبطة مع تشيكوسلوفاكيا ، وهي تتربص بالمانيا في حال محاولتها الهجوم على الاراضي التشيكية ·

الا ان هتلر ، بالرغم من اعتقاده بنجاح فكرته بالاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا ، فقد حاول ان يطمئن قادته الذين عارضوا فكرته تلك ، بأن قال لهم بانه لن يبدأ هجومه الا حين يتأكد ان فرنسا وانكلترا لن تتدخلا في

هذه المعركة· الا انه في الثاني عشر من شهر ايلول وفي خطاب القاه في اجتماع لشبيبة الحزب في نورمبرغ ، هاجم الحكومة التشيكوسلوفاكية بعنف ، ولم تلبث الحكومة هذه ان ردت عليه في اليوم التالي بأن فرضت الاحكام العرفية في بعض المناطق من الجمهورية ···

* * *

وفي الحادي والعشرين من شهر ايلول القى لتفينوف في جلسة الجمعية العامة لعصبة الامم انذارا رسميا هذا نصه :

« ان جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، تعاني في الايام الحاضرة من تدخل احدى الدول الاجنبية المجاورة ، في شؤونها الداخلية ، كما انها تتعرض لتهديد سافر بالهجوم عليها · ولذلك سيجد هذا الشعب الذي نعتبره من اعرق الشعوب الاوروبية حضارة ، والذي كافح طويلا من اجل الحصول على استقلاله ، سيجد هذا الشعب نفسه مضطرا على حمل السلاح من اجل الدفاع عن كيانه واستقلاله · وقد تلقيت منذ ايام سؤالا من الحكومة الفرنسية ، عن موقف بلادي في حال تعرضت تشيكوسلوفاكيا لهجوم اجنبي مفاجيء · وقد وجهت الى الحكومة الفرنسية جواب بلادي الصريح التالي :

« اننا سنقوم بالتزاماتنا وسنطبق ميثاق عصبة الامم ، وسنقدم كل مساعدة ممكنة لتشيكوسلوفاكيا ، وذلك بالتعاون مع فرنسا · كما ان وزارة الحربية على اتم الاستعداد للاشتراك في اي مؤتمر يعقد بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا لدرس الوسائل المناسبه لمواجهة الاحداث · »

كما ان حكومتي قد تلقت من الحكومة التشيكوسلوفاكية سؤالا حول موقف الاتحاد السوفياتي وهل هو على استعداد لتقديم المساعدات بموجب الاتفاق السوفياتي ـ التشيكي ، اذا قامت فرنسا هي الاخرى بالوفاء بالزاماتها · وكان جواب حكومتي على هذا السؤال واضحا بالايجاب · »

ولم يلق هذا البيان الصريح اذنا صاغية لا من حكومة بريطانيا العظمى ولا من حكومة فرنسا · فقد تجاهلت الدولتان هذا العرض ، ولم يحسب اي حساب لهذه الدولة الكبرى · وقد اثرت هذه المعاملة المنطوية على الكثير من الازدراء ، وتركت اثرا كبيرا على عقلية ستالين وتفكيره ، وقد كلفنا الازدراء والتجاهل الكثير من التضحيات الغالية فيما بعد ·

والقى هتلر في السادس والعشرين من الشهر الحالي ، خطابا هاجم فيه بعنف تشيكوسلوفاكيا ورئيسها ، الا انه كان معتدلا تجاه فرنسا وبريطانيا العظمى . ومما قاله في خطابه ، انه يجب على تشيكوسلوفاكيا ان تتخلى فورا عن بلاد السوديت ، وانها اذا ما تخلت عن هذه المناطق ، فسيعتبر القضية منتهية تماما ولن يعود يهمه امر تشيكوسلوفاكيا على الاطلاق . واضاف بقوله ان هذا المطلب هو اخر مطلب اقليمي له في قارة اوروبا . وفي الساعة الثامنة من الليلة نفسها صدر البلاغ التالي عن وزارة الخارجية البريطانية :

« بالرغم من المحاولات المبذولة من جانب بريطانيا لتسوية المشكلة التشيكوسلوفاكيا ، واذا ما حدث ان تعرضت البلاد الى هجوم الماني عليها ، فان فرنسا ستسارع الى مساعدتها . كما ان بريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي سيقفان بلا شك ، الى جانب فرنسا . »

وشعرت ان ساعة القتال قد اقتربت ، فقد كان عدد الجيش التشيكي مليونا ونصف المليون من الجنود المجهزين باحدث الاجهزة ، تساندهم آليات جبارة رائعة التنظيم . وبدأت تعبئة الجيش الفرنسي في الحال ، كما اصدرت الاميرالية البريطانية الاوامر بتعبئة الاسطول .

* * *

وفي هذه الاثناء ، بدأ الصراع بين هتلر ومستشارية . فقد بدا لهم ان الازمة قد تفاقمت بشكل خطير . فهناك نحو من ثلاثين الى اربعين فرقة مدرعة قد احتشدت على طول الحدود الشرقية لالمانيا ، كما ان الجدار الغربي للبلاد قد سدته الحشود الفرنسية التي كانت تفوق قوة المانيا بنسبة ثمانية الى واحد . كذلك الجيوش السوفياتية التي راحت تشق طريقها عبر بولنده ورومانيا ... وفي الحال قام فريق من الجنرالات الالمان بمؤامرة لاعتقال هتلر و « انقاذ المانيا من هذا المجنون »

وفي هذا الوقت ، ابرق المستر تشمبرلين الى هتلر ، دون ان يستشير احدا ، مقترحا عليه زيارته وطار المستر تشمبرلين الى المانيا وقد اقتنع ان حل المشكلة التشيكية هو في فصل منطقة السوديت عن تشيكوسلوفاكيا ، ولذلك سيقنع هتلر ويتخلى عن هجومه . وفي ميونيخ ، حيث نزل المستر تشمبرلين ، لحق به المسيوديلادييه رئيس وزراء فرنسا ، وموسوليني ، ولم توجه دعوة الى روسيا لحضور هذا الاجتماع ، كما لم يسمح للتشيكيين بالحضور ايضا . وقد ابلغت الحكومة التشيكوسلوفاكية بان مؤتمرا سيعقد في اليوم التالي يضم ممثلين عن الدول الاوروبية الاربع فقط . وانعقد المؤتمر

عند الظهر من اليوم نفسه واستمر حتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ، وتم الوصول الى اتفاق بين « الاربعة الكبار » ، واعدت مذكرة وقع عليها الجميع في الجلسة نفسها ، وكانت المذكرة تتضمن قبولا بكل ما تطلبه المانيا وموافقة تامة على وجوب الجلاء عن منطقة السوديت خلال عشرة ايام ، كما تقرر تعيين لجنة دولية للاشرا فعلى تخطيط الحدود النهائية ٠

وهكذا بدأت عملية تقطيع تشيكوسلوفاكيا ٠ ولم تنتهي المشكلة عند هذا الحد ، فقد وجهت بولندا انذار الى الحكومة التشيكوسلوفاكية يقضي بتسليم منطقة « تيشين » الواقعة على الحدود بين البلدين ، و ذلك خلال اربع وعشرين ساعة ، ولم يكن هناك من سبيل لرفض هذا المطلب القاسي ٠ كما جاء المجريون يطالبون هم ايضا بحصتهم من الغنيمة ٠

* * *

ليس من السهل ، بعد ان مررنا خلال تلك السنوات القاسية ان نصور للاجيال القادمة حقيقة المشاعر المتأججة في نفوس البريطانيين نتيجة لاتفاق ميونيخ ٠ فقد انقسم الرأي بين افراد أسر المحافظين واصدقائهم الى حد كبير جدا لم أر مثيلا له في حياتي ٠ وكان الرجال والنساء الذين تربطهم ببعضهم البعض علاقات متينة ينظرون الى بعضهم البعض نظرات كلها احتقار وغضب ٠ ونحن لم نكن لنهتم كثيرا آنذاك بالرغم من نظرات السخرية والهزء التي يقابلنا بها انصار الحكومة ٠ واهتزت اركان الحكومة ، الا انها ظلت متماسكة ٠ ولم يصمد الا وزير البحرية المستر دا فكوبر ، الذي قدم استقالته بعد ان بقي محافظا على كرامته حين أمر بتعبئة الاسطول ٠ ففي الوقت الذي كان المستر تشمبرلين يسيطر على الرأي العام البريطاني سيطرة تامة ، كان المستر كوبر يندفع من بين الصفوف ليعلن الى الرأي العام معارضته التامة لموقف رئيسه ٠

والقى المستر كوبر خطاب استقالته ، في مجلس العموم اثناء مناقشة موضوع اتفاق ميونيخ ٠ وقد اعتبرت هذه الاستقاله حدثا بارزا في الحياة البرلمانية ٠ وتحدث الوزير لمدة اربعين دقيقة بحرية تامة مرتجلا خطابا وطنيا سيطر فيه على مشاعر خصومه ومعارضيه من نواب الحزب ٠ وصفق له نواب العمال والاحرار المعارضين للحكومة ، طويلا وهتفوا له محيين ٠ و كانت هذه الحادثة بداية انشقاق في حزب المحافظين ٠

ولا زلت اذكر حين قمت في المجلس وأعلنت « اننا قد منينا بهزيمة منكرة

لم يسبق لها مثيل » فقد ثارت ضدي عاصفة ضخمة في المجلس مما اضطرني الى التوقف عن الكلام لفترة قبل ان اعود الى متابعة كلامي · فقد كان هناك شعور من الاعجاب بما يبذله المستر تشمبرلين من جهود صادقة للمحافظة على السلام ، وخاصة محاولاته الشخصية التي قام بها في هذا الصدد · وهنا لا بد لي من ذكر الاخطاء وسوء التقدير للحقائق الراهنة التي وقع فيها تشمبرلين في محاولاته ، وان كنت لا اعارض الدوافع التي حدت به الى اتخاذ المواقف التي وقفها والتي تحتاج الى الكثير من الشجاعة الادبية التي كان المستر تشمبرلين يتمتع بها · وقد مدحت فيه هذه الشجاعة بعد عامين في خطابي الذي القيته بمناسبة وفاته ·

لقد كان في امكان الحكومة ان تعتمد حجة أخرى، بالرغم من انها تعرض بسمعة الحكومة نفسها · فلم يكن امر عدم استعدادنا لدخول الحرب بالامر الخفي ، لكن هل كان من هو اسرع مني للادلال على هذه الحقيقة ؟ لقد سمحت بريطانيا للقوة الجوية الالمانيا انتتفوق عليها· وكانت جميع مراكزنا معرضة للهجوم ، دون اي حماية · ولم يكن في بلد من اكبر بلدان العالم واكثرها كثافة في السكان ، سوى مائة مدفع مضاد للطائرات · وهذا المثل من ابسط الادلة على الواقع الاليم ·

لقد ادى اتفاق ميونيخ الى سلب الحلفاء جيشا قويا ، هو الجيش التشيكوسلوفاكي المجهز باحدى وعشرين فرقة نظامية ، بالاضافة الى فرق الخط الثاني التي تبلغ ست عشرة فرقة · اما خط دفاعها المحصن ، فقد كان يتطلب في هذه الاثناء ، ثلاثين فرقة المانية اي ما يعادل قوة الجيش الالماني الرئيسية باسرها · وقد ذكر الجنرال الالماني يودل ان ثلاث عشرة فرقة المانية ، بقيت في الغرب عندما جرى توقيع اتفاقية ميونيخ · وكانت الخسارة الفادحة حين قضت تلك المعاهدة بسلخ جزء هام من الاراضي التشيكية بما فيها مصنع سكودا البالغ الاهمية الذي كان يعتبر اهم مصنع في اوروبا الوسطى ، وكان انتاجه بين شهر آب ١٩٣٨ وايلول ١٩٣٩ معادلا لما تنتجه جميع المصانع البريطانية من سلاح · وبذلك اصبح هذا المصنع ملكا خاصا لهتلر قدمناه له على طبق من فضة ·

الفصل التاسع

براغ ، البانيا ، وضمانة بولندا

في شهر كانون الثاني عام ١٩٣٩ . سافر فون ريبنتروب الى وارسو لمواصلة هجومه الدبلوماسي المركز على بولندا ٠ فابتلاع تشيكوسلوفاكيا يجب ان يتبعه حصر بولندا ٠ والمرحلة الاولى تقضي بعزلها عن البحر وتأكيد سيادة المانيا في دانزيغ ، ومد سلطتها على سواحل البلطيق حتى ميناء ميميل الليتوني ٠ اما الحكومة البولندية فقد قاومت بشدة هذا الضغط ، بينما كان هتلر يترقب الفرصة المناسبة لبدء العمليات العسكرية ٠

وفي شهر اذار انتشرت الشائعات عن تحركات مريبة تقوم بها الجيوش الالمانية في المانيا والنمسا، خاصة فيمنطقة فينا سالزبورغ وقد قالت الشائعات ان اربعين فرقة قد اصبحت جاهزة للمعركة ٠ وفي نفس الوقت كان السلوفاكيون ، بعد ان تأكدوا من ان المانيا ستقوم بمعاونتهم ، يخططون لفصل بلادهم عن الجمهورية التشيكوسلوفاكية ٠ واحست بولندا بشيء من الارتياح ، بعد ان زال الخطر عنها مؤقتا ، واعلن وزير خارجيتها في وارسو ان حكومته تعطف على مطالب وآمال السلوفاكيين ٠

وفي بريطانيا ساد الشعور بالتفاؤل الضال على الرغم من المحن التي كانت تقاسيها تشيكوسلوفاكيا في ذلك الحين نتيجة للضغط الهائل من المانيا ٠ اما الصحف البريطانية التي سبق وايدت اتفاقية ميونيخ ، فلم تفقد ثقتها في السياسة التي جرت اليها البلاد ٠ وقام وزير الداخلية والقى خطابا في العاشر من شهر اذار اعرب فيه عن امله في مشروع خمس سنوات من السلم يؤدي

بعد ذلك الى خلق « العصر الذهبي » • وكان البحث جاريا لانشاء علاقات تجارية مع المانيا • وقامت الصحيفة الاسبوعية الشهيرة « بنش » بنشر صورة كاريكاتورية لجون بول ، وهو يستيقظ من كابوس مرعب • وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه هذه الصورة ، وجه هتلر اخر انذار الى الحكومة التشيكية التي اصبحت ضعيفة واهنة بعد ان ضاعت خطوطها الدفاعية المحصنة نتيجة لاتفاقيه ميونيخ وهجمت الجيوش الالمانية على العاصمة براغ واحتلتها دون مقاومة • ولا زلت اذكر اني كنت في غرفة التدخين ، اجلس مع المستر ايدن حين طالعتنا صحف المساء بهذا النبأ الهام• وقد ذهلنا من هذا العدوان السافر المفاجيء الذي لم نكن نتوقعه • ولم نصدق ان حكومة جلالته ، بما لديها من اجهزة قوية للاستخبارات لم تعلم من قبل بمثل هذا الهجوم المفاجيء •

وفي اليوم الرابع عشر من اذار اعلن السلوفاكيون استقلالهم • واجتازت القوات المجرية التي تؤيدها بولندا ، اجتازت الحدود الى المناطق الشرقية من تشيكوسلوفاكيا التي سبق وطالبت بها • ووصل هتلر بعد قليل الى براغ ليعلن فرض حماية المانيا على تشيكوسلوفاكيا ويعلن ضمها الى الرايخ الالماني •

وكان رد المستر تشمبرلين على هذا العدوان في خطاب القاه في مجلس العموم يوم الخامس من شهر اذار حيث قال : « في تمام الساعة السادسة من هذا الصباح تم احتلال القوات الالمانية لبوهيميا ، كما اصدرت الحكومة التشيكوسلوفاكية اوامرها بعدم المقاومة • » ثم قال عن الضمانة البريطانية لحدود تشيكوسلوفاكيا : « لقد تبدلت الاوضاع كلية عندما اعلن مجلس الدايت السلوفاكي انفصاله واستقلال سلوفاكيا• وادى بالتالي هذا الاعلان الى نهاية الدولة التي ضمنا حدودها بسبب من الانشقاق الداخلي • لذلك فان حكومة جلالته تجد نفسها غير مرتبطة بذلك الالتزام ••• »

وكان من المقرر ان يلقي رئيس الوزراء المستر تشمبرلين خطابا في برمنغهام بعد يومين • وكنت اتوقع ان يكون هذا الخطاب متسامحا ، الا اني فوجئت بتغير شامل لم اكن انتظره • وقد ادرك تشمبرلين الخطأ الذي وقع فيه كما ادرك انه خدع نفسه ، وفرض هذا الخطأ على الراي العام البريطاني• فبدل موقفه المسالم السابق مديرا له ظهره ، وقام ليكشف امام العالم عن حقيقة شخصيته القاسية الصلبة • قام المستر تشمبرلين ليلقي خطابا عنيفا هاجم فيه هتلر بشدة متهما اياه بالتنكر لجميع الوعود التي قطعها على

نفسه في مؤتمر ميونيخ وذكر جميع التأكيدات التي اكدها هتلر حين قال « ان هذا هو آخر مطلب اقليمي لنا في اوروبا » وقال رئيس الوزراء :

« لقد كانت غالبية الشعب البريطـاني مقتنعـة ، بعد مؤتمر ميونيخ ، بوجوب التقيد بسياسة الحفاظ على السلام ، اما الان فـلا يسعنـي الا ان اشارك هذا الشعب خيبة امله المريرة وسخطه الشديد لتحطيم تلك الآمـال • اذ كيف يمكننا جمع هذه النقائض بين تاكيدات هتلر السابقة واحداث هذا الاسبوع ؟ وكيف سنطمئن الى ان هذا الهجوم لن يتلوه الهجوم الجديد علـى دولة صغيرة اخرى ؟ وهـل سيكون هـجومـه هذا كخطوة اولـى نحو فرض سيطرته على العالم بالقوة ؟

وفي الثلاثين من شهر اذار اعلن المستر تشمبرلين في البرلمـان : بعد ان تأكد له ان خطوة هتلر التالية هي الهجوم على بولندا وابتلاعها ••

« في حال وجود اي اعتداء من شأنه ان يهدد استقلال بولندا ، فـان حكومة جلالته ستجد نفسها مضطرة في الحال الى مساعدة الحكومـة البولندية بكل ما في وسعها • وقد اكدت حكومة جلالته ذلك الى الحكومة البولندية •

« واود في هذه المناسبة ان اقول ، ان حكومة فرنسا قد فوضتني ان اوضح موقفها المطابق لموقفنا من هذه المسألة الهامة ••• وقد ابلغت جميع حكومات الدومينيونات بهذا القرار • » !!

ولم يكن الوقت يسمح لتبادل التهم بين الاحزاب في المجلس ، وايد جميع الزعماء الضمانة التي قدمتها الحكومة الى بولندة • وقلت معلقا على هـذا القرار « لن نجد اية وسيلة اخرى سوى ان نعمل هذا » فقد كان هذا العمل ضروري بعد ان وصلنا الى هذا الحد • ولكن هذه الضمانة تعني حتما نشوب حرب عالمية •••

وهكذا نصل الان في هذه القصة من الاحكام الخاطئـة التـي ارتكبهـا رجال اكفاء من ذوي النيات الحسنة • ولا شك ، بعد ان وصلنا نتيجة لتلك الاخطاء الى هذا المأزق ، لنضع المسؤولين عن زمام الامور مهما كانت نياتهم حسنة ، يتحملون وزر اعمالهم امام التاريخ • وبنظرة الى الوراء سنجد ما سبق وقبلناه او ما سبق وتخلينا عنه : لقد كانت المانيا منهوكة القوى مجردة من السلاح بفضل معاهدة صارمة • وبعد ذلك قامت المانيا لتتسلح من جديد وتتحدى تلك المعاهدة ، ثم تخاذلنا فتفوقت علينـا المانيـا في ميـدان الطيران الحربي ، ثم احتلت منطقة الراين بالقوة واحتلت بناء تحصينات خط سيغفريد،

ثم انها اقامت معاهدة محور بينها وبين ايطاليا ، ثم انقضت على النمسا وابتلعتها • ثم تخلينا نحن عن تشيكوسلوفاكيا ، وساعدنا على تحطيمها حين وقعنا معاهدة ميونيخ وسلمنا بذلك خط دفاعها المحصن الى الالمان بالاضافة الى مصانع السلاح في سكودا التي انتقلت بموجب تلك المعاهدة الى ايدي الالمان ليقوموا بتزويد انفسهم بالسلاح • ثم تجاهلنا وساطة ومساعي الرئيس روزفلت لاقامة سلام في اوروبا ، ثم اهمالنا لرغبة الاتحاد السوفياتي الصادقة في الاشتراك مع دول الغرب لانقاذ تشيكوسلوفاكيا • كل هذه الاخطاء والتخليات ذهبت هباء منثورا •

والان جاءت بريطانيا لتقدم ضمانتها لبولندا ، تلك الدولة التي ساعدت على تقطيع اوصال تشيكوسلوفاكيا قبل ستة اشهر فقط • وسنضطر الان لكي ندافع عنها ان نهاجم المانيا التي اصبحت اكثر قوة ومناعة مما كانت عليه عام ١٩٣٨ حين تراجعنا • اما الآن فقد عقدنا العزم على مجابهة المانيا • لكن هذا القرار قد اتخذناه في اسوأ الظروف ، وعلى اسس غير مقنعة والتي ستؤدي بحياة الملايين من البشر •••

* * *

ودفع البولنديون ثمن مقاطعة تيشن التي استولوا عليها من تشيكسلوفاكيا • فعندما استقبل فون رينبتروب سفير بولندة في برلين ، كانت لهجته جافة حادة اكثر من المرات السابقة ، فقد نجم عن احتلال بوهيميا وانشاء دولة سلوفاكيا ، وصول الجيش الالماني الى حدود بولندا الجنوبية • وقد قال له السفير البولوني ، ان رجل الشارع العادي لا يمكنه فهم السبب الذي دعا المانيا الى حماية سلوفاكيا بشكل يعتبر عملا عدوانيا موجها ضد بولندة ، كما طلب السفير معلومات عن المحادثات التي جرت بين فون ريبنتروب ووزير خارجية ليثوانيا ، وبالاخص فيما يتعلق بمرفأ ميمل • ولم يأت الرد على سؤاله هذا الا بعد يومين حين احتلت المانيا هذا المرفأ •

ولم يعد بالامكان صد الهجوم الالماني على اوروبا الشرقية • اذ ان المجر قد وقفت الى جانب المانيا • كما انبولندا حينتخلت عن تشيكوسلوفاكيا اصبحت غير مستعدة للتعاون مع رومانيا ، كما انها ورومانيا لا ترضيان بمرور القوات الروسية عبر اراضيها للوقوف في وجه المانيا • وكان محور الموضوع يدور حول التفاهم مع روسيا بالذات !!

وفي السادس والعشرين من شهر اذار القى موسوليني خطابا عنيفا بين فيه بشدة مطالب ايطاليا من فرنسا بشأن البحر الابيض المتوسط • وفي

السابع من نيسان نزلت القوات الايطـالية في البانيا ولـم تلبث ان احتلـت البلاد كلها بعد مدة وجيزة · وهكذا اصبحت البانيا نقطة ارتكـاز للجيوش الايطالية للاعتداء على اليونان ، بالاضافة الى تهديدها ليوغوسلافيـا وشـل حركتها ·

وفي الخامس عشر من نيسان بعث الرئيس روزفلت رسالتين شخصيتين الى هتلر وموسوليني طلب منهما التعهد بعدم القيام باي عدوان جديد لمـدة عشر سنوات او خمس وعشرين سنـة ··· وقـد رفض موسوليني ان يقرأ الرسالة تلك · الا انه قال بعد ان قرأها : « انها نتيجة لمرض شلل الاطفال »· ولم يكن ليعلم انه سيعـاني هو نفسه فيمـا بعدمن آلام مبرحة اشد من آلام شلل الاطفال ·

★ ★ ★

في شهر اذار من السنة نفسها ، شاركت في وضع مشروع قرار الـى المجلس نطلب فيه تاليف حكومة جديدة · وقد شاركني في وضع هذا المشروع حوالي ثلاثين نائبا محافظا من بينهم المستر انطوني ايدن · وظهرت حركـة قوية تدعو الى تاليف حكومة جديدة قوية ، واستمرت طوال الصيف · وكانت الشعارات تنادي بادخالنـا الى مثل هذه الحكومة · وشعر السير ستافورد كريبس ، الذي كان مستقلا في موقفه ، احس بقلق شديد من الاخطار التـي تهدد الوطن · وقـام بزيارتي وزيـارة عددا من الوزراء ودعى الـى تاليف حكومة « تضم الجميع » · ولم يكن باستطاعتي ان افعل شيئا في هذه الحال، الا ان وزير التجارة ، المستر ستانلي ، كان متحمسا لهذه الفكرة ، فكتب الى المستر تشمبرلين عارضا منصبه الوزاري اذا كان هذا يسهـل اعادة تاليـف وزارة جديدة وعلـى اسس جديدة · وقد اكتفى المستر تشمبرلين باستـلام رسالته دون التعليق عليها ·

وتبنت الصحف هذه الفكرة على مرور الايام، وتزعمت الدايلي تلغراف والمانشستر غارديان هذه الحملة وراحت تطالب بوزارة جديدة · وقد دهشت لهذا الحماس في المطالبة بوزارة جديدة ، وصرت ارى في الشوارع اللافتات ترتفع وتحمـل شعـارات « تشرشل يجب ان يعود » · وبدأت التظاهـــرات السلمية تجوب العاصمة وتتجمع امام المجلس تطالب باشتراكي بالوزارة · ولم اكن في ذلك الحين على اطلاع بهذه الاساليب مـن الاثـارة ، الا انه لـو طلب مني المشاركة في الحكم لما ترددت في ذلك · وقد شاء الحظ ان يحالفني في هذه الفترة ، فسارت الامور بطريقها الصحيح لتؤدي الى النتيجة المرتقبه والمخيفة ···

الفصل العاشر

على حافة الحرب

واخيرا وصلنا الى النقطة الحاسمة، التي تدهورت فيها جميع علاقاتنا مع المانيا ، والتي راحت تهدد بالانقطاع. ونحن الان نعرف ان هذه العلاقات لم تكن صادقة بين بريطانيا منذ اليوم الذي جاء فيه هتلر الى سدة الحكم . فقد كان هتلر يحاول اكراهنا بشتى الوسائل والطرق على قبول الوضع الحاضر والسماح له باطلاق يده في شرق اوروبا بينما كنا نقوم بدورنا في تهدئـــة الخواطر بكل اخلاص . وها قد جاء الوقت الذي فقدت فيه حكومة تشمبرلين كل أمل في تسوية الوضع المتأزم . وما ان اقتنعت الوزارة ان المانيا جادة في طريق الحرب ، حتى سارعت الى عقد المحالفات ومنح الضمانات دون تفكير بما قد تجره هذه الضمانات علينا من اعباء مرهقة ، بالاضافة الى امكاناتنا المحدودة في تقديم العون لتلك البلاد . وهكذا منحت ضمانات اخرى بالاضافة الى الضمانات السابقة ، الى كل من اليونان ورومانيا وعقدت حلفا مع تركيا .

وترتب بالتالي ، على الحكومة ، ان تدرس امكـانية تطبيق الوسـائل العمليـة لتنفيذ هذه الضمانـات نحو بولندا ورومـانيـا . وقد كـانت هذه الضمانات غير ذات قيمة ، من الناحية العسكرية ، ما لم تكن ضمن برنـامج من الاتفاقات يعقد مع روسيا . وحاولت الوزارة ان تنفذ هذا التحالف مـع روسيا فطلبت من السفير البريطاني في موسكو ان يبدأ سلسلة من المحادثات مع المسيو لتفينوف . ولم إكن انتظر اية نتيجة من هذه المحادثـات بسبب معاملتنا الجافة لروسيا في السابق . وبالرغم منذلك فقد قدم الروس مشروعا

لعقد تحالف بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي يقضي بتقديم العون الى دول اوروبا الشرقية التي تتعرض للغزو الالماني · وكانت العقبة الكبرى التي عرقلت هذا التحالف ، هو خوف تلك الدول الصغيرة من التعاون مع روسيا الذي يقضي بدخول الجيوش السوفياتية الى اراضيها للدفاع عنها ضد المانيا ، والسبب في ذلك خوفها من قلب نظام الحكم الحاضر وضم تلك البلاد الى النظام الشيوعي السوفياتي التي كانت تعارضه تلك البلاد · ووقعت البلاد في حيرة من امرها ، هل تخاف الغزو الالماني اكثر ام العون الروسي · وكان هذا التردد السبب في شل حركة السياسة البريطانية والفرنسية في تلك المنطقة ·

وقف المستر تشمبرلين مذهولا امام هذه المشكلة الجديدة ، وبدأ طريقة المماطلة والتسويف · ولو انه قبل هذا العرض الروسي لتغير وجه التاريخ وسارت الامور بطريقة تختلف عما وصلت اليه ، وعلى الاقل ، لن تكون النتيجة باسوأ مما اصبحت عليه بالفعل ·

وساد الصمت ، وأعدت انصاف الحلول والتسويات والمساومات · واصيب المشروع بضربة قاصمة ، ومنيت محادثات ليتفينوف بالفشل الذريع ، وبدا له ان التفاهم مع الدول الغربية اصبح مستحيلا ، وفقدت الثقة بين الروس والغرب ، وشعروا بوجوب اتباع سياسة خارجية مختلفة تماما عن السابق ، وذلك للحفاظ على سلامتهم · وصدر البيان الرسمي القاضي بعزل لتفينوف من منصبه في وزارة الخارجية ، وتكليف مولوتوف، رئيس الوزارة، بمهام الوزارة بدلا منه · وهكذا تم اقصاء الوزير اليهودي الذي كانت المانيا تكره وجوده ، وتعاون مولوتوف مع ستالين نفسه في رسم سياسة خارجية جديدة اكثر تحررا من السياسة السابقة ، واكثر انسجاما مع مصلحة روسيا الخاصة · ولم يكن امامهم الا طريقا واحدا ، هو تأييد هتلر المطلق ·

* * *

كان خوفي شديدا من تراجع حكومة جلالته عن ضمانتها لبولندا في حال تعرضها لهجوم الماني واسع النطاق · ولكن المستر تشمبرلين كان قد عقد العزم على خوض معركة ضارية مهما كان هذا العزم مريرا بالنسبة له· ولكنني لم اكن على معرفة وثيقة به كما اصبحت فيما بعد · وكان خوفي ان يقوم هتلر « ببلفة » جديدة من بنات افكاره ، كاختراعه لسلاح جديد رهيب يمكنه من تخويف مجلس وزارتنا المثقل بالاعباء · وكان الاستاذ ليندمان

يحدثني دائما عن الطاقة الذرية ، وقد طلبت إليه ان يطلعني على المعلومات الكافية حول هذا الموضوع ، ففعل وبعثت برسالة الى كنغزلي وود ، وزير الطيران ، هذا نصها :

« قرأت في احدى الصحف قبل اسابيع ، عن قصة الطاقة الهائلة التي يمكن بعثها من الاورانيوم ، وقد توصلت الاختبارات الحديثة الى اكتشاف هذه الطاقة بعد ان يتجزأ هذا النوع من الذرة بواسطة النيوترون · وقد اوحت هذه التجارب عن وجود قوة هائلة من المتفجرات التي يمكن ان تحتوي على قوة تدميرية مخيفة · ولكن يمكننا الاطمئنان الى ناحية هامة ، هوان هذا الاكتشاف الجديد لا يمكن وضعه في موضع الاستعمال قبل عدة سنوات ·

« وهناك دلائل تشير الى ان القصص والروايات ستحاك حول امكانية استخدام هذا الاختراع العلمي الجديد لاستخراج مواد متفجرة سرية منه ، قادرة على محو لندن من الوجود · وستجري محاولات عديدة من قبل رجال الطابور الخامس لاقناعنا باستخدام هذه التهديدات لقبول عملية استسلام من نوع جديد · لذلك رأيت من واجبي ان الفت نظرك الى ذلك ·

« اما الخوف من ان يكون الالمان قد اكتشفوا مثل هذا السلاح الرهيب ، فهذا لا يستند الى ا يإساس علمي صحيح · ولا شك في ان التلويح بهذا السلاح سيظهر وستنتشر الاقاويل المخيفة وستتضخم الاشاعات ، وكل املي ان لا تأخذ الجهات المسؤولة بهذه الاشاعات المضخمة · »

لقد كان هذا التكهن صحيحا ودقيقا بنفس الوقت · فالالمان لم يجدوا الطريق الصحيح ، بل تبعوا طريقا خاطئا وما لبثوا ان تخلوا عن فكرة البحث عن اختراع القنبلة الذرية ، واستمروا في إبحاثهم لاختراع الصواريخ الموجهة والطائرات التي تطير دون طيارين، بينما كنت والرئيس روزفلت نتخذ المقررات الهامة التي سآتي على ذكرها في الوقت المناسب ، لاتمام صنع القنابل الذرية على نطاق واسع ·



في السابع من شهر تموز صرح موسوليني للسفير البريطاني بكلمة حول

موقف بلاده من المانيا فقال : « قل لتشمبرلين ، انه اذا كانت بريطانيا راغبة حقا في الدفاع عن بولندا وحمل السلاح من اجلها ، فان ايطاليا لن تتأخر عن حمل السلاح والاشتراك مع حليفتها المانيا » • اما موقف موسوليني المستتر فكان اهتمامه الشديد في تثبيت مركزه في البحر الابيض المتوسط وشمال افريقيا، وحصوله على نتائج مرضية من جراء تدخله في اسبانيا ، واحتلاله لالبانيا • ولم يكن يرغب في الدخول في حرب اوروبية من اجل احتلال المانيا لبولندا • فبالرغم من تبجحه وادعاءاته فكان يدرك في قرارة نفسه ضعف مركزه العسكري السياسي • وربما كان على استعداد للدخول في الحرب عام ١٩٤٢ بعد ان تزوده المانيا بالسلاح اما في عام ١٩٣٩ فلا ، ثم لا •••

وفي الصيف ، بعد ان اشتد الضغط على بولندا ، اراد موسوليني ان يمثل الدور الذي مثله في ميونيخ ، كوسيط للسلام • الا ان هتلر كان قد عقد العزم على احتلال بولندا ، واوضح لتشيانو عن تصميمه لتسويه الوضع مع بولنده ، وانه سيضطر للدخول في حرب مع انكلترا او فرنسا ، وهو يطلب من ايطاليا الدخول معه في هذه الحرب ، وقال : « واذا قررت انكلترا الاحتفاظ بقوات كافية في بلادها ، فعليها ان ترسل بفرقتين من المشاة الى فرنسا مع فرقة مدرعة • وعليها ان تبعث بقاذفات القنابل الى المانيا ، اما الطائرات المقاتلة فيمكنها الاحتفاظ بها في بلادها ، لانها ستحتاج اليها هناك ، لان قواتنا الجوية ستهاجم انكلترا في الحال • وستحتاج الى تلك المقاتلات للدفاع عن بلادها • »
اما عن فرنسا فقال ان تدمير بولندا لن يستغرق طويلا ، وستتمكن المانيا مـ حشد جيوشها على خط ماجينو وستكون على اتم الاستعداد للدخول في معركة الحياة او الموت •••• ورجع تشيانو لينقل الى رئيسه ما سمعه من هتلر ، فلقاه مقتنعا هو الاخر ان الدول الديمقراطية ستخوض الحرب ، كما وجده اكثر تصميما على البقاء خارجها •



وقامت محاولات جديدة للتقرب من روسيا ، الا انها باءت جميعها بالفشل الذريع ، وقد قال لي ستالين حين زرته في شهر اب عام ١٩٤٢ ، عندما كنا في الكرملين ، موضحا ناحية واحدة من موقف روسيا عندما قال.« لقد تأكد لنا ان الحكومتين البريطانية والفرنسية غير عازمتين على الدخول في حرب مع المانيا اذا ما هاجمت بولندا ، وان رغبتهما في عقد الحلف الروسي ــ الفرنسي ــ البريطاني ليست كما تبدو في الظاهر ، بل لرغبتهما في كبح جماح هتلر • وكنا على ثقة تامة ان هذا الحلف لن يوقف هتلر • »

وقد سأل ستالين احد المفاوضين : « كم فرقة تستطيع فرنسا ان تقذف بها الى الميدان ضد المانيا ؟ » وكان الرد « مائة فرقة » ثم سأل « وكم تستطيع انكلترا ان ترسل ؟ » وجاءه الرد « فرقتين اولا ، ثم فرقتين فيما بعد » ·

ثم سأل « هل تعلمون كم فرقة نستطيع ان نقذف الى الميدان في حال دخلنا الحرب ضد المانيا ؟ » ولما لم يجبه احد من المتفاوضين استطرد قائلا : « اكثر من ثلاثماية فرقة ! » ····

وهنا ارى من الواجب ان اسجل نص الميثاق المعقود بين المانيا وروسيا، بعد ان فشلت المحاولات الغربية لاشراك روسيا في حلف ضد المانيا ، وبعد ان اتجهت روسيا نحو المانيا التي سارعت الى عقد ميثاق عدم اعتداء هذا نصه ·

« ترى الدولتان المتعاقدتان ، ان من الواجب عدم القيام باي عمل

وقد احتفل بتوقيع هذا الميثاق باحتفال رسمي كبير ، وقام ستالين ليشرب نخب هتلر وقال : « انا اعرف ان الشعب الالماني يحب زعيمه حبا كبيرا · لذلك احب ان اشرب نخبه » ·

نستخلص مما تقدم ان الاستقامة هي السياسة المثالية · وسنرى في هذا الكتاب امثلة عديدة على هذه النظرية · فقد يبدو الساسة والدهاة ، على خطأ في حساباتهم التي افترضوها · الا ان هذا المثل يبقى اوضح من غيره · فبعد اثنين وعشرين شهرا ارغم ستالين وعشرات الملايين من الشعب الروسي ان يدفعوا ثمنا باهظا ومخيفا لما وقع ····



الفصل الحادي عشر
الحرب

اصدر هتلر بيانه الاول في الحادي والثلاثين من شهر اب :

١ ــ لما فشلت جميع الاحتمالات السياسية لتسوية الوضع على الحدود الشرقية بطريقة سلمية ، ولما كانت الاوضاع الراهنة غير محتملة ، فقد قررت ان افرض الحلول بالقوة ٠

٢ ــ يجب تنفيذ الهجوم على بولندا حسب الخطة المرسومة ، وقد تقرر موعد الهجوم يوم الاول من شهر ايلول عام ١٩٣٩ في تمام الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين صباحا ٠

٣ ــ من المهم ان يكون الاعتداء من جانب انكلترا او فرنسا ٠ بشكل واضح ٠ وفي حال وقوع حوادث طفيفة على الحدود ، يجب الاكتفاء بالعمل المحلي فقط ٠

وهكذا قامت المانيا بهجومها على برلندا في صباح الاول من شهر ايلول عام ١٩٣٩ ، كما اصدرت حكومتنا امرها بتعبئة جميع القوات المسلحة ٠ وبعد ظهر ذلك اليوم طلب مني رئيس الوزراء ان احضر لزيارته في دواننغ ستريت٠ وقد قال لي انه لم يعد هناك من امل في تجنب الحرب مع المانيا ، لذلك فهو يقترح تشكيل وزارة صغيرة للحرب ، تضم وزراء دون وزارات معينة لتسيير دفة الحرب ٠ وقال ان حزب العمال غير مستعد للاشتراك في حكومة ائتلافية٠ اما الاحرار فهم يطلبون المشاركة في الحكم ٠ ثم طلب مني ان اكون عضوا في تلك الوزارة الحربية ٠ وقد وافقت على هذا الاقتراح دون اي تعليق ٠

وفي المساء انعقد المجلس ، والقى رئيس الوزراء خطاب تهدئة استقبله المجلس استقبالا سيئا ٠ وعلا الصراخ والهتافات ، ولم يكن ثمة شك في ان

المجلس استقبالا سيئا ٠ وعلا الصراخ والهتاف ، ولم يكن ثمة شك في ان التاسعة والنصف مساء ، وان هذا الانذار سيعقبه انذار ثان وثالث ٠ واعلنت الاذاعة ان رئيس الوزراء سيوجه كلمة الى الشعب في الساعة الحادية عشـرة والربع من صباح الثالث من ايلول ، اي بعد ان تنتهي مهلة الانذار الثالث ٠

وتوجه الرئيس بكلمته معلنا ان بريطانيا اصبحت في حالة حرب مـع المانيا ٠ وما ان انهى كلمته ، حتى سمعنا صوتا حادا غريبا ينطلق ، سرعان ما اعتدنا عليه فيما بعد ٠ وهبطنا الى الملجأ المخصص لنا على بعد مائـة ياردة من البيت ، ويتألف من قبو يلجأ اليه السكان ٠ وكانت دلائل المـرح بادية على الوجوه ، وهي عادة انكليزية يتمسك بها الانكليز في اوقات الشدائد٠

وبعد عشرة دقائق دوت الصفارة من جديد معلنة انتهاء الغارة ، فصعدنا وتفرقنا الى بيوتنا وتوجهنا الى اعمالنا ٠ وكان علي ان اتوجه الى مجلـس العموم الذي اجتمع عند الظهر حسب العادة بعد ان تلونا صلاة استهلاليـة قصيرة ٠ وفي اثناء الجلسة تلقيت رسالة من رئيس الوزراء يطلب مني موافاته الى مكتبه بعد انتهاء الجلسة ٠ وقال لي المستر تشمبرلين انه يعرض علي وزارة البحرية ، مع مقعد في وزارة الحرب ٠ وسررت جدا لهذا العرض ، فقد كنت امل ان يعهد الي بمهمة معينة محدودة قد عرضت علي هذه المهمـة بالاضافة الى مركزي السابق في الوزارة ٠

وما ان توليت مركزي في وزارة الحربية ، حتى بعثت بكلمة سريعة الى الاميرالية ، اخبرهم فيها عن توليتي للقيادة فورا ، وابلغهم بانني ساصل الى الاميرالية في تمام الساعة السادسة ٠ وكان المجلس رقيقا جدا اذ بعث بهذا الخبر الطريف الى جميع الوحدات يقول « لقد عاد ونستون » ٠ وهكذا رجعت مرة اخرى الى نفس الغرفة التي غادرتها حزينا منذ ربع قرن ، عندما تنحيت عن وزارة البحرية بعد استقالة اللورد فيشر ٠ وعندما جلست الى مقعـدي القديم ، رأيت شنطة الخرائط القديمة التي اعددتها في سنة ١٩١١ ، وفيهـا خريطة بحر الشمال التي كنت اطلب من دائرة المخابرات ان تسجل لي عليها تحركات الاسطول الالماني كل يوم ، كي اكون على اطلاع دائم على تحركاته ٠ وهكذا بعد مضي ربع قرن ، عاد نفس الخطر القاتل يهددنا مرة اخرى ، وها نحن نضطر مرة اخرى الى حمل السلاح لنصرة بلد صغيـر تعرض للغـزو وان نقاتل دفاعا عن حياتنا وشرفنا ضد قوة وغضب شعب شجاع هو الشعـب الالماني المحب للنظام ، والبعيد عن الرحمة ٠٠٠٠

كان اول عمل قمت به في وزارة البحرية ،تشكيل دائرة خاصة بـي للارقام ، وعهدت الى الاستاذ ليندمان ، صديقي والمؤتمن لدي منذ سنوات بها٠

وقد اضطررت الى ابقائه بصورة مستديمة مع نخبة من الرجال الاخصائيين والاقتصاديين الذين لا يهتمون بشيء سوى بالحقائق والوقائع · وقد استطاعت هذه المجموعة من الرجال الاكفاء ان تقدم اصدق الجداول والرسوم ، وتشرح لي سير الحرب يوما بيوم ·

ولم تكن ثمة هناك دائرة خاصة للاحصاء · فقد كانت الوزارات تقدم ما لديها حسب ارقامها وحساباتها · وكانت كل وزارة تتبع طريقة في الاحصاء تختلف عن طريقة زميلتها الاخرى ، كما كانت الوزارات تتحدث بلغـــات واصطلاحات مختلفة ، كثيرا ما كانت تخلق البلبلة واضاعة الوقت · اما انا فكانت مصادري كلها اكيدة وثابتة في المعلومات التي كنت اقدمها ·

* * *

وفي مجلس الوزراء كنا نراقب عمليات التدمير السريعة لدولة ضعيفة ، حسب البرنامج الذي اعده هتلر · فقد قذف بالف وخمسماية طائرة الـــى بولندا كما ارسل جميع فرقة الالية والمدرعة ، التي اشتركت مع ست وخمسين فرقة اخرى من المشاة · ولم يكن البولنديون اكفاء لملاقاة هذا العدد الضخم ، او هذه المعدات الهائلة ، كما لم يكونوا قد استعدوا ورسموا خطة حكيمـــة لحماية انفسهم ، فكل ما عملوه من استعداد عسكري انهم وزعوا جيشهـــم على طول الحدود ، بينما بقيت البلاد دون اية قوة احتياطية · وهكذا لـــم تصمد بولندا امام الجيش الالماني الا اسبوعين اثنين ، وما لبث جيشها الذي يعد مليونين ، ان فقد معظم محاربيه واضحى لا قيمة له ·

اما روسيا ، فقد ارسلت بجيوشها في السابع عشر من شهر ايلـــول عبر حدود بولندا الشرقية الخالية من اي مقاومة ، ثم سارت غربا ، وفي الثامن عشر منه تلاقت مع الجيوش الالمانية في بريست ليتوفسك · وزادت بذلك عملية التدمير المخيفة ودافعت وارسو بشجاعة فائقة واستبسل ابناؤها ، وبعـــد عدة ايام من القصف الجوي المستمر ، من المدفعية الالمانية الثقيلة التـــي نقلت عبر الطرق الرئيسية الالمانية من الحدود الغربية ، توقفت اذاعة وارسو عن البث ، ودخل هتلر الى المدينة الخربة · وانتهى كل شيء خلال شهر واحد واضحى الشعب البولندي الذي يبلغ عدده خمسة وثلاثين مليونا تحت رحمـــة الغزاة الذي امعنوا فيه تقتيلا ·

لقد شاهدنا تكتيكا جديدا من التعاون الوثيق بين القوات الجوية المغيرة والقوات البرية الزاحفة ، والقصف العنيف للمدن وطرق المواصلات الرئيسية كذلك رأينا تسليح الطابور الخامس وبث العيون ، وهبوط المظليين بصورة

واسعة النطاق ، كما رأينا الاندفاع الهائل لقوات ضخمة من الاليات والمدرعات التي لا يمكن مقاومتها ... ولم تكن بولندا اخر من تحتم عليها ان تعاني مثل هذه المحنة .

* * *

ساد الجمود لفترة طويلة ، العالم الغربي ، بعد هجوم هتلر الساحق على بولندا ، وعمت الدهشة لهذا التوقف الغريب ، بعد ان اعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على المانيا .. الا ان التحرشات الالمانية ، وعمليات الهجوم المباغت على السفن التجارية في البحر ، قد ازعج حركة التجارة . وبدأت السفن التجارية ، تغادر الموانيء يوميا على شكل مجموعات وقوافل وتزودت كل كل واحدة منها بمدفع مضاد وببحارة مدربين . وراحت كانسات الالغام تجرب البحار بالاضافة الى القطع البحرية الصغيرة المجهزة بقنابل الاعماق ضد الغواصات وأدت عملها على خير ما يرام ، وشعرنا بأن هجوم الغواصات الالمانية على السفن التجارية قد انتهى ، وغدت البحار تحت اشرافنا وسيطرتنا . وكان من المتوقع ان يزداد عدد الغواصات الالمانية بعد مدة وجيزة ، لان بناء الغواصات كان يجري في جميع الموانىء الالمانية بسرعة هائلة ، وكان علينا ان ننتظر بدء حرب الغواصات خلال سنة او سنة ونصف على الاكثر . الا اننا كنا ننتظر اكمال بناء مدمراتنا وقطعنا المضادة للغواصات التي اصبحنا بفضلها نملك زمام الامور لمواجهة الخطر بقوة .

وتلقيت رسالة من الرئيس روزفلت ، وكنت قد قابلته مرة واحدة اثناء الحرب الاولى في حفلة عشاء ، وقد ادهشتني حيويته وشبابه وحضور ذهنه . وقد كتب لي في رسالته الشخصية تلك : « لما كنا قد توطنا الى مراكز مشابهة اثناء الحرب العالمية الاولى ، فاني اريد ان تعلم مدى سروري وغبطتي حين علمت برجوعك مرة اخرى الى الاميرالية . وربما تكون مشاكلكم قد ازدادت تعقيدا ، الا ان المشاكل الرئيسية لم تتغير . وفي هذه المناسبة اود ان أؤكد لك ولرئيس الوزراء عن استعدادي التام وترحيبي الكبير حين ترغبون الاتصال بي شخصيا بواسطة رسائل مغلقة ، وان تنقلا لي كل ما تريدان نقله . وبوسعكما ارسال رسائلكما الشخصية ضمن حقيبتنا الدبلوماسية او حقيبتكم »

واجبت على رسالته في الحال واستخدمت توقيع « شخص من البحرية » وبدأنا بذلك سلسلة من المراسلات الطويلة الخالدة التي بلغ عددها الف رسالة، والتي استمرت حتى وفاة الرئيس روزفلت بعد خمس سنوات .



وقع في شهر تشرين الاول حادث اثر على الاميرالية بشدة · فقد جـاء التقرير يقول انه في ليل الرابع عشر من الشهر ذاته دخلت غواصة الى ميناء سكابافلو ، واغرقت احدى بوارجنا وهي في الميناء ،بعد ان انطلقت الطوربيدات بشكل لا يصدق ، واصاب احدهما قوس البارجة واحدث فيه انفجارا كبيرا ، ولم يصدق قبطان البارجة ما حدث لبارجته وهي راسية في الميناء مطمئنة · وظـن ان الانفجـار داخلـي · ومـرت عشـرون دقيقـة بين الطوربيـد الاول والثاني الذي الحقته بسيل كبيـر منهـا فاغرقـت البارجـة بعـد ان تحطمت شر تحطيم · وفي عشرة دقائق ابتلعتها المياه · وكان معظم البحارة في مراكز عملهم ،لكن السرعة التي تم فيها اغراق البارجة جعل من المستحيل عليهم النجاة من الغرق المحتم ·

ولا ريب ان هذه المأساة ، كانت عمـلا بطوليا رائعـا لقائد الغواصة الالمانية القبطان براميين · وقد اهتز الرأي العـام البريطانـي لهذا العمل الجريء · وكان في امكان هذا الحادث ان يقضي على اي وزير من الوزراء لو اعتبر مسؤولا عن الاجراءات الدفاعية التي اتخذت قبيل الحرب · امـا لكوني حديث عهد في الوزارة ، فقد تخلصت من هذه الازمة ومن اللوم ومـن استغلال المعارضة لهذا الحادث ·

وجاءنا الخطر المميت الثاني · فقد اغرقت اثنتي عشرة سفينة تجارية عند مدخل موانئنا خلال شهري ايلول وتشرين الاول ، بالرغم من تنظيف تلك الموانيء من الالغام · وقد شكت الاميرالية على الفور ، بامكانية استخدام العدو للالغام المغنطة · ولم تكن هذه الالغام جديدة علينا ، فقد استخدمناها على نطاق ضيق في نهاية الحرب الاولى ، لكن الاضرار الفظيعة التي يمكن ان تحدثها الالغام الارضية ، لم يكن فهمه شيئا سهلا ، وكان من المتعذر علينا ان نجد طريقه لعلاج هذه المشكلة الجديدة قبل ان نرى نموذجا من هذه الالغام · وقد تطورت الاعمال وازدادت الخسائر ، اذ بلغت خلال شهري ايلول وتشرين الاول نحوا من ستة وخمسين الف طن ، مما حدا بهتلر الى الاشارة الـى هذا « السلاح السري » الجديد الذي لا يمكن اتقاؤه · وفي ذات ليلة ، بينمـا كنت في شارتويل جاءني الاميرال باوند ، وقد بدا عليـه القلق والاضطراب واخبرني ان ست بواخر جديدة قد اغرقت عند مداخل نهر التايمز · وكانت البواخر التي تدخل موانئنا وتخرج منها تجاوز المئات كل يوم ، وكانت حياتنا كلها متوقفة على هذه الحركة المستمرة · ولا شك ان الخبراء لدى هتلر قـد ابلغوه ان هذا النوع الرهيب من الهجوم سيقضي علينا ويدمرنا · ومن حسن الحظ ان هتلر كان ينتج هذا السلاح على نطاق ضيق محدود ·

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ، وفي تمام الساعة التاسعة شوهدت طائرة المانية تسقط شيئا ضخما بمظلـــة كبيرة الـــى البحر قرب شوبارنيس ، ويطوق الساحل هنا مساحات شاسعة من الطمى التي تظهر عند حدوث المد ومن الممكن فحص هذا الشيء الضخم حال حدوث الجزر ، وهنـا ساعدنا الحظ وواتتنا الفرصة المناسبة ، وفي الحال استدعي الـــى مركـز الاميراليه ضابطـــان من ابرز الضباط المتخصصين بالاسلحـــة البرمائيـــة وهما اوفري ولويس ، وتحدثت معهما ومع لورد البحر الاول ، واستمعت الى اراءهما · وفي تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل توجها الـى ساوثيند لاداء مهمتها الخطرة في الكشف عن هذا الشيء الغامض · وتمكنا قبل فجر يوم الثالث والعشرين من العثور على اللغم وفحصه ·

وبدات عملية دقيقة عندما وجد الضابطان لغما اخرا قريبا من اللغـم الاول · وراح اوفري يحاول تعطيل اللغم الاول ، بينمـا وقف زميله لويسـس ومعه البحار القدير فيرنيكومب يراقبه استعدادا لكل مفاجئة · وبعد ساعات رهيبة تم تعطيل اللغم الاول واستخلاصه ، ثم أرسل الى بورتسماوث لاجراء الدراسات الدقيقة عليه· ووصل في الحال اكثر من مئـــة ضابط ليشاهدوا الخطر الذي كان يهدد حياتنا ·

وبدأنا منذ ذلك الحين سلسلة من التجارب العلمية ، بعد ان تمكنـا من اكتشاف سر تركيب الالغام، لاختراع وسائل الدفاع ضد هذه الالغام وتوصلنا الى اختراع بعض الاسلاك الكهربائية وتطويق السفن بها · الا ان هذهالطريقة لم تؤد الى النتيجة المطلوبة . فقـد استمرت حوادث الانفجارات لكن السفـن المصابة لم تغرق في الحال ، بل كـانت تستمر في مسيرهـا الـى اقرب مرفأ لاصلاحها من جديد ·

وبعد مدة طويلة من التجارب توصلنا الى اختراع وسائل اكثر فعاليـة لمكافحة الالغام ، وكانت النتيجة مدهشة · وتمكنت اخيرا كانسات الالغـام منتطهير البحار من جميع الالغام المزروعة وبدأ الخطر يزول · وقد كلفتنـا هذه العملية الكثير من المجهود الحربي ، واضطررنا الى تحويل الكثير مـن المعدات والاموال من ميادين اخرى الى هذا الميدان ، وقد جندنا لهذه العملية الهامةما يقارب الستين الف رجل ، الا ان النتـائج كـانت مذهلة وتأثيرهـا المعنوي على رجالنا ورجال اسطولنا التجاري كانت رائعة · ولم نكن حتـى ذلك الوقت قد تعرضنا لاي اعتداء معين في الميدان الواسع للمعارك البحرية · لكن هذا الاعتداء سرعان ما حدث ···

ففي يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني، شاهد الطراد المسلح

« راولبندي » بينما كان يقوم بعملية استكشاف بين ايسلنده وفاروس، شاهد بارجة عدوة تقترب منه بسرعة ٠ وظن قائد الطراد ان البارجة هي بـارجة الجيب « دويتشلاند » فابرق الى الادارة المركزيـة في الحال ، وكـان قائـد الطراد يعلم انه من الجنون ان يحاول الدخول في معركة بحرية مع البارجـة العدوة، أما الطراد فلم يكن اكثر من سفينة تجارية تحولت الى طراد مجهز بأربع مدافع قديمة من عيار احد عشرة بوصة لذلك أبرق الى الادارة المركزية وقرر المجازفة والقتال حتى النهاية ٠ واقتربت البارجة بسرعـة هائلـة وراحت تطلق نيرانها من مسافة عشرة الاف ياردة ، فرد الطراد عليها ، وبدأت النيران الهائلة تنصب عليها حتى تحولت الى كتلة من النار ، وما لبثت ان غرقت بعد حلول الظلام مع قبطانها و ٢٧٠ رجلاً من رجالها الشجعان ٠

وبالطبع لم تكن البارجة العدوة هي البارجة « دويتشلاند » وانما كانت الطراد « شارنهورست » ومعها « غنيزناو » ٠ اللذان غادرا المانيا لمهاجمـة قطع اسطولنا في الاطلنطي ٠ الا انهمـا بعد ان اصطدما براولبندي ، اضطرا الى العودة في الحال بعد اكتشاف امرهما ٠٠٠ وهكذا لم تذهب تضحيـات رجال الطراد البواسل هباء ، فقد تمكن الطراد « نيوكاسل » من التقاط اشارة الطراد « راولبندي » وتوجه الى ميدان المعركة وحاول مطـاردة العدو ، الا ان هذا تمكن من الافلات منه ٠

وفي شهر آب وصلت الانباء الى القيادة العليا ، ان بارجة او اثنين قـد غادرتنا المانيا متوجهة الى الاطلنطي ، فقام اسطولنا في الحال بالبحث عنهما ٠ وعلمنا بعد مدة ان البارجة غراف شبي الالمانية قد اغرقت احدى بواخـرنا الضخمة كليفت في شهر ايلول ، وذلك قرب برنا مبوكو ٠ واضطربت الاميرالية لهذا النبأ المفجع ، وضج الرأي العام ، وارتسمت علامات الاستفهـام وراح الهمس يدور : « اين هو اسطولنا ؟ » ٠٠٠ فتألفت على الفور وحدات مسلحة لمطاردة البارجة واغراقها ، وقد انضم الى الوحدات عدد من حاملات الطائرات والبوارج والطرادات المجهزة بقوة كافية لتتمكن من القضاء علـى البارجـة الالمانية ٠

وخلال الاشهر التالية كانت تسع وحدات بحرية مطاردة تجوب البحار بحثا عن البارجتين الالمانيتين « دويتشلاند » و « غراف شبي » ٠ وكانـت الثانية اكثر جرأة من الاولى ، فقد استمرت بنشاطها ، فكانت تضرب السفـن الصغيـرة ثم تختفـي في الافـاق الشاسعـة ٠ واستمر البحـث عـن « غراف شبي » الى ان عثر عليه في الثاني عشر من كانون الاول ، قرب مصب نهر لابلاتا، من قبل الطراد « اجاكس » ٠ وكان على ظهره الكومودور هاروود ٠

وتم في الحال حصار البارجة العدوة وانضم الى المعركة الطراداان « اخيل » و « لايكسيتر » • وبدأت معركة حـامية الوطيس واشتعلت البحار بالنيـران اللاهبة لمدة ســاعة وعشرين دقيقة • واصيبت طراداتنا باضرار بالغة ممـا اضطرها الى الانسحاب تحت ستر الدخان الكثيفة بانتظار حلول الظلام كمـا اصيبت البارجة العدوة وشوهدت ابراجها تتساقط مشتعلة • وكانـت فرصة العدو الذهبية حين شعر قائد الطراد بـان الذخيرة ستنضب فاضطر الـى الانسحاب تاركا الفرصة للبارجة العدوة للانسحاب الـى ميناء مونيتفيديـو فتبعها الطراداان البريطانيان دون ان يشتبكا معها في اي معركة، ودخلت البارجة الى المينـاء للتزود بالوقود ولاصلاحهـا من جديد • بينمـا وقف الطراداان بانتظارها واغراقها في الحال عند خروجها من الميناء •

وابرق قائد البارجة في السادس عشر من كانون الاول الى القيادة يقول ان سبيل النجـاة قد سد أمامـه وطلب تزويده بالتعليمات اللازمـة هل يقوم باغراق الطراد ام يستسلم ؟• وجاءته التعليمات من الاميرالية الالمانيـة : « حاول ان تبقى في المياه المحايدة ••• ثم حاول ان تتجه الى بيونس ايرس ان استطعت • ولا تستسلم في اورغواي ••• واذا قررت اغراق البارجـة دمرها تدميرا كاملا »

وهكذا ، بعد ظهر اليوم التالي ، شوهدت بحـارة البـارجة تغادرهـا الى احدى السفن الالمانية الراسية في الميناء ، وعند المساء توجهت البـارجة ببطء الى عرض البحر حيث كانت طراداتنا بانتظارها • وما ان اقتربت من عرض البحر حتى سمعنا انفجارا مدويا وشاهدنا النيران تشتعل في البارجة العدوة ، فعلمنا ان « غراف شبي » قد اغرقت نفسها ، كما علمنا ان قائدهـا لانغسروف قد اصيب بانهيار عصبي لخسارته الفادحة فانتحر بعد يومين •

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني عشر

الجبهة في فرنسا

اتجهت الحملة البريطانية حال نشوب الحرب الى فرنسا ، وما ان انتصف شهر تشرين الاول حتى كانت اربع فرق بريطانية تتمركز على الجبهة الفرنسية ـ البلجيكية ، وانضمت اليها ست فرق اخرى في شهر اذار · وقد وجدت القوات البريطانية ان الجبهة مستعدة تمام الاستعداد ، فقد حفرت الخنادق لمقاومة الدبابات ، وانشأت مراكز من الاسمنت المسلح ، ركزت عليها مدافع ورشاشات مضادة للدبابات ، بالاضافة الى الاسلاك الشائكة الممتدة على طول الجبهة · وكانت مهمة جنودنا تحسين الجبهة الدفاعية التي اعدها الفرنسيون وتنظيم شكل من اشكال خط سيغفريد · وتقدم العمل بصورة سريعة بالرغم من الجليد، وعندما اخذت الصور الجوية تبين ان الالمان بدورهم بدأوا يوسعون خط سيغفريد من الشمال عبر الموزيل · وقد كانت المواد الاولية في متناول ايديهم مما سهلت لهم مهمة العمل ، الا اننا كنا نسير بسرعة تضاهي سرعتهم في التنفيذ · وتم تشييد المنشآت اللازمة لقاعدة ضخمة ، وانهينا تعبيد الطرقات وتحسينها ومدت سكة حديد جديدة يبلغ طولها مئة ميل · ثم اتممنا انشاء نحوا من خمسين مطارا جديدا وقاعدة جوية صغيرة · كما تزودنا بكميات هائلة من العتاد والذخيرة توزعت في المستودعات على طول طرق مواصلاتنا · وقد تزودنا بالمؤن التي كانت تكفي لمدة عشرة ايام بين السين والسوم ، بالاضافة الى كميات اخرى تكفي لسبعة ايام شمالي السوم· وقد ساعدتنا هذه المؤن وانقذتنا بعد ان تمكن الالمان من اختراق الجبهة ·

كانت روح الجيش الفرنسي ، تختلف عن السابق اثناء الحرب الاولى ،

فقد ولت تلك الروح الثائرة المشبعة بالانتقام بعد ان حققت نصرها الاول وكان معظم القادة الذين تولوا زمام الامور ، قد قضوا نحبهم منذ وقت طويل ٠ وكان الشعب الفرنسي لا يزال مشدوها من هول المذبحة التي ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف المليون رجل ٠ وكانت فكرة الهجوم لا تزال مرتبطة بمخيلتهم وبالفشل الذي أصابهم اثناء هجومهم عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ وبالالام والخسائر التي تكبدوها اثناء الهجوم ، وسيطر عليهم الشعور بان الاسلحة والاختراعات الحديثة قد زادت من قوة الدفاع واصبحت تشكل خطر اكبر على الهجوم والمهاجمين ٠ ولم يكن هناك من يمكنه ان يتفهم الحقيقة الجديدة القائلة بأن السيارات المدرعة قادرة على الصمود امام نيران المدافع ، بالاضافة الى سرعتها الفائقة التي تمكنها من قطع مائة ميل في اليوم الواحد٠ ولم يكترث رجال الجيش وقادته لذلك الكتاب القيم حول هذه المواضيع، الذي كتبه شخص يدعى القومندان ديغول ٠٠٠ فقد كانت أفكار المارشال العجوز بيتان مسيطرة على عقول القادة ومغلقة الطريق أمام الافكار الجديدة الجريئة ٠

وقد سمعنا بعد انتهاء الحرببالنقد الكثير حولسياسة خط ما جينو٠ ولا شك ان فكرة الدفاع لدى الفرنسيين كانت نتيجة هذه السياسة ٠ الا ان التدابير الاحترازية الصحيحة للدفاع عن حدود شاسعة تمتد الى مئات الاميال ، تقضي باقامة اكبر عدد ممكن من الحواجز والعقبات والحصون ، فهي توفر من استخدام القوات المحاربة ٠ ولو أحسن استعمال خط ماجينو لكان باستطاعته ان يقدم خدمة كبيرة لفرنسا ٠

* * *

هناك نكتة معروفه في بريطانيا تقول ان وزارة الحربية اليوم تستعد للحرب الماضية ٠ وكانت هذه النكتة مطابقة لواقع حال الجيش الفرنسي انذاك، وكنت من جملة المؤمنين بنظرية الاجراءات الدفاعية التي يجب تنفيذها بدقة ٠ وكنت بالاضافة الى ذلك عارفا بمدى تخوف الفرنسيين من الهجوم نتيجة المذابح المخيفة في الحرب الاولى ٠ كما ان الوقت الذي اضعناه قد فسح المجال امام الالمان لبناء خط سيغفريد ٠ وكانت المجازفة ضخمة لو فكرنا بقذف البقية الباقية من الشبيبة الفرنسية لاقتحام هذا الجدار الهائل من الاسمنت المسلح ٠ وكانت نظرتي في الاشهر الاولى للحرب لا تختلف كثيرا عن وجهه النظر السائدة المتعلقة بالدفاع ٠ وكنت اعتقد ان الاجهزة المضادة للدبابات ومدافع الميدان قادرة على صد اي هجوم مهما كان ٠ الا ان هذه

النظرية كانت خاطئة ، فقد قدر لنا ان نشهد بعد ثمانية اشهر هجوما هـائلا شنته القوات المانية تتقدمها السيارات المصفحة التي لم تؤثر فيها قوة المدافع لقساوة فولاذها ، فتمكنت من تحطيم جميع ما اعددناه من مقاومة دفاعية ، وجعلت من المدفعية سلاحا لا قيمة له ، لاول مرة في تاريخ الحروب منذ اختراع البارود ·

لكن الجيش الفرنسي لم يكن في وسعه شن اي هجوم قبل نهاية شهر ايلول، الا ان بولندا في ذلك الوقت كانت قد استسلمت · ولم يحل شهر تشرين الاول حتى تمكن الالمان من حشد سبعين فرقة من الجبهة الغربية متفوقين بذلك على الحشود الفرنسية · ولو فكر الفرنسيون بشن هجوم من الجبهة الشرقية لتركوا الجبهة الشمالية خالية ، وهي الجبهة الاكثر اهمية ·

اما السؤال الذي طالما اثير : « لماذا بقيتم جامدين الى ان دمرت بولندا ؟ » فالجواب عليه هو ان المعركة قد تقررت نتيجتها منذ سنوات · فالفرصة كانت مواتية ومضمونة عام ١٩٣٨ يوم كانت تشيكوسلوفاكيا موجودة· وفي عام ١٩٣٣ كان في وسع عصبة الامم ان تستصدر أمرا ترغم به المانيا على الرضوخ دون حاجة الى اهراق نقطة دم واحدة · ولا يجوز ان نلقي باللوم على الجنرال غاملان لانه لم يقم بهذه المجازفة التي ازداد خطرها منذ الايام الاولى للازمات التي تخاذلت امامها فرنسا وبريطانيا ·

والان ما هي احتمالات شن هجوم الماني عام على فرنسا ؟ كانت هناك ثلاث احتمالات هي : ان تقوم المانيا بشن هجومها عبر سويسرا للالتفاف حول الجبهة الجنوبية لخط ما جينو · الا ان العقبات الطبيعية والاستراتيجية كانت تحول دون قيام هذا الهجوم · اما الاحتمال الثاني فهو في امكانية غزو فرنسا من الحدود المشتركة بين البلدين · ولم يكن هذا الاحتمال ممكنا ، اذ لم نكن نعتقد ان الجيش الالماني يملك المعدات اللازمة لتحطيم المنشآت المقامة واختراق خط ما جينو · يبقى الاحتمال الثالث وهو الهجوم عن طريق بلجيكا وهولندا · فبأمكان الجيش الالماني ان يتجنب اختراق خط ما جينو ويوفر الخسائر المتوقعة من جراء الهجوم على التحصينات المنيعة · ولم يكن في استطاعتنا صد الهجوم على بلجيكا ، وان كان ذلك في مساحتنا · وكان هناك خطان يمكننا ان نتقدم نحوهما اذا ما دعتنا بلجيكا لاحتلالهما · فالخط الاول هو ما يدعى خط « الشلدت » وهو قريب من الحدود الفرنسية ، ويمكن الوصول اليه بسهولة ، وبأمكاننا الاحتفاظ به للتضليل ، وهذا في اسوأ الاحتمالات ، كما يمكننا اذا ساعدتنا الظروف ان نقوم بانشائه وتدعيمه · أما الخط الثاني فهو الخط الذي يسير مع نهر الموز عبر جيفيت وديناانت

ونامور ولوفين الى انتويرب · ولو استطعنا ان نحتفظ بهذا الخط مهما كلفنا الامر ، فان الجناح الايمن للجيش الالماني سيتوقف ، وسيمكننا معرفة قوة الجيش الالماني ، فاذا كان ضعيفا ، عندئذ يمكننا ابتداء هجوم كاسح ندخل به الى المانيا ونشرف على منطقة الروهر الهامة بالنسبة للانتاج الحربي الالماني ·

ويقول رؤساء الاركان : « ان الخطة الفرنسية المسماة خطة « د » تقضي بأن يسرع الحلفاء الى احتلال خط جيفيت ـ نامور ، اذا تمكن البلجيكيون من الاحتفاظ بحوض الموز ، كما انه يترتب على القوات البريطانية ان تعمل في الجهة الشمالية · ونحن نجد ان هذه الخطة غير معقولة ، الا اذا وضعنا خططها مع البلجيكيين انفسهم لاحتلال هذا الخط ، قبل مدة من الزحف الالماني ، وبعد ان يتبدل موقف بلجيكا الحالي ، وترسم الخطط اللازمة بوقت قريب لاحتلال خط جيفيت ـ نامور والمسمى في بعض الاحيان خط الموز ـ انتويرب · ونحن نجد انه يترتب علينا ان نواجه الزحف الالماني في اماكن نعدها في وقت مبكر على الحدود الفرنسية بالذات »

وفي اجتماع مجلس الحلفاء الاعلى في باريس ، اتخذ القرار التالي : « نظرا للاهمية الكبرى المترتبة على وجوب ابقاء الالمان في أقصى مكان ممكن الى الشرق · فمن الضروري جدا بذل كل محاولة للمحافظة على خط الموز ـ انتويرب ، في حال تعرضت بلجيكا للهجوم الالماني » ·

وهكذ أمضت الحملة البريطانية فصلي الربيع والشتاء في تجهيز مواقعها وتحصينها ، واستعدادها للحرب الدفاعية او الهجومية · وقد كانت استعدادات الجيش رائعة ومنظمة واكثر قوة في نهاية فصل الشتاء · الا اننا كنا لا نزال نشكو نقصا كبيرا في الدبابات ، ولم يكن لدينا فرقة مدرعة واحدة ضمن الحملة البريطانية في فرنسا · فقد اهملنا تطوير هذا النوع من السلاح الفعال في فترة ما بعد الحرب الاولى ، ولم يكن عندنا سوى كتيبة تضم سبع عشرة دبابة خفيفة ومائة دبابه « مشاة » معظمها مجهزة بالمدافع الرشاشة فقط · لقد اهملنا هذا السلاح الهام الذي قدر له ان يسيطر على ميادين القتال ····

اما الجيش الفرنسي فلم يكن بحالة حسنة ، ففرنسا لم تواجه الحرب عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ بروح معنوية مرتفعة او بشيء من الثقة والايمان · فالسياسة الداخلية المضطربة قد خلقت نوعا من الانقسام والسخط · وكانت الدعايات السامة التي يبثها غوبلز تلاقي اذانا صاغية تحفظها وترددها · وكانت تاثيرات الانقسام والشيوعية والفاشية تنعكس على الجيش وتتغلغل

في صفوفه خاصة في فترة الانتظار الطويلة قبل الهجوم · ولم يكن هناك من ادنى شك في ان الانتظار الطويل قد أخر في كفاءة الجيش الفرنسي فلو قاتل في الخريف مثلا لكان قتاله رائعا واروع منه في الربيع ··· وسرعان ما وجد هذا الجيش نفسه عرضه لهجوم الماني كاسح صعقه بعنف ·

وختاما لهذا الفصل اذكر هذه الحادثة المهمة التيحدثت في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٤٠ والتي اكدت المخاوف بالنسبة الى الجبهة الغربية ، فقد قضت الظروف بأن تهبط طائرة المانية كانت تقل ضابطا المانيا ، في بلجيكا ، وعندما اعتقلته القوات البلجيكية حاول الضابط ان يتلف بعض الوثائق التي كان يحملها ، الا انهم تمكنوا من مصادرتها قبل ان يتمكن من اتلافها · وقد تضمنت تلك الوثائق الخطة الكاملة لغزو بلجيكا وهولندا وفرنسا ، هذه الخطة التي وضعها هتلر بنفسه · وبعد قليل اطلق سراح الضابط فعاد الى بلاده واخبر قادته بما جرى له · وعندما نقلت الي التفاصيل ذهلت وانا غير مصدق كيف لا يضع البلجيكيون خطة يشركوننا فيها في الحال · لكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا وقد طلبنا منهم ان يتعاونوا معنا، لكن الملك وقادة الجيش آثروا التروي والانتظار عله يأتيهم المستقبل بأشياء جديدة تقلب الاوضاع مرة اخرى · اما من الناحية الثانية ، فقد استدعى هتلر غورنغ وامطره بسيل من الشتائم ثم اضطر الى تغيير خطة الغزو من اساسها· وقد تأكد لنا الان من الوثائق المصادرة ان هذه الخطة كانت صحيحة ·

لقد آثر ملك بلجيكا ان يبقى على الحياد ، آملا ان يتمكن من الصمود أمام الجيش الالماني ، ثم يطلب الجيوش البريطانية والفرنسية لتسارع الى نجدته ··· لقد كان العصر عصر التردد والتخاذل ، ولم نكن لنلومه على موقفه هذا ···

الفصل الثالث عشر

اسكندنافيا وفنلنده

ان لشبه الجزيرة الممتدة من داخل البلطيق الى الدائرة القطبية اهمية عسكرية كبيرة · وتمتد سلسلة الجبال الى المحيط ويفصل بينها ممر من المياه الاقليمية تتمكن المانيا بواسطته من المرور والاتصال بالبحار الخارجية ، مما يجعل حصارنا البحري لا قيمة له · وكانت المانيا تعتمد بصورة رئيسية على استيراد مسحوق الحديد من السويد الذي يصلها في أيام الصيف من ميناء لوليا السويدي عند رأس خليج بوثنيا ، اما في الشتاء وعندما تتجمد مياه الخليج تصلها من النروج · لذلك فان احترامنا لحياد هذه الخلجان يعني سماحنا لهذا الاستيراد والتصدير الذي تستغله المانيا تحت ستار الحياد متحدية بذلك تفوقنا البحري · وقد شعرت الاميرالية بهذا الخطر ، واخطرت بدوري وزارة الحرب عن هذا الموضوع ·

وعندما اثرت هذا الموضوع الهام اصطدمنا بعقبة احترامنا التام لحياد الدول الصغيرة ! هذا المبدأ الذي كنا نتعلق به بالرغم من استغلال المانيا لهذا الاحترام · ولبث الموضوع بين أخذ ورد الى أن أخذت الوزارة باقتراحي بعد مدة طويلة حيث بدا ان الوقت قد فات على اتخاذ مثل هذا القرار ·

وفي نفس الوقت كان الالمان يفكرون بنفس الاتجاه الذي كنت افكر به ، فقد قدم الاميرال ريدر ، رئيس اركان البحرية الالمانية ، اقتراحا الى هتلر باسم « كسب قواعد جديدة في النروج » وقد وضح في اقتراحه مقدار الضرر الذي سيلحق بالمانيا بحال تم احتلال البريطانيين للنروج وتحكمهم في مداخل البلطيق · وقد اصدر هتلر بناء على اقتراحات ريدر اوامره الى القيادة

العليا باعداد الخطة لعملية غزو النروج ٠

وفي هذه الاثناء تحولت شبه جزيرة اسكندافيا الى ميدان للصراع اثار ضجة كبيرة في بريطانيا وفرنسا ، واثر على محادثاتنا مع النروج بشدة ٠ فقد ادت مواثيق المساعدات المتبادلة المعقودة بين روسيا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا الى احتلال هذه الدول وتدميرها ــ وبذلك أصبح الجيش الاحر يقطع الطريق للدخول الى روسيا من ناحية الغرب ٠ وبقيت الطريق عبر فنلندا ٠

ومن ناحية فنلندا فقد وقع احد الساسة الفنلنديين مع روسيا معاهدة صلح في عام ١٩٢١ ، كان من اهم مطالب الروس العديدة رد الحدود الفنلندية عند برزخ كاريليا الى الوراء مسافة كافية لتصبح مدينة لينغراد في مأمن من خط المدفعية المعادية ، كما تسلمت روسيا عددا من الجزر الفنلندية ، أما الاختلاف الذي ادى الى محاولة غزو فنلندا فكان حين طلبت روسيا استئجار الموانىء الوحيدة التي لا تتجمد في فصل الشتاء لكي تجعل منها قواعد بحرية وجوية ٠ وكان الرضوخ لهذا الطلب يعني تهديد سلامة فنلندا بصورة اكيدة ٠ وقد رفضت الحكومة الفنلندية هذا الطلب وانقطعت المفاوضات ، واعلن مولوتوف بناء على ذلك الغاء ميثاق عدم الاعتداء المعقود مع فنلنده ٠ وبعد يومين بدأ الهجوم الروسي على فنلندا على ثمانية جبهات وقام الطيران السوفياتي بضرب العاصمة هلسنكي من الجو ٠

وقد استبسل الفنلنديون في الدفاع عن بلادهم ، فقد مضت الاسابيع الاولى للهجوم السوفياتي دون ان يتمكنوا من تحقيق اي نصر ٠ وبرهن الجيش الفنلندي عن بطولة نادرة في صد الهجوم الكبير ٠ وقوبلت الدبابات السوفياتية الضخمة بسلاح جديد من القنابل اليدوية التي سميت بكوكتيل مولوتوف ٠ وقد استمرت الحملة حوالي الشهر الا انها باءت بالفشل الذريع ، وتاكد للحكومة السوفياتية بأنها تقابل عدوا يختلف بقوته عما كانت تتوقعه ان يكون، لذلك قررت القيام بهجوم كاسح كبير مما يحتاج الى اعادة تنظيم ، فخففت من حدة القتال على طول الجبهة الفنلندية بعد أن تمكن الفنلنديون من صد عدوهم القوي ٠

وساد شعور من السخط لدى الجميع ضد الحكومة السوفياتية ، بالاضافة الى الشعور بالاحتقار لعجز القوات الروسية عن غزو فنلندا الباسلة ، وبالعطف والحماس على فنلندا بالذات ٠ وبالرغم من اننا نخوض حربا كبرى فقد كانت لدينا رغبة شديدة في مد يد العون الى الفنلنديين وذلك بتزويدهم بالطائرات والاليات الحربية وارسال المتطوعين من بريطانيا والولايات المتحدة وحتى فرنسا ٠ولم يكن هناك الا ممر واحد لارسال المتطوعين

والمعدات الحربية · وهو عبر ميناء نارفيك النروجي الذي اكتسب أهمية استراتيجية كبرى · وكان استعمال هذا الميناء كقاعدة للتموين يؤثر على حياد النروج والسويد· وكان هم هاتين الدولتين البقاء خارج نطاق الحرب· فقد كانتا تخشيان كلا من المانيا وروسيا · وطلبت الحكومة البريطانية من النروج والسويد السماح لها بنقل الجنود والمؤن الى فنلنده ·

* * *

كانت احدى القطع البحرية الالمانية المسماة « التمارك » تشغل تفكيري ، وهي القطعة البحرية التي كانت تساعد غراف شبي بالاضافة الى كونها سجنا عائما لبحارة البواخر التي كانت غراف شبي تغرقها · وقد وصلتنا الاخبار ان هناك ثلاثماية بحار بريطاني على ظهر (التلمارك) التي تمكنت من الاختفاء لمدة شهرين في جنوب الاطلنطي وعندما اطمئن ربانها الى انه أصبح في مأمن من مطاردتنا ، حاول العودة بباخرته الى المانيا · وفي الرابع عشر من شهر شباط شاهدت احدى طائراتنا الباخرة المذكورة في المياه الاقليمية للنروج ·

وفي الحال تحركت المدمرات البريطانية بقيادة القبطان فيليب فيان على متن مدمرته « قوزاق » وقطعت طريق الباخرة الالمانية ، الا أنها لم تباشر بضربهما فالتجأت الباخرة الى خليج جوسينغ ، واعطيت الاوامر بتفتيش الباخرة، وشوهد فينفس الوقت زورقين نروجين مسلحين ابلغاهما ان الباخرة الالمانية غير مسلحة ، وقد سمحا لها بالمرور عبر المياه الاقليمية ، فاضطرت المدمرتان البريطانيتان الى الانسحاب على الفور ·

وما ان وصلت هذه الاخبار الى الاميراليه ، حتى عادت واصدرت الى مدمراتنا الاوامر بدخول الخليج · فدخل القبطان « فيان » بمدمرته الخليج وصعد الى احد الزورقين النرويجين وطلب من قائده ان تساق « التمارك » الى ميناء بيرغن للكشف عليها حسب القانون الدولي ·فكرر القائد النروجي ان الباخرة غير مسلحة وقد فتشوها مرتين ولم يجدوا على متنها اي أسير بريطاني · عند ذلك طلب القبطان « فيان » من القائد النروجي مرافقته الى ظهر الباخرة الالمانية فرفض هذا طلبه ·

واغتنمت الباخرة الالمانية هذه الفرصة لتتحرك وتحاول الاصطدام بالمدمرة « قوزاق » الا انها فشلت ، وفي الحال صعد اليها فريق من البحارة ونشب قتال عنيف بالسلاح الابيض بين رجال الباخرتين ادى الى مقتل اربعة من الالمان وجرح خمسة واستسلم الباقون· وبدأ البحث في الحال عن الاس -

البريطانيين ، وبعد تفتيش دقيق عثر عليهم في المستودعات وفي خزان بترول فارغ وقد كممت افواههم كي لا يتمكنوا من الإستغاثة وطلب النجدة من رفاقهم · كما عثر على مدفعين وأربعة مدافع رشاشة · وعلمنا فيما بعد ان النروجيين لم يقوموا بتفتيشها بالرغم من صعودهم على متنها ·

وكان هذا الحادث قد ساعد الالمان على اتخاذ قرارهم بوجوب غزو النروج الذي أعد هتلر خطة غزوها في الرابع عشر من كانون الاول · وبعد ان اجتمع الفوهرر مع الجنرال فون فولكنهورست تقرر بدء العملية في التاسع من شهر نيسان ·

وفي هذه الاثناء كان الروس قد ضاعفوا من مجهودهم الحربي ، وقاموا بهجومهم الكبير على فنلندا في اليوم الاول من شهر شباط ، والذي استمر حوالي اثنين وأربعين يوما ، يصحبه قصف جوي عنيف · وتمكن الجنود الروس من اختراق خط الدفاع الفنلندي وتحطم خط مانرهايم وتركز الهجوم الروسي على خليج فيبوري ·

وفي اول شهر اذار ارسلت الحكومة الفرنسية خمسين الف متطوع ومائة قاذفة قنابل الى فنلندا ، كما قامت الحكومة البريطانية ايضا بارسال خمسين قاذفة قنابل · الا ان الفنلنديين قد وصلوا الى حد من الاعياء والجهد وكادت معداتهم الحربية ان تنفد فسافر المستر باسيكيفي مرة ثانية الى موسكو لاجراء المباحثات في شروط الهدنة ، ووافقت الحكومة الفنلندية على شروط الروس في الحال ·



الفصل الرابع عشر

النروج

في ليلة الجمعة الخامس من شهر نيسان دعا وزير المانيا المفوض في اوسلو عددا من الوجهاء والوزراء الى حفلة عرض فيها شريطا سينمائيا عن عملية احتلال بولندا التي وضح فيها المناظر المرعبة التي صورت اثناء قصف مدينة وارسو ٠ وقد علق الوزير على الصور بقوله : « ان البولنديين يجب ان يشكروا اصدقاءهم الانكليز والفرنسيين على ما حل بهم من كوارث » !!

وتفرق الضيوف وعلى وجوههم امارات الرعب والقلق ، خاصة ممايقوم به الانكليز من نشاط كبير في النروج ومن زرع للالغام في مداخل الخليج الغربي المؤدي الى ميناء نارفيك ، واحتجت الحكومة النروجية على هذه الاجراءات الخطيرة ، الا ان الاميرالية البريطانية اعلمت المفوضية النروجية في لندن ان البوارج الالمانية بدأت تتحرك متجهة نحو الساحل النروجي ، بينما كانت الجحافل الالمانية تجتاح الدانمارك ، لكن الاخبار لم تصل الى النروج الا بعد ان تعرضت هي للهجوم الالماني ٠

كان الهجوم الالماني الصاعق يتميز بالمفاجأة والشدة والدقة، في مداهمة بلدا اعزل وشعبا بريئا كشعب النروج ٠ فقد استخدمت المانيا سبع فرق عسكرية ، وثمانماية طائرة وثلاثماية طائرة نقل ، بالاضافة الى الهجوم البحري الكبير ٠ ولم تمض ثمان واربعين ساعة حتى سقطت جميع الموانيء النروجية في ايدي الالمان ٠ وتغلغلت الدعايات الالمانية بسرعة البرق بين صفوف الشعب ، ووقف الماجور كويزلنغ ليعلن نفسه حاكما على المناطق التي سقطت في ايدي الالمان ٠

وبدأت في الحال تعبئة الجيش الذي راح يقاتل بضراوة الجيوش الغازية الزاحفة شمالا من اوسلو· والتجأ الوطنيون الى الجبال والغابات، وانسحب الملك وحكومته الى هامـــار التي تبعد مئة كيلو متر عن اوسلو ، وطاردتهـــم المدرعات الالمانية وقصفتهم الطائرات من الجو الا انهم تمكنوا من الوصول ، واذاعوا بيانات تدعوا الى المقاومة والثورة · ولا شك ان السرعة التي تمكن بها هتلر ، بعد ذلك ، من السيطرة على البلاد تعتبر عملا وحشيا من اعمال الحرب والسياسة ومثلا حيـا يدل على مدى اتقـان المانيـا لفظـاعة الحرب ووحشيتها ·

* * *

وبهجوم هتلر على النروج انتهى وميض الحرب ، وتلاه أعظم انفجار عسكري عرفته البشرية · فمنذ ان تحالف ستالين مع هتلر ، تلقى الشيوعيون الفرنسيون الاشارات من موسكو بوجوب اعـلان استنكارهم للحرب ونعتهـا بجريمة استعمارية رأسمالية ضد الديمقراطية ! وحاول الشيوعيون وسعهم في تحطيم معنويات الجيش، وعرقلة اعمال المصانع · وتمكنت الدعايات الهدامة من تحطيم الروح المعنوية لدى الجيش والشعب ·

ولم يحدث شيء من هذا في بريطـانيا ، فقد كـانت توجيهـات موسكو للشيوعية المحلية في بريطانيـا ضعيفة كل الضعف · وقد ادت الحملة علـى النروج الى اضطرابات عنيفة نشبت في بريطانيا ، واتقدت العواطف الثائرة ، وطالبت المعـارضة باجراء منـاقشة في المجلس عن الوضع الحربـي · فتقرر اجراء هذه المناقشة في السابع من شهر ايار · وحاول المستر تشمبرلين تهدئة العواطف المعادية ، لكنـه قوطـع بالاستهزاء · ورد المستر تشمبرلين على المستر هربرت موريسون بقوله انـي لم اكن اتمتع بصلاحيـات كبيرة اثنـاء حملة النروج · وراح الخطباء يهـاجمون الحكومة بعنف مشوب بالمرارة · وقيام المستر ايمري الذي قوبل بالهتافـات العـالية ليقول مـا سبق وقـاله كرومويل : « لقد امضيتم وقتا كثيرا هنـا لا ينسجم مع النفع الذي كنتـم تفعلونـه · وانـي اقول لكم الان ، اخرجوا وخلصونـا منكم ، بحق اللـه ، إذهبوا ··· »

وفي اليوم التالي اعلن المستر هربرت موريسون ، باسم المعارضة عـن عزمه طلب الاسراع على الثقة ، وقـام رئيس الوزراء ليعلن قبوله التحدي · وقام المستر لويد جورج ليلقي خطابا قصيرا وجه فيه ضربة قاضية على رأس الحكومة ، الا انه ابرأ ذمتي بقوله : « لا اظن ان وزير البحرية يعتبر مسؤولا

عن ما حدث في النروج » وقد قاطعته على الفور بقولي : « انـي اتحمل كـل المسؤولية عن كل ما قامت بـه الاميراليـة متحمـلا العـبء كلـه » فحذرني المستر لويد من مغبة جعل نفسي ملجأ يقي الحكومـة من الشظايا · ثم التفت الى المستر تشمبرلين وقال : « ان القضية اضخم بكثير مما نتصور · لقد طلبت منا في السابق ان نضحي ، وانـا اقول ان الشعب باسره على اتـم الاستعداد للتضحية اذا رأى على رأسه القيادة الصـالحة · واذا رأى هـذا الشعب ان الذين يتولون زمـام الامور يقومون بدورهم باقصى ما يمكن مـن جهد· وانا اقول بكل احترام، ان من واجب رئيس الحكومة ان يقوم بتضحية كبيرة مقدما بذلك مثلا اعلى للشعب، اذ ليس ثمة من شيء يكون اكثر اسهاما من النصر في هذه الحرب من تضحيته بمركزه ··· »

وعندما طرحت الحكومة الثقة فازت بها باغلبية واحد وثمانين صوتا ، بالرغم من امتناع ثلاثين نائبـا محافظـا عن التصويت · الا ان النتيجة لم تقنع المستر تشمبرلين ولم تطب نفسه بعد الالم الذي اصابه ·

* * *

في اليوم العاشر من شهر ايار وردت الاخبار الهائلة بان جحـافل هتلر قد اجتاحت هولندا وبلجيكا ، واجتازت حدودهما في عدة مواقع ، واتجهت حركة الجيش نحو الاراضي المنخفضة وفرنسا ···

وفي مكتبي بالاميرالية وجدت بعض الوزراء الهولنديين الذين وصلوا من امستردام، بعد ان هوجمت بلادهم دون اي سبب · وطلبوا منا ان نفعل شيئا، ولحسن الحـظ ان عمـارة بحرية كانت قريبـة فاصدرنا اليها الامر بالتوجه فورا وضرب العدو وانزال اكبر عدد ممكن من الخسائر بقواته مع علمنا ان الامر قد انتهى وأصبحت البلاد في أيدي الالمان · وكـانت الملكة لا تزال في البلاد ، الا انها لن تتمكن من البقاء طويلا ·

وفي اثناء هذه المعركة الجديدة وصلتني رسالة تستدعيني للمثول امام الملك في تمام الساعة السادسة ·وما انوصلت الى القصر حتىسمح لي بالدخول على الفور ، واستقبلني جلالته ببشاشة ولطف كثيرين وأمرني بالجلوس ،ونظر الي وقال : « اعتقد انك تعلم لماذا استدعيتك ؟ » وأردت ان اجاريه في طريقته فاجبت « لا اعتقد اني اعلم ياسيدي » فضحك جلالته وقال : « اريد ان اطلب منك تاليف الوزارة · » واجبته باني سامتثل لامره في الحال ·

ولم يشترط جلالته على نوع الحكومة وقوميتها · وشعرت ان تكليفي ليس مشروطا بتاليف حكومـة قوميـة ، الا انـي كنت افضل في هذه الظروف

بالذات قيام حكومة قومية • ولكن اذا تعذر على التفاهم مع المعارضة ، فاني عند ذلك لن اكون ممنوعا من الناحية الدستورية من تاليف حكومة قوية تضم جميع القادرين على الوقوف الى جانب بلادهم في هذه الظروف العصيبة شرط ان تكسب تأييد الاغلبية في المجلس • واخبرت جلالته اني عازم على تقديـــم اسماء خمسة او ستة وزراء ممن ستتالف منهم الوزارة ، قبل منتصف الليل •

ودعوت المستر تشمبرلين هاتفيا وطلبت منه تولي رئاســـة المجلس ، فوافق وجرى الاتفاق على اذاعة بيان استقالته في الساعة التاسعة • وقد قام بهذه المهمة بطريقة رائعة كريمة ودعا الى تأييد خلفه والالتفاف حولـــــه • وبعد ذلك تمكنت من تاليف الوزارة وارسلت لجلالته قائمة بخمسة اسماء ، كما وعدته ان افعل • وقررت ان اتولى بنفسي مهام وزارة الدفاع • وهكذا تم لي تسلم القيادة في الدولة ، وبقيت محتفظا بها طيلة خمس سنوات وثلاثـة أشهر ، بكل اخلاص وقوة ، الى ان انتهت الحرب واستسلم اعداؤنا دون قيد او شرط •





الجزء الثاني

سقوط فــــــرنسا



الفصل الاول

معركة فرنسا

منذ نشوب الحرب في أيلول عام ١٩٣٩ ، خصص الالمان قوتهم الرئيسية لغزو بولندا • وكانت تقف على الحدود الغربية الممتدة من اكس ـ ليشابل الى حدود سويسرا ، اثنتان وأربعون فرقة المانية ، وكانت هذه الحشود خالية من أية فرقة مدرعة • وكان بوسع فرنسا ان تواجه هذه القوة بنحو من سبعين فرقة . الا أنهم لم يفعلوا ذلك وقرروا انه من المتعذر الهجوم على المانيا انذاك• أما الان فقد تغير الوضع تماما ، فقد اغتنم العدو الفرصة التي منحت له خلال ثمانية اشهر ، وبعد ان تمكن من احتلال بولندا عبأ ما يقارب المائة والخمسة والخمسين فرقة من بينها عشرة فرق مدرعة • وقد ساعده في ذلك الاتفاق المعقود بين هتلر وستالين ، والذي مكن هتلر من سحب وتخفيض قواته على الجبهة الشرقية الى اقل عدد ممكن • وقد وصف الجنرال هولدر تلك القوات البسيطة المتبقية أمام روسيا بأنها قوة صغيرة تصلح لجمع الضرائب فقط • وهكذا استطاع هتلر ان يخصص لهجومه الكاسح على فرنسا مائة وست وعشرين فرقة مجهزة بأقوى الاسلحة ، تدعمها ثلاثة الاف سيارة مصفحة والف دبابة ثقيلة •

أما فرنسا فقد حشدت مائة وثلاث فرق ، بينها الفرق البريطانية الموجودة في فرنسا ، واذا تقرر اشراك الجيوش البلجيكية والهولندية فسيزداد العدد بمقدار اثنين وعشرين فرقة إضافية ، ولما كان الهجوم الالماني الذي بدأ في العاشر من أيار عام ١٩٤٠ قد استهدف الجبهات الثلاث مجتمعة ، فقد بلغ مجموع القوات الحليفة مائة وخمس وثلاثون فرقة ، أي ما يوازي عدد الفرق

الالمانية تقريبا · ولو كانت هذه القوة الكبيرة منظمة تنظيما حسنا ومدربة تدريبا تاما لكان في امكانها وقف الهجوم الالماني · الا ان الجيش الالماني انذاك اصبح في وضع يمكنه من اختيار الوقت والاتجاه والقوة اللازمة لبدء هجومه · وكان أكثر من نصف الجيش الفرنسي متمركز في القطاعات الجنوبية والشرقية من البلاد ، بينما بقيت احدى وخمسون فرقة فرنسية بريطانية لتواجه الهجوم الكاسح في الشمال الذي تقوم به نحو من سبعين فرقة المانية · وقد بدأ الالمان هجومهم بزحف الدبابات الحديثة التي لا تخترقها قذائف المدافع والطائرات ، وقد صدرت الاوامر الى خمس فرق مدرعة وثلاث فرق اليه بعبور الاردين الى سيدان ومونتري ·

أما الفرنسيون فقد واجهوا هذه الدبابات بدبابات من النوع الخفيف وقد بلغ عددها الفين وثلاثماية دبابة ، وقد تضمنت فرقهم الالية المدرعة بعض الانواع القوية ، الا ان معظم قوتهم المدرعة تلك كانت مجزأة ومتفرقة على عدة جبهات · أما بريطانيا التي كانت أول من اخترع الدبابة فقد اكملت تدريب أول فرقة مدرعة لها قبل أيام من بدء الهجوم ، ولم تتمكن من ارسالها الى فرنسا ·

أما الطائرات الالمانية ، فكانت تفوق الطائرات الفرنسية بالعدد والقوة· اما القوة الجوية البريطانية العاملة في فرنسا فكانت تضم عشرة اسراب من طائرات « الهاريكين » ، التي تمكنا من الاستغناء عنها ، بالاضافة الى تسعة عشر سربا من أنواع مختلفة اخرى · اما طائرات الانقضاض ، هذا النوع الجديد من الطائرات الذي بدأ في الظهور منذ غزو بولندا ، فلم تكن فرنسا او بريطانيا قد انتجته بعد · وقد أثرت هذه الانواع من الطائرات على كتائب المشاة الفرنسيين وحطمت من معنوياتهم بشكل كبير ·

* * *

بدأ الهجوم الالماني ليلة التاسع ـ العاشر من شهر أيار عام ١٩٤٠ ، وقد سبق هذا الهجوم ، غارات جوية على المطارات وطرق المواصلات والمنشآت العسكرية ، وبدأ الهجوم عبر حدود بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ · وتمكن الالمان من مباغتتهم في كل مكان ، وكان جنود العاصفة وهم يحملون المدافع الخفيفة ، ينطلقون من جميع الجهات ليشعلوا الجبهة بالنيران ·· وعندما بدأ الزحف الكبير على هولندا وبلجيكا صرختا تطلبان النجدة · اما الهولنديون فقد اركنوا الى خطهم المائي وفتحوا جميع الثغرات التي لم يتمكن

الالمان من الاستيلاء عليها ، كما راح حرس الحدود يقاومون الغزاة • الا ان الالمان كانوا قد اخترقوا الجبهة على عدة مواضع واقاموا الجسور واستولوا على فتحاتها والمفاتيح التي تضبطها • بينما راحت الطائرات المغيرة تضرب بقوة ، واصبحت مدينة روتردام بعد ليلة واحدة كتلة من الانقاض ، كذلك لاهاي واوترخت وامستردام ••••

وفي الرابع عشر من ايار ، بدأت الاخبار السيئة تصلنا عن اختراق الالمان للجبهة في سيدان ، ولم يتمكن الفرنسيون من الوقوف في وجه الجيش الالماني ، ومقاومة الدبابات وطائرات الانقضاض الهائلة • وقد وصلتنا الى مجلس الوزراء رسالة من المسيو رينو ، يطلب فيها ارسال عشرة اسراب من الطائرات لمساعدته في اعادة تنظيم الخطوط • كما وصلت رسائل اخرى الى رؤساء الاركان تشرح الموقف وتقول ان الجنرالين غاملان وجورج يعتبران الوضع خطيرا جدا ، وقد ذهل الجنرال غاملان من سرعة الزحف الالماني • وفي جميع الاماكن التي اشتبكت فيها الجيوش كانت قوة الهجوم الالماني تسيطر على الموقف في الحال • اما الطائرات البريطانية فقد قاتلت ببسالة وقوة وحطمت الجسور الرئيسية في سيدان ، الا ان الخسائر التي تعرضت لها الطائرات البريطانية كانت كثيرة الى حد مخيف • فمثلا خسرنا في يوم واحد حوالي سبعة وستين طائرة انزلتها المدفعية الالمانية المضادة للطائرات ، كما انا اسقطنا حوالي ثلاثة وخمسين طائرة المانية • ولم يبق لدينا في ذلك اليوم سوى ٢٠٦ طائرات من اصل ٤٧٤ طائرة في فرنسا ••• واتضح لنا ان الاستمرار على هذه الحال سيؤدي الى نهاية القوة الجوية البريطانية • وكان السؤال الان ، ماذا في وسعنا ان نرسل من طائرات الى فرنسا دون ان نترك بلادنا بلا دفاع • وكانت نداءات فرنسا الملحة ، ورغبتنا في القيام بالتزاماتنا تدفعنا الى ارسال المزيد ، الا اننا سنصل الى حد لا يمكننا تجاوزه لانه سيكلفنا بذلك حياتنا •

وبحثت وزارة الحرب ، التي كانت تجتمع كل يوم ، هذا الوضع المخيف• وكان ماريشال الجو داودينغ قد اعلمني ان باستطاعتنا الدفاع عن وطننا بخمسة وعشرين سربا مقاتلا من الطائرات ، حتى لو هاجمنا السلاح الجوي الالماني كله • اما اذا انخفض هذا العدد ، فلا يمكننا الدفاع بعد ذلك • وكانت الهزيمة لا تعني فقط تدمير مطاراتنا وقوتنا الجوية ، بل تعني تدمير مصانع انتاج الطائرات الذي يتوقف عليها مستقبل بلادنا كله ••••

وفي الساعة السابعة والنصف صباحا من يوم الخميس في الخامس عشر

من شهر أيار وصلتني مخابرة هاتفية الى المنزل وانا في فراشي من المسيو رينو • وكان يتكلم بالانكليزية ، والاضطراب باديا على صوته وهو يقول : « لقد هزمنا • لقد خسرنا المعركة » فقلت له : « لا يمكن ان تهزموا بهذه السرعة !! » فأجاب « لقد تحطمت الجبهة عند سيدان ، وهم الان يتقدمون بالدبابات والاليات المدرعة » واجبته على الفور بانني ساتي الى فرنسا للتحدث معه •

لقد استطاع الالمان ان يقتحموا الجبهة ، واندفعت قوات كبيرة بعد ان اضمحل الجيش الفرنسي التاسع • وفي السادس عشر منه توغلت القوات الالمانية ستين ميلا وراء الجبهة ، كما انتهى القتال في ذلك اليوم أيضا ، في هولندا بعد ان استسلمت القيادة العليا •••

***

في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه ، توجهت الى فرنسا ومعي الجنرال ديل ، نائب رئيس اركان حرب الامبراطورية والجنرال ايسماي • ووصلنا بعد ساعة الى مطار « لابورجيه » • وظهر لي الوضع اسوأ بكثير مما كنت أعتقده • وقد قال الضباط الذين كانوا في استقبالنا ان الالمان سيصلوا باريس خلال ايام معدودة ، وهذا على أكثر تقدير • وتوجهت الى سفارتنا وبعد ان استمعت الى الاخبار ، توجهت الى الكي دورسيه ، ودخلت الى الغرفة حيث كان بانتظارنا رينو ووزير الدفاع ديلادييه والجنرال غاملان • وكان الجميع وقوفا ، ولاحظت على وجوههم دلائل التعب والاضطراب • ورأيت امامهم خريطة قد رسم عليها بخط أسود جبهة الحلفاء ، وقد احدثت فيها ثغرة صغيرة مشؤومة عند سيدان •

وأوضح القائد باختصار تفاصيل ما حدث • فقد اخترق الالمان الجبهة الى الشمال والجنوب من سيدان على بعد ستين ميلا ، وقد تمزق الجيش أمامهم وتحطم شر تحطيم • وبدأت السيارات تتجه بسرعة هائلة نحو اميان واراس ، معتزمة الوصول الى البحر عند ابيفيل او قربها ، وربما غيرت هذه القوات وجهة سيرها ، وتحولت نحو باريس • وقال ان القوات المدرعة البالغة ثماني فرق تزحف وراء السيارات وتوسع في اجنحتها أثناء تقدمها بعد ان شطرت الجيش الفرنسي وفصلت بينه تماما • وقد استمر الجنرال يحدثنا عن الوضع حوالي خمس دقائق • وبعد ان انهى حديثه ساد الوجوم والصمت لفترة طويلة ، ثم سألته « اين القوة الاحتياطية وأين قوات المناورات ؟ »

واجابني غاملان وهو يهز برأسه : « لا يوجد عندنا قوات احتياط او قــوات منـــاورة ····· »

وساد الصمت فترة اخرى · وارتفع الدخان في الحدائق من المشاعــل ورأيت الموظفين يحملون الوثائق والمستندات الهامة ويضرموا فيها النيران · استعدادا للجلاء عن باريس ·

وعلى الرغم من ان للتجارب الماضية ميزات عديدة ، الا انها تنقـــص نقصا هاما هو في كون الامور لا تتكرر على نفس الصورة مرتين · ولولا ذلك لكانت الحياة تسير بسهولة كبيرة · وفي السابق تحطمت جبهاتنا وتمكن العدو من اختراقها ، لكننا كنا دائما نتمكن من وصل الاشياء ببعضها ونخفف مــن حدة الهجوم · اما الان فالتجربة كانت مختلفة ، فقد انقطعت طرق المواصلات، وتم الاستيلاء على الريف القائم وراء الجبهة باندفاع هائل من السيـــارات المدرعة ، ولم يكن باستطاعتنا المقاومة لعدم وجود احتياطي استراتيجي لدى الفرنسيين ··· لقد أجابوني بانه ليس لديهم احتياطي ، وقــد اذهلنـــي جوابهم هذا ، اذ كيف يمكننا اعتبار هذا الجيش الفرنسي الكبير بعد الان ؟ ولم استطع ان أتصور ان قائدا يعهد اليه مهمة الدفاع عن جبهة تقدر مساحتها بخمسمئة ميل ، ويبقى عاجزا عن المناورة · اذ لا يمكن لاي قائد ان يدافع عن جبهة واسعة كالجبهة الفرنسية ، خاصة بعد ان يندفع العدو بهذه القوة الهائلة ويخترق الجبهة · لذلك يتوجب على القائد ان يطلق فرقة الاحتياطية لمهاجمة العدو في نفس اللحظة التي تكون حدة هجوم العدو قد خفتت ·

اذن لماذا اقامت فرنسا خط ماجينو هذا ؟ فهو بلا شك قد وفر استخدام قوات كبيرة من الجيش ، وبنفس الوقت خلق مراكز اندفاعية ، باستطاعـــة الجيش ان يستخدمها أثناء هجومه المعاكس بالاضافة الى استخدامه لتلــك المراكز لحشد قوات اضافية تساعد الجيش عند الضرورة · وهذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة مثل هذا الموقف · ولكنهم يقولون انه ليس عندهم احتياطي · وهنا لا بد ان اعترف ان قولهم هذا كان اكبر مفاجاة تلقيتها في حياتي · فلماذا لم يعرفوني بهذا الامر من قبل ، حتى ولو كنت منهمكا في اعمالي فـــي الاميرالية ؟ بل لماذا لم تعرف الحكومة البريطانية بهذا الامر من قبل ، وخاصة وزارة الحربية ؟ ولا اعتقد ان القيادة الفرنسية ما كانت لتكشف لنا عن هذا الضعف او عن طريقة توزيع قواتها ، فهذا العذر هو اقبح من الذنب · اذ انه من حقنا ان نعرف ، فالجيشان يخوضان معركة حياة او موت في الجبهة ··· وعدت الى النافذة لأراقب السنة اللهب تلتهم الوثائق والمستندات الخاصــة

بالجمهورية الفرنسية · وكانوا لا يزالون يقذفون بمزيد من المستندات الـــى النيران المتأججة ····

وعاد الجنرال غاملان الى الحديث مرة اخرى ، ويقول اذا لم يكن من الضروري اعادة جمع القوات المشتتة لتضرب القوات الغازية · وقال ان هناك ثماني فرق او تسعة يمكننا سحبها من المراكز الهادئة في الجبهة عنـد خط ماجينو ، كما ان هناك ثلاث فرق مدرعة لم تشترك بعد في المعركـــة · بالاضافة الى ثماني او تسع فرق ستتصل في طريقها من أفريقيـا خـــلال اسبوعين · وفي هذه الحالة سيجتاز الالمان طريقهم عبر ممر بين جبهتيـــن فيمكن شن الغارات المعاكسة عليهم ، ولن يتمكن الالمان من الصمود نتيجـة ضغط الجبهتين عليهم ···

ومع ان اقوال الجنرال غاملان كانت منطقية ومعقولة ، الا انني شعرت بان بقية الرجال لا يصدقون ما يقوله · وسألت الجنرال غاملان عن الموعـد الذي سيحدده للهجوم ، وعن الطريقة التي سيتبعها في هجومه ، وكان رده : «اننا اقل منهم عددا وعدة ، وأضعف منهم في أساليب الحرب ··» وبعد ذلك اكتفى بان هز كتفيه ، ولم نتكلم بعد ذلك ، اذ لم يكن من ضرورة لذلك ··· ثم اين تقف بريطانيا ازاء هذا الوضع ، بأسهامها الضعيف الذي لا يتعدى العشر فرق والتي لا يوجد بينها فرقة واحدة من الدبابات الحديثة ، وذلك بعد مضي ثمانية أشهر من اعـــلان الحرب ؟؟

***

وفي الصباح ، قبل ان اغادر المكان ، وصلني التفويض من مجلـــس الوزراء في لندن لنقل أربعة اسراب من الطائرات المقاتلة الى فرنسا · ورجعت الى السفارة لاطلب ارسال ستة أسراب اخرى ، تاركا خمسة وعشرين سربـا فقط للدفاع عن الجزر البريطانية كلها ، وهذا هو الحد النهائي · وجاءتنـي الموافقة في المساء ، فتوجهت لتوي الى منزل المسيو رينو وابلغته النبأ ، كما طلبت منه استدعاء المسيو ديلادييه ليسمع النبأ المفـرح ، الذي بدا لي انه سيرفع من معنويات اصدقاءنا الفرنسيين · وعندما سمع المسيو ديلادييـه بالخبر لم ينبس بكلمة واحدة ، واكتفى بان قفز من مكانه وامسك بيـــدي وعصرها وامارات الفرح ترتسم على وجهه ··· وفي صباح اليوم التالـــي عدت الى لندن · وقد اخبرت اصدقاءنا الفرنسيين ، قبل ان اغادر باريس ، انهم ما لم يبذلوا جهدا فائقا فان مغامرتنا الكبرى في ارسال تلك الاسراب من

الطائرات تصبح دون فائدة · وقد قيل لي ان خسائر العدو كانت اكبر من خسائرنا بخمسة أضعاف ، كما قيل لي ان فرنسا فقدت معظم طائراتها ··· وخيل للجنرال غاملان ان الوضع قد أصبح منتهيا ، وقد اخبروني بعد ذلك انه اعلن بأنه لن يتمكن من الصمود اكثر من يوم واحد فقط ، وان باريس ستسقط بين ليلة وضحاها !! وفي نفس اليوم الذي وصلت فيه لندن ، وصلتني الاخبار ان الالمان دخلوا بروكسل وفي اليوم التالي دخلوا كامبرية ثم اجتازوا سان كانتان ، بينما كانت القوات الحليفة تتراجع منسحبة ···

وفي منتصف ليل الثامن عشر ـ التاسع عشر ، قام الجنرال بيلوتي بزيارة اللورد غوت في القيادة العليا · ولم تكن شخصية هذا القائد تبعث على الارتياح والثقة · ومنذ تلك اللحظة بدأت فكرة الانسحاب الى الشاطيء تراود مخيلة القائد العام البريطاني ، وقد ابرق الينا يقول ان الوضع في فرنسا قد تغير ولم تعد المسألة مسألة خرق لخط الدفاع ، بل أصبح الوضع يشكل صورة القلعة المحاصرة والمهددة بالسقوط ·

***

وبدأ المسيو رينو بتغيير اعضاء وزارته وقيادته العليا · وعين الماريشال بيتان نائبا لرئيس الوزراء ، ونقل المسيو ديلادييه الى وزراء الخارجية واخذ عنه مهام وزارة الدفاع والحربية واحتفظ بها لنفسه ، كما عين الجنرال ويغان قائدا أعلى بدلا من الجنرال غاملان ·

كان اخر أمر أصدره الجنرال غاملان هو ان تشق الجيوش الشمالية طريقها الى الجنوب الى نهر السوم مهما كلفها الامر ، وان تهاجم مدرعات العدو التي قطعت طرق مواصلاتنا · وفي نفس الوقت يترتب على الجيش الثاني والجيش السادس ان يخترقا الصفوف باتجاه الشمال نحو ميزيير · وقد اعجبت بهذه القرارات المتخذة ، فقد كانت قرارات صائبة جدا ·

وقد اثار اضطراب القيادة الشمالية ، وهزيمة الجيش الفرنسي الاول وغموض الموقف العام ، اثار القلق في نفوسنا ، وبقيت في نفس الوقت جميع الاجراءات التي اتخذناها هادئة مرنة وجاءتنا رسالة من اللورد غورت تقول أنه يدرس امكانية إنسحاب جيوشنا الى دنكرك ، بحال اضطر الى ذلك ··· ولم يكن باستطاعة رئيس الاركان الموافقة على مثل هذا الاقتراح الذي لم نكن نحن ايضا نوافق عليه ، فبعثنا برسالة الى اللورد غورت ، نعلمه بها بوجوب الاتجاه بالقوات البريطانية نحو الجنوب الغربي لتنضم

الى القوات الفرنسية في الجنوب ، وفي نفس الوقت يحث البلجيكيين على العمل بنفس الخطة · واذا لم يوافقوا عليه ان يخبرهم عن استعدادنا لاجلاء اكبر عدد ممكن من القوات من موانيء المانش · وقررنا في نفس الجلسة ان نرسل الجنرال ديل الى مقر قيادة الجنرال جورج ، الذي كنا على اتصال تلفوني دائم معه ، بينما كانت اتصالاتنا مع اللورد غورت متقطعه وصعبة ، وقد وصلتنا الاخبار بان الذخيرة والمؤن لم تعد تكفي الا لمدة اربعة ايام فقط·

وفي العشرين من ايار ، بعد ان درسنا وضع جيشنا من جديد ، قررنا بالجلسلة الخاصة ما يلي : « يتوجب على الاميراليه ان تقوم بحشد اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة ، وذلك كاجراء احتياطي ، لنكون على استعداد للابحار الى الموانيء القائمة على طول الساحل الفرنسي » · وفي نفس اليوم عقد المؤتمر الاول لجميع من يعينهم الامر لدرس قضية الجلاء الطارىء عبر القناة لقوات كبيرة جدا · كما وضعت الخطة لاجلاء عشرة الاف رجل عن موانيء كاليه وبولون ودنكرك ، كل اربعة وعشرين ساعة · وقد اسميت هذه الخطة « عملية دينامو » التي برهنت على انها الطريقة الوحيدة التي انقذت الجيش بعد عشرة ايام



وفي ليلة العشرين من الشهر نفسه دخل الالمان مدينة ابيفيل ، بعد ان قطعت طرق مواصلات الجيوش الشمالية ، واصبح اتجاه قواتهم واضحا الان وكانت الفرق الالية والمدرعات تتدفق كالسيل الجارف دون ان تلقى اية مقاومة من الفرنسيين ، وكانت تتقدم مجتازه المدن والقرى بمعدل ثلاثين او اربعين ميلا في اليوم الواحد · وكان الضباط الالمان ينظرون الى السكان ويبتسمون بسخرية وهم يلوحون لهم بايديهم · وتتحدث الاخبار ان جماعات من الاسرى الفرنسيين كانت تسير معهم والبنادق لا تزال في ايديهم ، وكان الالمان يجمعونها بين الفترة والاخرى ويحطمونها تحت الدبابات ···· وقد اذهلني هذا الفشل في الوقوف امام هجمات المدرعات الالمانية التي تمكنت من تحطيم جيوش قوية بكاملها ، كما اذهلني الانهيار السريع في المقاومة الفرنسية بعد ان تمكن الالمان من اختراق الجبهة · فقد كانت القوات الالمانية تسير على الطرقات الفرنسية الرئيسية بحرية تامة · ولم يبد ان اي طريق قد اغلق في وجه الاعداء ولو في نقطة واحدة تدل على شيء من المقاومة ····

الفصل الثاني

المسير نحو البحر

لقد كان هتلر الرجل الوحيد الذي يستطيع اختراق حياد بلجيكا وهولندا ، وبلجيكا لن تطلب العون من الحلفاء الا اذا هوجمت • لذلك بقي زمام المبادرة العسكرية في يد هتلر الذي وجه ضربته في اليوم العاشر من شهر ايار • وانتقلت الجيوش الفرنسية والبريطانية من وراء خطوطها الى بلجيكا لمحاولة انقاذها ، بدلا من البقاء عند خطوط الدفاع المحصنة • وقد كانت هذه المحاولة حسب خطة رسمها الجنرال غاملان والملقبة بالخطة «د» • وكان الفرنسيون قد تركوا نقطة الدفاع المقابلة للاردين ، دون دفاع قوي ، فتمكنت الجيوش الالمانية من الاندفاع بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ وقسمت خط الجيوش الفرنسية • وبعد ثمان واربعين ساعة اصبحت الجيوش الالمانية تهدد بقية الجيوش المتمركزه بالشمال قاطعة خط مواصلاتها الجنوبية وعن البحر ايضا • وكان على القيادة العليا الفرنسية ، ان تأمر جيوشها بالانسحاب فورا وباقصى سرعه ممكنة متحمله الخسائر البالغة في المعدات • الا ان الجنرال غاملان لم يواجه هذه الحقيقة المخيفة ، بينما كان قائد الجيوش الشمالية ، بيلوتي ، عاجزا عن اتخاذ القرارات الهامة بنفسه • لذلك عمت الفوضى جميع الجيوش في الجبهة الشمالية المهددة •

وعندما شعرت هذه الجيوش بالخطر المحدق بها ، تراجعت الا ان العدو كان قد طوقها من الايمن ، فقامت بانشاء خط دفاعي • لكنها لو بدأت هذه الجيوش بالتراجع قبل هذا الوقت الذي تراجعت فيه ، لكان باستطاعها ان تصل الى خطها القديم فتتمكن من النجاة • لكن هذه الجيوش تأخرت وفقدت

ثلاثة ايام بين اخذ ورد فاستكمل العدو حركة التطويق ! ورات وزارة الحرب في بريطانيا ان القتال الفوري في الجنوب هو الطريقة الوحيدة لانقاذ الجيش البريطاني · لكن اللورد غورت ، لم يوافق على هذه الفكرة وبامكانية نجاحها فالخطة المقترحه من وزارة الحرب تقضي باشغال العدو على عدة جبهات لتتمكن من خرق جبهة واحدة لتنفيذ خطة التراجع · وفي هذا الوقت تغيرت القيادة العليا في فرنسا وصرف الجنرال غاملان وخلفه في القيادة الجنرال ويغان · وادى هذا التغيير في القيادة الى التاخير ثلاثة ايام اخرى · واقترح الجنرال خطة مشابهة لخطة سلفه واضطررنا الى قبولها مرغمين وحاولنا بكل جهد ان ننفذها مخلصين الى ان انقطعت طرق المواصلات امامنا ، بعد ان صد الالمان هجماتنا الضعيفة واحتلوا اراس وانهارت الجبهة البلجيكية واوشك الملك ليوبولد على الاستسلام · وفقدنا كل امل في الانسحاب الى الجنوب · ولم يبق امامنا الا البحر ··· وفي الحال ، اقام اللورد غورت راس جسر حول دنكرك محاولا شق طريقه بكل قوته · وكنا في هذه الايام بحاجة الى كل ما عرف عنا من نظام وطاعة ودقة في القيادة ···

* * *

وهنا سنعرض قصة كثر الجدل حولها · فقد ذكر الجنرال هولدر رئيس اركان الجيش الالماني ، ان هتلر قد تدخل في هذا الوقت شخصيا ولاول مرة لانه شعر بالخوف على آلياته المدرعة لانها اصبحت في وضع خطر للغاية ، فهي الان في ارض وعرة محاطة بالاقنية ولا يمكنها التقدم بشكل سريع · وبنفس الوقت لا يمكنه احتمال اي خسارة في معداته ، فهو بحاجة اليها في المرحلة الثانية من حملته · واعتقد ان سلاح الطيران سيتمكن من السيطرة ومنع التراجع والانسحاب عن طريق البحر · لذلك ارسل اوامره بوقف آلياته المدرعه وتراجعها في بعض الاماكن · وهكذا اصبح في مقدور البريطانين الانسحاب والوصول الى دنكرك · هذا حسب قول هولدر نفسه · وعلى كل حال فقد تمكنا من التقاط رسالة المانية في صباح الرابع والعشرين من ايار ، تأمر بوقف الهجوم على دنكرك · ويقول هولدر ايضا انه رفض التدخل في تحركات الجيوش التي كانت تحت امرة رونشتادت والتي كانت تحمل الاوامر الصريحة بمنع العدو من التقدم والوصول الى البحر · وقال انه كلما اسرع في تحقيق النصر كان اسهل فيما بعد التعويض عن الدبابات والمدرعات المفقودة ·

ولم يلبث هتلـر ان اصدر امرا بايفاد ضابط ارتباط شخصي الـى الجبهة · ومضى الجنرال هولدر يقول :

« لم اعرف كيف اقتنع هتلـر بضرورة عدم تعريض قواته المدرعه الى الخطر ومن المرجح ان يكون كايتل قد اوحى له بهذه الافكار عـن طريـق القصص التي كان يقصها عليه »

وقد صرح قادة اخرون بقصة مشابهة واشاروا الى ان هتلر قد اصدر اوامره هذه لاسباب سياسية منها فسح المجال امام انكلترا لطلب السـلام بعد الهزيمة التي لحقت بفرنسا · وقد ظهرت بعد انتهاء الحرب بعض الوثائق التي صدرت عن مقر قيادة رونشتادت على شكل يوميات دونت في ذلك الوقت اما هذه الوثائق فتروي القصه بشكل مختلف تماما ! فالاوامر صدرت عنـد منتصف ليل الثالث والعشرين من ايار من مقر القيادة العامة ، تحمل توقيع براوخيتش تذكر فيها ان الجيش الرابع سيبقى تحت قيادة رونشتادت ليقوم بالمرحلة الاخيرة من معركة التطويق · وفي صباح اليوم التالي ، عندما وصل هتلر لزيارة رونشتادت ، اخبره ان الاليات المدرعة ، التي توغلت بعيدا قد ضعفت قوتها ، وهي بحاجة الى فترة من التوقف لاستعاده نشاطها كي تتمكن من توجيه الضربة القاضية للعدو الذي يقاتل بضراوة · وكان رونشتادت ينتظر هجمات شديدة من الحلفاء في الشمال والجنوب ، وهي الخطة التـي اقترحها ويغان · وقد وافق هتلر على وجوب توقف السلاح الدرع لتجهيزه للمعركة الحاسمة المقبلة · ومع ذلك ، فقد وصل في صباح اليوم التالي الامر من براوخيتش ، القائد العـام ، باستمرار تقـدم المدرعـات · وهنا رفض رونشتادت الامر الموجه اليه ، بعد ان اطمأن الى موافقة هتلر الشخصية · ، ولم ينقل هذا الامر الى قائد الجيش الرابع « كلوغه » بل طلب منه ان يستمـر في تجميع القوات المدرعة · وقد احتج « كلوغة » على هذا التأخير ، ولكـن رونشتادت لم يصدر اوامر القيادة العليا الا في صباح يوم السادس والعشرين واضاف انه يجب ان لا يهاجموا دنكرك بالذات ··· وقد ذكرت هذه اليوميات عن احتجاج قادة الجيش الرابع على هذا التخصيص وكتـب رئيس اركـان حربـة يقـول :

« ان الوضع في الموانيء كان على الشكل التالي : فالبواخـر الكبيرة كانت تقترب من الارصفه ، وتمد الالواح الخشبية الـى الشاطيء وبسرعة عجيبة كانت اسطحة البواخر تكتظ بالرجال · اما اسلحتهم وعتادهم الحربي فيتركونه وراءهم · لكننا لم نكـن

نريد ان نرى هؤلاء الرجال أنفسهم يعودون مرة اخرى وقد تسلحوا بسلاح جديد ليقوموا بجولات جديدة ضدنا » ٠

ومن هذه اليوميات يتبين ان المدرعات قد توقفت بناء للاوامر التي صدرت عن رونشتادت لا عن هتلر ٠ ولا بد ان تكون هناك وجهة نظر خاصة ، الا ان القادة الالمان اجمعوا على ان هذه الاوامر قد اضاعت فرصه عظيمة عليهم ٠

****

لم تكن القوات الالمانية تضغط بشدة على خط الدفاع البلجيكي ، ولكنها ما ان بدأت ضغطها المتزايد حتى انهار الخط وتمكن الالمان من تحطيمه على جانبي كورتاني ، التي لا تبعد عن اوستند ودنكرك اكثر من ثلاثين ميلا ، وما لبث ملك بلجيكا ان يأس من الوضع الحاضر فقرر الاستسلام ٠

واتخذ اللورد غورت قراره الحاسم بالتخلي عن خطة الجنرال ويغان القاضية بالزحف نحو الجنوب ونحو السوم ٠ وقرر بدلا عنها بعد اقتناعه التام بان اشراف الحكومتين البريطانيه والفرنسيه قد انتهى على ميدان المعركة ، وكل سيطرة للقيادة الفرنسية العليا قد زالت ٠ لذلك قرر ان يستبدل فكرة الهجوم نحو الجنوب ، بسد الثغرة التي ستحدثها استسلام بلجيكا في الشمال ، وان يزحف باتجاه البحر ٠ وهكذا اصدر اوامره الى الفرقتين الخامسة والخمسين بوجوب الانضمام الى اللواء البريطاني الثاني لسد الثغرة في الجبهة البلجيكية ، كما نقل الى الجنرال بلانشار الفرنسي عزمه على تغيير الخطه الاولى ووافق الجنرال وقرر الانسحاب الى الخط الواقع وراء قناة ليز غربي ليل ، وقرر اقامة راس جسر حول دنكرك ٠

وفي الصباح الباكر من اليوم السادس والعشرين من شهر ايار ، قام غورت وبلانشار برسم خطة الانسحاب نحو البحر ٠ ولما كان على الجيش الفرنسي ان يقطع مسافة اطول ، لذلك مهدت قوات الحمله البريطانية الطريق بينما بقيت القوات الاخرى في خطوط الدفاع في الجبهة حتى ليله الثامن والعشرين من ايار ٠ وكان اللورد غورت يتصرف حسبما يراه مناسبا وعلى مسؤوليته الخاصة ، الا اننا في الوزارة كنا قد توصلنا الى نفس النتيجة حسب المعلومات التي حصلنا عليها ٠ لذلك اصدرنا له برقية تأييد للاجراءات التي قام بها طالبين منه التوجه الى البحر بالاشتراك مع مع القوات الفرنسية والبلجيكية ٠ ثم بدأ حشد اكبر عدد ممكن من المراكب والسفن ٠

وفي هذه الاثناء ، استمرت عملية اقامة رؤوس الجسور حول دنكرك ، كما تقرر ان يحتفظ الفرنسيون بالاماكن الواقعه بين « غريفلاين » و « بيرغ »

بينما يحافظ البريطانيون على القناة عبر فيرنز الى نيوبورت والشاطىء وتلقى اللورد غورت من الوزارة تأكيدا للامر الذي صدر اليه في اجلاء اكبر عدد ممكن من الرجال • وكنت قد اخبرت المسيو رينو ان هدفنا هو سحب القوات البريطانية ، كما طلبت منه ان يصدر أوامر مماثلة ، وكانت حركة المواصلات قد اصبحت ضخمة حتى ان قائد الجيش الفرنسي الاول اصدر امره في السابع والعشرين من ايار الى جنوده يقول : « ان المعركة تدور الان دون تراجع حتى خط ليز »

أصبح الخطر يهدد فرقا بريطانيا اربعة ، بالاضافة الى الجيش الفرنسي الاول كله ، بالعزلة والانقطاع • وراحت (الكماشه) الالمانية تحاول الضغط بكل قوتها على جيوشنا • وكانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة التي تلعب فيها وسائل النقل الميكانيكية دورها البارز • فما أن أصدر اللورد غورث أمره بالتراجع حتى كانت الفرق الاربع تتراجع بسرعة مذهلة في ليلة واحدة • وتمكنت بقية الفرق البريطانية من الاحتفاظ بالممر المؤدي الى البحر بكثير من الجهد ، وبعد معارك دامية تمكن العدو من اغلاق (الكماشة) بعد ان تم تأخيرها ثلاثة أيام بفضل الفرق البريطانية الثانية ، وتم اغلاق ذراعي الكماشة بصورة تشبه تلك العملية الروسية العظيمة حول ستالينغراد سنة ١٩٤٢ • وقد تم انسحاب الجيوش البريطانية والفرنسية ، خلال هذه الفترة ، وتمكنت من النجاة عدا اللواء الخامس من الجيش الفرنسي الذي فقد •••

* * *

قبل عشرة أيام طلبت من المستر تشمبرلين درس امكانية استمرارنا في الحرب وحدنا ، والان ما لبثت ان عرضت الامر بصفة رسمية على مستشارينا العسكريين • وقد وضعت الاسئلة بطريقة تترك المجال امام رؤساء الاركان لابداء ارائهم بحرية تامة ، مهما كانت تلك الاراء • وبالرغم من ثقتي التامة بانهم سيطلبون الاستمرار في الحرب ، الا انني وجدت من الحكمة ان احتفظ بسجلات خطية عن مثل هذه الاراء • كما اردت ان أؤكد للبرلمان ان اراءنا بالاستمرار في الحرب تدعمها اراء الخبراء العسكريون المحترفون • وهنا أسرد نص السؤال بحرفيته مع رد رؤساء الاركان عليه :

« ١ ـ لقد اطلعنا على التقرير عن « استراتيجية بريطانيا في حال حدوث تطور معين » على ضوء المهمة التي كلفنا بها رئيس الوزراء في رسالته التالية :

« في حال عجزت فرنسا عن الاستمرار في الحرب ، وفي حال اتخذت

موقف الحياد ، وفي حال احتفاظ الالمان بوضعهم الحالي واستسلام الجيش البلجيكي بعد مساعدة الحملة البريطانية على الوصول الى البحر ، وفي حال التقدم بعروض من شأنها ان تضع بريطانيا تحت رحمة المانيا بسبب اقتراحات نزع السلاح ووقف القواعد البحرية عن العمل في جزر اوركني وغيرهـــا ، فما هو الامل في استمرار الحرب ضد المانيا » وربما ضد ايطاليا ايضا ؟ وهل سيتمكن الاسطول والسلاح الجوي ، من حمايتنا ضد غزو الماني خطير ، وهل ستتمكن قواتنا التي سنحشدها في هذه الجزر من مقاومة الغارات الجويـــة عليها ، مع العلم ان هذه القوات تضم وحدات لا يبلغ عدد افرادها العشرة الاف ! شرط ان نأخذ بعين الاعتبار ان اطالة مدة المقاومة ستشكل خطرا كبيرا على المانيا التي ستكون منصرفة الى السيطرة على الاجزاء التي احتلتها في اوروبـــا ·

« ٢ ــ هذا وقد توصلنا الى نتائج سنذكرها في الفقرات التالية :

« ٣ ــ يمكن لاسطولنا البحري ان يتعاون مع سلاحنا الجوي في الدفاع ومنع المانيا من القيام بهجوم كبير عن طريق البحر » ·

« ٤ ــ اذا افترضنا ان المانيا استطاعت ان تتفوق على قواتنا الجوية ، فنحن نعتقد ان الاسطول سيتمكن من المقاومة لفترة محدودة فقط » ·

« ٥ ــ اذا لم يتمكن اسطولنا من المقاومة ، واذا ما تمكن العدو مـــن التغلب على سلاحنا الجوي ، واذا حاولت المانيا ان تغزونا ، فلن تتمكـــن قواتنا الساحلية من الدفاع ومنع انزال قوات برية على الشواطىء · وفي هذه الحال ستكون قواتنا البرية غير قادرة على الصمود امام غزو الماني كبير » ·

« ٦ ــ فاذا ما تمكنت المانيا من احراز تفوق جوي ، فباستطاعتها غـــزو بلادنا واخضاعها عن طريق الجو فقط » ·

« ٧ ــ لن تتمكن المانيا من التفوق علينا في الجو ، الا اذا تمكنت مـــن القضاء على سلاحنا الجوي برمته ، واذا ما تمكنت من تحطيم جميع مصانع الطائرات في كوفنتري وبرمنغهام » ·

« ٨ ــ قد تقع الغارات الجوية على مصانع الطائرات في الليل وفـــي النهار · ونحن نرى انه بامكاننا ان نلحق بالعدو خسائر فادحة اثناء قيامـــه بغارات في النهار · ومهما حاولنا فلن نتمكن من حماية جميع مصانع طائراتنا خاصة اثناء غارات العدو الليلية ، فعلينا ان نحول بينه وبين تنفيذ اهدافـــه قدر امكاننا » ·

« ٩ ــ ان نجاح العمليات الجوية في القضاء على صناعة الطائرات ،

لا تعتمد على القنابل والتخريب الذي ينجم عنها ، بل يعتمد ايضا على التأثير المعنوي على العمال الذين سيتوقف عليهم وحدهم الرغبة في الاستمرار في العمل بالرغم من الاضطرابات والمخاوف » ·

« ١٠ ـ اذا استمر العدو في غاراته الليلية على مصانع طائراتنا ، فقد ينجح في الحاق الاضرار المادية والمعنوية بنا ، وسيتوقف العمل في مصانعنا على الفور » ·

« ١١ ـ علينا ان نتاكد من ان الالمان متفوقون علينا في عدد الطائرات بنسبة اربعة الى واحد · بالاضافة الى ان مصانع طائراتهم اكثر توزيعا وقوة من مصانعنا ·

« ١٢ ـ ومن ناحية ثانية ، فبامكاننا نحن ايضا توجيه ضربات قوية على مصانع العدو ، ما دامت لدينا قوة كبيرة من قاذفات القنابل ، التي ستلحق بغاراتها على مصانعهم الكثير من الاضرار المادية والمعنوية وتوقف قسما كبيرا منها عن العمل » ·

« ١٣ ـ وبالاجمال ، تبدو المانيا لاول وهلة انها تملك زمام الامور بيدها · ولكن النتيجة تتوقف على مقدرة جنودنا وسكاننا المدنيين على الصمود ، بفضل ما نتمتع به من روح معنوية عالية تمكننا من موازاة المانيا التي تبدو انها متفوقة علينا » ·

لقد كتب هذا التقرير في احلك الاوقات ، وقبل عملية انقاذ دنكرك وقد وقع على التقرير رؤساء أركان الحرب الثلاثة ، وهم : « نيووال ـ باوند ـ وايرونسايد ، ونوابهم الثلاثة : ديل ـ فيليبس وبيرس · وعندما قرأت هذا التقرير بعد سنوات ، اريد أن اقر على ما كان يحتويه من خطورة وغموض · الا اننا كنا قد حزمنا امرنا وقررنا المضي يدا واحدة وقلبا واحدا ·

وقد اصدرنا التعليمات العامة التالية :

سري للغاية

« ان من دواعي امتنان رئيس الوزراء ، في هذه الايام السوداء ، ان يرى زملائه الوزراء وهم محتفظين بروحهم المعنوية العالية ، خلال الفترات الصعبة التي يعيشونها · وعلينا ان لا نقلل من اهمية هذه الاحداث وخطورتها وحراجتها ، وعلينا ان نبرهن عن عزمنا وتصميمنا الاكيدين على المضي في هذه الحرب ، حتى نحطم ارادة العدو الراغب في السيطرة على اوروبا واخضاعها لنفوذه وسيطرته ·

« وعلينا ان لا نتسامح بالفكرة القائلة ان فرنسا ستقوم بعقد صلح

منفرد مع المانيا · ولكن مهما حدث على هذه القارة الاوروبية فعلينـــا ان لا نشك في واجباتنا ، وسنستخدم كلما نملكـه من قوة للدفـــاع عن بلادنـــا وامبراطوريتنا وقضيتنا » ·

* * *

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين استسلمت بلجيكـــا ، وقد وصلت الانباء الى اللورد غورث قبل الاستسلام بساعة واحدة ، وكان هذا الانهيار متوقعا قبل ثلاثة ايام ، وقد استطاعت القوات البريطانية ان تسد هذه الثغـرة التي كان متوقعا حدوثها · واستطاعت قوات الحملة البريطانية الجلاء ، كما تمكن نصف الجيش الفرنسي الاول من الوصول الى دنكرك سالما حيث تم نقل رجاله بسلام · لكن خمس فرق لم يكتب لها النجاة بعد ان اطبقت عليها الكماشة الالمانية ، الا انهم صمدوا أمام الضغط الهائل واستبسلوا في القتال حتى مساء الحادي والثلاثين من أيار ، واضطروا الى الاستسلام بعد ان نفد ما لديهم من غذاء وعتاد · وهكذا استسلم نحو من خمسين الف جندي فرنسي للاعداء · وقد تمكن هؤلاء من الصمود بقيادة الجنرال مولنييه الباسل واتاحوا بذلـك الفرصة أمام رفاقهم للنجاة عن طريق دنكرك ·

وقد مررت بمحنة قاسية خلال الايام المخيفة ، ولم اكن اجرؤ علـــى التدخل ، اذ ان التدخل سيؤدي الى زيادة الخطر على الرجال بدلا من تخفيفه عنهم · ولا شك ان التزامنا المخلص لخطة الجنرال ويغان قد زادت من خطورة الموقف · الا ان قرار اللورد غورث ، الذي وافقنا عليه وايدناه ، والقـــاضي بالزحف نحو البحر قد نفذ بدقة متناهية بفضل عبقرية القائد ومساعدوه ، وسيبقى هذه الحادث كاسطورة رائعة من اساطير البطولة في تاريخ بريطانيـا العسكري ·

الفصل الثالث

انقاذ دنكرك

منذ العشرين من أيار ، بدأ حشد البواخر والقطع الصغيرة تحت قيادة الاميرال رامسي قائد موقع ووفر · وفي مساء السادس والعشرين من الشهر نفسه اعلنت الاميرالية ابتداء عملية « دينامو » ووصلت أول قوة جلت عـن دنكرك الى الوطن · وبعد ان فقدنا ميناء بولون وكاليه ، لم يبق عندنا سوى السواحل الرملية القريبة من حدود بلجيكا وما تبقى من ميناء دنكرك · وقد خيل لنا ان اكبر عدد يمكننا انقاذه في ذلك الوقت لن يتعدى الـ ٤٥ الف رجل خلال يومين · وقد اتخذت اجراءات الطوارىء للحصول على اكبر عدد ممكن من السفن الصغيرة للقيام « بمهمات خاصة » وهذا يعني نقل نصف قــوات الحملة البريطانية · وكان عمـل السفن الصغيرة يقتصر علــى الشواطىء الرملية ، بينما تعمل بقية السفن الكبيرة في ميناء دنكرك نفسه · وقام ضبـاط الاميرالية بالبحث عن الزوارق الصغيرة في جميع الاحواض القائمة بيــن تيدلنفتون وبراتيلينفسي ، فتمكنوا من جمع اربعين زورقا بخاريـا ولنشا ، كما جمعت كافة القوارب واليخوت والزوارق وزوارق صيد السمك والمواعين وكل ما كان على شواطىء البحر من وسائل النقل · وفي ليل السابع والعشرين من أيار اندفع سيل هائل من هذه القطع الصغيرة نحو شواطىء دنكرك لانقاذ جيشنا الحبيب ·

وبعد ان تأكد للاميرالية ان الامر لم يعد سريا اطلقت العنان لكل حركة من حركات الانقاذ وسمحت لكل من يملك قاربا او زورقا مهما كان نوعه ان يبحر الى دنكرك · وعمل الجميع في هذا الجو الرائع من الحماس الوطني على

انقاذ ما لا يقل عن مئة الف جندي من جنود الوطن من الشواطىء الى السفن الراسية في عرض البحر ، تحت وابل من الغارات الجوية العنيفة ، والقصف الذي لم ينقطع من طائرات العدو ٠

* * *

في هذه الاثناء ، كانت القوات الاضافية تعزز المواقع الامامية حول دنكرك وبدأت النجدات تصل الى خطوط الدفاع الامامية ٠ وكان من المقرر ان تشترك ثلاثة ألوية في عملية الدفاع ، لكن الفرنسيين حملوا عنا القسم الاكبر من مهمة الدفاع عن الجبهة . فقررنا الاكتفاء بلواءين فقط ٠ وكان الالمان يطاردون جنودنا اثناء انسحابهم فينشب القتال المرير بين جنودنا ومطارديهم خاصة حول الجناحين في نيوبورت وبيرغر ٠ ومع استمرار الجلاء كان العدد ينخفض وتتقلص الخطوط الدفاعية ٠ ووقفت الالوف من الجنود موقف الابطال أمام القصف الجوي المستمر مدة اربعة او خمسة ايام مريرة ٠ وثبت ان مزاعم هتلر حول منع عملية الانسحاب بواسطة سلاحه الجوي لم تكن صحيحة بالاضافة الى انها كانت غير معقولة وفاشلة ٠ فقد تبين ان القصف الجوي المستمر على حشودنا الكبيرة على الشواطىء لم يلحق بهم اضرارا كبيرة ٠ وفي البداية عندما بدأت اولى الغارات الصاعقة ، ذهل جنودنا من ان تلك الغارة لم تقتل ايا منهم تقريبا ، فقد كانت الانفجارات تقع حولهم في كل مكان ، الا انها لم تصبهم بأذى ٠ فلو كانت تلك الشواطىء صخرية لتغير الوضع واضحت النتائج مهلكة ، الا ان الشواطىء الرملية بطبيعتها جعلت من نفسها مكانا امينا يقيهم شر الغارات الوحشية ٠

وقد أذهل سلاح طيراننا العدو لشدة بأسه ونشاطه ٠ فقد كانت المعارك الجوية التي دارت في سماء دنكرك تجربة للكفاءات الجوية البريطانية والالمانية ٠ واحتفظت قيادتنا الجوية بطائرات مقاتلة ملأت سماء المعركة بصورة مستديمة ، باذلة جهدا عظيما في مجابهة العدو الذي يفوقها في العدد ٠ وكانت طائراتنا تتغلب على الطائرات العدوة بسرعة مذهلة وتنزل بها خسائر فادحة وتطردها خارج سماء المعركة ٠ وقد استمرت هذه المعارك الهائلة يوما بعد يوم الى ان حقق سلاحنا الجوي النصر الكبير ٠ وما ان تشاهد الطائرات العدوة حتى تهاجمها اسرابنا وتلتحم معها في معارك ضارية وتسقط منها العشرات ٠ وهكذا استخدمنا في هذه المعركة العنيفة كل ما نملكه من طائرات احتياطية في الوطن ٠ وكان الطيار البريطاني يقوم باكثر من اربع غارات

يوميا ، ولذلك حصلنا على نتائج واضحة ومرضية · فقد كان العدو المتفوق علينا ينهزم امامنا او يقتل ويتخاذل ويضعف · لقد كانت المعركة فاصلة · ولم يكن جنودنا على السواحل يشاهدون هذا الصراع الهائل في الجو ، فالمعارك كانت مشتعلة بعيدا عن انظارهم · وكانوا يجهلون ما يفعله نسورنا في الجو ، وكل ما يشعرون به هو هذه القنابل المنهمرة على الشواطيء التي يرسلهـا العدو الذي يتمكن من الافلات والوصول الى الشواطيء · ولسوء الحظ ، سيطر شعور من الغضب والنقمة على سلاحنا الجوي البطل لان الجنود لم يشاهدوه في سماء المعركة ، ولم يعلموا شيئا عن الخسائر الهائلة التي كان يلحقها بالعدو · وقد وصل بعض الجنود الى دوفر وموانيء التيمز وهم يشتمون زملائهم الطيارين ، جهلا منهم لتلك الحقيقة المشرفة والبطولة النادرة· لذلك قررت ان أذيع تلك الحقائق في البرلمان ·

اما في البحر فقد ساد النظام الكامل على ظهر السفن والبواخر ، وكان البحر هائجا مما ساعد على استمرار الهدوء والنظام · وراحت الزوارق تعمل بهمة لتنقل الرجال من الشواطيء الى البواخر غير عابئة بالغارا تالرهيبة التي كانت تمطرهم بوابل من قنابلها المميتة · وكان عدد هذه الزوارق الكبير هو وحده الذي تحدى الغارات الجوية · وثبت ان « اسطول البعوض » الجبار لا يغـرق ·

* * *

وفي الحادي والثلاثين من شهر أيار بلغ القتال في دنكرك ذروته ، وقد نقل خلال يومين فقط ما يزيد عن ١٣٢ الف رجل ، انتقل معظمهم من الشاطيء في زوارق صغيرة تحت وابل من القنابل بل والمدافع · وقد بذلت القاذفـات المعادية اكبر مجهود لها في اليوم الاول من حزيران · وكانت تركز غاراتهـا اثناء عودة مقاتلاتنا للتزود بالوقود · وقد خسرنا عددا ضخما من بواخرنـا نتيجة لتلك الغارات ، وبلغ مجموعها مجموع ما غرق في الاسبوع الماضـي بكامله · وبلغت خسائرنا في ذلك اليوم احدى وثلاثين سفينة بالاضافة الـى احدى عشر سفينة اخرى اصيبت اصابات طفيفة · وزاد العدو من ضغطه وهو يأمل في اختراق خطوط دفاعنا الا انه لم يتمكن بفضل مقاومـة قواتنـا الحليفة الخلفية الرائعة ·

ومضت المرحلة النهائية لعملية الجلاء بكثير من الدقة والمهارة ، وأصبح بامكاننا رسم الخطط سلفا ، بدلا من اضطرارنا الى الاعتماد على الظـروف

والاحداث التي كانت تتغير في كل لحظة · وعندما حل فجر اليوم الثاني من حزيران لم يبق في ضواحي دنكرك سوى اربعة الاف بريطاني ومعهم سبعة مدافع مضادة للطائرات و ١٢ مدفعا مضادا للدبابات ، ظلوا بالاشتراك مع القوات الفرنسية التي كانت لا تزال تحافظ على خط الدفاع الرئيسي وقرر الاميرال رامسي النزول دفعة واحدة الى الميناء في تلك الليلة ، اذ لم يعد ممكنا الانسحاب الا أثناء الليل · وابحرت من انكلترا في هذه الليلة اربع وأربعون باخرة بالاضافة الى الزوارق الصغيرة المحتشدة ، كما اشترك في هذه العملية اربعون سفينة اخرى فرنسية بلجيكية · وتم نقل قوة المؤخرة البريطانية كلها قبل حلول منتصف الليل ·

لكن هذه لم تكن النهاية في دنكرك · فقد كنا على أتم الاستعداد لنقل المزيد من القوات الفرنسية الموجودة في الميناء · لكن عندما اضطرت بواخرنا الى الانسحاب في تلك الليلة ، كان على الشواطيء عدد كبير من الجنود الفرنسيين لا يزالون مشتبكين مع العدو في قتال عنيف ، وكان علينا ان نحاول مرة اخرى بالرغم من الاعياء المسيطر على بحارتنا من جراء الجهد الهائل الذي بذلوه دون توقف خلال الايام الماضية دون ان يذوقوا طعما للراحة والنوم · وفي اليوم الرابع من حزيران انزلنا في انكلترا ٢٦١٧٥ فرنسيا كان بينهم واحد وعشرين الفا في سفن بريطانية · اما الباقون والبالغ عددهم بضعة الوف ، فقد واصلوا القتال عندما وصل العدو الى ضواحي البلدة بعد ان بلغ بالجنود الاعياء واحتملوا اقسى ما يمكن للطاقة البشرية ان تحتمله بحيث تمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم ، فسقطوا اسرى في أيدي الاعداء ·

واعلنت الاميرالية اخيرا في تمام الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والعشرين من بعد ظهر يوم الرابع من شهر حزيران انتهاء عملية « دينامو » · وقد تم نقل (٣٣٨٠٠٠) جندي بريطاني وحليف الى الجزر البريطانية ·

الفصل الرابع

التسابق نحو المغانم

كانت علاقاتي الشخصية مع موسوليني في المرتين اللتين اجتمعت فيهما معه عام ١٩٢٧ ، وثيقة ، ولم اكن لاحرض حكومتي على مقاطعته حول موضوع الحبشة ، او لاثير نقمة عصبة الامم عليه ، الا اذا كنا على استعداد لخوض معركة ضده حتى النهاية ·

وفي هذه الاثناء ، وبعد الكارثة التي الت بنا في فرنسا ، وجدت انه يترتب علي بصفتي رئيسا للوزارة ان ابذل ما في وسعي لابقاء ايطاليا خارج الحرب · وبالرغم من ثقتي بعدم جدوى هذه المحاولة الا انني لم اتردد في استخدام كل ما لدي من نفوذ وطاقات · فبعد ستة أيام من تسلمي للحكم في بريطانيا بعثت بنداء الى موسوليني ، وقد سمحنا بنشر النداء والرد عليه بعد عامين في ظروف مغايرة عن تلك الظروف · وكان تاريخ ندائي هذا هو السادس عشر من أيار عام ١٩٤٠ وهذا نصه :

من رئيس الوزراء الى السنيور موسوليني

« الان بعد ان أصبحت رئيسا للوزارة ووزيرا للدفاع ، فقد رجعت بذاكرتي الى اجتماعاتنا الماضية في روما ، فانني اشعر بالرغبة في نقل عبارات حسن النية بوصفك رئيسا للشعب الايطالي ، عبر ما يبدو انها ثغرة تتسع بسرعة · هل فات الوقت لصد نهر الدماء من الاندفاع بين الشعبين البريطاني والايطالي ؟ ان في امكاننا ان نلحق ببعضنا اصابات قوية مؤلمة ، وان يضرب بعضنا البعض دون رأفة ، وان نحيل

البحر الابيض المتوسط الى ظلام بنزاعنا وخصامنا · فاذا كانت هـذه رغبتك ، فلتكن كذلك ، ولكني اعلن باني لم أكن يوما من الايام عـدوا لعظمة ايطاليا او عدوا للمشرع الايطالي الذي منحنا القوانين والشرائع ان من العبث معرفة وجهة هذه المعارك الدائرة الان في اوروبا ، ولكني متأكد من شيء واحد هو انه مهما حصل في القارة الاوروبية ، فـان بريطانيا ستمضي بثبات الى نهاية الطريق ، حتى لو اضطرت الـى البقاء لوحدها كما جرى في السابق · كما اني متيقن من ان المساعدات الاميركية لنا ستزداد ، بل اننا سنتلقى العون من الاميركيين انفسهم ·

« واني ارجو ان تصدق ، ان الدافع الذي دفعني الى توجيه هذا النداء اليك ، لم يكن الخوف او الضعف ، فهذا النداء سيسجل علـى صفحات التاريخ · فعبر الاجيال المقبلة وفوق الهتافات ، سيبقى الهتاف الوحيد قائما بأن لا يشترك الوارثان للحضارتين اللاتينية والمسيحية في صراع دموي ضد بعضهما البعض · واني اناشدك ان تصغي الى هذا النداء بكل اجلال واحترام قبل ان تصدر اشارتك المخيفة وعلى كل حال ان هذه الاشارة المخيفة لن تصدر عنا أبدا ··· »

وكان جواب موسوليني على هذا النداء قاسيا جدا ، ولكنه لم يخلو من الصراحة ، وهذا نص الجواب :

من السنيور موسوليني الى رئيس الوزراء

« اجيب على الرسالة التي بعثت بها الي ، انك بلا شك مطلـع علـى الاسباب الخطيرة التي حدت ببلدينا الى الوقوف في معسكرين متعاكسين ولا أرى سببا للرجوع الى الماضي ، ولكني اذكرك بالدور الذي قامت به حكومتك عام ١٩٣٥ في فرض العقوبات على ايطاليا التـي ارادت ان تحتفظ لنفسها بقطعة صغيرة من ارض أفريقيا دون ان تلحـق الاضرار بممتلكاتكم او مصالحكم او ممتلكات او مصالح غيركم · كما اريد ان الفت نظرك الى الحالة الراهنة من العبودية الحقيقية التي تجد ايطاليا نفسها فيها وفي بحرها الخاص بها · واذا كانت حكومتك تريد المحافظة على كلمتها وتوقيعها ، لذلك اعلنت الحرب على المانيا ، فيمكنك اذن فهم حقيقة هذا الشعور بالنسبة لايطاليا أيضا التي هي الاخرى تريـد المحافظة على كلمتها ومعاهدها مـع المانيا ، مهما كانـت الظروف والاعتبارات · »

وبعد وصول هذا الرد من موسوليني لم نعد نشك في انه لا يريد الحرب، فهو سينتظر الفرصة المناسبة ، وقد وجد في هزيمة فرنسا الفرصة الذهبية لاعلان الحرب على بريطانيا وفرنسا معا · وقد ذكر تشيانو ان موسوليني سيعلن الحرب خلال شهر واحد وفي أي وقت يراه مناسبا بعد الخامس من حزيران ، الا ان الموعد تأجل الى العاشر منه بناء لطلب خاص من هتلر نفسه ·

وقد حاولت الولايات المتحدة التدخل لمنع اعلان الحرب من جهة ايطاليا ، وبذلت جهودا هائلة في هذا السبيل ، الا ان الدكتاتور الايطالي رفض كل عرض تقدمت به الولايات المتحدة · وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين من بعد ظهر اليوم العاشر من حزيران ، ابلغ وزير الخارجية الايطالية سفير بريطانيا ان ايطاليا ستعتبر نفسها في حالة حرب مع المملكة المتحدة منذ منتصف تلك الليلة · كما وجهت مثل هذا الاشعار الى حكومة فرنسا أيضا ، وعندما نقل تشيانو هذا الخبر الى السفير الفرنسي قال هذا وهو يتجه الى الباب : « وانتم أيضا ستجدون ان الالمان هم سادة قساة » · واعلن السنيور موسوليني من شرفة قصره الى الحشود المتجمهرة ان ايطاليا قد اعلنت الحرب على بريطانيا وفرنسا ·

وبدأ الايطاليون معركتهم بأن راحوا يهاجمون القوات الفرنسية في جبال الالب ، واعلنت بريطانيا الحرب على ايطاليا في الحال · وصدرت الاوامر بتوقيف خمس بواخر ايطالية كانت في جبل طارق كما أخطر الاسطول بوجوب توقيف كل باخرة ايطالية يجدها · وقامت اسراب طائراتنا بالاغارة على تورين وميلانو ·

اما فرنسا فلم تتمكن من حشد اكثر من ثلاث فرق بالاضافة الى عدد مماثل من الحاميات الجبلية ، وذلك لصد أي محاولة للغزو من قبل الايطاليين عبر الالب وساحل ريفييرا · وكانت الجيوش الايطالية تقدر باثنتين وثلاثين فرقة تحت قيادة الامير اومبرتو · وفي نفس الوقت شرع الالمان بتطويق الفرنسيين عبر نهر الرون · وصمدت الفرق الفرنسية المقاتلة أمام الايطاليين، حتى بعد ان سقطت باريس وليون في أيدي الغزاة الالمان · وعندما اجتمع موسوليني وهتلر بعد ذلك لم يجد الدوتشي ما يفخر به أمام صديقه · اذ لم يتمكن الايطاليون من تحقيق أي نصر في فرنسا رغم محاولاتهم المتكررة ·

وكان مقررا ان يلقي الرئيس الاميركي خطابا يوم العاشر من حزيران · واستمعت الى خطابه العظيم حوالي منتصف الليل وانا لا ازال في غرفة العمليات الحربية في الاميرالية · وعندما توجه الرئيس روزفلت بهذه العبارة

الجارحة لايطاليا : « في هذا اليوم العاشر من حزيران عام ١٩٤٠ ، ارتفعت اليد الممسكة بالخنجر وطعنت ظهر جارتها » شعرنا جميعا بالرضى والارتياح ٠ فقد كان خطابه رائعا يحمل في طياته بريق الامل نحونا ٠ وبعث على الفور برسالة اشكر له فيها عواطفه ٠

***

وبعد سقوط فرنسا بدأ التكالب على المغانم ، ولم يكن موسوليني الوحش الوحيد الجائع ، فقد لحقه الدب الذي جاء يركض مع ابن آوى ٠

لقد كان سير العلاقات الانكليزية ـ الروسية يسير الى حد قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا ، خاصة بعد ان غزا الروس فنلندا ٠ وكانت المانيا وروسيا تعملان معا الى الحد الذي تسمح به خلافاتهما العميقة القديمة ، وراح ستالين وهتلر يعملان بنفس الاسلوب من الدكتاتورية المتشابهة الى حد كبير ٠ وكان مولوتوف يثني بشدة على اجراءات هتلر وسياسة المانيا العسكرية ٠ وعندما قام الالمان بهجومهم على النروج صرح مولوتوف ان الحكومة السوفياتية تقدر كل التقدير جميع الاجراءات التي ارغمت المانيا على هجومها هذا ، وقال ان الانكليز قد تجاهلوا تماما حقوق الدول المحايدة ، ثم اضاف متمنيا النجاح والتوفيق لالمانيا في اجراءاتها الدفاعية ٠ وفي يوم العاشر من حزيران ابلغ هتلر زميله ستالين عن ابتداء الهجوم الالماني الكاسح على فرنسا وعلى البلاد المنخفضة المحايدة ٠ وكتب شولنبرغ يقول : « وقد استحسن مولوتوف هذا الاجراء ، عندما قمت بابلاغه النبأ ، وقال انه من الواجب على المانيا حماية نفسها ضد أي هجوم انكليزي ـ فرنسي مشترك تقوم به هاتان الدولتان ٠ واضاف انه لا شك مطلقا في انتصارنا ٠ »

وفي الرابع عشر من حزيران ، اي يوم سقطت باريس ، ارسلت موسكو انذارها الاخير الى ليتوانيا تتهمها والدول البلطيكية الاخرى بالتآمر على روسيا ، وتطالبها باجراء تغييرات شاملة في الحكومة ، وببعض التنازلات العسكرية ٠ وفي اليوم التالي قام الجيش الاحمر بغزو تلك البلاد التي لم تتمكن من المقاومة ٠ ثم تعرضت لاتفيا واستونيا لنفس الطريقة وفرضت عليها حكومات جديدة موالية لروسيا ، كما فرضت عليها حاميات سوفياتية في أراضيها ٠ ولم تلبث جميع تلك الدول ان انضمت الى الاتحاد السوفياتي في الثالث من شهر آب ٠

ووجه الروس انذارا الى رومانيا طلبوا فيه منها التخلي عن بساربيـا والجزء الشمالي من بوكوفينا لمصلحة الاتحاد السوفياتي ، وطلبوا ان يصلهم الرد في اليوم التالي · وقد انزعجت المانيا أشد الانزعاج لهذا التصرف من قبل روسيا ، لما يترتب على هذا العمل من اضرار بمصالح المانيا في رومانيا ، الا أنها اضطرت للموافقة طبقا لارتباطها بمعاهدة ريبنتروب ـ مولوتوف عام ١٩٣٩ الذي اعترفت فيه المانيا بحق روسيا بتطبيق سياستها في جنوب شرق اوروبا · وبناء على ذلك أوعزت المانيا الى رومانيا بالموافقة فوراعلى المطالب الروسية · وهكذا انسحبت القوات الرومانية مـن المقاطعتين المذكورتين وانتقلت اليها القوات الروسية ، وبذلك اصبحت القوات السوفياتية متمركزة على طول سواحل البلطيق وعلى مصب نهر الدانوب ·



الفصل الخامس

مأساة فـرنسا

عندما اذعنا عدد الذين تم انقاذهم من دنكرك ، ساد البلاد شعور مـن الراحة والاطمئنـان · لقـد ساد شعور من الارتيـاح بعد فترة طويلـة من القلق الذي سرعان مـا تحول الـى نوع مـن الاحساس بالنصر · فان إنقاذ ربـع مليون جندي شاب مـن خيرة جنودنـا يعتبر نصرا عظيما بعد سنوات طويلـة من الهزيمـة · وقد عـاد هؤلاء الـى الوطن وهـم لا يحملون شيئا سوى بنادقهم والحراب وبضع مئات من المدافع الرشاشة · وقد كان الجميع يتمتعون بمعنويات عالية ، وكانوا على ثقة تامة من انهـم سيتغلبون على عدوهم اذا ما اتيحت لهم فرصة ثانية للاشتباك معه ·

لكن معركة دنكرك كانت قد خسرتنا كل ما نملكه من معدات ، لا سيما تلك التي انتجتها معاملنا مؤخرا وارسلت بها الى ميدان المعركة في فرنسا ، وستمضي عدة اشهر قبل ان نتمكن من انتاج وتعويض تلك الخسارة الفادحة ·

لكن العواطف الجياشة في الولايات المتحدة ، وخاصة تلك التي كانـت تتأجج في صدور القادة البارزين هناك ، حتمت عليهم التفكير بالمـوضوع جديا ، وسرعان ما اصدر الرئيس الاميركي أوامره الى وزارتي الحربيـة والبحرية ، كما طلب الجنرال مارشال من نائبه اعداد قوائـم بموجـودات الجيش الاميركي من سلاح احتياطي · وفي خلال ثمان واربعين ساعة كانـت القوائم الكاملة جاهزة ، وفي الحال وافق الجنرال مارشال عليها ، وطلـب ارسالها الى بريطانيا وفرنسا · وتضمنت القائمة الاولى نصف مليون بندقية من مجموع مليوني بندقية يعود تاريخ صنعها الى عامـي ١٩١٧ و ١٩١٨

وبقيت مختزنة حوالي عشرين عاما · وقد ارسل مع كل بندقية ٢٥٠ طلقة · كما ارسل معها ايضا تسعمائة مدفع من عيار (٧٥) ومليون قذيفة وثمانون الف رشاش وانواعا اخرى من الاسلحة · وشرعت جميع مخازن الجيش الاميركي بحزم الاسلحة وتوضيبها وشحنها · وقد وصل الى الميناء في الحادي عشر من حزيران اثنتا عشر باخرة بريطانية لتبدأ بنقل شحنات الاسلحة الى بريطانيا وفرنسا ·

لقد كان هذا العمل الذي قامت به اميركا عملا رائعا من اعمال الايمان والقيادة ، فقد حرمت نفسها من تلك الاعداد الهائلة من الاسلحة لترسلها الى بلاد يعتبرها الكثيرون من ابناء البلاد انها قد منيت بالهزيمة ·

***

كانت لا تزال لدينا في فرنسا فرقة جبلية خاصة بقيت وراء السوم وكانت لا تزال في حالة ممتازة · كما كانت هناك فرقتنا المدرعة الاولى والوحيدة وكتيبة الدبابات اللتان ارسلتا الى كاليه للمشاركة في عملية الانقاذ · ولم يحل شهر حزيران حتى كانت الفرقة هذه قد خسرت أكثر من ثلثي رجالها ، فصدرت الاوامر اليها بوجوب انسحابها الى ما وراء نهر السين لاعادة تنظيمها · وفي نفس الوقت جمعنا تسعة أنواع من فرق المشاة التي لم تكن تملك سوى البنادق ، أي انها كانت شبه عزلاء ·

وفي هذا الوقت بدأت المرحلة الاخيرة من معركة فرنسا ، وبدأ هجوم الماني جديد اتسم بالعنف والقوة خاصة المدرعات التي وفروها لهذه المعركة الفاصلة والتي تدفقت بمجموعها الآن على الجبهة الفرنسية التي كانت تترنح من شدة الضعف · وحاول الجيش الفرنسي القاومة للحفاظ على حدود نهر السوم ، لكن فرقتين المانيتين تمكنتا من اختراق صفوفه واندفعت نحو روان فعزلت جناح الجيش الفرنسي الايسر والذي يضم فرقتنا الجبلية ، عن بقية اجزاء الجيش · وصدرت الاوامر الى الجنرال فورشون بوجوب الانسحاب باتجاه روان · لكن هذه الاوامر لم تنفذ بسبب بدء انحلال القيادة الفرنسية ، فقدمنا عدة احتجاجات وبيانات الى القيادة الفرنسية بهذا الشان لكن دون جدوى ····

وتمكنت فرقتنا من التراجع بعد قتال مرير ضار باتجاه سان فاليري وهي تأمل بالجلاء عن طريق البحر · لكن الضباب الكثيف حال دون جلاءها ، ووصل الالمان الى الشواطيء الصخرية وسدت سبل النجاة امام فرقتنا

الباسلة بعد ان أصبح الشاطيء تحت سيطرة رشاشاتهم • واستسلم اللواء الفرنسي وارتفعت الرايات البيضاء فوق البلدة ، فاضطرت فرقتنا الجبلية الباسلة الى الاستسلام ووقع ثمانية الاف بريطاني وأربعة الاف فرنسي في الاسر وكان قائد الفرقة الالمانية المدرعة التي أسرتهم ، هو الجنرال رومل بالذات •

***

تلقيت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر الحادي عشر من حزيران رسالة من المسيو رينو يطلب فيها مقابلتي في « بريار » على مقربة من اورليان بعد ان انتقلت العاصمة من باريس • فاستقليت طائرتي بعد الظهر وسافرت يصحبني المستر ايدن وزير الحربية في ذاك الوقت والجنرال ديل رئيس الاركان والجنرال ايسماي • وكانت رحلتي هذه هي الرحلة الرابعة الى فرنسا •

وبدأنا الاجتماع في تمام الساعة السابعة ، فطلبت من الحكومة الفرنسية الاستمرار في الدفاع عن باريس وقلت لهم مؤكدا ضرورة بدء حرب الشوارع والقتال من بيت الى بيت لاستنزاف قوة الجيش الغازي • وقد ذكرت المارشال بيتان بتلك الليالي التي قضيناها سوية في قطاره في مدينة « بوفيه » بعد الكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في عام ١٩١٨ ، وذكرته كيف تمكن من انقاذ الوضع في عملية مشابهة • وقد ذكرت المارشال بأقوال كليمنصو حين صرح بقوله : « سأقاتل أمام باريس • وفي داخلها ، وورائها » • وقد أجابني المارشال بيتان بكل اعتزاز وهدوء انه كان تحت تصرفه في تلك الايام قوات تبلغ بعددها ستين فرقة ، اما الان فليس لديه أي منها • كما ذكرني ان الفرق البريطانية كانت تبلغ بعددها الستين فرقة في تلك الايام أيضا ، كما اضاف ان تهديم مدينة باريس لن يغير شيئا من النتيجة المرتقبة •••

وعرض علينا الجنرال ويغان الوضع العسكري بالنسبة الى المعركة « المائعة » الدائرة على مقربة منا ، واثنى ثناء كبيرا على الجيش الفرنسي وبسالته ، وطالبنا بارسال نجدات عسكرية عاجلة وفي طليعة مطالبه إرسال جميع ما لدينا من أسراب المقاتلات ، واستطرد قائلا : « ان هذه اللحظة حاسمة ، لذلك لا يجوز الابقاء على أي سرب من الطائرات المقاتلة في انكلترا » وقد اجبته على الفور بقولي : « ان هذه اللحظة ليست باللحظة الحاسمة وستاتي تلك اللحظة حين يقوم هتلر بهجومه الجوي على بريطانيا العظمى ، واذا تمكنا من الاحتفاظ بسيطرتنا على الجو ومن ابقائنا على البحار مفتوحة،

وهذا ما سنقدر عليه حتما ، فعندئذ سنعود لاستعادة كل ما فقدتموه » · لقد كان لدينا خمسة وعشرون سربا من الطائرات ، وقد قررنا الاحتفاظ بها ولن نفرط بسرب واحد منها مهما كلف الامر ، فنحن قد قررنا الاستمرار في الحرب الى أجل غير محدود ، واما التخلي عن هذه الاسراب فمعناه القضاء على املنا الوحيد في الحياة ··

وبعد قليل وصل الجنرال جورج الذي اطلع على خلاصة حديثنا السابق ، وبعد ان عرض ملخصا للوضع القائم في الجبهة ، اكد ضرورة ما سبق وطلبته أي البدء في حرب الشوارع وحرب العصابات · فالجيش الالماني ليس بالقوة التي يبدو عليها حين مجابهته بجيوش مماثلة · فلو حاول كل لواء من الجيش الفرنسي الاصطدام مع لواء مماثل من الجيش الالماني ، واستعمل في اصطدامه كل ما يملكه الجيش الفرنسي من حيوية ونشاط لتمكن من التغلب على عدوه أو عرقلة تقدمه السريع على الاقل · وكان ردهم المتخاذل ان الاوضاع اصبحت مخيفة على الطرق التي امتلأت بأفواج اللاجئين الذين تطاردهم نيران رشاشات الطائرات العدوة ، والحقوا هذا ببيانات عن حالة السكان وعن انهيار الجهاز الحكومي والسيطرة العسكرية · وقال الجنرال ويغان بأنهم قد يضطروا الى طلب الهدنة · وقد أجبته بقولي : « اذا وجدت فرنسا ، في هذه المحنة ، انه من الخير لها استسلام جيشها فعليها أن تبادر الى اعلان ذلك ولا تتردد بسببنا ، فنحن قد صممنا على المضي في حربنا وعلى القتال الى الابد ، الى الابد والابد » · وعندما اعدت لهم قولي ان على الجيش الفرنسي ان يستمر في القتال اينما كان وحيثما استطاع لانهاك قوة مائة فرقة المانية ، أجابني الجنرال ويغان على الفور : « حتى لو قاتلنا ، فسيبقى لديهم مائة فرقة اخرى تقوم بمهاجمتكم واحتلال بلادكم ، وماذا تستطيعون ان تعملوه بعد ذلك ؟ » واجبته : « ان مستشاري العسكريين يرون ان طريقة صد أي هجوم الماني على بريطانيا هي في محاولة اغراق اكبر عدد ممكن منهم في البحر ، اما الباقي فيمكننا تحطيمهم على الشاطيء · »

الفصل السادس

مشاكل الدفاع

في هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين تماما بعد هزيمة فرنسا ، ولم يكن في امكان دول « الدمنيونات » او الهند او المستعمرات ان تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أشد الحاجة لها ، وكانت الجيوش الالمانية الضخمة المنتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم ، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة ، اخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة ٠

اما ايطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة ، بعد ان اعلنت علينا الحرب ، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر ٠

كذلك وقفت اليابان في الشرق الاقصى تنظر الينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في الحاح وتهديد اغلاق طريق بورما في وجه المساعدات الى الصين ، كما كانت روسيا تقدم الى هتلر مساعدات هامة من المواد الاولية ٠٠٠٠

أما اسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية ، فقد تغدر بنا بين آونة واخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بالمانيا لمساعدتها في احتلاله او في اقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق اسطولنا عبر المضيق ، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي اصبح بيتان رئيسا لها ، قد انتقلت الى فيشي ، واصبح من المنتظر بين لحظة واخرى ان تعلن الحرب علينا بعد ان اصبحت ميالة الى فكرة أوروبا النازية ، كذلك اصبح الاسطول الفرنسي في

قبضة الالمان في طولون . وهكذا وجدنا اننا لسنا في حاجة الى المزيد مـــن الاعـــداء .

ومع ان معنوياتنا لم تضعف ، الا ان السؤال الذي ظل يراودنا هو : كيف يمكن لنا ان نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان من المعروف ان جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحا اكثر من البنادق ، وستمضي فترة من الزمن قبل ان تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرناه من عتاد في دنكرك ... اليس من العجيب بعد كل هذا الا يكون العالم كله متراجع على يقين من ان ساعتنا الاخيرة قد دنت ؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الاخرى الحرة ، واخذ الاميركيون يتساءلون في اهتمام : هل من واجبهم ان يجازفوا بمواردهـــم المحدودة الضئيلة ارضاء للمشاعر الطيبة وحدها وان كانت المخاطرة ميئوسا منهـــا ؟

اليس من الاجدى ان يبذلوا اي جهد وان يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم . وكان التغلب على هذه الاسانيد ، يتطلب منطقا مستقيما وعلى جانب من الثقة ، ولا ريب في ان الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايـــات المتحدة وكبار القادة والمستشارين ، لانهم على الرغم من اقتراب موعـــد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال . وليس من شك في ان تصميم بريطانيا القوي الذي لم ينله اي ضعف او وهن كان عاملا من عوامل رجحان كفتنا في القتال .

ان هذا الشعب الذي ظـل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريـــق المسالمة وعدم التفهم ، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويغرق الى ابعـــد الحدود في لجة السياسات الاوروبية بلا خوف ... ها هو الان يلاقي مصير تقصيره في التاهب والاستعداد ، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة . ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصمما على ان تصبح بلاده قطعة من الخراب قبل ان تبدو جزيرته خانعة ذليلة ...

وهذه بلا جدال احدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به ، فعندما استولى الاسبرطيون على اثينا ، اصرت قرطاجة على الصمود والاستبسال حتى الموت امام روما ، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت في النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء ... آثرت ان تفنى وتموت والا يبقى لها اثر .

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى اقلية معدودة من البريطانيين والاجانب

تقف على الاهمية الاستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب اننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي ، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من الف عام لم تشهد ارضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظا بهدوء اعصابه ، راضيا كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده ٠ وسرعان ما أخذ الاعداء والاصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون ان هذه هي طبيعتنا الاصلية ٠٠٠ وماذا يكمن خلفها ؟ انه الامر الذي يمكن ان يظهر في الشدائد٠٠

وكانت هناك ناحية اخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير ٠٠٠ فقد رأينا اخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضى عليها في محاولة يائسة في فرنسا ، وان قواتنا الجوية تتضاءل شيئا فشيئا في هذه الغارات التي نمضي بها الى القارة او في نقلها الى هناك ٠ ولو كان هتلر موهوبا ، او متمتعا بحكمة خارقة ، لابطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع او أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين ، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا ٠٠٠ ولو حدث هذا لاصبحنا في وضع مخيف لا خيار لنا فيه . فاما ان نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا ، وألم لفرنسا ، واما ان ننثر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا ، اذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضي في القتال ، تحم علينا نحن ان نزيد في العون لهم ، وهذا يؤدي الى اشتداد الصعوبات في طريق اعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها ، ولا سيما بالنسبة للاسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها ٠ وبالطبع كان مستحيلا ان نتخلى عن هذه الاسراب ، ولكن رفضنا سيؤدي بالتاكيد الى اغضاب حليفتنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددا من كبار قادتنا ، ينظرون الى مشكلاتنا الهينة نوعا ما ، بعد ان أصبحنا لوحدنا ، بشيء من الراحة ، وكأن عبئا ثقيلا قد نزل عن كواهلهم ، وأصبح وضعنا كوضع مدرب احد النوادي العسكرية الذي اخذ يخاطب لاعبا قد تهاوت معنوياته بقوله : « ايا ما كان الامر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينا ميدانها »

***

لم تكن القيادة الالمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة . وقد ذكر تشيانو انه قابل هتلر في برلين في ١٧ تموز

عام ١٩٤٠ وتحدث مع الجنرال فون كايتل طويلا ، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا ، فأكد له ان الرأي لم يستقر نهائيا على أي شيء وقد ذكر ان عملية النزول الى البر في انكلترا غير مستعجلة الا أنها صعبة جدا ، ويجب ان تقوم بها المانيا وهي في غاية الحذر ، اذ ان اخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة في صحتها ٠ واضاف كايتل ان ما يبدو سهلا وجوهريا هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى ، ومن المحتم ان يعرف كل انسان ان السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة ، وذكر كايتل ان هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسماية طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد ، كما اعترف ان الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرا ، وان من ناحية اصابة الاهداف من الجو فهم في غاية المهارة ٠ وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل الى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصا كبيرا في الطيارين ، وليس في وسعها ان تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الالمانية الان ، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب الى حد كبير ٠

واصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة الى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايتل او هتلر الى مدة الحرب او أجلها ، وكان هملر وحده الذي ذكر عرضا ان الحرب يجب ان تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الاول ٠

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته ، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل امداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربا للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة ، ووصلت بعض الاسراب الجوية الايطالية ، لكنها لم تصب نجاحا في مهمتها كما سنرى ٠

وقد ألقى هتلر في ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ ، وبعد ان تنبأ باني سالجا الى كندا ، قدم ما يمكن ان يسمى عرضا للصلح ، وقد ارفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية ارسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان ــ وبدا من الطبيعي بعد ان خضعت اوروبا كلها لارادته ، سيكون في غاية السرور اذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله ، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام ، وانما يتناول الاستعداد لتقبل اذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من اجله ٠

وفكرت في أول الامر في اثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان ، ولكن زملائي الوزراء رأوا ان مثل هذا العمل يؤدي الى التشويش حول موضوع كنا جميعا متفقين حوله ، وتقرر عوضا عن ذلك ان يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر في اذاعة موجهة في يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر ٠٠٠ واذيع الحديث الذي « قذف جانبا » بدعوة هتلر « للاستسلام لارادته »٠ ثم قارن بين اوروبا الهتلرية ، واوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها ، واعلن اننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية ٠٠ وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والاذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح ، دون تدخل من حكومة جلالته ، وانما بدافع من نفسها بعد الاستماع الى خطاب هتلر من الاذاعة ٠

ويذكر تشيانو في مذكراته انه « عندما اذيع اول رد بريطاني ، الذي كان متسما بالبرودة ، على الخطاب في الساعات الاخيرة من ليلة ١٩ تموز٠٠ ساد بين الالمان شعور بخيبة الامل ٠ بيد ان هتلر كان يتطلع الى التفاهم مع بريطانيا العظمى ، فقد كان يدرك ان الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء – وهو يدرك تماما ان الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء – اما موسوليني فيخشى من ناحية اخرى ان يجد الانكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبررا للبدء في المفاوضات ، وهذا مما يحز في نفس موسوليني لانه يرغب في الحرب الان اكثر من أي وقت مضى ، وايا كان الامر فلم يكن موسوليني في حاجة الى الغضب او الثورة ، فسيتاح له ان يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها ٠

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال ايسماي اقتراحا في أواخر شهر حزيران لازور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية ٠ وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يوما او يومين من كل اسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة ، وكنت أنام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي اداء اعمالي العادية بكل انتظام٠٠ مع العلم اني كنت اتصل دائما (بهوايتهول) ٠ وقد قمت بزيارة « التاين » و « الهامبر » وغيرهما من الاماكن المهددة بانزال محتمل ، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت ، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر ، وكانت احدى زياراتي الاولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغومري وهو ضابط لم اكن قد التقيت به ٠ وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون ٠ وكانت هذه

الفرقة قد اعطيت اهمية خاصة من ناحية الاعداد ، وكانت على وشك الابحار الى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية ٠

وقد أقام الجنرال مونتغومري مركز قيادته في ستيتنج ، وأراني مناورة صغيرة كانت الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساسا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته ان يستخدم منها حينذاك سوى سبع او ثماني حاملات ٠ ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر « شورهام » و « هوف » الى ان وصلنا الىجبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة ٠ وقد تناولنا عشاءنا في فندق « البيون » الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي ٠ وكاد الفندق انيكون مقفرا من الناس بسبب عمليات الانسحابالاخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطيء ، وفي الميادين وقد سرني ان ارى طائفة من « حرس قاذفي القنابل » يمهدون مركزا لمدفعهم الرشاش في احد اكشاك الرصيف ٠ فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة ٠ وكان الجو رائعا جميلا ، وتحدثت الى القائد احاديث مثمرة ٠٠٠ والحق اني كنت شديد السرور بهذه الزيارة ٠

وفي منتصف شهر تموز اقترح علي وزير الحربية احلال الجنرال بروك محل الجنرال ايرونسايد في قيادة الجيوش ، وفي ١٩ تموز حينما كنت اطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبا ، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة ، ولا شك ان سجل ماضيه كان رائعا ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند « أبيرس » اثناء عملية الانسحاب الى دنكرك ، ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة ، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التي ارسلناها الى فرنسا خلال الاسابيع الاولى من شهر حزيران ، تمكن من انقاذ حملته ، وكانت تربطني به صلة أيضا عن طريق اخوية البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية ٠

على ان هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وُثقت الصلات بيني وبين الان بروك في غضون الحرب ٠ وقطعنا ما يقارب الاربع ساعات معا في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن ٠ وبعد المشاورات الضرورية مع الاخرين

وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة خلفا للجنرال ايرونسايد الذي واجه احالته الى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية ٠

وظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو ، فنظم القوات تنظيما حسنا ، وعندما صار فيما بعد رئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعا حتى انتهينا الى النصر ٠٠٠ وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في اجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الاوسط في شهر اب عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الاكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ ٠ وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيسا للجنة رؤساء أركان الحرب ، في معظم سني الحرب ورئيسا لاركان حرب القوات الامبراطورية ، لا للامبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعا ، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحيانا ، وأقص كذلك كثيرا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التاكيدات ٠

***

وفي هذا الشهر وصلت الينا كميات وافرة من السلاح الاميركي عبر الاطلنطي من غير ان تمس بسوء ، وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن ، كانت هناك قطارات خاصة اعدت لتحملها من الموانيء ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفا على تسلم هذه الاسلحة ، واكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الاسلحة وجعلها صالحة للاستعمال ٠ وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعبا مسلحا على اهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون ٠ نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون « بخلية نحل » واذا قدر لمقاومتنا ان تنهار ، وهو احتمال بعيد ، فان حشدا من الرجال والنساء ، سيظل شاكي السلاح وقد استطعنا بوصول الدفعة الاولى من البنادق الاميركية الى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا ان نزود جيشنا العامل بثلاثماية الف بندقية بريطانية ٠

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين

ملليمترا التي وصلت الينا ، ومع كل مدفع منها الف قذيفة ، ولم يكن بحوزتنا معدات لايصال المدافع بعرباتها كما انه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لانتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من ان المدافع المختلفة الاحجام تعقد العمليات الحربية ، الا انني صممت منذ البداية على استخدامها . وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها الينا وطيلة عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ جزءا مهما في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن . كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عددا من الرجال لادارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان الى اخر ، وعندما تقاتل دفاعا عن كيانك فان وجود مدفع خير من عدمه . وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز ٧٥ ملليمترا سلاحا فعالا بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلا والمدافع الالمانية (هاوتزر) .

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون ان تنزل بنا الكارثة الساحقة ، هدأنا بعض الشيء وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية ، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يوما عن يوم . فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار ، ويمضي الى نومه بعد ذلك شاعرا بثمار اعماله ، واثقا بان الوقت أصبح في صالحنا ، واننا سننتصر في الحرب دون شك .

وازدحمت الشواطيء الان بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدا السلاح يتدفق من المصانع ، ولم يكتمل شهر آب حتى اصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة . وبدأنا نجني ثمار المساعدة الاميركية واخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملاؤهم من رجال الجيش الاقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء ، وبهم لهفة الى لقاء العدو ، وازداد عدد جنود الحرس الوطني الى ما فوق المليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعمدون الى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحيانا الفؤوس والمجارف . ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس ، وان صادفت قوات الامن بعض الجواسيس ، اما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت اصواتهم على حين اقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية .

وعندما زار فون ريبنتروب روما في أيلول قال لتشيانو : « ان الدفاع الاقليمي عن انكلترا لا وجود له بلا شك ، وان فرقة المانية واحدة يمكنها ان تؤدي الى انهيار كامل فيها » ان قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا ،

وعلى كل فقد تساءلت في قرارة نفسي : ماذا يكون لو تمكن مائتا الف الماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لا شك بان المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين ــ اذ لم يكن هناك مجال للرحمة او الشفقة ، فقد كان الالمان على استعداد لاستخدام الارهاب ، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة الى اقصى حد ممكن · وقد قررت تطبيق المثل السائر : « بوسعك دائما ان تمضي بشخص اخر معك بعيدا عن هذه الدنيا » وقد قدرت ان اهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية الى ترجيح كفة الولايات المتحدة، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو القاتلات يحلقون في السماء او يقفون الى جانب طائراتهم استعدادا لتلقي اي اشارة تصدر اليهم ·

حقا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة او الموت · اذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شانها وروعتها · فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود اساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة امامه ، عمل حربي معجز ، وقد اضاف البخار كثيرا من القدرات الى امكانيات الاسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى · ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر الى الخلف ، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الاساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق · وادى كل تعقيد في الاجهزة الحديثة بالنسبة الى الجيوش الى ان اصبحت مهمتها اكثر صعوبة ومشقة ، والى ان صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد انزالها امرا فوق الطاقة، وفي ازمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص اكثر من ان تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب ، على انه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع العدو النزول الى شواطئنا في مكان او اكثر ، فان مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها باية تجمعات اخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل · هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الاولى · اما الان فقد دخل عنصر الطيران ، فما هو تاثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو ؟ من الظاهر ان العدو اذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فان خسائرنا في المدمرات ستكون كبيرة للغاية ، وقد

تكون أيضا قاضية علينا ، ولن يوجد انسان لديه الرغبة في الاتيـان ببوارج ضخمة او طرادات كبيرة الى مياه تسيطر عليها القاذفات الالمانية ، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة الى الجنوب من « فيرث اوف فورث » او الى الشرق من « بلايموث » ولكننا جهزنا في هارويش ونـــور ودوفر وبورتسمـــاوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتألف من سفن حربية خفيفة ، وقد أخـــذ عددها يتكاثر باستمرار ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثـــر مـــن ثمانماية ، ولم يكن في الامكان بعد ذلك تدميرها الا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل ·

وهنا يرد السؤال : لمن كان التفوق في الجو ؟ لقد كنا نقاتل الالمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين او بثلاثة اضعاف ، وبالرغم من ذلك فقد الحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة ، وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية انقاذ جيشنا ، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة اضعاف او خمســة ، وتوقع مارشال الجو الاعلى داودنج ، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهـم بنجاح ، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة ، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف ·

وقد كانت قوة السلاح الجوي الالماني في ذلك الحين حسب معلوماتنـا الصحيحة تعادل ثلاثة اضعاف ما نملكه ، وبالرغم من ان هذا التفاوت كبير بالنظر الى القتال مع اعداء شجعان اقوياء كالالمان · فقد توصلت الى النتيجة التي سبق التوصل اليها ، وهي ان في سمائنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيـــع الانتصار على السلاح الجوي الالماني ، واذا صح هذا فان بحريتنا هـــي الاخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى علـــى احباط محاولات الاعداء الذين يحاولون شق طريقهم الينا ·

وبقي عامل ثالث في الامكانيات والاحتمالات ، فلو تمكن الالمان بمـــا عرف عنهم من مقدرة · وبعد في النظر ــ من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعا خاصة للانزال لا تحتاج الى موانيء او أرصفة ، وانما تقـــوم بعملية الانزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطيء ، فهل يقدرون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن ؟ ومع انه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لـــدى العدو ، الا ان قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تمامـــا كالاربـــاح ·

وتطلب منا ايجاد المعدات التي لزمتنا في عملية غزو نورماندي ، بذل جهد كبير متواصل بالاضافة الى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الاميركية طوال أربع سنوات • وبالحقيقة لم يكن الالمان بحاجة الى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت ، الا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد •

وهكذا اوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ وفي الخريف من نفس العام ، تفوقا جويا ضخما وامكانية ضخمة في السيطرة على المياه الاقليمية بالاضافة الى كميات هائلة من معدات الانزال • لكن السيطرة على البحار كانت الى جانبنا ، كما كان لنا التفوق الجوي ، وكنا على ثقة ـ وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بان الالمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للانزال •

هذه هي اسس تفكيري عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها ، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الالمانية في البلطيق او في مرافيء الراين والشلدات ، وقد كنا على يقين كذلك من ان أية بواخر او صنادل من ذوات المحرك الالي لم تعبر المضائق الى بحر المانش ، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه • وكنا نعتمد اعتمادا كليا على تفكيرنا هذا في وزارة الحربية وفي القيادة العسكرية •

وكانت خطة الالمان التي كشف عنها ، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين اربعة الاف طن وخمسة الاف ، بالاضافة الى قطع صغيرة اخرى ، والان نحن نعلم انهم لم يكونوا يتطلعوا الى المضي بجيوشهم من مرافيء البلطيق او بحر الشمال في سفن كبيرة ، كما انهم يفكروا بالغزو في موانيء بسكاي ، وهذا لا يعني انهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم ، وان كان كل منا على خطأ ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من ان يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة ، وطبعا لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي الا بعد ان تمر البواخر الضرورية جنوبا عبر مضيق دوفر ، بعد ان تتجمع في المرافيء الفرنسية القائمة على القنال ، وطوال شهر تموز لم نر اثرا لشيء من هذه التحركات •

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا ان نستعد لكافة الظروف

والاحتمالات ، والا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته ، وان نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدها ، وفي الامكان حل هذه المشكلة المستعصية والشائعة في نفس الوقت ، فالاحداث تتالى من اسبوع لاخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله اكثر من الفي ميل ، باستثناء ايرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض اي جزء منه او جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجيء ناجح يحتم علينا انشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطيء او الحدود غايتها عرقلة الزحف الاجنبي مع ايجاد اكبر قوة ممكنة من الاحتياطي في الوقت نفسه تضم جنودا مدربين وعاملين في وحدات متحركة يمكنها الوصول الى اي مكان يقع عليه هجوم مفاجيء في اقصر مدة ممكنه ، ثم البدء في هجوم معاكس ·

وعندما وجد هتلر نفسه محاطا ـ في مراحل الحرب الاخيرة ـ بالاعداء ، وواجه نفس المشكلة ، وقع في اخطاء كبيرة حين عالجها ، فلقد اقام شبكه من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، لكنه نسي العنكبوت نفسه ، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئه التي ادت الى الكارثه واقتضتنا ثمنا فادحا لا تزال حاضرة في ذهني ، فانني قد صرفت جهدي كله منذ البداية الى حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي الى اقصى حد ممكن تسمح به موازدنا المتضاعفة ·

وقد التقت ارائي بوجهات نظر البحرية ، وارسل الي الاميرال باوند بيانا مفصلا في ١٢ تموز اعده بالاشتراك مع رؤساء اركان حربه ، الذي كان قائما على هذه الاسس النظرية ··· وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الاميرال باوند في اجماله للخطه : « ربما يصل الى شواطئنا ما يقارب المئة الف جندي دون ان تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم · »

الا ان الابقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات امر مستحيل عمليا اذا استطاع السلاح الجوي الالماني ان يتغلب على سلاحنا الجوي واسطولنا في نفس الوقت ، واذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه ، على حين يرغم الحكومه على الخضوع والاستسلام · وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعا تاما، وتغير الوضع تغيرا حاسما في شهر آب ، فقد تاكد لمخابراتنا الماهرة ان هتلر قد اصدر تعليماته بالاعداد لعملية « اسد البحر » وان هذه العملية في دور الاعداد الفعلي في هذا الوقت ، وبدا لنا بشكل نهائي ان الرجل سيقدم المغامرة

وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تماما ، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت انا قد وجهت اليه بالغ العناية مع رؤوسا اركان الحرب الاميراليه وسرعان مابدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الالي ، والزوارق البخارية يعبر مضايق دوفر اثناء الليل زاحفا بالقرب من الشاطيء الفرنسي ، ليتجمع شيئا فشيئا في سائر الموانيء الفرنسية الممتدة من كاليه الى بريست • وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد الينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقه وعناية ، ورأينا انه من العسير علينا ان نزرع الغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي ، ومضينا فورا الى مهاجمة هذه المراكب المتحركه بوحداتنا الصغيرة ، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانيء الغزو وسرعان ما انهالت علينا الانباء عن احتشاد جيش او جيوش المانية ضخمة استعدادا للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي ، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديديه واحتشادات ضخمه في خليج كاليه ونورماندي وظهرت الى حيز الوجود اعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى ، منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال ، وكان يترتب علينا ان نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة الى خطوة اخرى ونهيء كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي بتضاعف عدده الى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددا والمتقدمة كفاءة وسرعة في التحرك ، تطمئننا الى قدراتها وفعاليتها • ولم ينقض النصف الاخير من شهر ايلول ، حتى كان في استطاعتنا ان نحشد سته عشر فرقه من احسن الفرق نظاما واعدادا على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا اجهزة الدفاع الساحلية المحلية ، وقد اصبح في مكنتها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل اليها ضد اية عمليه للغزو او الانزال واصبحت لنا قوة ضاربة او مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه •

***

جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بان جميع المداخل ومصبات الانهار المنتشرة من كاليه الى تيرشيلنج وهيلجولاند ، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدنمركي ، لا تخفي قوات معاديه هائلة اخرى من نوع صغير او متوسط • وقد خطر في بالنا ان الهجوم سيبدأ من مارويش حول بورتماوث وبورتلاند الى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة « كنت »

ايضا ، ولم توجد لدينا اية براهين اخرى ايجابية على ان موجة ثالثه من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الاوليين ، وتشن من موانيء البلطيق خلال مضائق سكاجراك في سفن كبيرة ، ولا شك في ان مثل هذا الغزو جوهري بالنسبة لخطط الالمان لتحقيق النجاح ، اذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الاسلحة الثقيلة التي تم انزالها ، او لاقامة مستودعات تموين كبيرة ٠

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد ، واليقظه الدائمه وكان علينا طيلة الوقت ان نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من « دوش » حتى « كروماريتي » كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب ، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكه الرائعة الداخلية من سكك حديدنا ، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا ، أننسحب اربع فرق او خمسة من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال ايام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو ٠

واجرينا دراسه دقيقة لاوضاع القمر والمد والجزر وتيقنا من ان العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول الى الارض عند الفجر ، وها نحن أولا نعرف ان ما تيقنا به كان على صواب ايضا ، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في اكمة دوفر البحرية او في القطاع الساحلي الممتد من دوفر الى بورتسماوث والى بورتلاند ، وكانت افكارنا جميعا ــ نحن الذين نتولى القيادة ــ تسير في اتجاه وتوافق تامين مما يثير الاعجاب لتوجيه ضربة الى عدونا تخلف دويا في كافة انحاء العالم ، ولم يكن في استطاعة أي انسان الا أن يحس بالحماسة ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولى بعزم هتلر وعناده ٠

وكان من بيننا من يتحرق شوقا الى قيام هتلر بمحاولته ، يحدوهم الى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لومني هتلر بتدمير محاولته وتحطيم امانيه ٠ وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا ، وكانت قواتنا متفوقة تماما وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعه في الجنوب الشرقي لبلادنا ، واخذت المعدات الدفاعيه الدقيقه ، والمراكز المنيعة والحصون الشماء وحواجز مكافحة الدبابات ، وحواجز الطرق الى غير ذلك تملأ كل مكان ٠ وتوهجت سواحلنا بالاجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الاطلنطي مع ما في هذا الاجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الاطلنطي كما شيدنا عددا آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل ،

وقد احضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) واحدى الطرادات الى بلايموث وظل اسطولنا في ذروة قوته ، وفي قدرته ان يعمل مع تجنب كثير من الاخطـار

وبهذا كنا على اتم الاستعداد لمواجهة اي شيء ... واخيرا اقتـرب موسم الزوابع الاستوائيه المعروفه في شهر تشرين الاول ، وكان شهر ايلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر ان يوجه فيه ضربته اذا واتتـه الجـرأة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في اواسط الشهـر المذكـور .

وارى ان الوقت قد حان لانتقل بالقاريء الى معسكر الاعداء ، حتى اطلعه على مدى استعداداته وخططه ، كما وقفنا عليها في هذه الآونة .



الفصل السابع

عملية اسد البحر

لم تكد تنشب الحرب في ٣ ايلول عام ١٩٣٩ ، حتى بدأت البحرية الالمانية، كما تشير الوثائق المصادرة بعد الحرب ، عـدا الدراسات اللازمـة لغـزو بريطانيا · وقد رأت عكس ما ارتأيناه ، ان السبيل الوحيد هو اتمام الغـزو عبر المياه الضيقه لبحر المانش ، ولم يقدر الالمان اي احتمال آخر . ولو كنـا قد علمنا بالحقيقة هذه انذاك لاسترحنا كثيرا حيث يواجه الغزو عبر المانش اكثر سواحلنا تحصينا ، وهي الجهة البحرية القديمة المواجهة لفرنسا حيث الموانيء المحصنة ، وحيث قواعـد المدمرات الرئيسيـة ، واغلـب المطارات ومحطات الاشراف الجوي للدفاع عن لندن ، ولم نكن نعتمد في اي جزء مـن اجزاء الجزيرة اعتمادنا على هذا الجزء في المسارعة الى العمل بقوة ضخمة وبجميع قواتنا المسلحة الثلاث ··· وكان الاميرال رايدر موجها كل اهتمامه للاعداد في حال قيام الاسطول الالماني بغزو بريطانيا ، وفي نفس الوقت طلـب تركيز الكثير من الاوضاع ، وفي مقدمتها الاشراف الكامل على سواحل فرنسا وبلجيكا وهولندا وموانيها ومصبات انهارها وهذا هو سبب نوم المشـروع طيلة فترة ما قبل الحرب ···

وفجاة برزت الافتراضات بصورة تثير الاستغراب ، وتمكن رايدر بالرغم من بعض وساوسه من التقدم الى الفوهرر مساء معركة دنكرك واستسلام فرنسا بمشروع نال اعجابه ، كما تحدث في الحادي والعشرين من ايار مع هتلر في الموضوع ذاته وفي العشرين من حزيران تحدث اليه لا عن اقتراح الغزو بل عن نسبة التاكد من انه في حال صدور الامر بالغزو فان اعداد التفاصيل المتعلقة

بالمشروع لن يتم بطابع العجلة · وكان هتلر بدوره تساوره الظنون في النجاح فعقب قائلا ، ان يقدر تماما الصعوبات المحتومة التي سيواجهها مشروع كهذا، وكان هتلر ينعلق بالامل الواهي من ان انجلترا قد تطلب الصلح وتنشده ، ولم تتنبه القيادة الالمانية الى فكرة الغزو الا في آخر اسبوع من حزيران · وفي الاسبوع الثاني من تموز صدرت الاوامر الاولى بتجهيز خطة للغزو كأنه أمر محتمل الوقوع ، وتقضي هذه الاوامر بان الفوهرر قد علق غزو انكلترا على توفر بعض الشروط الخاصة وفي طليعتها السيطرة الجوية ·

واصدر هتلر في ١٦ تموز توجيها منه يقول انه بالرغم من المازق العسكري الحرج لانكلترا فانها لم تظهر اية رغبة في التفاهم ، ومن اجل هذا عزمت على اعداد عملية النزول في انكلترا لتنفذ في الوقت المناسب · وينبغي ان تتم الترتيبات اللازمه للخطه كلها قبل منتصف شهر آب ، وكانت الاجراءات العمليه لتنفيذ هذه الاشارة قد بدأت في كل مكان · فقد كانت خطه الاسطول الالماني تتسم بالميكانيكية بوجه عام ، فتحت ستار نيران المدفعية الساحلية من كاليه في اتجاه دوفر ، وتحت حماية مدفعية قوية على طول الساحل الفرنسي المقابل للمضيق ، كانت خطة البحرية تقضي باقامة نطاق ضيق عبر المانش في اقصر مسافة ممكنة واحاطته من الجانبين بسياج من الالغام مع قيام الغواصات بحماية خارجية · وكان من المتفاهم عليه ان ينقل الجيش في مراكب عبر القنال على ان تمونه سلسلة طويلة من الامدادات · والى هنا ينتهي دور الاسطول الالماني · وعلى قيادة الجيش معالجة بقية المشكلة ·

فاذا قدرنا انه كان في استطاعتنا بفضل تفوقنا البحري الهائل ان نقضي على حقول الالغام المذكورة بالقطع البحرية الصغيرة تحت ستار قوة جوية ماهرة وضرب الغواصات المحتشدة من الجانبين لحماية الحقول لاتضح لنا ان هذه الخطة كانت خطة متداعية منذ بدايتها · وكان في استطاعة اي انسان يعرف انه بعد انهيار فرنسا لم يكن هناك مفر من امتداد اجل الحرب وتزايد الاخطار الا اذا اضطرت بريطانيا الى التسليم · وكان الاسطول الالماني قد تاثر بمعركة النروج ولم يعد في امكانه ، بوضعه الحالي ، ان يقدم الى الجيش الا بمساعدة جزئية ضئيلة ، ومع ذلك فقد جهز الاسطول خطة ولم يكن في امكان احد ان يقول ان حسن الحظ قد هبط عليه فجاة · وكانت القيادة العليا الالمانية قد اعتبرت غزو انكلترا في بادىء الامر شيئا يثير القرف في النفوس ، ولم تكن قد دبرت اية خطط او استعدادات لتنفيذه ، كما لم يتلق جنودنا تدريبا على العمليات الخاصة به · لكنه بعد ان توالت أسابيع من نشوة الانتصارات

الرائعة وجدت القيادة في نفسها الجرأة والشجاعة للقيام بأية مهمة ، ولم يكن اقتحام البحر بامان مسؤولية تتعلق برجال القيادة من الناحية الادارية ولكنهم كانوا على ثقة من ان الجيش اذا بلغت قواته الضخمه شاطيء بريطانيا في سلام وأمان فان مهمة احراز النصر على بريطانيا تصبح امرا يسيرا ٠

وقد شعر الاميرال رايدر في شهر اب بوجوب الانتباه الى ان عبور القنال يتضمن مخاطر كبيرة ، والى امكانية فقدان الجيش كله في هذه المحاولة ٠

وعندما تولى الاسطول مهمة نقل الجيش العابر ، اصبحت البحرية الالمانية تدور في حلقة مفرغة من القلق المستمر ، وقابل قادة الاسلحة الثلاثة الفوهرر في ٢١ تموز ، فابلغهم ان الحرب قد شارفت على المرحلة الفاصلة الا ان انكلترا لا ترغب في الاعتراف بذلك ، وما زالت تأمل ان تدور عجلة القدر ٠٠ ثم تحدث عن الامدادات التي تصل الى انكلترا من الولايات المتحدة ، كما اشار الى احتمال تبدل في العلاقات السياسية في المانيا وروسيا ٠ واستطرد قائلا ان تنفيذ عملية « اسد البحر » الخطة الاكثر جدوى في التعجيل بنهاية الحرب ٠ وبعد حديث طويل مع الاميرال ، بدأ هتلر يكشف خطورة ما تخفيه عمليات عبور المانش بما فيه من تيارات ومد وجزر ، وبما في البحر من غموض ٠ ثم وصف عملية « اسد البحر » بانها عملية في منتهى الجرأة والمغامرة واستطرد يقول : « وبالرغم من قصر المسافة فان العملية ليست مسالة اجتياز نهر ، لكنها اقتحام بحر كبير يسيطر العدو عليه ٠ وليست العمليه اجراء فرديا في العبور ، كما حدث في النروج ، اذا لم تكن هناك عناصر المفاجأة ، ولكننا هنا سنواجه عدوا مستعدا للدفاع وقد صمم على القتال وفرض سيطرته على المنطقة البحرية التي يجب علينا استخدامها ، وستقتضينا عملية الجيش نحوا من اربعين فرقه وربما يكون نقل الامدادات اصعب شيء في هذه العملية ، اذ ليس في مقدورنا ان نعتمد على أي نوع من المؤن يتيسر لنا الحصول عليه داخل انكلترا ، وكان الاساس الاول في نجاح الغزو هو السيطرة الكاملة في الجو واستخدام مدفعية قوية في مضيق دوفر والحماية عن طريق الالغام ٠٠٠ » ثم تابع هتلر حديثه بقوله « والطقس عامل حيوي ايضا ، فهو في بحر الشمال وفي المانش يشتد في النصف الثاني من شهر ايلول ، كما يتكاثف الضباب في منتصف شهر تشرين الاول لذلك يتحتم علينا انهاء عملية الغزو قبل الخامس من ايلول ، فبعد هذا التاريخ يصعب علينا أن نضمن قيام تعاون بين الطيران والاسلحة الثقيلة ٠ فهذا التعاون من الطيران يعتبر عملا هاما وحاسما في تحديد الموعد

وقد نشب نقاش حاد تخلله شيء من العنف بين اركان الحرب الالمان :

حول عرض الجبهة وعدد المراكز التي يجب ان تهاجم ، وقد طلب الجيش ان تتم سلسلة من عمليات الانزال على طول الساحل الجنوبي لانكلترا الذي يمتد من دوفر الى « لايم ريجيز » الى القرب من بورتلاند ٠ وطالب بانزال قوات مساعدة في رامسجيت الى الشمال من دوفر ٠ واعلن اركان البحرية الان ان اصلح مكان للعبور هو المكان الواقع ما بين فورلاند الشمالية وجزيرة وايت ٠ وعلى هذا الاساس جرى تجهيز مائه الف جندي لانزالهم في هذه المنطقة على ان يلي ذلك مائة وستين الف جندي اخرين في اماكن اخرى تمتد من دوفر غربا الى خليج لايم ٠ واعلن الجنرال هود رئيس الاركان انه من المحتم انزال اربع فرق على الاقل في منطقة برايتون ، كما طالب بانزال قوات اضافية بين ريل ورامسجيت على ان يجرى توزيع ثلاثه عشر فرقة ان امكن وفي وقت واحد في اماكن متعددة على طول الجبهة ، كما طلب سلاح الطيران سفنا كافية لتنقل اثنين وخمسين مدفعا من المدافع المضادة للطائرات مع حملة الانزال الاولى ٠

لكن رئيس اركان البحرية بين استحاله القيام بعمليات واسعه وسريعة كهذه العمليات ، قرر انه لا يستطيع عمليا حراسة اسطول الانزال في هذه المسافة الممتدة من البحر ، وان على الجيش اختيار افضل مكان ضمن هذه الحدود المذكورة ٠ اذ ليس لدى الاسطول قوة لحماية اكثر من عملية عبور واحدة في وقت واحد ، حتى لو كانت لنا السيادة على الجو ، وهو يرى ان اضيق مكان في مضايق دوفر هو اكثرها سهولة من ناحية الحماية بطلب نقل المائة والستين الف جندي في المرحلة الثانية في عملية واحدة وهذا يحتاج الى الف سفينة تبلغ حمولتها مليون طن ٠ ثم اضاف رئيس اركان البحرية انه حتى في حالة توفر هذا العدد الخيالي فان موانيء الابحار لا تستطيع استيعاب مثل هذا العدد الضخم ، اما ما يمكن عمله فهو القيام بنقل الفصائل الاولى من الفرق الاربع لتشييد رؤوس جسور ضيقة على ان تقوم بنقل الفصائل الباقية في اليومين التاليين وذلك دون ذكر اي معلومات عن الفرق الست الباقية المتوجب انزالها لنجاح العملية ٠ واشار ايضا الى ان الانزال على جبهة واسعة يعني ايجاد فرق في اوقات المد العالي بين مختلف الاماكن المختارة يتروواح بين الثلاث ساعات والخمس ساعات ونصف ٠ وعلى هذا يتوجب ان نختار بين امرين : اما اوضاع المد غير المناسبة في بعض الاماكن واما الرجوع عن فكرة انزال القوات في مناطق مختلفه في وقت واحد ٠ وكان الرد على هذا الاعتراض من اشد الصعوبات ٠ ومر وقت طويل ضاع خلال تبادل المذكرات ٠٠٠ واخيرا التقى الجنرال هولدر ورئيس اركان البحرية في اجتماع بينهما لاول مرة عقد

في ١٧ اب ، وقال هولدر في هذا الاجتماع : « اني ارفض اقتراحات الاسطول رفضا قاطعا ، فمن وجهة نظر الجيش تعتبر العملية بهذا الوضع انتحارية · اذ ان ارسال القوات بالشكل الذي اقترحتموه معناه القاؤها في مفرمة للحم ، تماما كما نلقي اللحم في المفرمة · » واجابه رئيس اركان البحرية بقوله انـه هو ايضا لا يمكنه قبول فكرة النزول على جبهة واسعة ، اذ ان ذلك لا يعني الا شيئا واحد ، هو التضحية بالجنود اثناء عبورهم ، وتم الوصول ، اخيرا ، الى حل وسط قام به هتلر نفسه ولم يقتنع الجيش أو البحرية · فقد صدر الامـر من القيادة العليا في السابع والعشرين من شهر اب يقضي بان علـى عملية الجيش ان تتسق والحقائق التي توجبها شروط الحمولة المحدودة في البواخر وسلامة العبور والانزال · وقد تم نبذ فكرة النزول في منطقة ريل رامسجيت ، ولكن تقرر ان تمتد الجبهة من فولكستون الى بوجور · وهكذا لم يتم الاتفاق النهائي قبل نهاية شهر اب ، فكل شيء بالطبع متوقف على النصر والتفوق في المعركة الجوية الناشبة منذ ستة أشهر ···

وتم تجهيز الخطة النهائيه على ضوء طول الجبهة التي جددت في النهاية كما عهد بالقيادة العسكرية الى رونشتادت ، لكن النقص في عدد السفن قلل من عدد القوات فأضحت ثلاث عشرة فرقة أساسية واثنتي عشرة فرقـة اخرى احتياطية ، وتم القرار على ابحار الجيش السادس عشر من المرافيء الواقعه بين بولون وروتردام ، وان تنزل بالقرب من هايث وهيسنجر وايستبورن ، على ان يبحر الجيش التاسع من المرافيء الواقعة بين بولون والهافر وأن يهاجـم المناطق بين برايتون دورتيج · وقد جهزت الخطة على اساس الاستيلاء على دوفر من ناحية البر وان يزحف الجيشان بعد ذلك على الخط الممتد من كانتربوري الى اشفورد فيفيلد وارونديل ، كما تنزل احدى عشرة فرقة في المراحل الاولى فقط · وتمنت القيادة العليا الالمانية ان تتمكن القوات المهاجمة في الاسبوع الاول من التقدم الى جريفسن وريفيت وبورفيلد وبورتسماوث، وان يقف الجيش السادس الاحتياطي على اهبة الاستعداد لتعزيز القوات المهاجمة او لتوسيع رقعة الهجوم اذا قضت الظروف الى ديماوث · ولا ريب ان القيادة الالمانيـة لم تفتقر الى الجنود الشجعان المسلحين احسن تسليح افتقارها الى سفن للنقل ولسلامـــة العبـور ·

ووقع عبء المرحلة الثقيل في الهجوم على اركان البحرية ، ولم يكن في حوزة المانيا ما يزيد على حمولة مليون ومائتي الف طن من السفن المجهـزة تجهيزا كاملا ونقل القوات الغازية يحتاج الى اكثر من نصف هذه الحمولة ،

كما يؤدي الى الكثير من المشكلات الاقتصادية • وعندما حل شهر ايلول تمكنت القيادة البحرية من ان تعلم انها استطاعت ان تضع يدها على ١٦٨ باخرة مجموع حمولتها سبعماية الف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الاسماك و ١٦٠٠ زورقا بحريا • وكان بالامكان نقل هذا الاسطول العتيد بعد تجهيزه باخرة مجموع حمولتها سبعماية الف طن و ٤١٩ قاطرة وسفن لصيد الاسماك في اليوم الاول من ايلول عملية اندفاع الملاحة الضرورية للغزو جنوبا كانت قواتنا الجوية تراقبها وترصد تحركاتها وتقصفها بعنف على طول الجبهة من انتوبرب الى الهافر • وسجلت اركان البحرية الالمانية ان دفاعنا المستمر من الساحل وتركيز غارات طائراتنا على مرافىء ابحار سفن عملية « اسد البحر » ومواصلة اعمال الاستكشاف توحي جميعها باننا على علم بالغزو القريب •

وذكرت تقارير اركان البحرية الالمانية ايضا ، انه ما زالت الطائرات البريطانية من قاذفات القنابل وطائرات لبث الالغام تواصل اعمالها بصفة دائمة ، وعلينا ان نقر ان غارات الطائرات البريطانية كانت موفقه وان لم تكن فاصله في عرقلة نقل السفن الالمانية الى المرافىء •

وبالرغم مما حدث من تدمير وتعويق فقد استطاعت البحرية الالمانية اتمام الجزء الاول من مهمتها الخطيرة ، ولم تتجاوز خسائرها العشرة في المئة من مجموع قوة الغزو الكاملة ، وهي نسبة اقل بكثير مما قدرته القيادة الالمانية ، اما ما تبقى على اهبة الاستعداد فلم يكن باقل من الحد الادنى الذي قدرت القيادة حتمية وجوده للقيام بالمرحلة الاولى من العملية • وقد القى الجيش والاسطول الالماني العبء كله عاتق السلاح الجوي ، وكانت حماية الممر بما يلازمها من بث الالغام التي بمثابة الاسوار موكلة الى السلاح الجوي الالماني ضد التفوق الظاهر لعمليات المدمرات البريطانية والسفن الصغيرة • اي ان الخطة كانت قائمة على الحاق الهزيمة بالطيران الانكليزي والسيطره المطلقه لالمانيا على الجو ، لا فوق المانش وجنوب شرقي اسيا فقط بل فوق مناطق العبور والانزال كذلك • وهكذا اوكل السلاحان الالمانيان القديمان مهمة الخطة الى ماريشال الرايخ غورنغ •

وقد رحب غورنغ بقبول هذه المهمة ، لثقته المطلقة بالتفوق العددي للطيران الالماني ، وانه لن تمضي اسابيع معدودة من القتال الشديد حتى تنزل الهزيمة المنكرة بالدفاع البريطاني ويتم تدمير مطاراته في كنت وسكس ومن ثم تسيطر المانيا على المانش ••• وقد ظن غورنغ ايضا ان قصف انكلترا من الجو وخاصة العاصمة لندن سيدفع بالشعب البريطاني المنحل الذي يفضل

العافية الى الرضوخ وطلب الصلح ، هذا بالاضافة الى ان نذر الغزو وكانت قد بدت في الافق القريب لكن البحرية الالمانية لم تجاره في تفاؤله هذا وكانت شكوكها عميقة الجذور · لان عملية « اسد البحر » لا يمكن الا ان تكون اجراء اخيرا ، فأوصت في شهر تموز بتأجيلها حتى ربيع عام ١٩٤١ ، الا اذا اجبرت الغارات الجوية وحرب الغواصات الرهيبة الانكليز على مفاوضة الفوهرر بالشروط التي يفرضها ، اما الفيلد مارشال كايتل والجنرال يودل فقد كانا مغتبطين من تفاؤل قائد الجو الاعلى غورنغ ·

لقد عاشت المانيا اياما مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة النصر قبل ان تذل له فرنسا في هدنة كومبين ، وسار الجيش الالماني الظافر تحت اقواس النصر وعبر الكاب اليسيه . فهل بقي هناك شيء يعجزون عن تنفيذه ؟ فلم التردد اذن في الاقدام على مجازفة مضمونه ؟ وهكذا فان الاسلحة الثلاثه التي تشترك في انقاذ عملية « اسد البحر » ولفتت نظر كل منهما الى الجانب المضيء في الدور الذي سيقوم به وترك الجانب المظلم الى السلاحين الاخرين ·

وبمرور الايام تضاعفت الشكوك وقامت العراقيل ، وكان قرار هتلر الصادر في ١٦ تموز قد حدد انهاء جميع الاستعدادات قبل منتصف شهر اب لكن كافة الاسلحة وجدت ان تنفيذ هذه الخطة في الوقت المحددة غير ممكن · وقبل هتلر في نهاية شهر تموز تحديد موعد ١٥ ايلول كموعد مبكر للغزو ، بدنما أجل قراره الاخير القاضي بتحديد موعد البدء في العمل حتى تتضح نتائج معركة الجو التي حمي وطيسها ····

وابلغت البحرية في ٣٠ اب القيادة العليا ، ان استعدادات اسطول الغزو يستحيل ان تتم في ١٥ ايلول بالنسبة للاجراءات المضادة التي اقدمت عليها بريطانيا وعلى هذا تأجل البدء في الغزو حتى ٢١ ايلول مع اشتراط عشرة ايام كانذار مسبق ، وهذا يعني ضرورة اصدار الامر الاول في ١١ ايلول · وابلغت البحرية مرة أخرى في العاشر من ايلول القيادة العليا مدى الصعوبات الكثيرة التي تجابهها نتيجة لرداءة الطقس واعمال بريطانيا المضادة ، وبالرغم من ان التجهيزات البحرية المطلوبة قد تتم فعلا قبل ١١ ايلول ، الا ان الشرط الاساسي الذي يحتم السيطرة المطلقة على جو القنال لم يتحقق بعد · وقد ادى ذلك الى ان اصدر هتلر قراره في ١١ ايلول بتاجيل صدور الامر التمهيدي لثلاثة ايام اخرى ، وبذلك يكون الغزو قد تأحل الى الرابع والعشرين ، كما تأجل مرة ثانية في الرابع عشر ثلاثة ايام اخرى وفي السابع عشر من ايلول تأجل اصدار هذا الامر الى اجل غير مسمى لاسباب هامة في نظرهم ونظرنا ايضا ·

وقد علمنا من الاخبار الواردة الينا في ٧ ايلول ان تحركات السفن الصغيرة ما زالت مستمرة في الغرب وفي الجنوب في اتجاه المرافيء الواقعه بين هومستند والهافر ، ولما كانت هذه المرافيء تحت وطأة الغارات البريطانية القاسية فقد كان من المعقول الا تنتقل اليها السفن الكبيرة الا قبيل الغزو ، وتضاعفت القوة الضاربة للسلاح الجوي الالماني بين امستردام وبريست حتى بلغت مائه وستين قاذفة قنابل وصلت من النروج الى هذه المنطقه ، كما رأينا مجموعات من طائرات الانقضاض ذات المدى القصير في المطارات الامامية الواقعه في خليج كاليه وقد اعترف اربعه من الجواسيس الالمان الذين تم اعتقالهم قبل مضي بضعة ايام من نزولهم من احد زوارق التجذيف على الساحل الجنوبي والشرقي من انكلترا انهم جاءوا ليكونوا على استعداد في اية لحظة اثناء الاسبوعين القادمين ، وليرسلوا بتقارير خاصة عن تحركات الوحدات البريطانية الاحتياطيه في ايبويس ولندن وريدنج واوكسفورد • وكانت اوضاع القمر والمد بين الثامن والعاشر من شهر ايلول مناسبه للغزو من الساحل الجنوبي الشرقي • لذلك قرر رؤساء اركان الحرب عندنا انهم يتوقعون الهجوم في اية لحظة ، وان على قواتنا الدفاعية ان تقف على اهبة الاستعداد لمواجهة اى طارىء عاجل •

ولم يكن في القيادة العامة حينذاك جهازا يستطيع اعلان حالة الطواريء المحددة له ثماني ساعات الى عمل فوري ، ومع ذلك فقد صدرت كلمة السر « كرومويل » التي يقصد بها ان عملية الغزو محتمله في اية لحظة ، صدرت الكلمة الى القوات في الساعة الثامنة من مساء السابع من شهر ايلول ، والى القيادتين الجنوبية والشرقية ، للعمل الفوري السريع للفرق الساحلية الامامية، وجميع الوحدات في منطقة لندن ، والى الفيلقين الرابع والسابع من قوات الاحتياط التابعه للقيادة •

وتكررت الكلمة الى جميع القيادات الاخرى ، للعلم بها فقط ، في جميع انحاء المملكة المتحدة ، وعندما وصلت هذه الكلمة الى قادة الحرس الوطني في بعض انحاء البلاد ، قاموا بدافع من انفسهم باستدعاء قوات الحرس لدق اجراس الكنائس • ولم اكن انا ورؤساء اركان الحرب قد علمنا بان كلمة « كرومويل » قد استخدمت فعلا ، ولذا فقد صدرت اوامرنا في الصباح التالي بضرورة ايجاد مراحل انتقاليه يتضاعف فيها الحذر في المناسبات المقبله دون اعلان ان الغزو قد حصل ، وفي استطاعة كل انسان ان يتخيل ما اثاره هذا الحادث من هرج ومرج وفوضى ، وان لم يشر اليه سواء في الصحف ام

في البرلمان ··· وعلى كل فقد كان هذا الحادث اشاره تدريب لكل من يعينهم الامـــــر ·

* * *

والان وبعد ان تتبعنا مراحل اعداد القيادة الالمانية العليا حتى وصلت الى القمة ، فقد اصبح في مقدورنا ان نعرف كيف تغير الموقف من الزهـــو بالانتصار المبكر الى قيام حالة من الشك ، ثم الى فقدان كل ثقة في النتيجة ، وقد شاهدها القائد البحري وايدر في شهري تموز وآب وحاول ما استطاع تثقيف زملائه من قادة البحر والجو وتبصيرهم بمتاعب الحرب البرمائيـــه الواسعة النطاق ومشقاتها ، فقد احس الاميرال بضعفه واحتياجه الى عامل الوقت لاستكمال المعدات ، وان كان تنفيذ الخطه الواسعة النطاق التي وضعها هولدر هي انزال قوات ضخمة في وقت واحد في منطقة مترامية الاطراف ، وكان غورنغ بخياله الجامح مصرا في الوقت نفســه على احراز النصـر الساحق بقواته الجوية وحدها وابى ان يساهم بدور متواضع في الاعداد لخطة مشتركة تهدف الى تخفيض قوات المقاومة بحرية وجوية في جبهة الغزو ·

ويتضح من الوثائق والسجلات ان القيادة الالمانيـــة العليـا لم تعمـل بانسجام وتعاون في سبيل الهدف المشترك ولم تواجه مشاكل الاسلحه المختلفه الوعي الناجح السليم · فقد كان الاحتكاك فيما بينهما واضحا منذ البداية ، وطالما كان في مقدور هولدر ان يلقي بالمسؤولية على كاهل رايدر فانه لم يحاول ان يوجد الانسجام بين خططه الشخصية وبين الامكانيات العملية ، وكـان من المحتم ان يتدخل هتلر ، وقد تدخل بالفعل لكن تدخله لم يعمل على تحسين العلاقات بين القوات المسلحة ، وكانت سمعة الجيش في المانيا قد ارتفعت الى ما فوق السحب ، وكان القادة العسكريون ينظرون بتعال الى زملائهم من قادة البحريـــة ·

وقد يكون من الصعب على اي انسان ان يقاوم الادلة التي تنهض على تاكيد ان الجيش الالماني لم يكن راضيا عن وضعه تحت اشراف البحرية في عمليـة رئيسية كهذه وعندما سئل الجنرال يودل بعد انتهاء الحرب عن هذه الخطـط اجاب وهو نافذ الصبر « كانت خططنا تشبه تماما الخطط التي وضعها يوليوس قيصـــر »

وربما يكون في هذا القول الصادر عن جندي الماني موثوق به بالنسبـة لعمليات البحار ، ما يلقي الضوء على ان الجندي الالماني لم تتضح في ذهنه

المشكلات الخاصة بعمليات الانزال والاخطار الناجمة عن نقل قوات بحرية كبيرة وتوزيعها على ساحل قد أجيد الدفاع عنه ·

اما نحن في بريطانيا فضلا عما كنا نعانيه من نقص ، فقد خبرنا البحر ووقفنا على مشكلاته ، فالبحر منذ قرون عديدة جزء من كياننا ، وتقاليده لا تستثير بحارتنا فحسب بل الشعب البريطاني باسره · ولعل هذا التفهم هو الذي مكننا اكثر من اي عامل اخر من النظر الى خطر الغزو بكل ثقة وهدوء · وقد خضع التخطيط الذي وضعناه لاشراف رؤساء اركان الحرب الثلاثة برئاسة وزير الدفاع مما ادى الى ايجاد نظام متناسق ككتله واحدة والى التعاون التام الذي لم نر له مثيلا في الماضي والى التعرف المتبادل الى كافة المصاعب · وعندما آن الاوان لنبدأ نحن في عمليات غزو عظيمة واسعة النطاق من البحر ، كان عملنا آنذاك مرتكزا على اساس وطيد من الاستعداد الشامل لاداء العمل ومن الاحاطة الكاملة بكل الاحتياجات التكميلية للاقدام على مشروعات واسعة لها هذه الدرجة الكبرى من الخطورة ·

ولو كان للالمان في عام ١٩٤٠ قوات برمائيه جيدة التدريب مستكملة مختلف المعدات الحربية البرمائيه الحديثه لما قدر لمهمتها النجاح امام قواتنا البحرية والجوية ، فكم بالاحرى والالمان لم يكن لديهم شيء من ذلك لا من ناحية المعدات ولا من ناحية التدريب وهما عاملان ضروريان في مثل هذه الحرب · وكلما زادت رغبة الفوهرر والقيادة العليا في المغامرة ضعفت آمالهم فيها ، ولم يكن في استطاعتنا ان نصل الى معرفة اوضاع بعضنا البعض وتقديرات كل منا ، ولكن كلما مر اسبوع ابتداء من اواسط تموز وانتهاء منتصف ايلول كان الغموض الذي يكتنف الموقف بالنسبة للبحرية البريطانية والالمانية وللقيادة العليا الالمانية ورؤساء اركان الحرب البريطانية وبالنسبة للفوهرر ولمؤلف هذا الكتاب ينجلي رويدا رويدا · ولو قدر لنا الاتفاق على نفس المستوى في القضايا الاخرى لما وجدت ضرورة لقيام حرب ، فقد اتفقنا بادىء ذي بدء على ان المصير سيتقرر في الجو ، كان السؤال الذي يعرض لنا ولهم في وقت واحد هو كيف ستنتهي هذه المعركة الدائرة في الجو ؟ وكان الالمان يتساءلون هل يصمد الشعب البريطاني لنيران الغارات الجوية التي كان تاثيرها قد بولغ في تقديره في تلك الايام ؟ او انه سينهار تحت وطأتها ويفرض على حكومته الاستسلام · وكان ماريشال الرايخ ذا أمل كبير وثقة بالنتيجة بينما كنا نحن لانهابها ·

الفصل الثامن

معركة بريطانيا

ذكرنا سابقا ان مصيرنا اصبح مرتبطا باحرازنا النصر الجوي ، وان القادة الالمان قد ادركوا ان نجاح عملية غزوهم لبريطانيا يتوقف على السيطرة الجوية في سماء القنال ، وفي بعض الاماكن على الساحل الجنوبي لبلادنا ، على انه لم يكن في مقدور الالمان القيام باستكمال استعداداتهم في مرافيء الابحار ، وحشد سفن النقل ، وتطهير المعابر من الالغام ثم القيام ببث الغام اخرى دون ان تكون لديهم الوقاية من غارات السلاح الجوي البريطاني · اي ان الامر الفصل كان للسيادة الجوية في سماء مناطق العبور والانزال ومن اجل هذا كان لا بد من تدمير السلاح الجوي الملكي وسائر المطارات الممتدة على طول الطريق بين لندن والبحر ، ونحن نعلم الان من الوثائق التي حصلنا عليها ان هتلر ابلغ الاميرال رايدر في ٣١ تموز : «انه اذا لم يتمكن سلاحنا الجوي من القيام بعملية تدمير المطارات العدوة بالاضافة الى موانئه وقواته البحرية خلال مدة ثمانية ايام ، فان عملية الغزو ستتأجل بالضرورة حتى ايار من العام المقبل » · وهذه المعركة التي كان علينا ان نخوض غمارها ، على اني لم احس بخوف لحظة واحدة ــ ولو عن طريق التصور ــ من التجربة العظمى التي كنا نواجهها ، وكنت في الرابع من حزيران قد ادليت للبرلمان ببيان هذا نصه :

« ان الجيش الفرنسي العظيم قد اضطر الى التراجع ، واضطرب حل اموره نتيجة الهجوم الذي قامت به بضعة الوف من السيارات المدرعة فهلا يدافع عن قضيـة الحضارة بضعة الوف من الطيارين بمهارتهم واخلاصهم !! وارسلت الى سمطس في ٩ حزيران الثاني اقول واني ارى

الان بوضوح ان هتلر بشكل قاطع سيشن هجوما على هذه البلاد ، فيدمر سلاحه الجوي في هذا الهجوم · »

والان جاءت الظروف مواتية ···

ولاشك ان كتبا كثيرة قد صدرت لتوضح مدى الصراع الجوي بين السلاحين البريطاني والالماني ، وهو الصراع الذي يكون معركة بريطانيا ، وقد استطعنا الان التعرف الى اراء القيادة الالمانية العليا ،والى ردود الفعل لديها في المراحل المتباينة ، ويظهر ان خسائر الالمان في بعض المعاركالرئيسية ، كانت اقل بكثير مما خيل الينا ، وان تقارير الجانبين في وقتها كانت تتسم بكثير من المغالاة ، ولكن لم يكن هناك خلاف على الخطوط الرئيسية لذلك الصراع المعروف الذي كانت تتوقف علية حياة بريطانيا وحرية العالم قاطبة ·

كان السلاح الجوي الالماني قد التحم في معركة فرنسا بكل ما لديه من قوة واضحى في حاجة الى الراحة بعد هذا القتال ، تماما كما حدث للاسطول الالماني بعد معركة النروج ، كذلك كان الامر بالنسبة لنا اذ ان ثلاثة اسراب من مجموع كل أربعة من اسراب طائراتنا المحاربة كانت قد اسهمت في وقت او اخر في معارك القارة ، ولم يكن في مقدور هتلر الا ان يعتقد ان بريطانيا سترحب بعرض للصلح ، بعد انهيار فرنسا ·

وكان هتلر يشبه في ذلك المارشال بيتان وفيجان وغيرهما من القادة الفرنسيين العسكريين والسياسيين ، الذين لم يدركوا ما لدى دولة تقوم في جزيرة من موارد مستقلة وما حبتها الطبيعة به من شمم · لقد كان من شانه شان هؤلاء الفرنسيين الذين استهانوا بعزيمتنا وارادتنا ، وقضى هتلر شهر حزيران في تحوير الاوضاع لتتمشى مع الاحوال التي وجد نفسه فيها تدريجيا، وفي خلال ذلك كان الطيران الالماني يقضي فترة من النقاهة واعادة التنظيم استعدادا للمهمة الجديدة ، ولم يكن ثمة شك في خطر هذه المهمة ، اذ كان على هتلر ان يختار واحدة من اثنتين ، اما ان يغزو انكلترا ويحتلها او يخوض غمار حرب طويلة الامد ، تنطوي على كثير من الاخطار والمشكلات ، على ان احتمال نصر جوي يقضي على المقاومة البريطانية كان ماثلا في اذهانهم مما يجعل الغزو الفعلي امرا غير محتم الا باحتلال بلاد مغلوبة على أمرها · واستطاعت القوة الالمانية الجوية خلال شهر حزيران ومطلع شهر تموز ان تنظم نفسها وتبث النشاط والحيوية في صفوفها ، وان تنتشر في جميع المطارات الفرنسية والبلجيكية التي يحتمل بدء الهجوم منها ، واستطاعت الغارات

الاستطلاعية والتجريبية الوقوف على حقيقة المقاومة التي ستجابهها ومـدى طاقتها ٠

وشرعت في ١٠ تموز بشن أولى هجماتها الضخمة الكبيرة التي تعد بحق بدء معركة بريطانيا ، وهناك تاريخان مهمان يرتفعان ايضا في هذه المعركة هما ١٥ آب و ١٥ ايلول ، وكانت ثمة مراحل ثلاث متتابعة ومتداخلة في الوقت ذاته حين الغزو الالماني ، وقد اتسمت المرحلة الاولى بين ١٠ تموز و ١٨ آب بالتركيز على القوافل البريطانية في المانش وعلى الموانيء الجنوبية الواقعـة بين دوفر وبلايموث حيث تقرر حصر سلاح الطيران البريطاني وايقاعه فـي معركة حاسمة والقضاء عليه ، وكذلك تدمير الموانيء التي تقرر النزول فيها ٠ وفي المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ آب و ٢٧ ايلول كان مـن المحتم تمهيد الطريق الى لندن وذلـك بتحطيم السلاح الجوالبريطاني ومنشآته لتأميـن الهجمات المتواصلة العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطيء المهددة بالغزو ٠ اما غورنغ فلا شك انه كان يرى في هذه الغارات غرضا أكبر وهدفا أبعد وهو احداث الاضطراب الكامل في اكبر مـدن العالـم وشـل حركتها ، وايقاع الفزع الاكبر في بريطانيا حكومة وشعبا ، واضطرارهما اخيرا الى الخضوع لارادة المانيا ، واتجه امل الجيش الالماني والاسطول الى الرغبة في ان يكون غورنغ مصيبا فيما رآه ، ولكن مع مرور الوقت ، وتغير الاحوال راى قادة السلاحين ان السلاح الجوي البريطاني لم يقض عليه ، وان أملهـم في عملية « اسد البحر » قد تبدو في سبيل تحقيق ما أراده غورنغ من تدميـر لندن ، واخيرا عندما انتابتهم خيبة امل في كل شيء ، وعندما تأجل الغزو الى اجل غير معلوم لان الشرط الحيوي الاساسي وهو السيطرة على الجو لـم يتحقق ، بدأت المرحلة الثالثة والاخيرة ٠ فقد تبدد حلمهم في النصر الذي بدا كسراب خادع وسلاح الطيران البريطاني ما زال حيا ، مما حدا بغورنغ فـي شهر تشرين الاول ان يقوم بشن غارات عمياء رعناء على لنـدن وغيرها من مراكز الانتاج الصناعي ٠

ليس هناك وجه للمقارنة بين طائراتنا المقاتلة وطائراتهم ، فالطائرات الالمانية اسرع واقدر على الارتفاع ، اما طائراتنا فاقدر على المناورات وافضل تسليحا ، وكان طيارو المانيا على ثقة من تفوقهم العددي ، كما كانت الانتصارات التي احرزوها في بولندا والنروج والاراضي المنخفضة وفرنسا تشعرهم بالعزة والكبرياء ٠ اما طيارونا فكانوا واثقين بتفوقهم الشخصي ، وكانوا يتحلون بتلك العزيمة التي تعتبر من صفات الشعب البريطاني وتبدو في وقت الازمـات

والعواصف · وقد كان الالمان متمتعين بمزية استراتيجية هامة ، احسنوا استغلالها . فقد توزعت قواتهم وانتشرت في جبهة واسعة للغاية ، وكان في وسعها ان تشن هجمات علينا باعداد كبيرة مع اتخاذ كافة الوسائل لتشتيت أفكارنا حتى لا يتسنى لنا ان نعرف مواقعهم الحقيقية ، وكان الطيران الالماني قد جمع في شهر آب ٢٦٦٩ طائرة بينها ١٠١٥ قاذفة قنابل ، و ٣٤٦ طائرة من طائرات الانقضاض · وأصدر الفوهرر في ٥ آب أمرا يحمل الرقم ١٧ يقضي بتوسيع جبهة الحرب الجوية ضد بريطانيا ، ولم يكن غورنغ واثقا من عملية « أسد البحر » ، بل ركز اهتمامه على الحرب الجوية « المطلقة » ولم تكن هذه القيادة تعتبر تحطيم سلاحنا الجوي الهدف الاساسي بل تعتبر تحول الحرب الجوية بعد بلوغها الذروة الى شن الهجوم الشامل على بوارجنا وسفننا · وقد عبرت هذه القيادة عما تشعر به من اسف لان غورنغ لا يهتم كثيرا بتركيز غاراته على الاهداف البحرية ، كما احنقها التأجيل المتكرر للغارات الجوية · وفي ٦ آب ابلغت القيادة البحرية القيادة العامة بأن بث الالغام في بحر المانش اصبح من المتعذر القيام به نتيجة لضغط التهديد البريطاني المتواصل في الجو · وقد تركز القتال الجوي المتواصل طيلة شهر تموز ومطلع شهر آب على قاعدة « كنت » البحرية وساحل القنال ، وقد تأكد غورنغ ومستشاروه ان غاراتهم قد شغلت كل اسرابنا المقاتلة في ميدان المعركة في الجنوب ، فقرروا القيام بغارة في وضح النهار على مدننا الصناعية الواقعة في الشمال ، وكانت المسافة تعد طويلة على مقاتلاتهم من الطراز الاول وهي (المسرز شميث ١٠٩) فاضطروا الى المغامرة بطائراتهم القاذفة على ان تصحبها طائرات (المسرز شميت ١١٠) وهذه بصرف النظر عن مقدرتها على الطيران الى مسافات أبعد ، فهي غير مجهزة بأسلحة القتال ، وهو امر له اهميته في هذا الوقت ، ومع ذلك فقد نجحت المغامرة ·

وهكذا قامت في الخامس عشر من آب نحو مائة قاذفة قنابل ، واربعون طائرة مسرز شميت ١١٠ ، بشن هجوم على مدينة تاينيسان ، وفي الوقت نفسه كانت اكثر من ثمانماية طائرة تشن هجوما على قواتنا الجنوبية لحصرها في منطقتها ، اذخيل لهم انها متجمعة في هذه المنطقة · لكن التوزيع الذي وضعه داودنج لطائراتنا المقاتلة بدأ يظهر اثره ، فقد كان داودنج يفكر في مثل هذا الخطر فسحب سبعة اسراب من طائرات « الهاريكين » و « السبتفاير » من معركة الجنوب المحتدمة للاستجمام قليلا ولحماية الشمال في نفس الوقت ، وقد احس رجال هذه الاسراب ببالغ الاسى

لابتعادهم عن ميدان اسرب مضطرين ، اذ اكدوا لقيادتهم ان القتال لم يجهدهم ولم ينل من نشاطهم . وها هم اولا يفاجئون بما لا يخطر على بالهم ، فقد اصبح في مقدورهم ان يلتقوا بالمهاجمين بعد اجتيازهم الساحل واستطاعوا اسقاط اربعين طائرة المانية اغلبها من قاذفات القنابل الثقيلة من طراز (هينكل ١١١) التي تنقل الواحدة منها اربعين رجلا مدربا ، ولم يصب طيارينا بأي جراح سوى اثنين ٠ وليس هناك مجال للشك في سعة أفق المارشال داودنج وتفكيره السديد في توجيه الطائرات المحاربة مما يستحق عليه كل ثناء وتقدير ، ولكن عظمة هذا الرجل تتجلى في احتفاظه بهذه القوة من طائراتنا المحاربة في الشمال اثناء الاسابيع الطويلة من اشتعال الحرب في الجنوب ٠ وهذا النوع من القيادة يعد مثلا على العبقرية في فن الحرب ٠

وأعقب هذا اليوم الفاصل ان اضحت مدن الشمال في مأمن من الغارات الجوية وبعد يوم ١٥ آب اليوم الذي بلغ فيه الصراع الجوي أشده ، فقد حدثت خمس معارك رئيسية على جبهة مساحتها خمسمائة ميل ، كان حقا يوما رائعا ، فقد التحمت جميع اسرابنا الاثنين والعشرين في موقعه في الجنوب ، وبعضها عاود المعركة مرتين او ثلاثا ، وكانت خسائر الالمان في الجنوب والشمال قد بلغت ستا وسبعين طائرة ، مقابل اربع وثلاثين من جانبنا ٠ ولا شك في ان هذا الرقم يعد كارثة بالنسبة للسلاح الجوي الالماني ٠

وليس هنا مجال للشك في ان قادة الجو الالمان قد هالتهم هذه الهزيمة الساحقة التي انطوت على أسوأ النذر بالنسبة للمستقبل ، وكان السلاح الالماني قد ركز اهتمامه في الاغارة على ميناء لندن ، ذي الارصفة الطويلة التي تقف عليها مختلف انواع البواخر ، واذلال كبرياء المدينة باعتبارها من اكبر مدن العالم واوسعها ، على ان تحديد الهدف لا يهم الطيار مما يجعل مهمته اسهل وأيسر ٠

* * *

قام اللورد بيفربروك خلال تلك الاسابيع الطويلة من القتال المتواصل والقلق الذى لا نهاية له ، بمساعدات واضحة ، فمن الضروري ادخال تجديد على اسرابنا المقاتلة وتزويدها بطائرات مضمونة ، وقد حال ضيق الوقت دون الاخذ والرد والاطالة في البحث والشرح بالرغم من ضرورة ذلك في كل نظام هادىء رتيب ٠ وكانت طباع اللورد بيفربروك مناسبة كل المناسبة للضرورة الملحة ، فلقد كانت حيويته ونشاطه من بواعث الاقبال على العمل ، وقد اغتبطت

لذلك كثيرا فقد اعتمدت عليه ووثقت في مساعدته فلم تخب هذه الثقة مـــرة واحدة ، وها قد دنت الساعة لاظهار عبقريته واستعداده الشخصي مع مـــا يصحبها من قدرة على الاقناع تمكنه من تذليل شتى الصعاب · وكنا نلقـــي في جحيم المعركة بكل مواردنا ، فقد تدفقت علينا الطائرات الجديدة او ما تـــم اصلاحه من اسرابنا التي اغتبطت حينما طالعتها هذه الاعداد الكبيرة غيـــر المتوقعة ، واخذت ورش الصيانة والاصلاح تضاعف من جهدها وقوة طاقتها · حينئذ تجلت لي قيمة الرجل واهميته فدعوته في الثاني من شهر آب بعـــد موافقة الملك الى الاشتراك في عضوية وزارة الحرب ، وفي الوقت نفسه كـــان ولده الاكبر ماكس اتيكن قد تصدر قيادة الطائرات المقاتلة واحرز انتصاره السادس ·

وكان ارنست بيفن وزير العمل والخدمة الوطنية من الوزراء الذيـــن حرصت على الاكثار من لقائهم في تلك الفترة الحرجة نظرا للمهمة الحيوية التي كـــان يقوم بها مـــن ادارة اليـــد العاملـــة في البـــلاد ، وبعث الحيويـــة والنشاط فيها · وكان جميع العمال في مصانـــع الذخيرة مستعدين لتلقـــي توجيهاته ، وانضم هو الاخر الى عضوية وزارة الحرب في شهر آب · وضحى العمال النقابيون بارباحهم وحقوقهم التي احرزوها بعد جهد طويل والتـــي كانوا يولونها اعظم الرعاية ، ضحوا بها من اجل المصلحة الوطنية وهم يرون بقية الثروات والامتيازات والممتلكات التي يملكها الغير قد ضحوا بهـــا هـــم الاخرين · وكنت انا على وفاق تام مع بيفر بروك وبيفن في اسابيع الازمـــة التي خضناها ، وقد وقع خلاف بين الرجلين فيما بعـــد ، وهذا مما يؤسف له فقد نتج عن اختلافهما كثير من الصدام ، اما في تلك المرحلة من الكفاح الذي بلغ ذروته ، فقد كنا جميعا نعمل يدا واحدة ، وليس في مقدوري الا ان اثنـــي كل الثناء على ولاء المستر تشمبرلين وثبات جميع الزملاء وكفايتهم ، فالـــى الجميع تحياتي ·

ولم يدرك غورنغ حتى نهاية شهر اب اي اثر سيء للصراع الدائر فـــي الجو ، فقد كان على ثقة هو ورجاله من ان المطارات البريطانية وصناعـــة الطائرات ، وقوة سلاح الطيران البريطاني المحاربة قد منيت بكوارث ساحقة ، وكانت هناك فترة خلال شهر ايلول تحسن فيها الطقس فازداد امل السلاح الالماني في احراز نتائج فاصلة ، وامتحنت المطارات حول لندن بغارة جويـــة عاتية ، وقامت ثمان وستون طائرة ليلة ٦ ايلول بالاغارة على لندن تبعهـــا في الليلة التالية هجوم اخر قامت به ثلاثمائة طائرة في وقت واحد ، وفي ذلـــك

اليوم كما حدث فيما تلا ذلك من أيام حيث أتممنا تعزيز المدفعيـــة المضادة للطائرات · في ذلك اليوم دارت معارك شديدة ومتواصلة في سماء العاصمة ، وكانت القوة الجوية الالمانية توقن بالنتيجة بسبب مغالاتها في تقدير خسائرنا ·

وكان ميزان القتال الذي وقع بين ٢٤ آب و ٦ ايلـول قد رجح ضـد طائراتنا المحاربة ، فقد اتخذ الالمان في تلك الايـــام الفاصلة بصورة مستمرة قوات ضخمة لتشن غارات على مطاراتنا في جنوب انكلترا والجنوب الشرقي، وكانوا يهدفون الى تدمير الجهاز الدفاعي عن العاصمة في اثناء النهار التي استبدت بهم اللهفة لمهاجمتها ، وكان العمل المتواصل في هذه المطارات ودوام تحركات اسرابنا منها ، اكثر اهمية لنا من حماية العاصمة التي منيت بحملات من القصف، الجوي ، غرضها الاول نشر الرعب واثارة الفزع · وكانت هذه المرحلة فاصلة في الصراع بين الحياة والموت بالنسبة لكلا الفريقين المتنازعين، ولم نكن نفكر حينذاك بالدفاع عن لندن او غيرها من المدن بقدر ما كنا نتساءل لمن سيكون النصر ؟ وقد ساد قيادة الطائرات المحاربة في (ستاجور) احساس بالقلق وخاصة فيمقر قيادة المجموعة الحادية عشرة في اوكسبريدج ، اذ منيت خمسة من مطارات المجموعة الامامية وستة من مراكز الجبهة باضرار جسيمة وكذلك محطة قطاع بجين هيل الى الجنوب من لندن ، حتى ان سربا واحدا هو الذي استطاع العمل وحده مدة اسبوع كامل ، ولو استمر العدو في هجماتـه الثقيلة على الاماكن القريبة وهدم غرف العمليات فيها ، وقطـــع اتصالاتها الهاتفية لاضحت جميع تنظيماتنا الدقيقة في القيادة الجويـة معرضـة لاشد الاخطار ، ولم يكن دليلا على مجرد توجيه الاساءة الى لندن بل على وهـن اشرافنا على سمائنا في هذا المكان الحيوي الحساس · وقد فرضت زيادة عدد من هذه المحطات في الثامن والعشرين من آب وخصوصا مانستون وبجين هيل القريبة من منزلي ، كانت المحطتان متداعيتين وطرقهمـــا مملوءة بالحفر ، وعندما غير العدو هجومه في السابع من ايلول الـــى لندن ، أدركت قيـادة الطائرات المحاربة هذا التغيير واستشعرت قيادتنا الكثير من الراحة لذلك ، وكان على غورنغ ان يستمر في هجماته على مطاراتنا التي تعتمد عليها قوتنا الجوية المحاربة في ذلك الوقت ، لكن بتخليه عن قواعد الحرب المألوفة ، ومـا تمليه الروح الانسانية من قواعد مقررة ، ارتكب أجسم الاخطاء وأبشعها · وكانت هذه الفترة الواقعة ما بين ٢٤ آب و ٦ أيلول من الايام التي شقت على قيادة طائراتنا المقاتلة الى اقصى حد ، وكانت القيادة قد منيت بخسارة مـــا يقرب من مائة وثلاثة من الطيارين خلال اسبوعين بالاضافة الى مائة وثمانية

وعشرين اصيبوا بجراح خطيرة ، كما تحطمت حوالي ٤٦٦ طائرة من طراز الهاريكين والسبيتفاير او اصيبت بأضرار جسيمة ، واذا اعتبرنا ان عدد الطيارين في قوتنا المحاربة كان في هذه الاونة الف طيار ، بدا لنا ان سلاحنا الجوي قد فقد ربع رجاله تقريبا ٠

ولم يكن في وسعنا ملء هذا الفراغ الذي نشأ عن فقدانهم ، الا باستحضار مائتين وستين طيارا جديدا ينقصهم التدريب وان لم تنقصهم الحماسة ، نقلوا من وحدات التدريب قبل ان يستكملوا مدتهم الدراسية في كثير من الاحيان ، وتسببت الهجمات الليلية على لندن خلال عشرة أيام بعد السابع من ايلول والتي استهدفت الارصفة ومراكز السكك الحديدية في قتل عدد كبير من المدنيين واصابة الكثير بجراح ، لكنها برغم ذلك اعتبرت بمثابة نعمة هبطت علينا من السماء ، ارسلت الينا على حين كنا في اشد الحاجة اليها لنأخذ انفاسنا ٠

وعلينا ان نعتبر الحرب الجوية قد بلغت ذروتها في الخامس عشر من ايلول ، فقد شن سلاح الطيران الالماني ـ بعد غارتين متواليتين في ١٤ من الشهر نفسه ـ اكبر هجوم جوي مركز في رائعة النهار على مدينة لندن ٠ لقد صارت احدى المعارك الفاصلة في الحرب ، وقد حدثت في يوم من ايام الاحد كمعركة « واترلو » تماما ، وكنت في ذلك اليوم في تشيكرز ، وطالما قمت ـ قبل هذا اليوم ـ بزيارة لمقر المجموعة الحادية عشرة من الطائرات المقاتلة لارى بنفسي سير احدى المعارك الجوية التي لا يحدث فيها الكثير ، وأحسست في ذلك النهار ان الطقس مناسب لعدونا ، ولذلك فقد ركبت سيارتي الى اوكسبردج حيث زرت مقر الجمعية التي تتكون من حوالي خمسة وعشرين سربا تختص بالدفاع عن ايسكس وكنت وساكس وهامشاير وجميع المداخل المؤدية الى لندن ، وكان نائب مارشال الجو بارك يقوم بقيادة هذه المجموعة منذ حوالي ستة اشهر، وكان عليها يتوقف مصيرنا الى درجة عظيمة ، ومنذ ان ابتدأت معركة دنكرك اسند الى بارك ادارة كافة اعمال الطيران في النهار في جنوب انكلترا وقد بلغت استعداداته حد الكمال ، وتسللت مع زوجتي الى غرفة العمليات الحربية المحصنة ضد القنابل والواقعة على بعد خمسين قدما تحت الارض ، ومن المعلوم أن تفوق طائرات السبيتفاير والهاريكين انما يرجع الى وجود هذا الجهاز الدقيق من الاشراف ، وامتداد شبكة اسلاك التليفون تحت الارض قبل الحرب بفضل توجيه وزارة الطيران ونصيحة المارشال داودنج ٠ وكانت القيادة العامة توجه التعليمات والاوامر من مقر القيادة العليا للطائرات المحاربة في ستاجور ، لكن القيادة الفعلية لاسراب الطائرات قد عهد بها الى

المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الاشراف علــى سائر الوحدات الموزعة في شتى محطات الطائرات قد عهد بها الى المجموعة الحادية عشرة التي كانت تتولى الاشراف على سائر الوحدات الموزعــة في شتى محطــات الطائرات المحاربة في مختلف انحاء البلاد ٠ وكانت غرفة عمليات المجموعــة تشبه المسرح الصغير ، وطولها يبلغ ستين قدما ، وتتكون من طابقين ، وقد اخترنا مقاعدنا في الحلقة الوسطى وامامنا على المائدة افردت الخريطة الضخمة وقد التف حولنا حوالي عشرين شابا وفتاة تم تدريبهم ومعهم مساعدوهم من موظفي التليفونات وأمامنا يقع لوح أسود كبير بطول الجدار كله ، وقد قسمته المصابيح الكهربائية الى ستة اعمدة يمثل كل منها محطة من المحطات الست ، ولكل منها ايضا عمود اضافي مقسم بخطوط افقية ٠ وهكذا كانت المصابيح المنخفضة تكشف عن الاسراب الواقفة على اهبة الاستعداد والمستعدة للطيران خلال دقيقتين ، ثم تعلوها المصابيح التي توضح الاسراب المتاهبة للعمل خلال خمس دقائق ، ثم تعلوها تلك التي يتم استعدادها في عشرين دقيقة ، وهكــذا بالنسبة الى تلك التي تقوم بالطيران او التي شاهدت العدو او المشتبكة معــه في هذه اللحظة او تلك التي في طريقها الى قاعدتها ، وهناك غرفة صغيرة على الجانب الايسر تشبه المقصورة في المسرح يجلس فيها اربعة او خمسة ضباط من فرقة المراقبة التي كان عددها قد بلغ حينذاك حوالي خمسين الف رجــل وامرأة وشاب ، وقد كان الرادار انذاك في بدايته ، ومع ذلك فقد كان كافيا لتوجيه الانذار بالغارات حين تقترب من السواحل ، وكان المراقبون من خلال مناظيرهم وتليفوناتهم المتنقلة ، مصدر كل المعلومات عن الطائرات المغيرة ، وهكذا كانت القيادة تنهال عليها الوف الرسائل والاشارات في اثناء وقــوع الغارة ٠ وكان يجلس عدد كبير من الرجال المدربين في غرف تمتلىء بهم في مقر القيادة الكائن تحت الارض ، يحلون رموز تلك الرسائل ويلخصونهــا بأقصى سرعة وينقلون من دقيقة الى اخرى النتائج التي يصلون اليهــا الى الذين يضعون ويخططون للمعركة وهم جالسون حول المائدة الرئيسية ، والى الضباط المشرفين على سير العملية من مقصورتهم التي اشرنا اليها ٠

وفي الناحية المقابلة (مقصورة) ثانية يحتلها عدد من ضبــاط الجيش الذين يقومون بنقل أعمال المدفعية المضادة للطائرات وقد كان لدينا منها تحت اشراف هذه القيادة مائتا مدفعا ، وكان من الضروري جدا ان تتوقف هذه المدفعية عن العمل لبضع ساعات اثناء الليــل في بعض المناطــق ، اذ أن طائراتنا المقاتلة تكون في ذلك الوقت قد اشتبكت في القتال مع العدو ، وكنت

على علم بهذا النظام ، فقد اطلعني داودنج على عمل الجهاز كله قبل ان تبدأ الحرب بعام عندما زرته في ستاغور ، ولقد مر النظام بمراحل من التحسين والاصلاح منذ تلك الزيارة وصار الان اداة حيوية من ادوات الحرب لا نظير لها في أي بلد من بلاد العالم · وقال لي بارك عندما نزلنا الى المقر في الطابق الاسفل : « لا أستطيع التخمين عما يحدث اليوم ، كل شيء هادىء » ·

ولم يكد يمضي ربع ساعة على هذا الكلام ، حتى كان منظموا الخطة قد بدأ تحركهم ، اذ ابلغوا انه حوالي أربعين طائرة تحركت للأغارة من المحطات الالمانية في منطقة دييب ، واخذت المصابيح تضيء في الصف الادنى مشيرة الى الاسراب التي وقفت على أهبة الاستعداد ، ثم وصل خبر اخر يقول ان عشرين طائرة مغيرة اخرى تستعد ، ولم تمض عشر دقائق اخرى حتى صار من البين ان معركة قاسية في طريق الوقوع وبدأ الجو يحتشد بطائرات من الجانبين · وتتابعت الاشارات ، اربعون طائرة ، ستون طائرة ، وكان اتجاه سير الطائرات المغيرة يبدو أمامنا على الخريطة من وقت الى اخـــر في علامات توضح اتجاهاتها ، بينما كانت على اللوحة المواجهة تضيء المصابيح، مشيرة الى طيران اسرابنا بصورة متتابعة حتى لم يبق منها على الارض على أهبة الاستعداد اكثر مـن عدد قليل ، وقد ظلت هذه المعارك الجويـة التـي يعلق عليها الكثير ـ اكثر من ساعة بعد وقوعها ـ وقد كان عدونا ما تزال لديه القوة التي مكنته من ارسال هذه الدفعات المتوالية من الطائرات الـى قلب الهجوم ، وكان على اسرابنا التي تم طيرانها كلها لتكون لها السيادة على الجو ان تعود الى قواعدها بعد سبعين او ثمانين دقيقة من طيرانها لتتـزود بالوقود او الذخائر ، ولو تمكن العدو في اثناء ذلك من حشد طائرات جديدة في حومة القتال لاستطاع تدمير العديد من طائراتنا وهي على الارض ولذا فقد كان هدفنا الرئيسي دائما ان نوجه اسرابنا بحيث لا يتجمع عدد كبير منها على الارض في وقت واحد ·

وسرعان ما أوضحت الاضواء الحمراء ان معظم اسرابنا ملتحمة مع العدو ، وكنت اسمع همسا متصلا بين القائمين بالتخطيط ، وهم ينقلـــون الاشارات من مكان لاخر ليوضحوا تطور المعركة وتغير الاوضاع · وكـان نائب مارشال الجو يصدر التعليمات العامة موجها طائرته المقاتلة التي تترجم فورا الى تعليمات تفصيلية يوجهها ضابط شاب يجلس في وسط الغرفة الى كل محطة من المحطات ·

وكنت اجلس بجواره ، وسالت عن اسمه بعد سنوات ، فقيل لي انـه

اللورد ويلوبي دي بروك · وقد التقيت به لثاني مرة في عام ١٩٤٧ عندما استجبت لدعوة من نادي الفرسان ، وكان عضوا في مجلس ادارته لمشاهدة حفلة سباق الدربي · وقد استغرب كثيرا لانني لم انس لقائي الاول به · وكان في ذلك الحين يصدر التعليمات والاوامر للاسراب الفردية بالتحليق في الجو والقيام بأعمال دورية على هدى من النتائج الظاهرة على الخريطة ·

وكان مارشال الجو انذاك يسير في الغرفة جيئة وذهابا وهو يلحظ بعين حذره متنبهة كل حركة وخطوة في اللعبة ، مراقبا بنفسه رجال جهازه التنفيذي ومتدخلا اذا اقتضى الامر بكلمة حاسمة لتعزيز نقطة مهددة · ولم تمر لحظات حتى صارت جميع اسرابنا ملتحمة في المعركة ، ولم يبق سرب واحد في الاحتياطي ، وتحدث بارك في تلك الاثناء تلفونيا الى داودنج في ستاغور ، فطلب منه ان يضع ثلاثة اسراب من المجموعة الثانية عشرة تحت تصرفه احتياطا للطوارىء ، وفيما اذا وقع هجوم رئيسي اخر ، خلال قيام اسرابه بالتزود بالسلاح والذخائر ، وقد تم فعلا هذا ، وكانت الاسراب الزم ما تكون لحماية لندن ومطارات الطائرات المحاربة حيث ان المجموعة الحادية عشرة كانت قد استنفذت كل قواها ·

واستمر الضابط الشاب الذي اتخذ من هذه الامور مسالة روتين في اعداد أوامره المنسقة مع تعليمات قائده العام ، بلهجة هادئة ، وسرعان ما انطلقت الاسراب الاضافية الثلاثة الى ميدان المعركة مرة اخرى ، وشعرت بقلق القائد الذي كان يصطنع الهدوء في وقفته وراء مقعد مساعده ، وكنت حتى هذه الاثناء اشهد التطورات صامتا ، فسألته : « هل تملك قوات اخرى احتياطية ؟ » فاجابني نائب المارشال : « كلا ··· لم يبق لدينا في الاحتياطي أي شيء · » وقد كتب في تقريره فيما بعد انني ظهرت حينذاك بمظهر المتجهم العبوس ، وربما اكون حقا قد قطبت جبيني ، وعبس وجهي ، اذ ماذا يكون الامر لو فاجات اربعون طائرة جديدة او خمسون اسرابنا وهي على الارض تتزود بالوقود لتعود الى التحليق من جديد · ان الميزان حينذاك كان في كفة القدر ، وكانت قدراتنا محدودة ، والاخطار التي تتعرض لها جد كبيرة ··· ومرت خمس دقائق اخرى ، واغلب طائراتنا المحاربة تعود الى الارض لتتزود بالوقود ، ولم يكن في وسع مواردنا الحالية ان تضمن لها الحماية الجوية الكافية ، وعرفنا ان طائرات العدو قد اخذت تعود من حيث اتت ، وبدأت العلامات على الخريطة تظهر اتجاه الطائرات الالمانية نحو الشرق ولم يبد اثر لاي هجوم جديد ، وبعد عشر دقائق من انتهاء المعركة بدانا نرتقي السلم

نحو سطح الارض ، وحينما وصلنا كانت صفارات الامان تدوي في الاسماع منبئة بانتهاء الغارة ٠

وقال بارك : « اسعدنا يا سيدي ، انك رأيت المعركة ، للحقيقة لقد كنا في الدقائق العشرين الاخيرة نكاد نختنق من المعلومات التي عجزنا امامها ، ولعلك يا سيدي شهدت القيود المفروضة على مواردنا الحالية ، وقد تحملت الموارد اليوم أكثر مما نستطيع ٠ »

وسألته عما اذا كان شيء من نتائج المعركة قد وصل اليه ، وذكرت ان الهجوم قد رد بصورة رائعة وفعالة ، فأجاب بارك بأنه غير راض وان طائراته لم تستطع ان تسقط العدد الذي كان يتوقعه، وكان من المستبعد ان يكون العدو قد اجتاح خطوطنا الدفاعية في كل مكان تقريبا ، وقد سرت الانباء بان عشرات من القذائف الالمانية قد استطاعت تحت حراسة المحاربات من التسلل الى لندن ، ولكن الصورة الصادقة عن النتائج لم تتضح تماما ، كما لم تصل الينا أية أرقام نهائية عن الخسائر او الاضرار ٠

وكانت الساعة قد شارفت على الرابعة والنصف من بعد الظهر ، عندما رجعت الى تشيكرز ، فمضيت بعد ذلك الى فيلولني ، ويبدو ان المسرحية التي عاينتها في مقر قيادة المجموعة الحادية عشرة قد انهكت قواي حتى انني لم أصح من نومي الا في الثامنة مساء ، وحينما دقت الجرس حضر لي جون مارتن رئيس امناء سري ومعه موجز اخبار المساء من جميع أنحاء العالم ٠٠ كانت اخباره تدعو الى القلق ، فقد سار هذا الامر سيرا خاطئا هنا ، وتأخر ذاك هناك ، والرد غير مقنع عن اخره ، او ان الاطلنطي قد ابتلع قطعة من قطعنا البحرية ، ومضى جون مارتن يقول : « اننا قد حققنا في الجو ما نهدف اليه ، فقد اسقطنا مائة وثلاثا وثمانين طائرة عدوة مقابل خسارتنا التي لم تبلغ الاربعين ٠

***

وبالرغم من ان المعلومات التي بلغتنا من العدو بعد الحرب تشير الى ان خسائره في هذه المعركة لم تزد عن ست وخمسين طائرة ، الا ان الخامس عشر من أيلول كان قمة معركة بريطانيا حقا ، وبدأت قيادة طائراتنا القاذفة في تلك الليلة القيام بهجمات مركزة على كافة موانيء العدو من بولون الى انتويرب ، وقد انزلت بالميناء الاخير خسائر بالغة ، وها نحن نعلم الان ان الفوهرر قد قرر في السابع عشر من أيلول تاجيل عملية « اسد البحر » الى

أجل غير مسمى ، وتم أخيرا في الثاني عشر من تشرين الاول تأجيل هذا الغزو نهائيا الى الربيع التالي ٠

وقرر هتلر في تموز عام ١٩٤١ تأجيل الغزو مرة اخرى حتى ربيع عام ١٩٤٢ عندما تكون الاغارة على روسيا قد انتهت ٠٠٠ وكان هذا الحلـم ضروريا مع كل ما فيه من عبث واستحالة ٠ وفي الثالث عشر من شباط عام ١٩٤٢ اجتمع الاميرال رايدر بهتلر للمرة الاخيرة للبحث في عملية « اسـد البحر » واضطره ان يقرر العدول عنها نهائيا ، ومن ذلك يتضح ان الخامس عشر من أيلول عام ١٩٤٠ كان نقطة تطور هامة ٠ ولا شك في اننا كنا متهاونين في تقدير خسائر العدو ، وفي الحقيقة كنا نسقط طائرتين او ثلاثا للعدو مقابل طائرة واحدة تهوى من طائراتنا ، وفي هذا ما يكفينا ٠ وقد استطاعت قواتنا الجوية ان تحقق النصر ، بدلا من ان يحيق بها الدمار على يد العدو ٠ وكان هناك عدد من الطيارين الجدد لا ينقطع ، وبالرغم من الاصابات التي لحقـت بمصانع طائراتنا ــ وهي العامل الفعال في قدرتنا على شن حرب طويلـة الاجل ، الا مجرد امدادنا بحاجاتنا العاجلة فحسب ، بالرغم من ذلك فلـم تشل حركتها نهائيا ، وبقي عمالها من فنيين وغير فنيين وراء مخارطهـم تزدحم بهم المصانع غير مبالين بالنيران التي تتوهج من حولهم ، فكانـوا اشبه ما يكونون بالمدافع التي تواصل عملها دون انقطاع ٠ وكان هوبـرت موريسون في وزارة التموين يشجع الجميع على مواصلة الجهد ، كل في حدود عمله ، وكان يحفزهم بكلمة : « هيا ، الى العمل » فلا يمتنع احد عن الاسراع بتلبية ندائه ، وقامت قيادة مقاومة الطائرات المغيرة برئاسة الجنرال بايل ، ببذل كل عون مستطاع الى معركة الدفاع الجوي ، لكن اشتراكها الـرئيسي كان متأخرا ، اما فرقة المراقبة فكانت تواصل عملها ليل نهار لا تعرف التعب وبدون ان يتأثر اخلاصها ؛ اما قيادة الطائرات المقاتلة التي تعتمد عليهـا المقاومة كل الاعتماد ، وقد اقنعتنا بقدرتها على الصمود المتواصل اشهـرا عديدة امام الاجهاد المستمر ، حقا لقد ادى كل فريق واجبه أحسن الاداء ٠

واستمرت ارواح طيارينا وشجاعتهم ، وهم يخوضون غمار المعركة في منتهى القوة والروعة ، وهكذا انقذت بريطانيا ، واصبح علي ان اقف في مجلس العموم واقول : « لم يسبق قط في تاريخ الصراع الانساني ان احس مثل هذا العدد الضخم من الناس ما في اعناقهم من دين جسيم نحو عدد قليـل من الناس مثلما نحس به جميعا اليوم نحو طيارينا » ٠

الفصل التاسع

الحرب الخاطفة

لا شك في ان الاراء التي تروى عن الهجوم الجوي الالماني على بريطانيا هي اراء متناقضة ذات اهداف متباينة ، وخطط مبتورة ، ففي خلال هـــذه الاشهر كلها ، كان يقلق راحتنا ، ليتخذ اسلوبا جديدا ، ولكن هذه المراحل جميعها متداخـلة وليس في المستطاع الفصل بينها بتواريخ دقيقة محـددة • فالمرحلة الواحدة منها تسلم الى المرحلة الثانية وتتداخل فيهـا ، وكانــت العمليات الاولى تهدف الى الالتحام مع قواتنا الجوية في معارك فوق المانش والساحل الجنوبي ثم تحول القتال الى سماء المقاطعات الجنوبية وخصوصا في كنت وساسكس حيث اراد العدوان يحطم جهاز قوتنا الجوية ، ثم اخــذ يتجه نحو لندن قليلا قليلا حتى اصبح اخيرا يحلق في قلب سمائها حيث اضحت المدينة هدفه الرئيسي ، واخيرا عندما احرزت لندن النصر ، انتقل القتال الى سماء المدن في الاقاليم والى شريان الحياة البريطاني خلال الاطلنطي عــن طريق ميرس وكلايد •

وقد شهدنا الهجمات الالمانية العنيفة على مطارات الساحل الجنوبي في الاسبوع الاخير من شهر اب • والاسبوع الاول من شهر أيلول ، وفي السابع منه تسلم غورنغ قيادة المعركة الجوية وجعل الغارات ليلية ، ونقل مكـــان المعركة من مطارات « كنت وساسكس » الى عمارات لندن وأبنيتها ، امـــا الغارات النهارية فلم تنقطع وان كانت ثانوية ، حدث هذا باستثناء غـــارة نهارية ضخمة اخرى ، لكن الطابع العام للهجوم الالماني قد تغير تماما ، وقصفت لندن بصفة متواصلة لمدة سبع وخمسين ليلة دون انقطاع مما جعل

أكبر مدن العالم تواجه تجربة خطيرة بل محنة قاسية ، ولم يكن في مقدور أي انسان ان يتنبأ بالنتائج ، ولم يسبق قط ان تعرضت هذه البلدان لمثل هذا القصف الجوي الراعد ، كما لم يسبق ابدا ان واجه العدد الضخم من الاسراب والمشكلات والمصاعب التي احدثها هذا القصف الرهيب ونكباته ·

وقد قمنا بغارة على برلين ردا على هذه الغارات المتواصلة على لندن في نهاية شهر اب ، بالرغم من المسافات الشاسعة التي كان على طائراتنا ان تجتازها ، ولم تكن مثل هذه الغارة شيئا مذكورا بالنسبة للغارات الالمانية المركزة على لندن والمطارات القريبة الفرنسية والبلجيكية · ولكن وزارة الحرب رات نفسها في وضع يحتم عليها الثار رفعا للروح المعنوية ، وتاكيدا لتحدينا للعدو ، وكنت على ثقة من صحة هذا الرأي وجدواه ، اذ اني اعلم ان هتلر يثير اضطرابه صمود بريطانيا واظهار قوتها ، وان كان هتلر في اعماق نفسه يعجب بشعبنا ، وبالطبع واتته الفرصة حين قمنا بغارتنا الثارية على برلين فاعلن ما انطوت عليه نفسه من رغبة في تحويل لندن وغيرها من المدن البريطانية الى اطلال ورسوم حين صرح في الرابع من أيلول قائلا : « ان هجومهم على مدننا سيدفعنا الى ازالة مدنهم من الوجود · »

وقد بذل هتلر اقصى ما يستطيع من جهد ·

واسهم في الغارات الليلية المتواصلة على لندن بين ٧ أيلول و ٣ تشرين الاول أكثر من مائتي طائرة في كل غارة ، وكانت الهجمات التمهيدية العديدة التي نزلت بمدننا الاقليمية في الاسابيع الثلاثة الماضية قد فرضت علينا ان نوزع مدفعيتنا المضادة للطائرات بصور فعلية ، وعندما اصبحت لندن الهدف الرئيسي للمرة الاولى لم تكن تحتوي على اكثر من اثنين وتسعين مدفعا ، ورأينا أن الاجدى ترك الجو حرا لطائراتنا الليلية المقاتلة تحت قيادة المجموعة الحادية عشرة ، وكان من بين تلك الطائرات ستة اسراب من طراز « بلنهايم » وطراز « ديناياتت » وكان الاشتباك الليلي ما يزال في بدايته ولذلك فان خسائر العدو كانت طفيفة ومحدودة ···

وهكذا استمرت مدافعنا المضادة متوقفة عن العمل في الليالي الثلاث الاولى ، وبالرغم من عدم دقة الوسائل التي تستخدمها المدافع المضادة ، فقد اضطرنا ضعف طائراتنا الليلية المحاربة ومدى ما نواجهه من مشاكل في حاجة الى الحل ، اضطرنا كل اولئك الى ان نعطي لرجال هذه المدفعية الحرية التامة في اطلاق نيرانهم على اهداف غير واضحة متخذين أي أسلوب يختارونه لتحديد الهدف ودقته ··· وبعد ثمان وأربعين ساعة ، تمكن الجنرال بايل ،

المشرف على قيادة المدافع المضادة من زيادة عددها في العاصمة بجلب عدد من مدن الاقاليم ، وهكذا اخليت السماء من طائراتنا المقاتلة ، وقامت المدافع المضادة بمهمة الدفاع ٠ ومكث أهل لندن ، ثلاث ليال متعاقبة ، ملازمين مساكنهم او معسكراتهم غير المعدة ، محتملين أعنف الغارات حتى كانت ليلة العاشر من ايلول حين انطلقت مدافعنا المضادة فجأة تضيء لها السبيل المصابيح الكاشفة المتوهجة ، وبالرغم من دويها العظيم فلم تنزل بالعدو اضرارا جسيمة الا أنها اعلت الروح المعنوية بين ابناء العاصمة ، وتمشت الحماسة في صدر كل انسان لمجرد الاحساس باننا نرد الصاع صاعين ، واستمرت المدافع المضادة منذ ذلك الوقت تتابع اطلاق نيرانها بصفة منتظمة ومتواصلة ، ومهد التمرين والاختراع والحاح الحاجة الى زيادة التصويب دقة ، واخذ عدد الطائرات المصابة من سلاح العدو يتكاثر ليلة بعد اخرى ، وكانت المدفعية تلوذ بالصمت أحيانا حين تنطلق الطائرات الليلية المقاتلة لتخوض غمار المعركة ، بعد ان تحسنت أساليبها ، وظلت الغارات الليلية بل النهارية متواصلة الى الحد الذي كانت تشن فيه هذه الغارات مجموعات صغيرة من الطائرات بل طائرة واحدة أحيانا ، وطالما اطلقت صفارات الانذار ، ودوى صوتها فترات متلاحقة طيلة ساعات اليوم بأكمله ، ولكن اهل لندن الذين يبلغون في ذلك الوقت سبعة ملايين قد رتبوا حياتهم على وضع يلائم تلك الاحوال الشاذة ٠

***

ولتنوير القراء ورغبة مني في الترفيه قليلا عنهم ، والتخفيف من وقع هذه التجربة القاسية على مشاعرهم ، اورد هنا بعض ملاحظاتي الشخصية عن غارات لندن ، متيقنا ان لدى الالاف من ابناء العاصمة كثيرا من الحكايات التي تفوق في اثارتها هذه الملاحظات ٠

فعندما اخذت طائرات العدو في قصف جو العاصمة كنا نرى ان نواجه هذه الغارات بالتهوين وعدم الاكتراث ، فاستمر كل انسان في حي « الوست اند » يعمل ويلهو ، ينام ويأكل كما تعود ، دون ان يغير شيئا من مجرى حياته العادية ، فالمسرح مزدحم بالمشاهدين والشوارع المظلمة تموج بالمارة ، ولعل هذا الموقف كان رد فعل صائب للرعب الذي بدأ في العناصر الانهزامية في باريس ، عندما تعرضت المدينة لاول هجوم جوي في شهر ايار ٠ واذكر اني كنت على مائدة العشاء ذات ليلة مع صحبة خيرة ، عندما حدثت غارات

مستمرة قوية ، وكانت نوافذ قصر « ستورانواي » ـ حيث كنا نجلس ـ تطل على ـ جرين بارك ـ الذي انارته اضواء المدافع المضادة وانفجار القذائف المضادة ، وهيء لي اننا كنا نغامر بأرواحنا ، دون ما ضرورة او مبرر ٠ وبعد ان تناولنا العشاء انتقلنا الى عمارة شركة الصناعات الكيمائية الامبراطورية وهي تطل على الجسر ، وكان منظر النهر يأخذ بنفوسنا ونحن نطل عليه من الشرفات العالية ورأينا على الاقل عشر حرائق تشتعل في الجانب الجنوبي ، وبينما كنا نقف تساقط عدد من القنابل الثقيلة ، انفجرت احداها بالقرب مني فدفعني صديق الى وراء عمود حجري راسخ القواعد ، واكدت لي هذه الحادثة الفكرة التي خطرت ببالي وهي ان نكيف حياتنا مع الوضع الجديد ، وان نفرض على متع حياتنا كثيرا من القيود ٠

وسقطت القنابل مرات عديدة على مجموعة من الابنية الحكومية المحيطة بالبيت الابيض ، على ان دور الحكومة في « داوننج ستريت » قام ببنائها قبل مائتين وخمسين عاما المتعهد الاستغلالي الذي ما زال اسه محفورا على أسس ضعيفة واهنة ، وخلال أزمة ميونيخ اقيمت المخابيء لسكان رقمي (١٠ و١١) من هذا الشارع ، كما دعمت الاسقف بأعمدة جديدة قوية ، وانشئت سقوف اخرى داخلية ، وكان الظن ان هذه الاسقف الجديدة تستطيع ان تصمد فيما اذا نسفت الابنية أو انهارت ، لكنها لا تحتمل على اية حال الاصابة المباشرة ، وقد تم في الاسبوعين الاخيرين من أيلول نقل مقر رئاسة الوزارة الى مكاتب جديدة اكثر تحملا وصلابة ، مطلة على ميدان « سانت جيمس » وكنا ندعو هذه الابنية باسم (الملحق) وقد ظللت مع زوجتي خلال الايام الباقية من الحرب في هذا البناء ، ننعم بالهدوء والراحة ، وكنا نوقن ان هذه الابنية القوية المشيدة من الاسمنت في وسعها ان تصد الحديد والفولاذ وعلقت زوجتي عددا من صورنا في غرفة الاستقبال التي كنت اقترح عليها ان تظل بلا صور ، ولكنها نفذت فكرتها ، وتغلبت علي بالطبع ، وساعدتها الاحداث ، وكان منظر لندن رائع الجمال حين نراها من سطح (الملحق) على مقربة من القبة في الليالي الساجية ، وقد هيأوا لي مكانا على السطح ، فوقه سقف متين ، كي اتمكن في ضوء القمر من مراقبة الغارات الجوية ، وتحت هذا المكان اقيمت غرفة الحرب حيث زودت ببعض الاثاث الصالح للنوم ، وحيث لا تجد القنابل اليها منفذا ٠ وكانت القنابل في تلك الايام أصغر بالطبع من القنابل التي طالعتنا في المراحل الاخرى من الحرب ، وبالرغم من ذلك كانت حياتنا في داوندج ستريت في الفترة التي سبقت بناء هذا المسكن

الجديد مثيرة للغاية ، اذ كان كل منا يحس وكأنه قد دفع به الى مركز قيادة احدى الفرق في ميدان القتال ٠

ولست أنسى مساء يوم السابع عشر من تشرين الاول حيث كنا نتناول عشاءنا في غرفة الحديقة في داوننج ستريت رقم ١٠ عندما انطلقت الغـارة الليلية المألوفة ، وكان يشاركني العشاء ارشي سنكلير واوليفر ليتلتون ٠ وكانت النوافذ الفولاذية مغلقة ، وحدثت بعض الانفجارات المدوية بالقـرب منا ، وسقطت قنبلة على مكان استعراض حرس الفرسان ، وهو لا يبعد عنا باكثر من مائة ياردة ، وكان دويها هائلا ، وعلى حين غرة شعرت بهـاتف سماوي ٠٠٠ ينبهني الى الخطر الماثل ٠ فالمطبخ عال ومكشوف وبه نافذة زجاجية يبلغ طولها خمسة وعشرين مترا ، والساقي والفتاة يقدمان لنـا العشاء دون تأثر بدوي الانفجارات ، وخلف النافذة توجد السيدة لانذميـر الطباخة وسائر الخدم ان يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكاني بالمـائدة ، وأمرت الساقي ان يحمل العشاء الى غرفة المائدة مباشرة ، وطلبت الـى الطباخة وسائر الخدم ان يسرعوا الى المخبأ ، ثم عدت الى مكاني بالمائـدة ، فلم تمر ثلاث دقائق حتى فوجئنا بدوي هائل وأصوات دمار جد قريبة وشعرنا بهزة عنيفة مما يؤكد ان البيت نفسه قد أصيب وجاء مفتش المباحث الملحـق بخدمتي ليخبرني بفداحة الخسائر ، فقد اصيب المطبخ ، ومخزن التمويـن ومكاتب القسم المالي ٠٠٠

وذهنا الى المطبخ لنشاهد ما جرى ، فلم نر الا انقاضا ! فقد سقطـت القنبلة على بعد خمسين ياردة على القسم المالي ، فدمرت كل ما في المطبخ ، وتحول الى انقاض ، وتهشمت النافذة الزجاجية الكبيرة وتطايرت شظاياهـا في كل جوانب المطبخ ، ولو ظل به أحد الى ان حدث الانفجار لغدا اشـلاء مبعثرة ، ولا شك في ان الهاتف السعيد الذي خطر لي جاء في وقته المناسب ٠ اما مخبأ القسم المالي في الساحة فقد اصابته قذيفة مباشرة فتناثرت اجزاؤه ، واستشهد تحت انقاضه أربعة حراس كانوا يقومون ليلا بأعمال الحراسة ، وعلى أية حال فلم يكن في مقدورنا ان نحدد عدد المفقودين ، فقد دفن الجميع تحت ركام الانقاض ٠٠ ولما كانت الغارة متواصلة ، فقد لبسنا خوذنا وارتقينا الدرج الى سطح الملحق لنشاهد المنظر كاملا ، وقبل ذهابي لم أستطع مقاومة الرغبة في ان اغري الطباخة والخدم بالتوجه الى المطبخ ، وبالطبع اصيبـوا بالهلع من رؤية مكانهم وقد استحال الى ركام ٠ وصحبت ارشي الى سطـح الملحق ، وكان المساء ساكنا والجو صافيا ، وكانت لندن بكاملها تجاهنـا ،

ورايت معظم حي (بال مال) تاتي عليه النيران ، وعلى اية حال كانت ثمة خمس حرائق مضطرمة في الجانب المقابل من المدينة على طول النهر ، لكـن (بال مال) كان طعمة للنيران ··· ثم اخذت الغارة تنزاح غمتها شيئـا فشيئا الى أن دويت صفارة الامان ، وان ظلت الحرائق مشبوبة في المدينة ·· ونزلت الى مسكني الجديد في الطابق الاول من الملحق فوجدت الضابط دايفيد فارجسون ، رئيس مراقبي مجلس العموم ، والذي يقطن في نادي كارلتون ، وقد اخبرنا ان دار النادي قد تهدمت ، وكنا قد تخيلنا ذلك بأنفسنا بمجـرد ان شاهدنا اندلاع النيران ، وكان فارجسون في النادي عندما دوى الانفجار ، وحوالي مائتين وخمسين من الاعضاء والموظفين ، وقد احدث الانفجـار قذيفة ضخمة مباشرة ، اطاحت بواجهة المدخل من جهة شارع (بال مال) · وكان الاعضاء يزدحمون في قاعة التدخين ، فتهاوى السقف عليهم ، وعندما شاهدت الانقاض في اليوم التالي اخذتني الدهشة لان احدا من كانوا في القاعة لم يقتل ، وانما نجا الجميع رغم الانقاض والدخان وكانما حدثت معجـزة ، ولئن اصيب بعضهم بجروح الا انهم نجوا من الموت جميعا · وعندما سعيت بالحقائق مفصلة الى مجلس العموم ، قال زملاؤنا الوزراء من حزب العمال مازحين : « ان الشيطان لا يمس انصاره بسوء » · وقد انتشل المستر كانتان هوغ والده ، وهو وزير مالية سابق ، انتشله من بين الركام ، كما حمـل اينياس والده انخيزاس في حرب طروادة · ولم يجد فارجسون مسكنا يأوي اليه في تلك الليلة ، فاعددنا له سريرا في الطابق الارضي من الملحق ، لقـد كانت هذه الليلة بصورة عامة مثيرة للفزع ، وكان من الغريب حقا بالنظر الى اصابات المباني الا يزيد عدد القتلى عن خمسمائة شخص وعدد الجرحى عن الفين او ثلاثة الاف ·

ومضيت للمرة الثانية الى زيارة رامسغيت ، وشن علينا الهجوم فمضوا بي الى النفق الكبير الذي يقيم فيه عدد كبير من الناس بصفة مستمـرة ، وعندما غادرنا النفق بعد ربع ساعة تقريبا ، بدأنا نتأمل الخرائب التي ما زال يتصاعد الدخان من جوانبها ، وقد تهدم فندق صغير دون ان يصـاب احد من نزلائه بأذى على الرغم من تحوله الى تل من الركام والحجارة تتناثر خلالها قطع الاثاث المحطم ، وأدوات المطبخ ، وراعنا صاحب الفندق وزوجته والطباخون والخدم ، وهم يولولون حول فجيعتهم في مصدر رزقهم ومأوى حياتهم ··· وعندئذ قررت بكل مالي من نفوذ وأمكانيات ان أصدر أمـرا بالتعويض الفوري الكامل ، وعندما عدت بالقطار املیت على وزير الماليـة

كنغزلي وود الرسالة التي توضح هذا المبدأ الهام وهو ان كافة الخسائر التي تحدثها الغارات يجب ان تكون على مسؤولية الدولة ، وان الحكومة تلتـــزم بتعويضها حتى لا يقع عبؤها على كاهل الذي يصابون في بيوتهم او أعمالهم ، بل على كاهل الشعب كله تحقيقا للعدالة فقد أثار هذا القرار فزع كنغزلي وود بما ينطوي عليه من التزام لا نهائي . ولكني أكدت له ضرورة القيام بهـــذا الاجراء ، ولم يمض اسبوعان على ذلك حتى كانت وزارة المالية قد جهـزت مشروع التأمين الذي قدر له أن يقوم بدور فعال في حياتنا .. وقد واجهـت وزارة الخزينة مشاعر مضطربة ومقاومة ازاء هذا المشروع ، فقد ظنت في باديء الامر أنه سيستنزف الخزينة حتى الافلاس ، ولكن بعد أيار عام ١٩٤١ ، حيث توقفت الغارات الجوية أكثر من ثلاث سنين ، اخذت المكاسب تنهال على خزينة الوزارة بفضل هذا المشروع الذي اعتبرته أنا في حينه عملا من أعمال التوفير والبراعة السياسية ، وفي أواخر مراحل الحرب عندما اخذنا بغارات الصواريخ والقذائف الموجهة صعدت الارقام ثانية الى جانب الخســـارة وتكبدنا ما لا يقل عن ثمانماية وتسعين مليونا من الجنيهات في شؤون التعويض وبالرغم من كل ذلك فقد كنت غير مستاء لما يحدث .

***

وأصبح من المحتم في هذه الفترة الجديدة من الحرب ، ان نستفيد بغاية ما نستطيع من العمل ، ليس في المصانع فقط بل في الدوائر الحكومية بلنـدن كذلك ، بالنسبة لتعرضها لهجوم جوي مستمر ليل نهار ، فكان الموظفون في البداية عندما تدوي صفارات الانذار يسرعون الى الطوابق الارضية حيـث تستخدم كملاجيء للوقاية ، وكان يُثير زهونا ان تتم هذه العملية في هـدوء ونجاح ، وفي احوال كثيرة لم تكن الغارة تعني اكثر من هـجوم من بضـــع طائرات او حتى طائرة واحدة ، وطالما عوقت هذه الطائرات فلم تصـــل الى العاصمة ، وهكذا يتوقف العمل في جميع المصالح الحكومية الادارية والتنفيذية بسبب غارة صغيرة تافهة . لذلك فقد فكرت في ان يستخدم الانذار علـــى مرحلتين . مرحلة التنبيه المبدئي ومرحلة الخطر الفعلي الذي لا تنطلق صفاراته الا حين يحل الخطر ويصبح في حالة مداهمة فعلية ، فقبل اقتراحي ونسقت الخطة على أساسه .

وكان البرلمان أيضا في أشد الحاجة الى الارشاد بالنظر الى مواصلـة عمله في تلك الايام المليئة بالخطر ، وكان اعضاء المجلس يوقنون بان واجبهم

يحتم عليهم ان يكونوا مثلا للشعب . ولا شك في ان الحق كان بجانبهم في هذا اليقين ، ولكن كان علي ان أوجه انتباههم الى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر نظرا الى الاخطار المحدقة ، واستطعت اقناعهم في جلسة سرية بوجوب اتخاذ الاجراءات الوقائية الضرورية ، فاتفقوا على كتمان مواعيد الجلســات ، وايقاف النقاش حين تدوي صفارات الانذار ، وصاروا يخفون بنظام الــى المخابىء المفعمة والتي لم تكن معدة كما يجب ·

ولا شك في ان مواصلة البرلمان البريطاني اداء مهمته وتصريف الشؤون في تلك الاونة يعتبر صفحة مشرقة في تاريخه وذيوع شهرته ، والنواب عــادة أكثر الناس حساسية بالنسبة لمهامهم في هذه الظروف ، فكان من اليسير على أي انسان ان لا يحسن الحكم على حقيقة تصرفاتهم ، فعندما تنزل الاضرار بأحدى القاعات كانوا ينتقلون الى قاعة اخرى ، وكنت أواجه صعوبات جمع في اقناعهم بضرورة الاخذ بوسائل الحكمة والموعظة الحسنة لكــن جميع النواب في هذه الفترة قد نهجوا نهجا ينم عن التعقل ووزن الامور والحرص على الكرامة · ومن حسن الطالع ان الانفجار الذي حدث بعد عدة شهــور وأطاح بقاعة مجلس الشيوخ ، حدث ليلا حينما كانت القاعة خالية من أي انســان ·

ولقد أعطانا تفوقنا على الغارات النهارية احساسا بالراحة والهــدوء النفسي ، أما في خلال الشهور الاولى فقد سيطر علي الشعور بالقلق الــذي يتملع بحقوق السيادة ، والذي انتخب بطريقة عادلة ونزيهة وهي الاقتــراع العام ، وفي يده دائما القدرة على اسقاط الحكومة ، ولكنه الان في اقســى الظروف كان يدعمها ويسند مركزها ·· وهكذا كتب النصر لبرلماننا ·

واني لا أعتقد ان أي دكتاتور قد حاز من السلطات الفعلية في بلاده مثل تلك التي خولت لوزارة الحربية البريطانية ، وكنا عندما نعبر عما نريده يعطينا نواب الشعب تأييدهم فيطيع الناس رغباتنا بسعة افق وحرية ، وعلى الرغــم من ذلك لم نحاول مرة مصادرة الحريات وان ظل الناقدون بأنفسهم يرجحون المصلحة القومية على اي شيء اخر · واذا تحدانا النقاد رأينا المجلسيــن يصوتان ضدهم باغلبية ساحقة ، واذا ما قورن هذا بأساليب الدول الجماعية، بدا لنا ان برلماننا كان يخولنا هذه السلطة ضد الناقدين بلا أدنى اضطهــاد او كبت او ايحاء او استعمال للشرطة واجهزة الامن السرية ، ولا شك في ان هذا كان يثير زهونا واعتزازنا ، ويؤكد لنا ان الديمقراطية البرلمانية او على الاصح ما يحق ان نسميه السلوك البريطاني في الحياة العامة قد استطــاع

الصعود والانتصار والبقاء بالرغم من كل المحن القاسية ، ولم يستطع التهديد بالابادة وافناء اعضاء برلماننا ان يرهب احدا ، وكان من حسن الحظ ان هذا التهديد لم ينفذ ولم تحدث الابادة ٠

***

وحل منتصف شهر أيلول ، ففاجأنا العدو باستعمال نوع جديد ومدمر من وسائل الحرب علينا ، فقد بدأت الطائرات تلقي بقذائف تنفجر بعد مرور بعض الوقت مما وضعنا أمام مشكلة حساسة وغريبة ، وكثيرا ما سارت في وجوهنا مسافات شاسعة من السلك الحديدية ، فنخترق الطرقات الهامة ، والسبل الموصلة للمصانع الحيوية والمطارات والمؤسسات ، وحظر علينـــا دخولها في أوقات احتياجنا إليها ، اذ فرض علينا اولا ان نتعقب هذه القنابل لنفجرها او نتلفها ، وكانت هذه عملية خطيرة وخاصة في بداية الامر ، عندما اضطررنا الى ان نتعلم الوسائل والاساليب بواسطة عمليات من التجـــارب الموضحـــــة ٠

وقد تكلمت سابقا عن حكاية الالغام المغنطة ، اما هذه القذائف المتفجرة من تلقائها فقد أصبحت منتشرة ، وصارت مشكلة تحتاج الى التفكير ، وقد وجهت اهتمامي الى القنابل المؤقتة منذ عام ١٩١٨ عندما استعملها الالمـــان لاول مرة ضدنا بصورة شاملة ليرغمونا على عدم استخدام القطارات فـــي زحفنا على المانيا ، وكنت قد اقترحت ان نستخدمها في النروج وقناة كيـــل ومنطقة الراين ، ولا شك في ان هذا السلاح من اكثر اسلحة الحرب فعاليـــة بالنسبة الى ما يشيعه من التوجس والقلق والارتياب ٠ وهكذا دار الزمن لنذوق نحن طعم هذا السلاح ، فانشانا هيئة خاصة للتصرف في شانه ، وعهدنا الى مجموعات خاصة شكلت في كل مدينة وبلدة ومقاطعة لتتبعه ، وسارع المتطوعون يبذلون جهودهم لمكافحة هذه القنابل ، وتكونت فرق كان بعض منها حسن الحظ وكان للاخرى سوء المصير ٠ وقد استطاع رجال من هذه الفرق النجاة من العاقبة الوبيلة لهذا السلاح ، والعيش الى نهاية الحرب ، بينمـــا نجا البعض الاخر من التجربة العاشرة او العشرين او الثلاثين او الاربعين قبل ان يلقوا حتفهم ، وكنت حين اشاهد أعضاء هذه الفرق اينما ذهبت في رحلاتي وتجولاتي ، أرى وجوههم مغايرة تماما لكل الوجوه التي أعرفها او رايتها ، بالرغم مما يتحلون به من شجاعة وتفان وصبر ، فعلى هذه الوجوه تبدو واضحة ظلال الشحوب ، ومعالم الاجهاد ، وسماته الضخمة والجهـــد ،

فضلا عن بريق العيون وزرقة الوجوه وجفاف الشفاه ، فاذا ما تذكرنـــا الايام المضنية التي عشناها ، فيجب ان لا نستعمل كثيرا كلمة (أوقات كئيبة) اذ تكاد الكآبـــة كلها تخص أفراد هذه الفرق وحدهم ·

وواجب علي ان أسرد هنا ما حدث لاحدى هذه المجموعات كمثال لمـــا كانت تواجهه سائر المجموعات ، كانت هذه المجموعة تضم اللورد سافولــك وسكرتيرته وسائقه العجوز ، وكانوا يسمون أنفسهم « الثالوث المقـدس » وقد شاعت أخبار جرأتهم ، وذاع الكثير عن شجاعتهم ، وقد استطاعـوا ان يتخلصوا من أربع وثلاثين قنبلة لم تنفجر ، بروح طيبة مرحة ، لكن القنبلـة الخامسة والعشرين قد ثارت لزملائها ، فانفجر معها اللورد وثالوثـــــه المقدس ولكن الايمان يملأ نفوسنا بأن ارواحهم عرفت مستودعها الامين في دار الخلـود ···

وقد توصلنا بفضل كل فرد في هذه المجموعات ، وبالتضحيات النبيلـة التي بذلوها الى ان نتحكم في هذا الخطر الجديد ·

***

من الشاق علينا ان نعقد مقارنة بين الاختبار القاسي الذي مر به سكان لندن في شتاء عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ، وبين الاختبارات التي عاناها الالمان في سنوات الحرب الثلاث الاخيرة ، فقد غدت القنابل أشد هولا والغارات أكثـر قسوة ، ولكن من ناحية ثانية ـ كان الاعداد الطويل ، وما اشتهر عن الالمان من دقة قد ساعدهم على انشاء وحدات كاملة من الملاجيء المحصنة ضــد القنابل ، وكان يفرض على كل الماني الالتجاء عند قيام الغارات كعمل عادي رتيب ، وعندما اجتزنا المانيا في النهاية شاهدنا انها قد أصبحت بكاملهـــا خرائب وأطلالا ، ولكننا شاهدنا أيضا عمارات مشيدة ما تزال صامدة على الارض وملاجيء حصينة كان السكان ينامون فيها كل ليلة بالرغم من تساقط دورهم وخراب كل ما يملكونه على سطح الارض ، اما في لندن ، فعلى الرغم من ان الغارات كانت أقل قسوة ، الا ان وسائل التامين والوقاية كانت ابطـأ تطورا فاذا استثنينا الاقبية لم نجد عندنا اماكن للوقاية والتأمين · حقا لقد كان ثمة طوائف أرضية ، وطوابق تحت الارض تستطيع ان تجابه الضربات المباشرة ، ولكن عددها كان قليلا لدرجة ملحوظة وكانت الغالبية من سكـان لندن يمضون الليل في الخنادق الخاصة ببيوتهم تحت سيل من قذائف العدو ، مستمتعين بما اشتهر عن الانكليز من حبهم للاسترخاء بعد يوم من العمـل

المثمر الجاد ، ولم تكن ثمة أية وسائل للوقاية الا من شظايا القذائف لكن الانهيار النفسي لم يكن شيئا بجانب الاحتمال البدني ، وحقيقة لو كانت قذائف عام ١٩٤٣ قد اسقطت على لندن في عام ١٩٤٠ لانتهينا الى وضع قد دمر فيه كل تنظيم بشري ، ولكن لكل شيء وقته المعين ، ونسبه المحدودة ، ولا يملك انسان القول بان لندن التي لم تجرب الخضوع قط ، كانت محصنة ضد الاستسلام ·

ولم تكن الحكومة قد شيدت قبل الحرب او في الفترة السلبية الاولى التي مرت في مطلعها ، اية اماكن محصنة ضد القنابل ، تستطيع هيئتها المركزية ان تلجأ اليها لمواصلة الاعمال ، فقد درست خطط لتحويل العاصمة عن مدينة لندن ، وفعلا انتقلت فروع باكملها من جميع الوزارات والدوائر الى هاروغيت وشبلتيفهام وغيرها ، وإستولت السلطات على المساكن الكافية في مناطق شاسعة لسكنى جميع الوزراء وكبار الموظفين حين الانسحاب من لندن ، أما في هذه الاونة وطائرات العدو تواصل عدوانها فقد انعقد عزم الحكومة والبرلمان ورغبتها الاكيدة على البقاء في لندن دون مناقشة ، وكنت اشاركهما نفس هذه المشاعر ، وكنت مثل غيري يخيل لي ان الدمار سيكون عاما ، بحيث يصير الانتقال وتوزيع الاعمال أمرا محتما ، ولكن بالنسبة الى ما حدث بالفعل ، فقد امتلأ بعكس هذا الاحساس ، وظللنا في تلك الاشهر نعقد اجتماعاتنا الوزارية ليلا في غرفة الحرب في الطابق الاسفل · ولم اكن اتخيل مدى ما يتحمله المستر تشمبرلين من عناء هذا السير بالنظر الى العملية الجراحية التي اجريت له ، ولكن لم يستطع أي شيء ان يقعد به عن هذه الاجتماعات التي كان يتسم فيها بكثير من الهدوء البارد والتصميم الاكيد ، والتي كانت اخر ما شهده من اجتماعات ·

ونظرت ذات مساء في أواخر شهر ايلول عام ١٩٤٠ من باب داوننغ ستريت الذي يطل على الطريق ، فشاهدت العمال يقومون بوضع أكياس من الرمال تجاه النوافذ المنخفضة من بناء وزارة الخارجية المواجهة لنا ، وسألتهم عما يقومون به ، فقيل لي ان المستر نفيل تشمبرلين في أمس الحاجة الى العلاج من حين لاخر بعد العملية التي اجريت له ، وكان من غير الميسور ان يقوم بهذا العلاج في ملجأ داوننغ ستريت رقم ١١ لان عشرين شخصا على الاقل يتجمعون فيه أثناء قيام الغارات ، ولذلك فقد رؤي تهيئة ملجأ صغير خاص به وظل حريصا على عاداته اليومية ، لابسا خير ثيابه ، باديا غاية في الاناقة وانسجام الهندام · وكان هذا كله اكثر مما في طوقه ، ولذلك قررت

ان استخدم سلطاتي فذهبت الى الطريق الممتد بين رقمي ١٠ و١١ وحيـــن رأيت السيدة تشمبرلين قلت لها : « ينبغي الا يوجد هنا في هذه الظروف ، ويجب ان تبتعدي به حتى تعاوده الصحة وسأرسل اليه يوميا بالانباء » ٠ وذهبت السيدة للقاء زوجها ، وبعد ساعة ارسلت لي تقول « لقـد ابـــدى استعداده لتنفيذ مشيئتك ٠٠ سنرحل الليلة ٠ » ولم التق به ثانية ، ولكنني على يقين انه كان يرغب في الموت أثناء قيامه بواجبه ولكن القدر شاء غيـر ذلـك ٠

***

ونتيجة لوفاة المستر تشمبرلين حدثت بعض التغيرات الوزارية الهامة ، فقد اظهر المستر هربرت موريسون نشاطا ملموسا كوزير للتموين ، كما قابل السير جون اندرسن الهجمات على لندن بادارة في منتهى الصمود والكفاية ، وتبين لي في مطلع تشرين الاول ان الهجوم المتواصل على أعظم مدن العالم كان من القسوة والعنف بحيث خلف الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية لدى اهل المدينة الذين واجهوا أقسى الظروف ، مما يفرض علينا ان نعهد الى برلماني حازم صاحب خبرة وتجربة في شؤون وزارة الداخلية التي أصبحت في تلك الاونة وزارة الامن الداخلي كذلك ، فلندن هي التي تعاني قسوة الغارات ، وهربرت موريسون واحد من أهلها ، وهو ملم بكل جانب من جوانب ادارتها ، وكانت له خبرة لا تبارى في حكم مدينة لندن ٠ اذ كان رئيسا فيما سبق لمجلس مقاطعتها ، وكان الشخصية البارزة في كافة امورها وكنت في ذات الوقت في احتياج للسير جون اندرسن ليمثل الحكومة في مجلس الملك الخاص ، ليقوم كما يملي عليه منصبه الجديد بالاشراف على الكثير من الامور الداخلية في مجال أوسع باعتباره رئيسا للجنة الشؤون الداخلية التي يعهد اليها بالكثير من المشاكل تخفيفا لاعباء مجلس الوزراء ٠ وأتاحت لي هذه التغيرات التي خففت العبء عن كاهلي إن أحشد اهتمامي لتصريف شؤون الحرب ، التـي تبين لي ان زملائي يميلون الى توسيع مسؤولياتي بشانها وزيادة اختصاصاتي ولذلك فقد رغبت الى هذين الوزيرين اللامعين ان يحل كل منهما محل الاخر ، ولم يكن ما قدمته لهربرت موريسون طريقا مفروشا بالورود وليس في مقدور هذه الصفحات بحال ما ان توضح المصاعب الجمة في ادارة لندن وحكومتها في ذلك الوقت الذي كان يضحي فيه عشرة الاف مواطن أو عشرون الفا كل ليلة بدون مأوى نتيجة للهجوم الجوي المستمر ، عندما كان حذر السكان وحرصهم

وحده بمثابة حرس اولي يقاوم حدوث الحرائق على أسطح المنازل التي قد يتعذر القضاء عليها ، وعندما اكتظت المستشفيات بمشوهي القنابل من الرجال والنساء ، وعندما ظل مئات الالاف من البشر المنهكين يكدسون كل ليلة في هذه الخنادق التي تحتاج الى الامان والوسائل الصحية ، وعندما كانت طرق المواصلات بالقاطرات وغيرها تغلق باستمرار ، وعندما كانت المجاري والقوة الكهربائية والغاز تدمر تدميرا ، وعندما يجب ان تظل ــ بصرف النظر عن ذلك ــ روح لندن المناضلة صامدة عالية . وان يتيسر نقل حوالي مليون مواطن في كل يوم ليلا ونهارا من مساكنهم الى المصانع وبالعكس ، كان يجب علينا كل هذا ، ولم يكن في مقدورنا ان نعرف مدى هذه المحنة ومتى تنتهي ، ولم يكن لدينا ما يشير الى انها لن تستمر او لن تزداد سوءا ۰ وعندما حدثت المستر موريسون عن رغبتي بالنسبة للمهمة الجديدة كان يدرك جيدا ما ينطوي عليه هذا العرض من خطورة ومشاكل ، فاستمهلني بضع ساعات ليفكر ، ولم يلبث ان جاءني قائلا انه سيكون فخورا بالقيام بكل هذه المهمات ، وهزني اعجابا به هذا القرار الذي يدل على كل صفات الرجولة ۰

وبعد ان تمت هذه التعديلات الوزارية ادى تغيير العدو لوسائله الى ان تتأثر سياستنا العامة ، فقد كانت الغارات حتى الان تستخدم القنابل الشديدة الانفجار ، لكن في ليلة ١٥ تشرين الاول وكان القمر بدرا ، نزلت بنا اقسى غارات جوية في ذلك الشهر ، واسقطت الطائرات الالمانية فضلا عن حمولتها المعروفة من القذائف المتفجرة حوالي سبعين الف قذيفة حارقة وكنا حتى هذه الاثناء نبث الشجاعة في سكان العاصمة ونحثهم على اللجوء للخنادق وقت حدوث الهجوم ، وكنا نفتش عن كل وسيلة ممكنة لتأمين وقايتهم ۰ ولكن بعد هذه الليلة اضطررنا ان نطلب اليهم الصعود الى سطوح المساكن بدلا من اللجوء الى الخنادق اثناء الهجوم ۰ وكان على وزير الداخلية الجديد ان ينفذ هذه السياسة ، فاعد على الفور تشكيلا هائلا لمراقبي الحرائق ، ومقاومتها على مدى واسع يكفي مدينة لندن بكاملها ، فضلا عن اجراءات اخرى اتخذت من المدن الاقليمية في اقصر مدة ممكنة ۰ وكانت مراقبة الحرائق عملا اختياريا في اول الامر ، ولكن اشتداد الحاجة لمزيد من الافراد والاحساس بحتمية قيام كل انسان بواجبه في مثل هذه المحنة القاسية ليشارك في الامها ، فرض علينا ان نلزم المواطنين بالمشاركة في اعمال المكافحة ، وقد ادى ذلك الى مزيد من نشاط كافة المواطنين على جميع الوانهم ومستوياتهم ۰ وصممت النساء على المساهمة بقدر حيوي في هذه الخدمة واتخذت التدبيرات على

نطاق واسع للقيام بتدريبات عامة ، ولتعويد مراقبي الحرائق مكافحـــة كل أنواع القذائف المحرقة التي يسقطها الاعداء وقد تفوق الكثيرون في اداء هذه الخدمة حتى استطاعوا ان يخمدوا الوف الحرائق قبل شبوبها ، وسرعان ما صارت تجربة الصعود الى أسطح المنازل ليلة اثر اخرى تحت وطاة النيـران المشتعلة ودون ادنى اجراء وقائي اخر سوى الخوذة النحاسية امرا مالوفا ٠

ورأى المستر موريسون ان يجمع الفرق المحلية للاطفاء التي يبلغ عددها حوالي الف واربعمائة فرقة في تشكيل قومي موحد لمقاومة الحرائق ، وان يزود هذا التنظيم بحرس شعبي كبير للحرائق من المدنيين المدربين المتطوعين للعمل في أوقات فراغهم ، وكان حرس الحرائق أول الامر يتالف من المتطوعين أيضا ٠ ولكن ما لبث ان تقرر بالاجماع تحويله الى خدمة الزامية ، وقـــد استطعنا بواسطة الجهاز القومي لمكافحة الحرائق من استخدام النقل الالي ، وأحدث الاجهزة وأدق التدريبات في أعمال رسمية تشرف عليها مجموعة مـن العسكريين ٠ أما أسلحة الدفاع المدني الاخرى فقد كانت تضمن وجـــود مجموعات على استعداد للتوجيه الى أي مكان في خلال دقيقة واحدة ، وقد اكتفي باسم سلاح الدفاع المدني عن الاسم القديم الذي عرف قبل الحـرب بقوات الاحتياط من الغارات الجوية وزود رجال السلاح الجديد بمـــلابس عسكرية خاصة تبث الشعور في نفوسهم بانهم يؤلفون السلاح الرابع من قوات التاج المسلحـــة ٠

وقد اغتبطت لان لندن قد صمدت امام الموجات المتتالية من الغـارات الجوية على مدننا ٠ ان لندن تشبه فيما أرى حيوانا هائلا من حيوانات مـا قبل التاريخ في وسعها ان تتحمل الاذى المخيف ، ثم تظل رغم جراحها النازفة عتبة الصمود تموج بالحياة والحركة ٠ وقد كثرت خنادق أندرسن في احياء الطبقات العاملة المكونة من بيوت ذات طابقين ٠ وقد بذلنا كل ما في وسعنـا لتكون هذه الخنادق صالحة للاقامة والحياة ، مع الحرص على تخفيفها من الرطوبة أثناء الامطار ٠

***

وللمرة الاولى منذ حوالي شهرين لم تدو في الجو صفارة الانذار ليلة الثالث من تشرين الثاني في لندن ، فاستغرب الكثيرون جو الهدوء السائـد وبدأوا يتساءلون ما الخبر ؟ وفي الليلة التالية شنت الغارات على نطاق واسع حتى عمت اكثر الجزر البريطانية ، وظل هذا بصفة مستمرة الى بعض الوقت

واتضح ان الالمان قد جددوا وسائلهم الهجومية ، وبالرغم من ان لندن استمرت كهدف أساسي الا ان جهودا ملحوظة كانت تبذل لتشل العمل في المراكز الصناعية البريطانية • وقد ارسل العدو اسرابا جديدة مدربة على ابتكارات جديدة في الملاحة الجوية لتهاجم مراكز حساسة في الجزيرة ، فمثلا تمرنت فرقة خاصة من الطائرات الالمانية على تحطيم مصانع الات الطائرات « رولز رويس » في (« هلينجتون » قرب غلاسكو ، ولا شك في ان هذه الخطة الجديدة لم تكن تعني مجرد التغيير ، فقد قرر العدو تأجيل غزو بريطانيا الى حين ، ولم يكن قد انتهى من تدبير هجومه على روسيا بعد ، كما لم يفكر فيه احد غير هتلر والمقربين اليه • وهكذا كانت أشهر الشتاء الباقية مجرد فترة تمرينات بالنسبة لسلاح الجو الالماني على التكتيكات الجديدة في الهجوم الليلي والاغارة على التجارة البحرية في بريطانيا • أما الغاية من ذلك فهي تدمير انتاجنا العسكري • وكان أجدى للالمان لو ظلوا على هجومهم في ناحية واحدة حتى اخر الشوط فربما وصلوا الى نتيجة حاسمة ، ولكن الحيرة والتردد كانا طابعهم في ذلك الوقت لان ثقتهم بأنفسهم كانت غير كاملة •

وبدأت هذه الوسائل الجديدة في الهجوم بغارة جوية عارمة على كوفنتري ليلة الرابع عشر من تشرين الثاني ، وقد اتضح لغورنغ ان مدينة لندن شاسعة الابعاد الى الدرجة التي لا تتيح له نتائج فاصلة ، بينما كان في مقدوره ان يزيل من الوجود مدن الاقاليم ومراكز انتاج الذخيرة ، وقد بدأ الهجوم في الساعات الاولى من الليل وتواصل حتى الفجر واشترك فيه حوالي خمسمائة طائرة المانية اسقطت حوالي ستماية طن من القذائف الشديدة الانفجار عدا الوف القنابل المحرقة • وكانت تلك الغارة اقسى ما دهمنا من غارات ثقيلة مدمرة بصورة عامة ، فقد تحطم قلب كوفنتري ، واصيبت الحياة بالشلل التام في المدينة ، وقد قتل حوالي اربعمائة شخص كما اصيب بجراح عدد أضخم من هذا بكثير • وأذاعت المانيا ان جميع مدننا ستلقى نفس المصير ، ومع هذا فلم يعطل العمل بمصانع الطائرات او قطع الماكينات الاخرى ، كما لم تمت حركة أهل المدينة بالرغم من عدم مجابهتهم قبل ذلك لمثل هذه الغارات• ولم يمر اسبوع حتى كانت لجنة تجديد الابنية قد قامت بأعمال رائعة تيسر عودة الحياة الى طبيعتها في المدينة •

وشن العدو ليلة ١٥ تشرين الثاني هجوما اخرا على لندن استخدم فيه عددا ضخما من الطائرات في ضوء القمر الساطع فاصيبت العاصمة بكثير من الخسائر وخاصة في كنائسها ونصبها التذكارية ، وكانت بيرمنجهام هدف

العدو الثالث ، فشن عليها هجومه لثلاث ليال متتابعة بين ١٩ و٢٢ تشرين الثاني فاصيبت المدينة بخسائر فادحة في الارواح والممتلكات ، ووصل عـدد القتلى الى حوالي ثمانماية والجرحى اكثر من الفين ، ولكن روح بيرمنجهام وحياتها قاومتا المحنة ، وارتفع الليون من اهلها بتنظيمهم ووعيهم وفهمهـم الى اعلى مما نزل بهم من الام • وتحولت وجهة الغارات في اخر اسبوع من الشهر نفسه ومطلع شهر كانـون الاول الى الموانـيء فتعرضت برستول وساوثها مبتون وليفربول لهجمات قاسية ، ومرت بلايموث وشفيلد ومانشستر وليدز وجلاسكو بالمحنة ذاتها بشجاعة نادرة ولم يعد يعنينا ان يوجه العدو ضربته فان الشعب كله واجهها بايمان وصبر وعزيمة •

وبلغت الغارات ذروتها مرة ثانية حين شن العدو هجومه على مدينـة لندن يوم الاحد في ٢٩ كانون الاول ، فقد جمع الالمان فيها كل ما حصلوه من خبرات ، فكان الهجوم مفعما بالقذائف المحرقة التي ركزت قسوة نيرانها على حي « السيتي » • وكانت هذه الغارة مدبرة لتقع حين ينحسر الماء عن النهر بسبب الجزر ، فتهدمت سدود المياه في بداية الامر بسبب الغام شديدة الانفجار اسقطتها المظلات ، وكان الضرر الذي اصيبت به محطات السكة الحديديـة والارصفة فادحا ، وهدمت ثماني كنائس وشبت الحرائق في « غيلدهول » وفي كاتدرائية القديس بولس ، ولم تنج من الدمار الا بجهود خارقة تفوق حـد الوصف ، واخذنا نرى الخراب يجتاح العالم البريطاني ، ولكن عندما زار الملك والملكة هذه الاماكن المصابة قوبلا بحماس بالغ اشد مما كانا يقابلان به في اية زيارات اخرى •

وظل الملك صامدا في غضون هذه الاشهر الطويلة من التجربة القاسية والتي لم تنته بعد في قصر باكنجهام ، وقد شيدنا خنادق ملائمة في الطابـق الاسفل من القصر ، ولكن اعمال البناء استلزمت الكثير من الوقت ، وكثيرا ما حضر الملك خلال اشتداد الغارة من قصر باكنغهام • وقد انقذ جلالتـه والملكة باعجوبة من الموت ذات مرة • ففي حديقة القصر انشيء ميدان خاص للرماية ، كان جلالته وغيره من افراد الاسرة المالكة ، وكبار رجال الحاشية يتدربون على الرماية فيه بالمسدسات ومدافع التومي ، وقد قدمت للملك غدارة اميركية قصيرة المدى ، كانت واحدة من مجموعة وصلتني وكان سلاحـا قيمـا •

وبدل الملك في تلك الاثناء موعد لقائي الرسمي بجلالته من الساعـة الخامسة مساء كل يوم ثلاثاء كما جرت عادته في خلال الشهرين الاولين منذ

توليت الحكم ، الى ان اتناول الغذاء معه في نفس اليوم من كل اسبوع • وكنت في هذه الزيارات التي قد تحضرها الملكة ، اعرض على جلالته شؤون الحكم ، وكثيرا ما اضطررنا الى حمل صحاف الطعام واقداح الشراب الى الخندق الذي كان لا يزال في حالة الاعداد فنستكمل طعامنا فيه ، واصبحت هذه الزيارات الاسبوعية عادة رتيبة ، وبعد مرور الاشهر الاولى ، امر جلالته ان يبعد الخدم جميعا من هذه الاجتماعات وان نمارس نحن خدمة انفسنا بانفسنا ، وقد تكشف لي خلال السنوات الاربع والنصف التالية من الحرب ان جلالته كان يطلع بكثير من الاهتمام على جميع البرقيات والوثائق الرسمية التي اقدمها اليه ، ويقرر العرف الدستوري البريطاني ان من حق الملك ان يطلع على كل شيء يقع تحت اختصاصات وزرائه ، وان يقدم المشورة الى حكومته بدون قيد ولا شرط ، وكنت حريصا جدا على ان اطلعه على كل شيء، وكثيرا ما بدا لي خلال اجتماعاتنا الرسمية الاسبوعية انه قد قام بدراسة كافة الوثائق التي لم اكن قد درست بعضها بعد ، وانني لاقول ان من حسن الطالع لبريطانيا انه كان على عرشها في مثل هذه السنوات المصيرية ملكان خيران كملكنا ومليكتنا ، واني كواحد من الذين يؤمنون بالملكية الدستورية ، نظرت ببالغ التقدير الى الشرف الذي اسبغه علي صاحب الجلالة بهذه الصلات التي وثق عراها معي كوزيره الاول ، وانني لا أرى لذلك نظيرا في تاريخنا الا في ايام الملكة آن ورئيس حكومتها مارلبورو •

وهكذا ابلغ بنا العام الى نهايته ••• ، وأن كنت قد استطردت ـ راغبا ـ بعيدا عن شؤون القتال الخاصة ، وسيرى القارىء ان كل هذا الدوي وتلك الزعازع لم تكن الا رفيقا على الطريق يسير مع اجراءاتنا الهادئة التي حرصنا عليها في ادارة جهودنا الحربية ، وتوحيد سياستنا ودبلوماسيتنا ، وعلي ان اقر هنا ان هذه الخسائر التي منينا بها والتي لم تكن مميتة ، كانت في اعتبارنا نحن المقيمين في قمة الموقف دافعا فعالا للتعبير عن ارائنا ، وتوطيد زمالة بارة بيننا وتدعيم اسس اعمالنا الجوهرية الواعية، وربما يكون من غير الحكمة على كل حال ان افترض بان الغارات التي شنت علينا لو تزايدت الى عشرة او عشرين ضعفا او حتى بنسبة ضعفين او ثلاثة فان هذه الانطباعات السلمية التي فصلتها ، كانت ستوجد بصورة مؤكدة ، وعلى النحو الذي اوضحت •

الفصل العاشر

الاعارة والتأجير

اطل علينا فجر جديد ، وصليل الاسلحة يملأ الجو ، لكن مصدره هذه المرة كان مختلفا عما سبق • فقد دارت الانتخابات الاميركية للرئاسة في الخامس من تشرين الثاني ، وبالرغم مما تتسم به من حيوية وصلابة تتميز بها هذه المصارعة الحادة التي تحدث مرة كل اربع سنوات ، وعلى الرغم من الخلافات التي تثار حول الشؤون الداخلية بين الحزبين الرئيسيين ، الا ان كبار الزعماء في كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري كانوا يجمعون على تقدير قضيتنا العظمى والاهتمام بها ، فأعلن المستر روزفلت في ٢ تشرين الثاني بمدينة كليفلاند ان سياسته تؤمن ببذل كل مساعدة فعالة للشعوب التي ما زالت تكافح العدوان عبر المحيطين الاطلنطي والهادي • كما صرح منافسة المستر ويندل ويلكي في نفس اليوم في خطاب القاه بحديقة ماديسون بانهم جميعا جمهوريين وديمقراطيين ومستقلين مصممون على مؤازرة المقاومة البريطانية الباسلة وانهم يتعهدون للشعب البريطاني بأن يستخدم متى شاء ثمار صناعتهم • ولا شك في ان هذا الشعور الوطني النبيل كان الطريق المخلص لحياة الولايات المتحدة وحياتنا نحن أيضا •

ومع ذلك فقد كنت أحس بالقلق العظيم ، وانا أترقب النتيجة ، فليس في مقدور كل من يتولى الرئاسة ، ان يكون مسلحا بالخبرة والمعرفة كما يتمتع بها فرانكلين روزفلت ، وليس في مقدور أي شخص سواه ان يحوز نفس المواهب والكفايات ، وكنت قد وثقت علاقتي الشخصية به ، وحافظت على تنميتها ورايت انها قد بلغت أسمى مراتب الثقة والصداقة الى الدرجة التي

أصبحت بها ذات أهمية في تفكيري ، وكنت لهذا أحس بالقلق ازاء كل ما يهدد هذه الزمالة ، وقد تم توطيدها بعناية وعلى مهل ، وانفر من فكرة قطع هذا الاتصال في أحاديثنا ومباحثاتنا لابدأ من جديد مع شخص اخر صاحب عقلية وشخصية مختلفتين ، ولم أحس منذ أيام بمثل ما أحس به الان من قلق ، ولذلك فقد كانت غبطتي عظيمة عندما علمت ان الرئيس روزفلت قد أعيد انتخابه ٠

***

وكنا حتى تلك الساعة نلجأ فيما نحتاجه من الذخيرة للمصانع الاميركية بحرية وحيوية ، وان كان ذلك يتم بعد التفاوض معها ٠

وادت زيادة رغباتنا وتعدد مطالبنا الى التناقض أحيانا ، مزاحمة الرغبات الامريكية ذاتها ، مما كان ينذر بحدوث اصطدام على المستويات الخفيضة بالرغم من توافر حسن النية لدى الطرفين ٠ وكتب المستر ستيتينيوس يقول :

« ان في امكان سياسة موحدة من أجل تحقيق غايات المقاومة ان تؤدي أغراض هذه المهمة التي تواجهنا الان » ٠ ومعنى هذا ان لحكومة أميركا ان توصي وحدها بصنع الاسلحة التي نحتاجها من اميركا ٠ وخرج الرئيس روزفلت بعد توليه الرئاسة بثلاثة أيام بنظرية جديدة تقرر الافضلية في توزيع انتاج الاسلحة الاميركية ، على ان يكون خمسون في المائة من انتاج أميركا للاسلحة مخصصا لاحتياجات أميركا الدفاعية ، وخمسون في المائة للقوات البريطانية والكندية ٠ وأصدر مجلس الافضلية الاميركي في نفس اليوم موافقته على رغبة بريطانيا في اعداد اثني عشر الف طائرة في الولايات المتحدة فضلا عن رغبتنا السابقة في احد عشر ألف طائرة اخرى ، ولكن من أين نأتي بالاموال الضرورية لنغطي ثمن الاسلحة التي نحتاجها من المصانع الاميركية ؟

وأمضى اللورد لوثيان في اواسط تشرين الثاني يومين في ديتشلي معي ، وكان قد ركب الطائرة من مقر عمله في واشنطن الى الوطن ، وكنت قد استمعت الى نصيحة بان لا أمضي في تشيكرز جميع نهايات الاسابيع ، خصوصا عندما يكون القمر بدرا ، خشية ان يعطف علي العدو بلطفه الخاص ، وكان السيد رونالد تري وزوجته قد استقبلاني أحسن استقبال ، انا وموظفي ، في بيتهما الكبير الجميل الذي يقع على مقربة من اوكسفورد ولا تزيد المسافة

على أربعة أو خمسة أميال بين ديتشلي ويلنهايم ، وهكذا التقيت بسفيرنا في واشنطن في هذا الجو الامن ، وكان يعرف شتى جوانب الموقف الاميركي ولم يكن قد حصل على شيء سوى النية والثقة من واشنطن ، وكان قد اتصل منذ قليل بالرئيس الذي توثقت بينهما أطيب العلاقات ، وكان فكره مشغولا بمسألة الدولار ، وهي مسألة كئيبة بلا شك ٠

فعندما خاضت بريطانيا غمار الحرب ، كان في حوزتها حوالي ٤٥٠٠ مليون دولار أما على صورة دولار بالفعل ، او ذهب او استثمارات أميركية من المستطاع ان تتحول الى دولارات ، وكانت الوسيلة الوحيدة المستطاعة لتزيد هذه الموجودات ، هي التوسع في استخراج الذهب في الامبراطورية البريطانية وخاصة في جنوب أفريقيا ٠ وبذل كافة السبل لزيادة الصادرات الى أميركا وخاصة الكماليات كالويسكي والمنسوجات الصوفية الرائعة والخزف ٠ وقد استطعنا بهذه الوسيلة زيادة حصيلتنا بحوالي الفي مليون دولار في خلال ستة عشر شهرا منذ بداية الحرب ، وكنا في السابق تتجاذبنا الحيرة بين حاجة ملحة الى العتاد من أميركا ، وبين فزعنا من نقصان دولاراتنا الموجودة لدى أميركا ، وكان السير جون سيمون وزير المالية في حكومة المستر تشمبرلين يتحدث كثيرا عن المصير المؤسف لارصدتنا الدولارية ، ويوجه انظارنا الى ضرورة الحرص عليها ، وكنا على أية حال متفقين على ضرورة الحد من مشترياتنا الاميركية بقدر المستطاع ، وكنا نبدو كما قال مرة المستر بوفيز ، رئيس لجنة المشتريات للمستر ستيتينوس « وكأننا نحيا في جزيرة منقطعة بكمية محدودة من الطعام الذي نحاول الابقاء عليه اطول مدة ممكنة » ٠

وكان يقصد بهذا اعداد ترتيبات واسعة المدى لزيادة أموالنا ، وكنا قبل الحرب نمارس حريتنا في الاستيراد ، وندفع بالعملة التي نريد ، وعندما قامت الحرب اضطررنا ان نوجد هيئة لتعبئة الرصيد الخاص من الذهب والدولار والنقد الاجنبي ، وان نقف دون تحقيق رغبات ذوي النوايا المنحرفة في تحويل رأسمالهم الى البلاد التي يحسبون انها اكثر أمنا من بلادهم ، وان نقلل من قيمة الواردات غير الضرورية وغير ذلك من وسائل الانفاق الاخرى ، وفضلا عن عزمنا على الابقاء على اموالنا ، كان علينا ان نضمن استمرار الاخرين في قبول عملتنا ، وكانت بلاد الكتلة الاسترلينية معنا ، فهي تحتم سياسة الاشراف ذاتها على النقد التي تحتمها ، وهي تريد التعامل الدائم بالاسترليني، وقمنا بأبرام عقود خاصة مع الاخرين تلزم بأن ندفع لهم بالاسترليني الذي يقدرون على التعامل به في أي مكان داخل حدود الكتلة الاسترلينية ، كما

ضمنوا الابقاء على فائض الاسترليني لديهم ، وان يحرصوا في مبادلاتهم على هذه الشروط مع السويد والارجنتين ، ثم ما لبثت ان اتسع نطاقها فشملت بلادا اخرى في القارة وفي جنوب أميركا · وقد تم تنسيق هذه الخطة بعد ربيع عام ١٩٤٠ ، ولا شك في ان مما هو جدير بالثناء وباطراء الاسترليني نفسه اننا استطعنا الابقاء عليه في مثل هذه الظروف القاسية ، وقد قدرنا بهذه الوسيلة على الاستمرار في معاملاتنا التجارية مع غالبية البلاد في العالم بالاسترليني ، وأن نبقي على ما لدينا من دولار وذهب ثمين لمعاملاتنا الحيوية مع أميركا ·

وعندما أصبحت الحرب واقعا مرعبا في أيار ١٩٤٠ ، أدركنا على الفور اننا نشهد ميلاد حياة جديدة للعلاقات الانكليزية الاميركية ، فمنذ ان توليت تاليف الوزارة ، وعهد الى السير كنغزلي بوزارة المالية ، بدأنا نسير في طرق أكثر يسرا ، وهي ان توصي باحتياجاتنا ورغباتنا بغض النظر عن المصاعب المالية المقبلة ، تاركين للآلهة الخالدة ان تتولاها بعنايتها ، ولقد كان من الزيف في شؤون الاقتصاد ومن الخداع بالنظر للروية والعقل ان نترك الفرصة للقلق ونحن نواجه معركة حياة او موت ، منفردين ، لا نصير لنا ولا معين ونقع تحت وطأة هجوم جوي مستمر ، ونتعرض لاهوال غزو يذيقنا من ويلاته، ان نترك الفرصة للقلق يستولي علينا من جراء نفاد ارصدتنا الدولارية لدى أميركا · وكنا قد شعرنا بالتحول الكبير في الرأي العام الاميركي وشعرنا بالادراك الجديد الذي سرى لا في واشنطن وحدها بل في جميع ارجاء الولايات المتحدة ، بأن مصير أميركا وثيق الصلة بمصيرنا نحن ، وفضلا عن هذا فقد سرى تيار من العطف والاعجاب ببريطانيا بين صفوف الشعب الاميركي ووصلتنا برقيات مودة من واشنطن مباشرة ، وعن طريق كندا ، لسنا في غضونها التشجيع والمؤازرة ، والاحساس بأن شيئا ما في الافق سيتحقق عن قريب · ولقيت قضية الحلفاء في المستر مورغنتا ووزير الخزانة الاميركية نصيرها وحاميها الذي لا يكل من الذود عنها ، وبسبب ورود الطلبات الفرنسية الينا في شهر حزيران تضاعف معدل انفاقنا في النقد الاجنبي · زيادة على ذلك اننا رغبنا من جديد في صنع طائرات ودبابات وسفن تجارية من مختلف الانواع ، وحثثنا على انشاء مصانع ضخمة جديدة في أميركا وكندا ·

والى شهر تشرين الثاني قد قمنا بدفع الثمن لكل ما وصلنا من أميركا وكنا قد بعنا ما قيمته (٣٣٥) مليون دولار من السندات والاسهم الاميركية التي قمنا بمصادرتها من ذويها في لندن مقابل الدفع بالاسترليني ، وكنا قد

قمنا أيضا بدفع ما يزيد على (٤٥٠٠) مليون دولار نقدا ، وأصبح كل ما لدينا الفي مليون معظمها في صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفوري في الاسواق ، وظهر أن ليس في وسعنا ان نسير على هذا المنوال ، لاننا انفقنا كل ما في حوزتنا من الذهب والنقد الاجنبي فلن نستطيع ان ندفع الثمن لنصف احتياجاتنا من المصانع الامريكية ، فكيف يكون الامر والحقيقة ان امتداد زمن الحرب وشمولها يضطرنا الى أن نحتاج من المصانع الاميركية عشرة أضعاف ما احتجنا اليه الان • وعلينا فضلا عن كل هذا ان نبقي على شيء في أيدينا لنواجه به مطالبنا اليومية المتجددة •

وكان لوثيان واثقا من أن الرئيس ومستشاريه يفكرون جديا في خير الوسائل لمعاونتنا ، أما وقد انتهت المعركة الانتخابية ، فقد دقت ساعة العمل ، وكانت المباحثات دائمة في واشنطن بين ممثل لوزارة حربيتنا هناك السير فريد ريك فيلبس ـ وبين المستر مورغنتاو ، ورغب الى سفيرنا في ان احرر رسالة مفصلة للرئيس توضح كل أوضاعنا ، وهكذا كتبت بالمشاورة معه في ذلك اليوم ، الاحد في ديتشلي ، رسالة خاصة الى الرئيس روزفلت ، ولما كان ينبغي عرض هذه الرسالة على رؤساء أركان الحرب ، ووزارة الخزانة لدراستها ، ثم توافق عليها وزارة الحرب فانها لم تكن معدة للارسال قبل رجوع لوثيان الى واشنطن • وتمت الرسالة في صورتها الاخيرة ، ثم ارسلت بتاريخ ٨ كانون الاول الى المستر روزفلت فورا ، فانتهت ـ وهي من أهم ما احرزته في حياتي ـ الى صديقنا العظيم وهو يمخر عباب البحر الكاريبي على ظهر البارجة الاميركية « توسكالوزا » مع اصدقائه وخاصته ، وابلغني هاري هوبكنز ، بعد ذلك وكنت لم أتعرف به بعد ان الرئيس قرأ الرسالة مرارا على ظهر البارجة وهو جالس على مقعده ، وانه امضى يومين في دراستها ، الى أن وضحت أمامه مراميها • لقد ظل في أحضان تفكير عميق ، يتمتم لنفسه في صمت •

ونتج عن كل هذا قرار عظيم ، فالقضية لم تكن عدم معرفة من الرئيس لحقيقة ما نريد ، وانما كانت في أي الوسائل يجب ان يسلكها لتؤمن بلاده بالمسير معنا ، وليقتنع الكونجرس بضرورة ما يرى • ويقول ستيتينروس ان الرئيس كان في اخريات الصيف الماضي قد رأى في احدى جلسات لجنة الدفاع الاستشارية في موضوع الموارد اللاحية ان ليس من المحتم ان يبذل البريطانيون أموالهم • وليس من المحتم أيضا ان يستدينوا منا لهذا الغرض ، ولكن ـ مع انه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ كل ذلك ـ في مقدورنا أن نأخذ

الباخرة التي تم صنعها ، وان نؤجرها لهم اثناء استخدامهم لها ٠

ويظهر انه كان هناك قانون صدر في عام ١٨٩٢ ، يدع لوزير الحربية حرية تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى في ذلك مصلحة عامة بشرط الا يكون الجيش في احتياج اليها مدة خمس سنوات ٠ وكانت هناك حالات طبق الجيش فيها هذا القانون ، وأجر بعض ممتلكاته من حين لاخر ٠

وهكذا انبثقت فكرة « التأجير » في ذهن الرئيس روزفلت لتلبية احتياجات بريطانيا . بدلا من تقديم قروض غير محدودة ، ربما قد يؤدي ذلك الى درجة يصعب معها الدفع والتسديد ، وسرعان ما انتقلنا من المجال النظري الى المجال العملي . وظهرت في هذا الزمن الذي اعلن فورا وهو الاعارة والتأجير ٠

وعاد الرئيس من رحلته في البحر الكاريبي في ١٦ كانون الاول بمشروعه العميق في مؤتمر صحفي عقد في اليوم التالي ، وقد أوضحه في بساطة عندما قال : « لنفرض ان منزل جاري قد شب فيه حريق ، وكنت املك في حديقتي خرطوما طويلا يبلغ اربعمائة قدم او خمسمائة ، وكان في استطاعة جاري اذا منحته خرطومي ان يوصله بصنبور مياهه ويتغلب على النار المشبوبة ، فماذا ترون واجبي في ذلك الحين ؟ انني لن اخاطبه قائلا في مثل هذه الظروف: اسمع يا جاري ، لقد كلفني هذا الخرطوم خمسة عشر دولارا وعليك ان تدفع ثمنه اولا ٠٠ كلا ٠٠ انني لن افعل ذلك ، وانما سأقول له ٠٠ انا لا اريد الخمسة عشر دولارا ولكنني اريد خرطومي بعد ان تخمد الحريق ٠٠ واستطرد قائلا : « لا ريب عند أي أميركي يرى ان أفضل سبل الدفاع العاجل عن أميركا ، هي ان تنتصر بريطانيا في الدفاع عن نفسها ، ولذلك ـ فضلا عن مصلحتنا التاريخية والحاضرة في المحافظة على الديمقراطية كشيء جوهري ـ فان في غاية الاهمية ـ من الناحية الذاتية ايضا ـ وبالنسبة للدفاع الاميركي ان نبذل كل ما نستطيع لمعاونة بريطانيا في الدفاع عن نفسها ٠٠ » ثم ختم كلمته قائلا : « انني احاول ان امحو حاجز الدولار » ٠

وعلى هذه الاضواء ، تم اعداد مشروع الاعارة والتأجير عاجلا ليعرض على الكونغرس ، وقد وصفت هذا الجهد فيما بعد أمام البرلمان في أحد البيانات قائلا : « اكرم عمل قام به أي شعب في التاريخ » وفي الوقت الذي تمت فيه موافقة الكونغرس على هذا القانون ، تغير الوضع كاملا بصورة عاجلة ، فقد أعطانا القانون الحرية في أن نبرم الصفقات الضخمة بكافة احتياجاتنا تحت رعاية اتفاق الاعارة والتأجير ٠ ولم ينص على اعادة الدفع ، كما لم يكن ثمة حساب رسمي يسجل بالدولار او الاسترليني ، فكل ما نحتاج اليه

يأتينا بالاجارة او الاعارة ، لان مقاومتنا المتصلة لجبروت هتلر ، اعتبرت اعمالا دفاعية عن مصالح الولايات المتحدة ، فقد قال الرئيس روزفلت ان الدفاع عن اميركا لا الدولار هو الذي سيعين منذ الان المكان الذي ستتوجه اليه الاسلحة الاميركية ٠

***

وامتدت يد الموت في تلك الساعة الحاسمة الى اللورد فيليب لوتيان ، فانتزعته من بين جماعتنا ، بعد رجوعه الى وشنطن حيث تسلط عليه المرض بصورة غير متوقعة ، ولكنه ادى واجبه حتى النهاية وبدون ادنى توقف ، وتوفي في ١٢ كانون الاول وهو كدبلوماسي مرموق في قمة نجاحه ٠ فكان موته خسارة لوطنه وللقضية كلها ، ودمعت عليه عيون الاصدقاء في جانبي المحيط ، اما انا وكنت قبل اسبوعين وثيق الصلة به ، كما ذكرت قبل ذلك بقليل ، فقد كانت وفاته صدمة شخصية لي ، وقد أبنته بخطاب في مجلس العموم اعظم تأبين ذاكرا له بثناء جم جهوده ومسيرته ٠

وكان علي ان اوجه اهتمامي فورا لمن يخلفه ، وادركت ان علاقاتنا باميركا في تلك الفترة في حاجة الى ان يكون سفيرنا اليها شخصية بارزة متمتعة بسمعة قوية خاصة ، فضلا عن الكفاءات التي ينبغي ان يكون حائزا لها سياسي مطلع على كافة شئون العالم ٠ وبعد ان ضمنت موافقة الرئيس روزفلت على وجهة نظري رغبت الى المستر لويد جورج في ان يقوم بمهام هذا المنصب ، وكان المستر لويد جورج قد اعتذر عن تولي منصب في وزارة الحرب في تموز الماضي كما كانت ظروف سيئة في السياسة البريطانية الداخلية ، وكانت آراؤه في الحرب والاحداث التي ادت اليها تخالف ما أراه ، وبالرغم من ذلك لم يكن هناك شك في أنه ألمع رجل في وطننا ، وفي ان كفاياته وخبراته التي لا نظير لها ستساعده كلها على حمل اعبائه ٠ وقد تحدثت اليه طويلا في غرفة الحرب في اليوم التالي حول مائدة الغداء ، واستخفه السرور بهذا التكليف فقال : « انني سأخبر أصدقائي بأن رئيس الوزراء عرض علي عروضا مشرفة ، ولكنه كان على ثقة من أن رجلا في السابعة والسبعين مثله ، ليس في وسعة القيام بالتبعات الجسام التي يعنيها هذا المنصب » وبعد محادثات متواصلة معه اتضح لى ان الرجل قد اوهنته الشيخوخة لا سيما في الاشهر الاخيرة منذ دعوته للاشتراك في وزارة الحرب ، لذلك تنحيت عن اختياري الاول ٠

وتنبهت الى اللورد هاليفاكس ، صاحب المقام الرفيع في حزب المحافظين والمكانة التي دعمتها اعماله في وزارة الخارجية ، ولا شك في ان توجه وزير الخارجية الى منصب سفاري يعني اهمية خاصة لهذه البعثة الدبلوماسية التي تحظى برئاسته ، وبالاضافة الى هذا المغزى فان أعماله في سنوات ما قبل الحرب ، والاسلوب الذي سارت به الاحداث في تلك الفترة قد وضعاه موضع عدم الاستلطاف بل العداء احيانا من جانب العمال في حكومتنا القومية ، وكنت أعرف ان اللورد يدرك هذا جيدا • وعندما عرضت الامر عليه ، الذي لم يكن بالطبع يعني اي ترقية ذاتية ، اكتفى بكلمة بسيطة متعالية تعبر عن استعداده للخدمة حيث تكون خدماته نافعة ومحتمة • وتاكيدا مني لاهمية بعثته وواجباته رتبت الامور على ان يباشر عمله كعضو في وزارة الحرب عندما يعود في اي اجازة الى الوطن • وقد نجحت في هذا دون صعوبات بفضل ما تنطوي عليه نفوس الشخصيات التي تناولها هذا الترتيب من ذكاء وخبرة وكفاية :

ومكث اللورد هاليفاكس يعمل في ظل الحكومة القومية الائتلافية وخليفتها الحكومة العمالية الاشتراكية كسفير في واشنطن مدى ست سنوات في نجاح مستمر لما يقوم به من اعمال ونفوذ تتضاعف يوما بعد يوم • وقد اغتبط الرئيس روزفلت والمستر هل ، وغيرهما من شخصيات واشنطن البارزة ، بتعيين اللورد هاليفاكس ، وسرعان ما عرفت ان الرئيس قد استحسنه عن اختياري الاول ، وبذلك صادف التعيين الجديد رضى وترحيبا في كل من امريكا وبريطانيا ، واعتبر منسجما مع روح الاحداث الجارية •

ولم اكن على حيرة من أمري في الشخص الذي سيخلف اللورد هاليفاكس في وزارة الخارجية ، فقد ظللت طيلة السنوات الاربع الماضية متفقا اتفاقا تاما بالنسبة للقضايا الرئيسية مع انتوني ايدن • وقد بينت مشاعر القلق في نفسي عندما تنحى عن صحبة المستر تشمبرلين في ربيع عام ١٩٣٨ وكنا قد امتنعنا معا عن التصويت على اتفاق ميونخ ، ووقفنا معا نقاوم الضغط الحزبي الذي تعرض له كل منا في دائرته الانتخابية في شتاء تلك السنة المؤسفة، وقد التقينا معا عقلا ووجدانا عند اعلان الحرب وفي خلال مسيرها ، كزميلين ، وكان ايدن قد خصص الجزء الاكبر من حياته العامة لدراسة الشئون العالمية ، وتولى منصب وزير الخارجية المرموق فملأه عن كفاية ومقدرة ، واستقال منه وهو في الثانية والاربعين من عمره لاسباب اذا نظرنا اليها الان بمنظار الحقيقة فسوف تنال تأييد جميع الاحزاب • وقد قام بدور فعال كوزير للحربية في تلك السنة الرهيبة ، وكان تصريفه لشئون الجيش ، قد قرب كلانا

للاخر ، فكنا نتشابه في التفكيـر ، حتى بـدون استشارة او عرض لوجهات النظر ، في كثير من المسائل العملية ، التي تقابلها يوميا ، وكنت بدوري أطمح في زمالة فياضة بالانسجام والتوافق بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وقد جنيت ثمار هذه الرغبة ، في خلال السنوات الاربع والنصف التالية ، المليئـة بأعمال الحرب والسياسة ، وقد أسف ايدن حينما ترك وزارة الحربية التي كان قد دار في دوامة متاعبها واستثاراتها ، ولكنه عاد الى وزارة الخارجية ، وكأنه رجل يعود الى بيته •

❀ ❀ ❀

الفصل الحادي عشر

الانتصار في الصحراء

عقدت الهدنة مع فرنسا ، وحدث ما حدث في وهران وانتهت صلتنـــا الدبلوماسية بفيشي التي انتقلت اليها حكومة الماريشال بيتان ، ولكن علـى الرغم من كل ذلك بقي لى الايمان بوحدتنا مع فرنسا ، واني لاهيب بالرجال الذين لم يواجهوا المحن الشخصية التي دهمت رجال فرنسا البارزين بالنظر الى الدمار المخيف الذي حل ببلادهم ، ان يترفقوا في اصدار حكمهم علـــى هؤلاء الرجـال ٠

وليس من خطة هذا الكتاب ان يخوض مجاهيل السياسة الفرنسية . ولكنني اقرر أنني كنت مليئا بالثقة من ان الشعب الفرنسي لن يتوانى عـــن التضحية بكل ما يستطيع في سبيل هدفنا المشترك على ضوء الحقيقة التي تبين له ، فعندما سمع هذا الشعب ان سبيل خلاصه الوحيد ينحصر في الانقيـــاد لمشورة الماريشال المشهور ، وان انكلترا لم تبذل في سبيله الكثير ، ستحتـل عاجـلا أو تستسلم لم ير امامه مجالا للاختيار ، ومع ذلك فقد كنت على يقين من ان جموع الشعب الفرنسي ترجو لنا النصر ، وان اكثر سرورها ان ترى بريطانيا ماضية في القتال دون هوادة ٠ وكان اول واجب علينا ان نؤازر بما استطعنا كفاح الجنرال ديغول ، ودفاعــه الباسل ٠ فابرمت معـــه في ٧ آب اتفاقية عسكرية ، تضمنت شتى الاحتياجات العاجلة ، وتوجهت الاذاعـــة البريطانية بنداءاته الثائرة الى فرنسا والى العالم كله وكان اصدار حكومـة بيتان حكم الاعدام عليه ، بمثابة تمجيد لاسمه ، ورفع لشأنه وقد قمنا بكـــل ما نملك لمساندته ، وتوفير الاموال لحركته ٠

وكان الابقاء على اتصالنا بفرنسا ، بل بفيشي ايضا ، ذات اهميـــة خاصة في تلك الظروف . لذلك بذلت محاولات متكررة للحصول من رجـــال فيشي على اكثر ما يمكن ، وقد سرني كثيرا ارسال امريكا في نهاية ١٩٤٠ بسفير منها الى فيشي من طراز الاميرال ليهي وطبقته ، لصلتـه المعروفـــة بالرئيس روزفلت وقد ابديت تشجيعا لرئيس وزارة كندا المستر مكنزي كينج لكى يحرص على بقاء ممثله المسيو دى بوا الشهور بتفوقه الديبلوماسـي في فيشي ، فبذلك توجد على الاقل نافذة لنا ، نطل منها على عالم لا سبيل الى رؤية ما فيه دون هذه النافذة ٠ وارسلت في ١٥ تموز مذكرة لوزير الخارجيـة اخبرته فيها عن رغبتي في تشجيع نوع من التآمر الخفي في حكومة فيشـــي ، بحيث يذهب بعض اعضائها الى الشمال الافريقي باتفاق مع الاعضاء الاخرين، للحصول على مساومة افضل ، لفرنسا من الشاطيء الافريقي ، ومن وضع استقلالي احسن وافضل ، وسأستخدم لهذا الهدف سلاح الغذاء وغيره مــن الامور الحافزة بالاضافة الى المبررات المعتادة ٠ واعتمدت سياستنا دائمـا على بث الشعور في حكومة فيشي واعضائها بـأن أملنا كبيـر في احساسهـم بالخطأ ومحاولة اصلاح اوضاعهم ، ومهما يكن في الماضي فستبقى فرنسـا بالنسبة لنا زميلة السلاح وصديقة الازمات ، ولن يقف شيء – غير انحيازها فعليا في الحرب ضدنا دونها ودون المساهمة معنا في ثمرات النصر ٠ وكـان عملنا هذا شاقا على نفس ديغول ، الذي جازف بكل شيء ، لتبقى رايــة الكفاح خفاقه ٠ ولكن لم يكن في وسع القلة القليلة من اتباعه خارج فرنسـا ان يزعموا بأنهم يمثلون حكومة فرنسية كافية وقوية ، ومع ذلك فقد قمنـا بكل ما في وسعنا لتدعيم نفوذه ، وتوطيد سلطانه ٠

وكان طبيعيا ان يعارض في أية مداعبة منا لحكومة فيشي ، ويرى بـأن الواجب يلزمنا بالوفاء له وحده ، وادرك بأن وضعه تجاه الشعب الفرنسي يحتم عليه ان يتسم بالصرامة والكبرياء في تصرفاته مع بريطانيا الغـادرة بغض النظـر عن لجوئـه اليها كمنفـى ، واستنـاده الى حمايتها واقامتـه في ارضها ٠

وكان من الضروري ان يتظاهر بخشونـة التصرف مـع البريطانيين ، ليؤكد للفرنسيين انه ليس لعبة في يد بريطانيا ولا شك في انه مثل خطته هـذه بكل عناء واصرار ٠ وقد برر لي ذات يوم هذا النهج فتفهمت تمام التفهـم صعوبة موقفه ، وكنت دائم الاعجاب بقوته الخارقة ، ومهما قامت به فيشـي من خير او شـر ، فمـن المحال ان نتنحى عنـه او نثبط همتـه في استعادة

مستعمرات بلاده ، وفضلا عن هذا كله ، صممنا على ان نحول بين اي من اجزاء الاسطول الفرنسي المجرد من سلاحه ، والموجود حاليا في موانيء المستعمرات الفرنسية ، وبين العودة الى فرنسا • ومضت لحظات كانت الخشية تستبد فيها بالاميرالية من ان تعلن فرنسا الحرب علينا ، فتضاعف المصاعب التي نواجهها ولكنني كنت دائم الثقة بأن اصرارنا على النضال وقدرتنا الكافية على الصمود الى آخر الشوط ستوقظ معنويات الشعب الفرنسي الى الدرجة التي يحول فيها بين حكومة فيشي وبين القيام بمثل هذا العمل الشاق • وفعلا سيطر على الشعب الفرنسي في هذه الآونة ، اعجاب ببريطانيا وشعور قوي بزمالتها ، وظلت آمال الفرنسيين تنمو وتزداد على ممر الايام ، وقد اعترف المسيو لافال نفسه عندما اصبح وزيرا لخارجية بيتان بهذه الحقيقة •

وكان الوضع بالنسبة لايطاليا مختلفا عن ذلك ، فبعد اختفاء فرنسا من ميدان المعركة ، وبعد التحام بريطانيا في هذه المعركة المصيرية ذيادا عن كيانها ، كان من المحتمل ان يرى موسوليني ان حلم سيطرته على البحر الابيض المتوسط ، واعادة تشييد الامبراطورية الرومانية السابقة ، قد اقترب من التحقق الفعلي ، وصار في مقدوره — بعد ان امن ظهره من الفرنسيين في تونس ان يعزز قواته المحتشدة في ليبيا لغزو مصر ، ولكن وزارة الحرب عقدت عزمها على الدفاع عن مصر ضد كل القوى المعادية ، وبشتى الموارد التي تبقى لديها بعد مستلزمات القتال العنيف الذي يدور في ارض الوطن •

وقد غدت هذه المهمة في غاية الصعوبة عندما اكدت الاميرالية استحالة مرور القوافل العسكرية عبر البحر المتوسط بالنظر الى الاخطار الجوية ، ومعنى ذلك ان تدور وسائل النقل حول رأس الرجاء الصالح ، وهكذا ستنزع من معركة بريطانيا وسائل هي في أمس الحاجة اليها • ومن الغريب اننا في تلك الايام وجميع القائمين بالامر ، نبدو مرحين هادئين ، مع ان مجرد استعادة هذه الذكريات والكتابة عنها يصيب الانسان بالرعدة وعندما اعلنت ايطاليا دخولها الحرب في ١٠ حزيران ١٩٤٠ ، رات اجهزتنا الاستخبارية — وقد أيدت الحقاءق بعد الحرب صحة مارات — انه — فضلا عن القوات الايطالية المقيمة بالحبشة واريتريا والصومال — يوجد في المناطق الساحلية من شمال افريقيا حوالي ٢١٥١ الف جندي ايطالي بينما وحداتنا في مصر ، لا تزيد عن خمسين الف جندي ، قد فرض عليها ان تقوم بالدفاع عن الحدود الغربية لمصر ، وان تحافظ على الامن في داخل البلاد ، ومن هذا يتضح ان ميزان القوى كان في

صالح الايطاليين ، بالاضافة الى ان عدد طائراتهم يزيد كثيرا عن كل ما لدينا ·

ونشط الايطاليون في غضون شهري تموز وآب في اماكن عدة ، وتوقعنا خطرا من ناحية كسلا غربا في اتجاه الخرطوم · وساد الرعب في كينيا بسبب حملة ايطالية تزحف من الحبشة ، وقد قطعت حوالي اربعمائة ميل نحو تانا ومدينة نيروبي · واخترقت قوات ايطالية ضخمة الصومال البريطاني ولكن هذا الرعب لم يكن شيئا بجانب ما يترتب من اخطار على غزو الايطاليين لمصر ، وهو ما عرفنا انه كان في سبيل الاعداد على صورة شاملة · فقبل قيام الحرب تم تعبيد طريق رائع على طول الساحل من القاعدة الرئيسية في طرابلس بين مقاطعتي طرابلس وبرقة حتى الحدود المصرية · وكنا نرقب على هذا الطريق خلال ما مضى من الاشهر تحركات عسكرية على مدى واسع ، وانشئت في هدوء مخازن ضخمة امتلأت بالمعدات والمؤن في كل من بنغازي ودرنة وطبرق والبرديسة والسلوم · ويزيد طول هذا الطريق عن الف ميل ، انتشرت على طوله الوحدات الايطالية مع معداتها وكأنها حبات مسبحة في خيط طويل · وعلى مقربة من حدود مصر ، احتشد جيش ايطالي منظم ، يبلغ تعداده من سبعين الف جندي الى ثمانين الفا ، وقد زودوا بالمعدات الحربية ، وتجاه هذا الجيش تألقت جوهرة مصر ، ووراءه امتد الطريق الطويل الى طرابلس ومنها طريق البحر الى ايطاليا · فاذا استطاعت هذه القوة ـ التي تم بناؤها شيئا فشيئا ، ودعمت اسبوعا اثر اسبوع ـ التقدم شرقا بصفة مستمرة ، مستولية على كل ما يعترض طريقها ، فانها ستكون ميمونة الطالع ، واذا ما وسعها ان تحتل مناطق الدلتا الخصيبة في مصر ، فان شتى متاعبها بالنظر الى الطريق الطويل الممتد خلفها ستكون قد انتهت · اما وهذا هو التقدير الثاني اذا لحقها سوء الحظ ، فلن يجد احد من جنودها الا القليلين طريق العودة الى بلادهم ، فثمة في جيش الميدان ، وفي حلقات مراكز التموين الضخمة بطول الساحل كان يقف في خريف ذلك العام حوالي ثلثمائة الف جندي ايطالي ، لن يستطيعوا التراجع غربا حتى ولو هربا من مضايقات جنودنا ، الا على مراحل وبصورة تدريجية ، وهذا يستغرق عدة اشهر · واذا ما فشلت معركتهم على الحدود المصرية ، واذا ما تصدعت وحدة القوات الايطالية ، ولم يجدوا فرصة كافية للتراجع ، فان مصيرها لن يكون سوى الموت او الوقوع في الاسر · ولكن حتى تموز سنة ١٩٤٠ ، لم يكن احد يعرف من الذي سيخرج منتصرا ·

وكان مركزنا الامامي الحصين في تلك الاثناء في آخر الخط الحديدي

بمرسي مطروح ، وكانت ثمة طريق ممهدة تمتد غربا الى سيدي براني ، ولكن بينها وبين السلوم الواقعة على الحدود لا توجد طريق نستطيع ان نحشد فيها قرب الحدود جيشا كبيرا لفترة طويلة ، وكنا قد اعددنا وحدة آلية صغيرة للتغطية تتألف من امهر الجنود ، وقد صدرت الاوامر لهذه الوحدة بالهجوم على المراكز الايطالية القريبة من الحدود بعد اعلان الحرب مباشرة وبمقتضى هذه الاوامر عبرت قواتنا الحدود في خلال اربع وعشرين ساعة ، وفاجأت الايطاليين بهجومها عليهم بينما هم لم يسمعوا بعد بنبأ أعلان الحرب · ومن ثم استولت على بعض الاسرى ، وفي الليلة التالية احرزت نفس النجاح ، ووضعت يدها في ١٤ تموز على نقطتي الحدود في كابوتزر ومادالينا، وأخذت حوالي ٢٢٠ جنديا اسيرا · وتوغلت في السادس عشر منه الى مسافة أبعد ، فحطمت اثنتي عشرة دبابة ايطالية وقطعت الطريق على قافلة في طريق طبرق البردية واوقعت جنرالا ايطاليا في الاسر ·

ومن هذه العمليات الصغيرة المعبرة عن القوة والانتصار ، احس جنودنا بمدى تفوقهم على العدو وادركوا على الفور انهم بحق سادة الصحراء · وكان في مقدورهم ـ ما لم تعترض طريقهم جيوش هائلة او حصون منيعة ـ ان يصولوا ويجولوا حيثما ارادوا ، محرزين الغنائم وأكاليل الغار من المعارك الصغيرة التي يشتبكون فيها · وعندما يقترب جيشان كل من الاخر ، يصبح ذات اهمية بالغة ادراك ايهما يسيطر على الارض التي يقف عليها الجيش او ينام ، ومن يسيطر على كل شيء آخر · وقد جربت بنفسي هذا في قتال البوير ، حيث لم نكن نملك شيئا سوى نيران معسكراتنا ، ووحداتنا الخلوية ، بينما كان البوير يصولون ويجولون في مختلف انحاء البلاد · ووصلت خسائر الايطاليين في الاشهر الثلاثة الاولى الى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل بينهم سبعمائة اسير ، بينما لم تزد خسائرنا عن مائة وخمسين جنديا · وهكذا كانت بداية المرحلة الاولى من الحرب التي شنتها ايطاليا علينا بداية مليئة بالتفاؤل ·

***

وأحسست بالحاجة الماسة لمناقشة الاخطار الداهمة في الصحراء الليبية مع الجنرال ويفل بالذات ، ولم اكن قد التقيت بهذا القائد الماهر الذي يرتبط به مصير كثير من الاشياء · فرغبت الى وزير الحربية القيام باستدعائه لمدة اسبوع كي اتباحث معه عندما تتيح الظروف الملائمة · وقد حضر ويفل في ٨

آب فتباحث طويلا مع اركان الحرب ، ومعي ، ومع المستر ايدن • وكانت قيادة الشرق الاوسط في تلك الاثناء تواجه مجموعة غريبة من المشاكل السياسية والعسكرية والدبلوماسية والادارية بالغة التعقيد ، وقد مر عام تقريبا من الانتصارات والانكسارات لتبدو لي أنا والزملاء الضرورة التي تحتم توزيع اختصاصات الشرق الاوسط بين القائد العام ووزير الدولة مع مسئول خاص يصرف شئون التموين ، وبغض النظر عن عدم موافقتي التامة على وجهات النظر التي أبداها الجنرال ويفل في توجيه الجيوش التي يتولى قيادتها ، رأيت من الافضل ان اعطيه الحرية في تصرفاته ، فقد اعجبت بصفاته الممتازة ، كما كنت مأخوذا بالثقة الكبيرة التي منحها الكثيرون لشخصه •

وعلى هدى مباحثات اركان الحرب ابلغني الجنرال ديل بموافقة ايدن المتحمسة ويقول ان وزارة الحرب بدأت تهيىء الوسائل لارسال حوالي مائة وخمسين دبابة من المدافع عاجلا الى مصر • وكانت العقبة الوحيدة التي تعترضنا هي الطريق الذي تبخر فيه البواخر المحملة بتلك المعدات •• هل هو رأس الرجاء الصالح ام هو البحر المتوسط ؟ •• ودار جدل عريض حول هذه المشكلة ، فرأت وزارة الحرب ابحار هذه الوحدة المدرعة ، حتى تصل الى جبل طارق ثم يعاد النظر في قرار نهائي • وظل الاختيار متأرجحا حتى ٢٦ آب ، وبالطبع رأينا الفرصة متاحة لتجمع المعلومات الضرورية عما اذا كان الهجوم الايطالي قد حان ميعاده أم لا ، ولم نضع وقتنا فاجراء عملية نقل الدم هذه في ذلك الوقت الذي نستعد فيه لمواجهة شر مستطير ، تحتاج الى قرار صائب وان كان رهيبا في الوقت نفسه ، ولم يتردد واحد منا في اتخاذ هذا القرار •

***

كانت السيطرة على البحر الابيض المتوسط قبل انهيار فرنسا موزعة بين الاسطولين البريطاني والفرنسي ، ولكن بعد ان عزلت فرنسا عن الحرب واشتركت فيها ايطاليا ، غدا أمامنا اسطول ايطالي ضخم في عدده يؤازره سلاح جوي قوي ، وقد ظهر لنا الموقف في بداية الامر مرعبا ، حتى لقد فكرت الاميرالية في الانسحاب من شرق البحر الابيض والتجمع حول جبل طارق • وقد قاومت هذه الفكرة ، لانها بغض النظر عن وجود كل ما يؤيدها نظريا بسبب وجود الاسطول الايطالي العارم ، لا تلتقي مع احساسي الخاص بالمثل الكفاحية والحربية • يضاف الى ذلك ان هذه الفكرة تحكم على جزيرة

مالطة بالموت . وتبعا لارائي تقرر ان نجابه القتال في جانبي البحر المتوسط ، وكانت التبعات المنوطة بالامبرالية في ذلك الحين بالغة الاهمية ، فخطر الغزو ما زال ماثلا ، مما يستلزم منها اعداد اكبر عدد مستطاع من المدمرات والقطع الصغيرة في المانش وبحر الشمال .

وكانت الغواصات التي اخذت في العمل منذ شهر آب من موانيء خليج بسكاي ، تفرض ضريبة ضخمة على قوافلنا في الاطلنطي دون ان تصاب بأية اضرار . والى تلك الساعة لم يكن الاسطول الايطالي قد دخل اية معركة تضعه موضع الاختبار ، ولم يكن في مقدورنا ان نعفل عـن احتـمال دخول اليابان ميدان الحرب ، وما يعنيه هذا الدخول من اخطار تهدد كيان امبراطوريتنـا في الشرق ، فلا غرو والحالة كما نرى ان يستولي القلق على الامبرالية مـن جراء فكرة المجازفة ببوارجنا في البحر المتوسط ، وان تتشبث بأهداب الوسائل الدفاعية في كل من جبل طارق والاسكندرية . أما انا فقد كنت لا اجد سببـا كافيا لتحول بين هذا العدد الهائل من قواتنا البحريـة التي خصصناها في البحر المتوسط ، وبين القيام بدور رئيسي منذ البداية . وعلينا ان نرسـل الامدادات الجوية والبحرية الى مالطة . وبالرغم من ان قوافل نقلنا التجاري قد أتجهت الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبالرغم من ان البوارج الكبيرة التي تنقل جنودنا الى مصر تتخذ نفس الطريق ، فانني لم اكن مقتنعا باستمرار هذا البحر مغلقا في وجوهنا . وقد طمعت في ان يكون اختراق قوافلنا لهـذا الطريق وسيلة لاستثارة الاسطول الايطالي وجره الى معركة نختبر فيها قوته . وكانت رغبتي تتلخص في ان يجري كل هـذا ويتـم امداد مالطـة بالحاميـة وبالمعدات والطائرات والمدافع المضادة قبل ان يقدم الالمان الى هذا الميدان ، وهو أمر كنت اعمل حسابه . وقد امضيت اشهر الصيف في مباحثات هادئة ولكنها جادة مع الامبرالية حول هذا الاتجاه في نشاطنا الحربي .

وبالرغم من ذلك فقد فشلت في اقناع الامبرالية بأن تمخر الوحدة المدرعة أو سياراتها على الاقل عباب البحر المتوسط ، فاستمرت كل قوافلنا تدور حول رأس الرجاء الصالح . وقد أسفت لهذا الموقف بل غضبت منه ، ولم تحدث اية واقعة خطيرة في مصر وبقينا ممسكين بالرغم من وجود سلاح الطيـــران الايطالي بزمام المبادرة ، كما ظلت مالطة في مقدمة الحوادث كقاعدة أمامية لشن هجومنا على المواصلات الايطالية مع القوات المرابطة في افريقيا .

***

ويظهر ان القلق الذي اعترانا من غزو ايطاليا لمصر كان ــ كما بدا لنا الآن ــ اقل من القلق الذى احاط بنفس الماريشال غرازياني قائد الغزو ، فقبل بضعة ايام من الموعد المتفق عليه طلب الماريشال تأجيله شهرا كامــلا فرد عليه موسوليني مهددا بالاقالة من منصبه اذا لم يبادر بالهجوم يــوم الاثنين . فرد الماريشال عليه بأنه سيمتثل للامر · وكتب تشيانو في مذكراته ولم يحدث ابدا ان وقعت عملية حربية مثل هذه رغما عن مشيئة قائدها » ·

وبدأت القوات الايطالية زحفها الرهيب على الحدود المصرية في ١٣ آب مكونة من ست فرق المشاة ، وثمانية افواج من الدبابات · وكانت جيوشنا الواجهة تتألف من ثلاثة افواج من المشاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات وسريتين من السيارات المدرعة · وقد اصدرنا اليها امرا بالاشتباك مع العدو في قتال انسحابي . وهي طريقة تجيدها قواتنا لما تتسم به من شجاعة ولمــا اكتسبته من خبرات في حرب الصحراء · وبدا الهجوم الايطالي بفتح نيران المدفعية على مراكزنا قرب مدينة السلوم على الحدود ، وعندما انكشف الغبار والدخان . تجلت القوات الايطالية مصطفة في نظام بديع · ففي المقدمة راكبو الدراجات النارية في تنظيمات متقنة تمتد من الجناح الى الجناح ، ومــن المقدمة الى المؤخرة ، وتليهم الدبابات الخفيفة ثم عدد من السيارات المصفحة في صفوف منتظمة ايضا · وعلق ضابط بريطاني على هذا المنظر فقال انــه كان اشبه بحفلة عيد ميلاد في الوادي الفسيح في الدرشوت · واسرع فــوج حرس غولد ستريم الثالث الذي كان امام الجيش المغير بالانسحاب بينمــا تقاضت مدفعيتنا ضريبتها من هذه المائدة المعروضة امامها بسخاء ·

وتحرك الى الجنوب فوجان كبيران من افواج العدو عبر الصحــراء المكشوفة جنوبي الروابي الممتــدة بمحاذاة البحــر ، والتي ليس في المقدور اختراقها الا عند « حلفايا » او ما يعرف « بممر نيران جهنم » ، وهو ممــر ادى دورا فعالا في معاركنا المقبلة كلها · وكان كل فوج منهما يتكون من عــدة مئات من السيارات تساندها الدبابات والمدافع المضادة لها والمدفعية التــي تظهر في المقدمة ، ثم المشاة في الوسط حيث تقلهم السيارات وكنا نسمي هذا التنظيم الذي شاهدناه كثيرا باسم « القنفذ » وامام هذا العدد الهائل تراجعت وحداتنا مستغلة كل فرصة لتغير على العدو الذي بدت الحيرة والاضطراب في كل تصرفاته · وقد قال غرازياني فيما بعد انه غير خطته في الآونة الاخيرة التي كانت تعتمد على القيام بتطويق صحراوي الى « تركيز القوات جميعا في الجناح الايسر . ثم شن هجوم صاعق كالبرق على طول الساحل في اتجاه سيدي

براني » · وعلى هذا الاساس زحفت الجموع الايطالية الضخمة الى الامام ببطء في خطين متوازيين على الطريق الساحلي وكانوا يحشدون للهجوم مجموعات من المشاة تنقلهم السيارات ، تتقدم نحو الامام في وحدات عدد كل منها حوالي خمسين جنديا واستمر حرس غولد ستريم في انسحابه وعلى مهل لمدة اربعة ايام من السلوم الى مواقع متلاحقة ، منزلا بالعدو الاضرار الفادحة اثناء انسحابه ·

وعسكرت القوات الايطالية في سيدي براني يوم ١٧ ايلول ، وبلغت خسائرنا اربعين رجلا بين قتيل وجريح ، بينما نزل بالعدو من الاضرار ما يقدر بعشرة اضعاف هذا العدد ، فضلا عن تدمير حوالي مائة وخمسين سيارة · ورأى الايطاليون بعد ان امتدت بهم سبل المواصلات ستين ميلا اخرى ، ان يجمعوا قواهم وان يرابطوا في مكانهم الاشهر الثلاثة القادمة ، ولكنهم لم يعفوا من الهجمات المستمرة التي كانت تشنها جماعاتنا الصغيرة المتحفزة ، وقد واجهوا اقسى المتاعب بشأن مستلزمات الصيانة ، وكان موسوليني في بداية الامر قد « اهتز سرورا » ، ولكن لما بلغت الاسابيع شهورا بدأ زهوه يخف فتأكدنا في لندن اننا في الشهرين او الثلاثة القادمة سنواجه قوات ايطالية هائلة اضخم من كل ما نقدر على تجنيده لتواصل التقدم بغية احتلال الدلتا · وهناك ايضا تهديد الخطر الالماني فقد يدهمنا في اية لحظة ، ولم يكن بالطبع يدور بخلدنا ان فترة التوقف لزحف غرازياني ستطول الى هذه المدة كما دار بخاطرنا احتمال حدوث معركة حاسمة في مرسي مطروح ، وهو شيء معقول في وسط هذه الظروف · وقد استطعنا ان نستغل هذه المدة ، فوصلت دباباتنا الثمينة التي دارت حول رأس الرجاء الصالح ، دون ان يسبب لنا طول مدة دورانها اية خسائر ·

وعندما ارجع بذاكرتي الى كافة هذه المشقات ، اتذكر قصة الرجل العجوز الذي حانت منيته فباح على فراش الموت بأنه واجه في حياته كثيرا من المتاعب ، بينما لم تكن في حياته اية متاعب ·

وأرى ان هذه القصة تنطبق تماما على الحالة التي مررت بها في ايلول عام ١٩٤٠ · فلقد انهزم الالمان في غاراتهم الجوية على بريطانيا ولم تحدث اية محاولة لغزونا من البحر · ثم تحول هتلر بعد ذلك بنظراته النهمة الى الشرق ، وعوق الغزو الايطالي لمصر ، ووصلت وحدة الدبابات التي ارسلناها عن طريق رأس الرجاء الصالح في موعدها المناسب ، لا لتشترك في معركة

دفاعية عن مرسي مطروح ، بل لتخوض عملية اخرى كانت اكثر نفعا واعظم فائـــدة ٠

وقد وفقنا الى الوسائل المطلوبة لتعزيز الدفاع عن مالطة قبل ان يحاول الاغارة عليها احد ٠ وفي كل مراحل هذه الفترة جبنت كل القوى عن التعرض لهذا الحصن البحري ٠ وعلى هذا النحو مضى شهر ايلول ٠

***

واخذ موسوليني الآن يقوم بحركة جديدة كانت في مجال احتمالاتنـا ٠ وقد اثارت لنا ، نظرا لمشاكلنا العديدة ، كثيـرا من الصعوبات المفاجئـة ، والنتائج البالغة الاثر بالنسبة لميدان الحرب في البحر الابيض المتوسط ٠فقد اصدر الدوتشي اوامره بشن هجوم على اليونان في ١٥ تشرين الاول ١٩٤٠ ، وقبيل فجر ٢٨ وجه وزير ايطاليا المفوض انذارا حاسما الى الجنرال متيكاس رئيس الوزراء اليوناني ، يطلب فيه موسوليني فتح الحدود امام الجيوش الايطالية ، وفي الوقت ذاته زحف الجيش الايطالي من البانيا على اليونان من عدة اماكن ، فقابلت الحكومة اليونانية هذا الطلب بالرفض ٠ وكانت جيوشها على اهبة الاستعداد في الحدود ، وطالبتنـا بتنفيـذ التعهدات التي سبق ان ضمنها لها المستر تشمبرلين في ١٣ نيسان سنة ١٩٣٩ ، وكان من الطبيعـي ان نحترم وعودنا ، وقد رد جلالة الملك استجابة لمشورة حكومته ، وبالاصالة عن رغبته العميقة على برقية ملك اليونان قائلا : « ان قضيتنا واحدة وسنقاتل معا ضد عدونا المشترك » وارسلت الى الجنرال متيكاس في اثناء ردي على رسالته أقول : « سنبذل من اجلكم كل ما في وسعنا ، وسنحارب العدو المشترك كما سنحرز النصر متحدين » ٠ ولقد قمنا بهذه التعهدات بعد قصة طويلـة من الكفاح ٠

ولم يكن في مقدورنا ان نرسل الى اليونان باكثر من بضعة اسراب من الطائرات ، وببعثة بريطانية ، ومجموعة رمزية من القوات ٠ وعلى الرغـم من ضالة هذه المعاونة فقد كنا نحس بالالم ونحن ننقصها من حساباتنا فـي العمليات الحادة الرهيبة التي بدات تواجهنا فيصحراء ليبيا٠ ووضحت لعيوننا نقطة استراتيجية بالغة الاهمية وهي كريت ، التي يهيب بنا الواجب الا ندع الايطاليين يحاولون احتلالها ، ولذلك فمن الضروري ان نحتلها نحن أولا ٠ وعلى الفور وكان المستر ايدن لحسن حظنا موجودا في تلك الاثناء بالشـرق الاوسط فتم لي بذلك وجود الوزير الزميل الذي يسعني تصريف هذا الشـان

معه ، فأبرقت اليه · وعلى الفور قامت قواتنا بدعوة من الحكومة اليونانية باحتلال خليج سودا ، وهو خير موانيء الجزيرة واكثرها صلاحية ·

ولا شك في ان قصة خليج سودا تثير كثيرا من الاسى ، لكن المأساة لم تحدث الا عام ١٩٤١ ، ويقيني انه توفر لي التصرف الكامل لشئون الحرب مثلما توفر لاي رجل مسئول في اية بلاد غير بلادنا في ذلك الحين ، فقد ادت خبرتي لحقيقة الاشياء ، وايمان زملائي في وزارة الحرب ، وتآزرهم المخلص معي وتعاون جميع زملائي وصلاحية جهازنا الحربي المتطور على الدوام ، ادى كل ذلك الى تركيز جميع السلطات في يدي · ومع كل هذا فقد كان العمل الذي قامت به قيادة الشرق الاوسط دون ما امرت به ودون ما كنا نطمع الى تحقيقه ، ولكن لعلنا لم ننس بعد حدود الطاقة الانسانية ، فقد دارت عمليات في اماكن كثيرة في وقت واحد · وبالرغم من ذلك فانه ما زال يحيرني حتى الآن عجزنا عن ان يكون خليج سودا هو الحصن البرمائي لكل ما تمثله قلعة بحرية مثل جزيرة كريت ·

***

كان هجوم ايطاليا على اليونان من البانيا ، صفعة جديدة للدوتشي ، فقد اندحر الهجوم الاول بعد ان تكبد اضرارا جسيمة ، ومن ثم قام اليونانيون على الفور بهجوم مضاد ، واظهر الجيش اليوناني تحت قيادة الجنرال باباغوس ضروبا من المهارة الفائقة في حرب الجبال فتفوق على عدوه في مجال المناورة وحركات الالتفاف · ولم تأت نهاية العام حتى كانت بسالته قد حملت الايطاليين على الانسحاب الى مسافة ثلاثين ميلا على طول الجبهة ، خلف حدود البانيا · واستطاعت ست عشرة فرقة يونانية فرض عدم التحرك على سبع وعشرين فرقة ايطالية لاشهر عديدة خلف حدود البانيا ·

وبانتشار انباء هذه المقاومة الباسلة ، دبت الحماسة والشجاعة في نفوس الدول البلقانية الاخرى كما انهارت على اثرها سمعة موسوليني · لكن القصة لم تقف عند هذا الحد ، ـ فقد عاد ايدن الى وطنه في تشرين الثاني ، وقدم في نفس الليلة ليراني بعد بداية الغارات الجوية المعتادة · وكان يطوى سرا حرص الا يبوح به لاحد ، وكنت اود لو عرفته من قبل ، وتحدث ايدن كثيرا لي ولبعض صحبه المختارة ومنهم رئيس اركان حرب الامبراطورية ، والجنرال اسماي · وشرح بالتفضيل مشروع خطة هجومية وضعها الجنرال ويفل والجنرال ويلسون ، تقضي بالا نظل في اماكننا بمرسي مطروح ننتظر

الهجوم الايطالي المترقب ـ وقد أعددنا لصده كل الوسائل الدفاعية الممكنة ـ بل نبادر نحن في خلال شهر أو نحوه بشن هجوم على العدو ٠

وانتشينا لهذا النبأ المثير ، فقد وقعنا على عمل يستحق التنفيذ ٠ وأخذنا القرار فورا بعد ان صدق عليه رؤساء اركان الحرب ، ووزراء الحرب ـ بالموافقة على الخطة واعداد كل مستلزماتها ٠ وكنت مستعدا عندما عرضت الخطة على وزارة الحرب لتوضيح الامور ، ولكن عندما بلغ الزملاء ان قادة الميدان العسكريين ، ورؤساء اركان الحرب قد تم اتفاقهم معي ، ومع المستر ايدن بهذا الصدد ، اثر الزملاء عدم الاطلاع على تفاصيله ، حيث رأوا خير له وابقى ان تظل معرفته بين عدد محدود ٠ وأعلنوا تاييدهم التام لفكرة الهجوم بصورة عامة ، وكان هذا التصرف مثالا لتصرفات عديدة قامت بها وزارة الحرب في عديد من المناسبات ٠ واني لابادر بتسجيله هنا ليكون سابقه تحتذى فيما اذا تعرضنا في المستقبل لظروف مماثلة ٠

***

وقد جد تحسن واضح في موقف قواتنا في البحر الابيض المتوسط بالرغم مما يبدو من تفوق الاسطول الايطالي على اسطولنا المرابط هناك في عدد جنوده ومن الناحية النظرية ٠ وقد استطاعت البارجة « فاليانت » وحاملة الطائرات المدرعة « ايلستريوس » وطرادان مضادان للطائرات اختراق البحر الابيض المتوسط في سلام ، وتعضيد قوات الاميرال كينجهام في الاسكندرية ٠ وقد ظلت هذه القوات تحت مراقبة سلاح ايطاليا الجوي ، ومعرضة لهجماته ٠٠ لكن ٠٠ « الايلستريوس » بطائراتها الحديثة المحاربة ، وجهاز رادارها الجديد وبدورياتها المقاتلة وطائراتها المغيرة تمكنت من ان تضفي صفة السرية على تنقلاتنا ، وكانت هذه الصفات الممتازة قد جاءت في الوقت الذي نريد ٠

وكان الاميرال تستبد به الرغبة منذ زمن بعيد الى انزال ضربة قوية بالاسطول الايطالي المرابط في قاعدته الرئيسية في تورنتو ٠ وقد وقع الهجوم في ١١ تشرين الثاني كقمة لعمليات حربية متتابعة وشديدة الاحكام ، وتقع تورنتو في كعب ايطاليا فتبعد عن جزيرة مالطة حوالي ثلاثمائة وعشرين ميلا ، وميناؤها البديع محصن تماما ضد كافة الوان الهجوم الحديثة ٠ وبوصول بعض طائراتنا الاستكشافية السريعة الى مالطة استطعنا ان نحدد بالضبط مكان الفريسة ، وبعد الغسق بقليل اطلقت طائرات « الايلستريوس » من مسافة يبلغ بعدها مائة وسبعين ميلا عن تورنتو ، واحتدم القتال زهاء ساعة بين

الحرائق المشتعلة والدمار الذي نزل بقطع الاسطول الايطالي ، وبالرغم من قوة نيران المدافع المضادة فان ما لحق بنا من اضرار لم يـزد عن طائرتيـن سقطتا في البحر ، أما بقية الطائرات فقد عادت الى قواعدها سالمة ٠

وبهذه الضربة القويـة تبـدل ميزان القوة البحريـة في البحر الابيض بصورة نهائية ٠ فقد اوضحت الصور الجوية ان بوارج ثلاثا من بينها البارجة الحديثة « ليتوريو » قد اصيبت كما أصيب طراد اخر ، حلت بظهره اضرار فادحة ٠ وهكذا اصبح نصف الاسطول الايطالي على الاقل عاجزا عن الحركة لمدة ستة اشهر ٠ وكـان في مقدور سـلاح الاسطول الجـوي ان يهتز طربـا لاستطاعته بهذه المجازفة الرائعة استغلال الفرصة النادرة التي سنحت له ٠

ولعل من سخرية المقادير ، ان كان السلاح الايطالي ، انصياعا لاوامر موسوليني في نفس اليوم الذي شهد هذه الضربة القاصمة يجرب الهجـوم الجوي على بريطانيا العظمى ٠ فقد شاءت قوة من القاذفات الايطالية تؤازرها حوالي ستين طائرة محاربة الهجوم على الحلفاء في ميدواي ، فاشتبكت معها مقاتلاتنا وقضت على ثماني قاذفات وخمس مقاتلات ، وكانـت هذه هـي التجربة الاولى والاخيرة من جانب ايطاليا بالنسبة للتدخل في شئوننا الخاصة٠ ولا شك في انهم عرفوا بعد ذلك ان الدفاع عن اسطولهم في تورنتو كان خيرا لهـم وابقـى ٠

وأمضت قواتنا التي بات عليها ان تقوم بعملية هجوم الصحراء مـدة شهر تقريبا في تدريبات خاصة ، يتطلبها هذا الهجوم المعقد لدرجة كبيرة ٠ ولم يكن احد يعلم بتفاصيل الخطة سوى عدد قليل جدا من الضباط ، كمـا لم يحرر شيء خاص بها على اي ورقة ، وفي السادس من كانون اول زحـف جيشنا المدرع بخمسة وعشرين الف جندي ٠٠ كل منهم لوحت وجهة شمس الصحراء وتركت على عوده صلابة طبيعتها الصارمة ، فاشتد عوده وانفتلت عضلاته ، زحف الجيش بهم مسافة اربعين ميلا ثم اختفى في الصحراء عـن عيون السلاح الجوي الايطالي ٠ وفي الثامن من الشهر نفسه استأنف زحفه الجريء وفي تلك الليلة ، قيل للجنود ، للمرة الاولى ، انهم الان لا يمارسون تدريبا صحراويا ، ولكنهم يقومون بعملية حية ٠ وفي فجر ٩ كانون اول بدأت معركة سيدي براني ، ولا أجد داعيا للكتابـة عـن تفاصيل القتـال الكثيرة والدقيقة معا ، الذي ظل يدور في خلال الايام الاربعة التالية على ارض واسعة تكاد تماثل مقاطعة يوركشارير بكل اتساعها ٠ ومر كل شيء في نظامه الذي قدرته الخطة الموضوعة ٠ وتواصلت المعركة طيلة اليوم العاشر ، وفي الساعة

العاشرة ابرقت قيادة فوج حرس جولد ستريم تقول انه تعذر عليها احصاء عدد الاسرى لكثرتهم البالغة ، ولكن ثمة « ما يملأ خمسة افدنة من الضباط ومائتي فدان من الجنود » وكانت تصلني في داوننج ستريت انباء القتال لحظة بعد اخرى • وكان من الصعب علي ان استوعب ما يحدث ، ولكن الموقف كان يملا شعوري بالرضا والارتياح • وقد لفتت نظري اشارة من ضابط شاب كان يقود دبابة بالفرقة المدرعة السابعة قال فيها : « لقد وصلت الى يقبق » وتم الاستيلاء على سيدي براني في اليوم العاشر بعد الظهر وفي ١٥ كانون اول كان جيشنا قد نفى عن ارض مصر تماما جميع القوات المعادية وكانت البردية غايتنا الثانية ، وفي محيطها الذي يبلغ سبعة عشر ميلا ، الجزء الاكبر من اربع فرق ايطالية اخرى ، وتتكون الخطوط الدفاعية عنها من خندق ممتد لمقاومة الدبابات وراءه اسلاك شائكة تستند الى بيوت من الاسمنت المسلح قائمة هنا وهناك ، يكمن وراء خط اخر من الحصون • وكان اجتياح هذا الحصن يستلزم عددا كبيرا من المقاتلين • ولاتمام الحديث عن انتصارنا في الصحراء ارى ان استمر في سرد احداث السنة الجديدة ففي ٣ كانون ثاني استطاعت فرقة استرالية تحت حماية المدفعية الشديدة انتزاع موقف لها في القطاع الغربي ، وبدأ مهندسونا محتمين بالاستراليين يغلقون الخندق المضاد للدبابات ، واستمرت كتيبتان استراليتان في الاغارة الناجحة في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، وفي خلال زحفهم كانوا يتغنون بلحن من الحان الافلام الامريكية ، نال شهرة في تلك الآونة في سائر البلاد حتى في بريطانيا ايضا ، وهو يتعلق « بساحر اوز » • وعندما اصغى الى هذا اللحن اليوم تطوف بي ذكريات تلك الايام المفعمة بالاحداث • واستطاعت الدبابات البريطانية بعد ظهر ٤ كانون ثاني اقتحام البردية تؤازرها قوة من المشاة ، واستسلمت حاميتها في ٥ من الشهر نفسه ، وكان عددهم خمسة واربعين الفا ، اسروا جميعا ، كما استولت قواتنا على ٤٢٦ مدفعا •

وفي اليوم التالي اى ٦ كانون ثاني تم حصار مدينة طبرق ، ولم يكن في المستطاع مهاجمتها قبل ٢١ كانون ثاني ، ولكنها استسلمت في صباح اليوم التالي • وانتهت مقاومتها وغنمنا فيها ٢٣٦ مدفعا عدا ثلاثين الفا في الاسر • وهكذا استطاع جيش الصحراء في ستة اسابيع ان يزحف مائتي ميل في ارض جرداء خالية من الماء والزراعة واستطاع الاستيلاء على ميناءين قد حصنا تحصينا كاملا ضد البر والبحر والجو ، واسر (١١٣) الفا واستولى على اكثر من سبعمائة مدفع ، وتهاوى الجيش الايطالي الضخم الذي كان

قد زحف على مصر ، وداعبته الآمال في الاستيلاء عليها ، وسقط من الحساب كقوة عسكرية • وكانت مصاعب التموين والامتداد الهائل للمسافات هي الاسباب الرئيسية لتأخير زحف قواتنا نحو الغرب •

وهكذا ، كان العام يقترب من نهايته ، والصورة أمامنا تتنازع جوانبها مختلف الاضواء والظلال في وقت واحد • فنحن لم نزل احياء ، وقد استطعنا انزال الهزيمة بالسلاح الجوي الالماني ، ورددنا الغزاة من بلادنا مدحورين • وأصبح جيشنا في الوطن في منتهى القوة والتفوق • ولم تستطيع كل المحن ان توهن من عزيمة لندن الصامدة ، وبدأنا نسيطر تماما على سماء جزيرتنا بكافة الامكانيات • لكن همسات الشيوعيين القذرة خضوعا لاوامر موسكو ظلت تتردد على الاسماع ، عن الحرب الاستعمارية الرأسمالية ، ثم تموت على شفاههم ، فالمصانع تفيض بالحيوية ، والشعب بأكمله يعمل ليل نهار ، وقد ارتفعت روحه المعنوية ، وتدفق في كيانه احساس بالارتياح والاعتزاز ، وبدأ نصرنا النهائي ، في صحراء ليبيا قريبا ، كما بدأت الولايات المتحدة تقترب شيئا فشيئا من واجبها الحقيقي وهو الاشتراك الفعال معنا •

وفي مقدورنا ان هذه السنة المجيدة نادرة بمكاسبها ، كما كانت مروعة بأحداثها ، ولعلها اروع وأرهب السنين في تاريخ انكلترا بأكمله •• فلقد حطمت بريطانيا العظمى بمهارتها الخاصة الارمادا الاسبانية ، وخاضت غمار الصراع الذي استمر زهاء خمسة وعشرين عاما ، والذي خاضه ويليام الثالث ووزيره مارلبورو ضد لويس الرابع عشر ، فظلت طيلة هذه المدة تشتعل في صدرها حمية العزيمة والاصرار ، كما اقتحمنا حلبة الصراع ضد نابليون • وكنا ندين ببقائنا لسيطرة الاسطول البريطاني على البحار ، بفضل القيادة الماهرة لنيلسون ورفاقه ، كما قتل مليون بريطاني في الحرب العالمية الاولى •• ولكن كل هذه المحن التي ذقنا اهوالها لم تكن شيئا بجانب ما قاسينا في عام ١٩٤٠ •

وبرغم ذلك لم تأت نهاية العام حتى كانت الدنيا تشد هذه الجزيرة الصغيرة العريقة ، بجميع شعوبها المؤمنة بها ، وبممتلكاتها المستقلة ، وعلاقاتها الناجحة تحت كل سماء ، وقد اكدت انها قادرة على تحمل كل ما يأتي بمصير العالم من اعباء وتبعات • ولم يعرف الضعف والتحير سبيله الينا • بل ظلت روح الشعب البريطاني ، والعنصر البريطاني في قوة لا تغلب ، وبرهن حصن جامعة الشعوب البريطانية والامبراطورية على انه لا سبيل الى اقتحامه • وقررنا وحدنا — بتأييد كل القلوب الكريمة الطيبة — أن نتحدى الطاغية وهو في قمة غروره وانتصاراته •

واستيقظت الآن جميع طاقاتنا الفعالة ، فقد تمت سيطرتنا على الارهاب الجوي ، واصبحت الجزيرة حصنا لا يمس ولا يمكن تدنيسه ، ومنذ الآن سيتوافر لنا السلاح • ومنذ الان سنكون نحن جهازا حربيا ماهرا ، فقد عرف العالم كله أننا نعرف كيف نصمد ، فثمة نظرتان لموضوع السيطرة الهتلرية على العالم ، فبريطانيا التي كان لا يعبأ بها الكثيرون ، ما زالت في الميدان ، أضخم مما كانت عليه في اي زمن مضى ؛ وهي يوما بعد يوما تزداد قوة وصلابة ، وها هو عامل الزمن يتحرك ثانية الى صفنا ويدعم مصالحنا ، لا اقصد مصالحنا القومية فحسب ، فأميركا تدعم أسلحتها بصورة عاجلة ، وتقترب شيئا فشيئا من حلبة الصراع وروسيا السوفياتية ـ التي اصدرت حكمها الخاطىء علينا بعدم الصلاحية ، والتي تساومت مع المانيا لتكسب مناعة عابرة وتحصل على نصيب من الغنائم ـ اخذت الآن تستكمل قوتها واستطاعت غرس اقدامها في مواقع امامية لتؤمن على نفسها • اما اليابان فربما تكون في هذه الفترة فريسة شعور جارف بالخوف من استمرار الحرب ، وهي تنظر بقلق الى روسيا والى امريكا وتقوم بدراسات واسعة لما تعتقد انه سيكون في صالحها ، ومتفقا مع دواعي العقل والحكمة • وها هي بريطانيا بعلاقاتها الدولية الشاملة والتي ظهرت وكأنها على حافة الدمار ، والسيف المصلت يكاد ان يمزق احشاءها تظل صامدة خمسة عشرا شهرا • وقد وجهت كل جهودها للاعداد الحربي ، تدرب الرجال وتحشد للمعركة كل ما لديها من كفاءة وجهود ، ونظرت الدول الصغيرة المحايدة والدول المستعمرة الى السماء ، فرأت فيها نجوما لا تزال متألقة فهزتها الدهشة والسعادة معا • واستيقظ الرجاء والعطف معا في قلوب مئات الملايين من البشر ، فستنتصر قضية الخير ، ولن يذهب الحق هباء تحت اقدام الطغاة ، وستظل راية الحرية ـ التي يمثلها في ذلك الحين علم بريطانيا ـ عالية خفاقة مهما عصفت الرياح واشتدت الانواء •

اما من ناحيتي انا وزملائي الاوفياء ، الذين نحيا في ذروة الصورة ، تصلنا ادق المعلومات عن كل شيء ، فقد نازعنا كثيرا القلق ، وانتابتنا الهموم ، فمازال خطر حصار الغواصات ماثلا ، وعلى القضاء على هذا الخطر تستند كل خططنا ، وقد خسرنا معركة فرنسا ، ولكنا ربحنا معركة بريطانيا ، وكان علينا في ذلك الحين ان نخوض غمار معركة الاطلنطي •

الفصل الثاني عشر

الحرب المتسعة

توثقت صلتي مع الرئيس روزفلت مع بداية السنة الجديدة وكنت قد ارسلت اليه تهنئتي بمطلع العام الجديد ، وفي ١٠ كانون ثاني ١٩٤١ حضر الى داوننج ستريت انسان لطيف ومعه اوراق الاعتماد يرغب في لقائي • وكانت البرقيات من واشنطن قد اخبرتنا ان هذا الرجل يعتبر ممثلا خاصا موثوقا به للرئيس • ومن اجل هذا فقد رغبت ان يستقبله السيد براندن براكن في المطار • وفي اليوم التالي دعوته لنتناول الغداء معا ، وكذا التقيت بالرجل القدير هوبكنز الذي ادى دورا هاما في جميع شئون الحرب • وكان روحا نابضة بالحيوية في جسد نحيل واهن ، وكان منارة تكاد ان تهوى ولكنها ترسل ضوءها الساطع الذي يهدي الاساطل الضخام الى مرساها الامين • وكان يتسم بروح من الدعابة الساخرة ، وكثيرا مارغبت في صحبته وخصوصا عندما يسوء الموقف ، ولقد كان في مقدرته ايضا ان يتخلى عن الرقة والدماثة وان ينطلق في كلمات قلبية جارحة ، وكانت خبراتي قد هدتني الى ان اكون واحدا من هذا النوع عندما تحتم الظروف •

ودام اجتماعنا الاول ثلاث ساعات ، وبسرعة توصلت الى مميزات شخصيته الديناميكية ، وما يتعلق بها من المهام • وكنا في اقسى فترات الهجوم على لندن ، بينما تنهال علينا المتاعب من الداخل كذلك ولكن تبين لي ان هذا الرسول الخاص من الرئيس ، ذو اهمية عظيمة لحياتنا ومصيرنا ، وقال لي وعيناه تتالقان والهدوء والتحفظ يغلف حديثه : ان الرئيس مصمم على ان

نكسب الحرب معا فأرجو ان لا تخطىء في تفهم حديثي حين أقول :

« لقد ارسلني هنا لاخبرك بأنه مهما تفاقم الثمن ، وأيا كانت الوسيلة ، فسيظل يؤازركم حتى النصر ، وبالرغم من اي مصير شخصي يواجهه فلن يتوانى عن تقديم كل عون في وسع الطاقة البشرية انتقدمه حتى تبلغوا غايتكم»

ولا شك في ان كل من عرف هاري هوبكنز في مدى سني الحرب يرسم الصورة التي قدمتها عن شخصيته · ومنذ التقينا بدأت تنمو الصداقة بيننا ، وتسمو على كل الانفجارات والزلازل ، ولقد كان اضمن وأقرب وسيلة للاتصال بالرئيس ، فلقد ظل هذا الرجل لسنوات عديدة موضع السر والثقة للرئيس روزفلت ، وباعث الامل الذي يحفزه ويشجعه · واستطاع هذان الرجـلان ـ واحدهما مساعد بدون منصب رسمي ، والاخر يتولى مهام منصب الرئاسة ـ اتخاذ القرارات ذات النتائج الخطيرة بالنسبة لكافة البلاد التي تتحدث اللغة الانجليزية · وكان هوبكنز بكل تأكيد يحتفظ بنفوذه الشخصي على الرئيس ولذلك لم يكن يتيح الفرصة لظهور اي منافس له في صفوف الامريكيين · ولقد يصدق عليه قول الشاعر جراي : « ان المقرب لا صديق له » ، ولكن هذا لا يهمني ، فها هو يبدو امام عيني نحيلا هزيلا واهنا ، ولكنه ينبض بالفهم العميق لمشاكلنا · ومحور هذه المشاكل كما يتفهمها يتلخص في اندحار هتلر وتدميره وذبحه فضلا عن عدد اخر من الاماني والاهداف · ولا شك في ان تاريخ امبركا لم يعرف الكثيرين من طراز هذا الرجل النادر الفياض بالاخلاص ·

وكان هاري هوبكنز يستشف دائما اعماق القضايـا ، ويصـل الـى جذورها · وقد حصرت عددا من المؤتمرات التي كان يشهدها حوالي عشرين او اكثر من الشخصيات الكبيرة صاحبة السلطة · وعند ما تمتد المحادثات وتتهـادى ، ويصل الكثيرون الى طريق الصواب ، كنت اجد هوبكنـز يسأل الرئيس دائما بصراحة وعناد : « حسنا يا سيدي الرئيس ··· هذه هـي المسألة التي تحتاج الى حلنا واقرارنا ، فهل نحن اولا على اهبة الاستعداد لمواجهتها ؟ » والنتيجة الضرورية لذلك هي مواجهة المشكلة ، ومعنى ذلـك حلها والسيطرة عليها ، لقد كان قائدا عظيما للرجال ، ولم يكن احد في مقدوره التفوق على حماسته وحكمته حين الازمات ، وكان ولاؤه للضعفاء والفقراء يسير جنبا الى جنب مع مقته الشديد للطغيان ، ولا سيما عندما يبدو هـذا الطغيان في موقف المنتصر ·

***

واستمر الهجوم الجوي المدمر علينا بكل مناورته ، مع تغير يسيـر ، فقد تأكد هتلر انه عاجز عن سحق بريطانيا بغاراته الجوية المباشرة ، وكان هذا الفشل هو الهزيمة الاولى التي ذاق مرارتها • ولم تنجح هجماته الوحشية في تحويل الشعب وحكومته الى موقف الخضوع • واخذ الاعداد لغزو روسيا في مطالع صيف سنة ١٩٤١ يستأثر بالكثير من قوة المانيا الجوية ، ولم تكن الهجمات الكثيرة القاسية التي شنت علينا حتى أواخر شهر أيار تمثل كل ما لديه من قوات وبالرغم من انها سببت لنا الكثير من المتاعب والماسي فانها لم تكن على جانب كبير من اهتمام القيادة العليا الالمانية أو الفوهرر ، بل كان استمرارها على بريطانيا العظمى في تقدير الفوهرر تمويها ضروريا ومناسبا ليخفي استعداده ضد روسيا •

وكانت آماله الواسعة تخيلَ اليه ان السوفيات كالفرنسيين سينهارون خلال ستة أسابيع • وان كافة القوات الالمانية ستكون محتشدة لتوجيـه ضربة قاضية لبريطانيا في خريف ١٩٤١ • وفي خلال ذلك سيسأم الشعب مـن عناده • وتستنفذ قواه ، بفضل حصار الغواصات والغارات الجوية البعيدة المدى اولا ، ثم من الهجمات الجوية على مدنه ومرافقه ثانيا • وقد استبدلت عملية « سبع البحر » بالنسبة لبريطانيا ، بعملية باريا روسا » بالنسبة لروسيا ، بالنظر الى الجيش الالمانـي • أما بالنظر الى الاسطول فقد تلقى تعليمات بأن يركز اهتمامه على طرق مواصلاتنا عبر الاطلنطي ، كما امر السلاح الجـوي بالتركيز على موانينا والمداخل الموصلة لها ، وكانت هذه الخطة ابعد ضررا من الهجمات المتفرقة العمياء على لندن وأهلها الآمنين • ومن يمن الطالـع بالنسبة لنا ان الالمان لم يستمروا في تنفيذها بكل ما تبقى لديهم من قوات ، وبرغبات حازمة ، وأفسد سوء الاحوال الجوية في شهري كانون الثاني وشباط خطط العدو ، واذا استثنينا الغارات التي شنها على كارديف وبورتسماوث وسوانس ، فان قوات دفاعنا المدني قد وجدت الفرصة للراحـة المناسبـة • ولكنها لم تضعها هباء بل استغلتها كاملة ، وعندما تحسنت الاحوال الجوية ، شن الهجوم القاسي ثانية ، واخذ السلاح الجوي الالماني في شهر اذار فـي تنفيذ ما عرف حينئذ « بالتجول على الموانيء » • وكانت غاراته فردية او مزدوجة ، ومع خطورتها الشديدة فقد فشلت في ايقـاف الحركة بموانئنـا • وتعرضت بورتسماوث في ٨ آذار ، مدى ثلاث ليال متوالية لهجـوم شديـد الوطأة انزل بأرصفتها خسائر فادحة ، وشن هجوم على مانشستر وسالفورم في يوم ١١ وفيما تلا من الليالي وفي ١٣ و ١٤ قامت الطائرات الالمانية بغارة

شديدة على « كلايد » للمرة الاولى ، فقتلت وجرحت ما يزيد على الفي شخص • وظلت احواض السفن متعطلة عن العمل حتى شهر حزيران • ولم تنزل اقصى الضربات الا في شهر نيسان حيث كانت كوفنتري ، في ٨ منه هدفا لنيران حامية • أما في سائر الايام فقد نزلت أفدح الخسائر ببورتسماوث وشنت على لندن هجمات قاسية في ١٦ و ١٧ فقتل أكثر من الفين وتلثمائة انسان ، واصيب ما يزيد عن ثلاثة الاف بجراحات بالغة ، واستمر العدو في محاولته التدمرية لموانئنا الهامة بغارات قد تستمر في بعض الاحيان اسبوعا بأكمله • وتهدمت مدينة بريستول ، واستمرت الغارة على بلايموث بين ٢١ ، ٢٩ نيسان ، وبالرغم من ان الحرائق الخادعة قد ساهمت في انقاذ الارصفة والاحواض الا ان انقاذ ذلك كان على حساب المدينة • وبلغ الهجوم غايته في اول ايار عندما اغير على ليفربول وميرسي سايد سبع ليال متواصلة ، فأصبح سبعة وستون الف انسان بلا مأوى ، وقتل وجرح حوالي ثلاثة الاف شخص ، وتعطل عن العمل تسعة وستون ملاذا من ملاذات البواخر التي يبلغ مجموعها مائة واربعا واربعين ، واصبحت الحمولة التي يمكن تفريغها منخفضة الى الربع • ولو استمر العدو في هجماته علينا ، لغدت معركة الاطلنطي بالنسبة لنا شاقة للغاية ، ولكنه كان قد عاد أدراجه ، وقصف مدينة « هل » لمدة ليلتين متتاليتين بنيرانه الحامية وقد دمرت قنابله المتفجرة والحارقة مساكن اربعين الف مواطن ، ونسفت مخازن الاغذية ، وأصابت الاعمال الهندسية البحرية بالشللمدة شهرين كاملين • وفي هذا الشهر ايضا شن هجوما على « بلفاست » التي سبق له الهجوم عليها مرتين قبل ذلك •

وكانت اخر الغارات اسوأ من سابقتها ، ففي ١٠ أيار عاد العدو الى لندن بقذائفه المحرقة التي اضرمت أكثر من الفي حريق ، ودمرت حوالي مائة وخمسين انبوبا ضخما للمياه ، حدث ذلك أثناء المد الادنى لنهر التايمز فصعب اصلاحها ، وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثاني كانت نيران مئات الحرائق ما زالت متأججة ، وقد عز القضاء عليها ، وحتى ليلة ١٢ كانت لا تزال أربع منها مشبوبة النيران ، وقد لحق الضرر بخمسة أرصفة ، وحدثت احدى وسبعون اصابة كان عدد المصانع من بينها يبلغ النصف على الاقل • وتعطلت لمدة أسابيع محطات السكك الحديدية سوى محطة واحدة رئيسية • وظلت الطرق في حالة غير طبيعية حتى أوائل حزيران ، وسقط أكثر من ثلاثة الاف شخص بين قتيل وجريح ، وتعتبر هذه الغارة من زاوية اخرى تاريخية ، فقد نسفت مجلس العموم واحدثت قنبلة واحدة أضرارا فادحة

يحتاج اصلاحها الى عدد من السنين • وحمدنا حسن الحظ لان احدا من أعضاء المجلس لم يكن بالقاعة ، واسقطت مدفعيتنا وطائراتنا المحاربة بدورها ست عشرة طائرة مغيرة ، وهو أكبر عدد تكبده العدو اثناءغاراته الليلة •

وكانت هذه الغارة ـ دون أن ندرك ذلك في حينه ـ اخر غارات العدو علينا ، ففي ٢٢ أيار تحول كيسلرنغ بمقر قيادة اسطوله الجوي الى بوزن ، ولم تات بداية شهر حزيران حتى كانت قوات العدو الجوية بأكملها قد تحولت الى الشرق • فمرت ثلاث سنوات قبل ان يتحرك دفاعنا المدني بتنظيماته ليعالج اثار « الهجوم الصغير » الذي شن في شباط ١٩٤٤ ، وما تبعه من غارات شديدة الوطأة بالصواريخ والقذائف الطائرة • وكاد عدد ضحايانا من المدنيين في الاثني عشر شهرا المنصرمة بين حزيران سنة ١٩٤٠ ، وحزيران سنة ١٩٤١ ، يبلغ حوالي ٣٨١ و٤٣ انسانا قتلوا بينما أصيب بجراح خطرة حوالي ٨٥٦ر٥٠ اخرين ، مما يصل بالمجموع الى ٢٣٧ و٩٤ شخصا •

ان التفريق بين الامور العسكرية والسياسة يصبح متعذرا في الحروب الكبيرة ، فكل المسائل في القمة تصبح واحدة ، وطبيعي ان يعتبر الجنود الشئون العسكرية فريدة في نوعها ومتفوقة في أهميتها وان ينظروا الى الاعتبارات السياسية نظرة استهزاء وزراية ، ولا ريب في ان كلمة «سياسات» قد لاقت الكثير من الصعوبات ، بل صادفت التشويه لاقترانها بالسياسات الحزبية ، ولذلك فان معظم ما كتب عن هذا القرن الفياض بالماسي تؤثر عليه الفكرة القائلة انه في زمن الحرب تؤخذ بكل عناية الاعتبارات العسكرية وحدها ، وان الجنود كثيرا ما تصدم أفكارهم المستنيرة الحرفية تطاولات الساسة ، الذين يلعبون بنيران المعارك الفاصلة انسياقا لمصالحهم الشخصية والحزبية ، ولكن العلاقات الدائمة التي شملتها الثقة بيني وبين وزارة الحرب ورؤساء الاركان ، واختفاء كل اثر في بريطانيا للحزبية في تلك الاثناء ، قد قربت رجهات النظر وقللت من سبل الخلاف الى أدنى حدوده •

***

وبينما استمر القتال في شمال أفريقيا الشرقي سائرا في طريق النصر وبينما ظل اليونانيون يخترقون لهم طريقا داخل البانيا بكل شجاعة ، كانت الاخبار التي نستقيها عن تحركات الالمان ورغباتهم تؤكد يوما بعد يوم ان هتلر يقترب من التدخل في البلقان والبحر الابيض على أوسع نطاق ، وقد علمت في بداية شهر كانون الثاني ان وحدة جوية المانية قد نزلت بصقلية ،

وادركت ما تعنيه هذه التحركات من خطر على مالطة ، ومن تهديد للامـال التي راودتنا بشأن اعادة الملاحة في البحر الابيض واصبت بالذعر من جراء انتقال قوات المانية وغالبا ما تكون من المدرعات الى طرابلس ، ولم يكن فـي مقدورنا ان نرتاب في ان خطط الالمان كانت تسعى الى ايجاد ممر من الشمال الى الجنوب عبر ايطاليا الى افريقيا كما تريد في الوقت ذاته وبنفس الاساليب مصادرة تحركاتنا عبر البحر المتوسط شرقا وغربا ٠

وكان الخطر الذي يجابه الدول البلقانية ومن بينها اليونان وتركيـــا يتجسم أمام عيني في صورة اغراء او ارهاب لتنضم الى امبراطورية هتلـر فان لم ترضخ لهذه الرغبة اجتاح حدودها ، وبذلك نشهد ثانية الحركـــة الخطيرة التي رأيناها في النرويج والدانمارك وهولندة وبلجيكا وفرنسا ، فعاد مرة ثانية في جنوب شرقي أوروبا ٠

احقا ٠٠٠ سيحكم على الدول البلقانية بالعبودية واحدة بعد اخرى ومن بينها اليونان النافحة ثم تعزل تركيا حتى تضطر اخر الامر الى فتح أبوابها امام الجيوش الالمانية الجرارة ، فتزحف على فلسطين ومصر والعـــــراق وفارس ؟٠٠ الا يوجد أمل في تكتيل وحدة بلقانية وجبهة بلقانيــة ، تتقاضى حتى من العدو افدح الاثمان عن هذا العدوان الجديد ، اليس في الاحتمال ان تكون للمقارنة البلقانية لالمانيا ردود فعل بالغة الاثر توقظ الامل في روسيـا السوفياتية ، لا شك ان في هذا الميدان تتاثر مصالح الدول البلقانية نفسها ، وقد تتاثر المشاعر أيضا اذا سمح البلقانيون لمشاعرهم ان تتاثر على حسابهم ، وهل نقدر بمواردنا المستنزفة والمتزايدة في الوقت نفسه ان نعثر على المشاركة الخارجية الاضافية التي تسعى لتوحيد هذه الدول المتماثلة للعمل من أجـل هدف واحد او ان الواجب علينا من ناحية اخرى ان نركز اهتمامنا علـى أمورنا ، وان نحرز نصرا من حملتنا في شمال شرق افريقيا ، وان نـــدع اليونان والبلقان وتركيا وغير ذلك من بلاد الشرق الاوسط تنزلق نحو هاويتها المنتظرة ؟ لا شك في ان هذا الراي الاخير يعفي الكثيرين من المتاعب والتفكير ، وقد لقى معضدين له في رسائل كل الضباط الذين كانوا يحتلون مراكز ثانوية ، والذين بعثوا بارائهم ، ولا شك في ان هؤلاء الضباط قد انتهزوا فرصة الحديث عما حل بنا من اضرار ٠ ولكن معلوماتهم لم تكن كافية ليعرفوا المصير الذي كان ينتظرنا لو سرنا وفق وجهة النظر هذه ولو استطاع هتلر دونقتـال ان يجبر اليونان على الخضوع وان يرغم جميع الدول البلقانية على طاعتـه ، وان يفرض على تركيا عبور قواته الى الجنوب والشمال ، الا نتوقع حينئذ

ان يتفاهم مع السوفيات على السيطرة على هذه المناطق الشاسعة وتقسيمها ، ثم يقوم بتأجيل موقعته الفاصلة معهم الى أجل اخر في حسابه ؟ ثم الم يكن في مقدوره اذا دانت له كل هذه الرغبات ان يشن هجومه على روسيا بجيوش اكبر وفي ميعاد أسبق ؟ وفي الفصول التالية سأحاول التعمق في بحث سؤال رئيسي وعرضه في صورة سليمة ، ويتلخص هذا السؤال فيما اذا كان ما نفذته الحكومة البريطانية بالغ الاثر بصور واضحة على تصرفات هتلر في جنوب شرق أوروبا ، وانه ادى الى نتائج بعيدة المدى في نظرة روسيا للامور أولا ، وفي مصيرها ثانيا • ؟ وطوال شهري شباط واذار كانت تصلنا اخبار طيبة من ميدان الشرق الاوسط فقد أعد الدفاع عن مالطة فاستطاعت الصمود في اخر لحظة ، لغارة مجتاحة قام بها السلاح الجوي الالماني عليها من صقلية ، واقتربت عملية احتلال الامبراطورية الايطالية في الاريتريا والصومال والحبشة من نهايتها المنتصرة ، وفي خلال شهرين استطاع جيش الصحراء ان يستمر في زحفه الى مسافة خمسمائة ميل وأن يقضي على جيش ايطالي يربو تعداده على تسع فرق ، وسيطر جيش الصحراء على بنغازي ومنطقة برقة باكملها ••

وبالرغم من كل هذا فقد ظلت المسائل المحفوفة بالخطر من دبلوماسية وعسكرية بالغة الاهمية وكان الجنرال ويفل تتراكم عليه التبعات مما حدا بلجنة الدفاع ان توفد في ١١ شباط وزير الخارجية والجنرال ديل رئيس أركان حرب الامبراطورية الى القاهرة ، وطار ايدن من القاهرة الى أثينا يرافقه ويفل وغيره من الضباط الكبار لاجراء مشاورات مع ملك اليونان وحكومته •

وقرأ المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان أثناء الاجتماع بيانا تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد أصبح قاعدة لاعمالنا فاني أورد القسم الحيوي منه هنا تاما ! اود ان أؤكد ثانية ان اليونان كحليفة تضمن قرارات كان قد انتهى اليها مجلس وزراء اليونان في اجتماع عقده في اليومين السابقين ، ولان هذا البيان قد أصبح قاعدة لاعمالنا مخلصة ستظل ماضية في القتال باصرار حتى يتحقق النصر ، ولا تقتصر عزيمتها على مناهضة ايطاليا وحدها بل يشمل ذلك اي عدوان الماني •• وأيا كان الامر وسواء كان لليونان نصيب في صد الهجوم عن مقدونيا أم لم يكن فانها ستظل مدافعة عن أراضيها حتى ولو اضطرت الى الاعتماد على قوتها وحدها دون عون اخر وقد أبانت الحكومة اليونانية أنها صممت على هذا القرار قبل ان تتأكد من مقدرتنا على مساعدتها أم عدم استطاعتنا ذلك ، فأكد المستر ايدن لهم ان عزم

لندن قد انعقد مع كل قادتها في الشرق الاوسط على بذل كـل عون لمؤازرة اليونان ، واستمرت المؤتمرات العسكرية ومحادثات الاركان طوال الليلة ، وفي اليوم التالي ارسل الينا ايدن في ٢٤ شباط ببرقية بالغة الاهمية هذا نصها:

« لقد هزتنا صراحة المفاوضين اليونانيين ووضوح آرائهم في سائـر الشؤون التي اتممنا بحثها واني على يقين من اصرارهم على المقاومة لاخر جهد في طاقتهم ، وليس امام حكومة صاحب الجلالة سوى ان تؤازرهـم بصرف النظر عن كل النتائج ، ونحن على يقين تام باننا قد آثرنا السبيـل السوي ، ولما كانت الساعة قد اعلنت الحادية عشرة فاني متأكد انك لا ترغب في الاطالة ، مؤجلا التفاصيل حتى التقي بكم ، ان المغامرة ضخمة ، ولكن الامل في النجاح كبير »

وعلى هدى من هذه المكاتبات التـي حملت موافقة كل من ديـل وويفـل أصدرت وزارة الحرب تاييدها للاقتراحات تاييدا كاملا ٠

سافر المستر ايدن بعد ذلك الى انقرة ، حيث قام بمشاورات طويلة مع الاتراك ، ولم يصل الى نتائج مشجعة ، فالاتراك يدركون الصعوبات التـي تواجههم كما ندركها نحن ولكنهم يقررون ان ليس في وسعنا تقديم قوات بالقدر الكافي لتغيير نتيجة أي معركة فاصلة ولانه لا توجد لديهم اية قوة هجوميـة فقد رأوا ان ما يستطيعون ان يقوموا به هو ان تلتزم بلادهم بموقف الحياد الى أن يستكملوا جوانب النقص التي يحسون بها ، والى أن تصير قواتهـم على درجة كافية من التاثير والفعالية ، اما اذا شن عليها هجوم فانهـا ستخوض غمار الحرب بكل تاكيد ، وقد ادركت كاملا الموقف الذي تواجهـه تركيا ، وبدا من الصعب عليها ان تلتزم بالمعاهدة التي ابرمت معها قبل الحرب لتغير الظروف وعندما بدات الحرب في عام ١٩٣٩ ، واستعد جيش تركيا الباسل ولكن هذا الجيش يعتمد على وسائل الحرب العالمية الاولى والمشاة الاتراك من افضل الجنود ومدفعيته مقبولة ولا غبار عليها ، ولكنهم يفتقرون الى الاسلحة الحديثة التي اكدت منذ ايار ١٩٤٠ انها فاصلة في الحرب الدائرة كما ان الطيران التركي كان في صورة بدائية هزيلة الى درجة تستدعي الرثاء وليس في حوزتهم ايضا دبابات او سيارات مدرعة ، كما لا توجد عندهـم المصانع التي تنتجها او تشرف على صيانتها وليس في حوزتهم اية مدافـع مضادة للطائرات او الدبابات اما سلاح الاشارة فساذج ، والرادار شيء لا ندري به ، كما ان جنودها ليس لديهم التاهيل الكافي لادراك هذه التطـورات الحديثـة ٠

أما بلغاريا فقد قامت المانيا بتسليحها بكميات ضخمة من العتاد مـــن شتى الانواع التي غنمتها من فرنسا والبلاد المنخفضة بعد معارك سنة ١٩٤٠ وبهذا أمكن لالمانيا ان تجد فائضا من العتاد تسلح به حلفاءها ، أما نحن فقد خسرنا كثيرا في دنكرك وكان علينا ان ندعم قواتنا لنصد اي هجوم على الوطن ونجابه اقسى الغارات على مدننا في الوقت الذي نواصل فيه القتال في الشرق الاوسط ، ولهذا لم يكن في مقدورنا أن نبذل الكثير ولا ان نضحي مما يلزمنا٠

وهكذا نرى ان الجيش التركي في تراقيا ، سيكون بالنظر الـى هـذه الظروف في حالة سيئة وربما يائسة تجاه الجيش البلغاري ، فاذا ضاعـــف هذا الخطر أسراب من سلاح الجو الالماني ووحدات من السلاح المدرع فـان مهام تركيا ستصبح فوق المستطاع ٠

وفي هذه المرحلة المهددة بخطر الحرب كان الامل الوحيد هو خلق كتلة واحدة تضم جيوش يوغوسلافيا واليونان وتركيا وكان هذا ما نسعـى الـى تحقيقه وتمثل عوننا لليونان في ارسال ، بعض الاسراب الجوية من مصرعندما بدأ موسوليني زحفه عليها واقتصرت المرحلة التالية على تقديم عرض بارسال وحدات فنية وقد رفضه اليونانيون ، لاسباب أحسبها معقولة جدا ، وها نحن نقدم على المرحلة الثانية حيث رأينا ان في وسعنا حشد جيش صحراوي قوي في بنغازي وفيما وراءها ، لنوفر الجزء الاعظم من قوات المناورة والاحتيـــاط الاستراتيجي لمصر ٠

وكنا الى ذلك الوقت لم نقدم على أية خطوة سوى تركيز معظم الاحتياطي الاستراتيجي من قواتنا في الدلتا ، ورسم الخطط والاستعداد الملاحي لارسال قوات الى اليونان ، واذا تغيرت الظروف بحدوث تغير في وجهة النظر اليونانية او لاي أسباب اخرى فسنقدر على مواجهة الوضع ومقابلة الطوارىء ، وكان من المحتم علينا بعد كل الذي لقيناه من ضغط شديد ان نستطيع انهاء القتال بنجاح في الحبشة والصومال والاريتريا ، وان نضم عددا من الفرق الـــى قواتنا المرابطة في مصر وفي الوقت الذي صعب فيه معرفة نوايا العدو او مدى ردود الفعل ونوعها عند الاصدقاء والمحايدين ، اتسع مجال الاختيار أمامنا وظل المستقبل بالنسبة الينا في غاية الغموض ، ولكننا لم نبعث بقواتنا بعـــد ولم نضيع اي يوم في الاعداد ٠

الفصل الثالث عشر

معركة الاطلنطيك

الشيء الذي اثارني حقا في غضون الحرب كان هو تهديد الغواصات فقد كنت متأكدا من فشل الغزو ، وقد مهدت ليقيني هذا نتائج المعركة الجوية فقد أحرزنا النصر الجوي ، وبذلك أصبح الغزو شيئا طيبا بالنسبة لنا ، حيث يخوض الانسان معاركه برضى بغض النظر عن شناعة الحرب وقسوة ظروفها ، ونحن الان نواجه خطرا شديدا اذ ان شريان حياتنا حتى في غمار المحيطات وخصوصا في مداخل جزرنا يهدد باستمرار وكان القلق ينتابني من جراء هذه المعركة اكثر مما لقيته واشد حين خضنا غمار المعركة الجوية المجيدة في سماء بريطانيا ٠

واستولى هذا القلق ايضا على الاميرالية الذين كنت دائما معهم في ود وتفاهم مستمرين ، وكان يتحتم علينا حماية شواطئنا من اي غزو واستمرار خطوط مواصلاتنا مع العالم الخارجي حرة دائمة ، وكان هذا العمل واجبا مقدسا يقتنع به اسطولنا ويحرص عليه ، وهكذا كنا دائمي التفكير والبحث في هذه الازمة ، وليست هذه المعركة قتالا عنيفا او اعمالا خلابة ولكنها عبارة عن أرقام ومخططات ورسوم بيانية لا يستطيع الشعب ولا الجماهير معرفتها ولا تفهمها ٠

فالى أي مدى تستطيع ان تصيب به حرب الغواصات وارداتنا وملاحتنا وهل في وسعها ان تصل الى حد القضاء على مقومات حياتنا وهنا لا يتسع المجال للحدس ولا للعواطف ولكنه يقتضي التخطيط الهادىء الدقيق ورسم الخرائط التي توضح احتمالات خنق حياتنا ، فاذا ما عقدنا مقارنة بين نتائج

هذه الحرب ونتائج الحروب الاخرى ظهر لنا ان لا قيمة للجيوش الباسلة المستعدة للوثب على الغزاة ، ولا لما أعد من خطط جيدة لمعركة الصحراء ، كما ان لا جدوى من الروح المعنوية العالية التي يتحلى بها شعب في مثل هذا الخضم المظلم ، وليس لنا ان نختار فاما ان نحصل على الغذاء والمؤن والسلاح من العالم الجديد ومن الامبراطورية واما ان نحصل على شيء من ذلك ، اما الالمان فبعد ان استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك الى بوردو لم يضيعوا وقتهم عبثا ، بل سارعوا الى اقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة على مدى الساحل المحتل ، وبعد شهر تموز اضطررنا الى تحويل ملاحتنا من مداخل ايرلنده الجنوبية حيث لم نستطع حشد طائرات مقاتلة ، وفرض علينا ان تدور كل سفننا حول ايرلنده الشمالية ، وقد ظلت الستر هنا صامدة بعون الله ، كحارس لا ينام ، فميرس وكلايد هما رئتان بدونها لا نستطيع استنشاق الهواء ، واستمرت البواخر الصغيرة تمر قرب الشاطىء الشرقي وشواطىء القناة على الرغم من تهديد الغارات الجوية ، وهجمات زوارق الطوربيد الالماني ، فضلا عن الالغام المبثوثة في كل مكان ولكن مرور كل قافلة بين فيرث أوف فورث ولندن وحده قد أصبح عملية يومية في غاية الصعوبة ٠

وأصبحت الاضرار التي لحقت بملاحتنا التجارية فادحة ، في مدة الاثني عشر شهرا من تموز ١٩٤٠ الى تموز ١٩٤١ ، وهو التاريخ الذي كنا نستطيع ان نؤكد فيه انباء انتصارنا في معركة الاطلنطيك وكان اشد الاسابيع علينا منذ نشب القتال هو الاسبوع الذي ينتهي بيوم ٢٢ ايلول سنة ١٩٤٠ وفي خلاله منينا بغرق حمولة أكثر من اية حمولة خسرناها في ظروف مشابهة من عام ١٩١٧ وتزايد الضغط علينا باستمرار ، بينما الخسائر كانت تربو على اعداد البواخر الجديدة التي نسرع في بنائها بصورة مذهلة ، اما موارد الولايات المتحدة الهائلة فقد كانت تقترب من ميدان العمل ببطء وعلى هوادة ، ولم يكن احتمالنا ان نرث فجأة عددا من السفن كتلك التي غنمناها بعد استسلام النرويج والدانمارك والبلاد المنخفضة في ربيع سنة ١٩٤٠ ، فقد فقدنا سبعا وعشرين باخرة أغلبها كان في قافلة محروسة ، ثم منينا بقافلة اخرى في شهر تشرين أول بالاطلنطيك ، غرقت منها اثنتان وعشرون من بواخرنا التي يبلغ مجموعها اربعا وثلاثين ، ومع مرور أيام شهري تشرين ثاني وكانون أول بدأت مداخل ومصبات الانهر كالميرس وكلايد تمثل خطرا اشد من اية عوامل اخرى في الحرب ، وكنا نستطيع انذاك ان ننزل على ايرلنده ديفاليرا وان نعيد

الينا بالقوة السيطرة على الموانىء الجنوبية • ولكني اعلنت سابقا انني لن اتخذ خطوة كهذه الا دفاعا عن النفس ، وعلى اية حال لم تكن مثـل هـذه الخطوة الجريئة العنيفة لتخفف شيئا من حدة الموقف وقسوته ، وكان الاجراء الوحيد هو ان نضمن حرية الدخول والخروج من نهري المرسى والكلايـــد واليهما • وكانت القلة العارفة بحقيقة الموقف عندما تجتمع في كل يوم ينظر كل منهم الى الاخر ، وفي استطاعة الانسان ان يدرك حالة الغواص تحت سطح البحر وهو يعتمد من دقيقة الى الاخرى على الانبوبة الهوائية الممتدة للخارج، ومدى شعوره حين يرى مجموعـة من كلاب البحـر تحاول ان تمزق له هذه الانبوبة ، بالاضافة الى انه لا يجد فرصة للوصول الى السطح لان الواقع ان ليس هناك سطح بالنسبة الينا ، ولم يكن الغواص سوى ستة واربعين مليونا من البشر في جزيرة غاصة بالسكان ، يستمرون في عمل كبير وشاق هو الحرب في شتى انحاء العالم ، وقد استقر هذا الغواص بحكم الطبيعة والجاذبية في قاع البحر ، وماذا يمكن لكلاب البحر ان تصنعه بانبوبة هوائية وكيف يستطيع اقصاءها عنه او تحطيمها ؟ ••

وثمة جانب اخر لحرب الغواصات ، فقد كانت الاميرالية في بداية الامور تركز اهتمامها قبل كل شيء في ايصال البواخر سليمة الى الميناء ويحـــدد نجاحها قلة عدد البواخر الغارقة ، ولكن هذه التجربة لم تعد الان ملائمة ، فقد اصبحنا نعرف ان حياة هذه البلاد وجهودها الحربية يركزان بصـــورة ثنائية على حمولة الواردات التي يتم انزالها على الميناء في سلام ففي الاسبوع الذي انتهى بيوم ٨ حزيران اي في غمار معركة فرنسا وقصـــة انقاذهـا ، استطعنا ان نوصل للبلاد حمولة مليون وربع مليون طن فضلا عما نستورده من الزيت ، وقد تدرجت الارقام في الهبوط من هذه الذروة حتى نهاية تموز الـى اقل من ثلاثة ارباع المليون طن كل اسبوع وفضلا عما اصابنا من تحسن فـي شهر اب فقد كان المعدل الاسبوعي لا يزال في هبوطه ولم يتعد طيلة الشهـور الثلاثة الاخيرة من العام ثمانمائة الف طن في الاسبوع ، واصابني هذا الهبوط المشئوم في الواردات بقلق شديد ، وارسلت الى لورد البحر الاول في منتصف شهـر شباط سنة ١٩٤١ • رسالة بخط يدي اقول فيهـا « ان الارقام تشير الى ان وصول البواخر المحملة في شهر كانون ثاني كان اقل من نصف مـــا وصل الينا في مثل هذا الشهر من السنة الماضية »

ونظرا لوسائل التامين الكثيرة وتقدمها ، وتسيير السفن ، وتحويـــل الطرق البحرية ومحاولات تطهير البحر من الالغام المبثوثة ، وعدم ابحارنـا

في المتوسط ، وامتداد طرق مواصلاتنا في الزمن والمسافة ، والتخلف في الموانىء نتيجة للغارات الجوية وعمليات التعتيم ، كل ذلك ادى الى هبوط انتاج حركتنا الملاحية الى حد مزعج تفوق خطورته كل ما اصبنا به من اضرار ، وازدحمت موانينا يوما بعد يوم بالبواخر التي يتاخر تفريغ شحناتها ولم يات شهر اذار حتى غدت البواخر المصابة تبلغ حمولتها حوالي مليونين وستمائة الف طن ، لا يستطيع اكثر من نصفها مباشرة العمل لما يلزمها من استصلاحات ٠

وفوق خطر الغواصات دهمنا خطر اخر تمثل في الطائرات التي تذهب الى اعماق المحيط تبحث عما تفترسه من البواخر ، وكانت الفوكا وولف ٢٠٠ « المعروفة باسم كوندور » هي اشد هذه الطائرات خطورة وان كان عددها قليلا في بداية الامر لحسن حظنا وفي مستطاع هذه الطائرات ان تقلع من بريست او بوردو لتقوم بجولة على شواطىء الجزر البريطانية ثم تتزود ثانية بالوقود من النرويج لتؤوب في اليوم التالي الى مقرها الاول ، وفي وسع هذه الطائرات في الذهاب والعودة ان تبصر قوافلنا الكبيرة تحتها المكونة من اربعين او خمسين باخرة ، ارغمنا على تسييرها في قافلة واحدة بالنظر الى قلة ما نجده من وحدات الحماية ، وهي تقوم برحلاتها من الجزر البريطانية واليها داخلة وخارجة ، وفي مقدور هذه الطائرات ان تسقط على هذه القوافل او البواخر المنفردة قذائف ماحقة وان ترسل في ذات الوقت اشارات لاسلكية للغواصات المتحفزة لتوجهها الى قطع الطريق عليها ٠

ودب النشاط في الطرادات الالمانية العنيفة ، فالاميرال شير تعمل الان في جنوب الاطلنطيك متوجهة الى المحيط الهندي ، وقد استطاعت خلال ثلاثة اشهر اغراق عشر بواخر تبلغ حمولتها ستين الف طن ثم تمكنت من الافلات والرجوع الى المانيا ، وكانت « هيبر » لاجئة في ميناء بريست ، وفي نهاية شهر كانون ثاني تلقت البارجتان ـ الطرادتان شارنهورست وغنيزناد ـ بعد ان تم قبل قليل اصلاحها مما لحق بهما من تعطيل فيمعركة النروج ،تلقتا امرا بالمسير الى شمال الاطلنطي ، بينما تقوم « هيبر » بالاغارة على الطريق البحري الممتد الى سيراليون واستطاعت الطرادتان خلال شهرين اغراق او أسر اثنتين وعشرين باخرة تبلغ حمولتها مائة وخمسة عشر الف طن ، اما « هيبر » فقد اغارت على قافلة في طريقها الى الوطن بالقرب من جزر الازور ، ولم تكن لحقت بها وحدات للحماية بعد ، واستطاعت في اغارتها الوحشية التي استمرت زهاء ساعة كاملة اغراق سبع بواخر من تسع عشرة باخرة

تألفت منها القافلة دون ان تحاول قط انقاذ الناجين من البحر ، ثم أتـــت سالمة بعد يومين الى بريست ، وقد اضطرتنا هذه الطرادات المفزعة الى ان نحشد كل ما لدينا من بوارج حربية ضخمة في تامين القوافل ، وقد مضى وقت ولم يكن في قاعدة القائد العام لاسطولنا غير بارجة وحيدة ٠

ولم تكن بسمارك قد انضمت الى البواخر المستخدمة بعد ، ولا شك في ان الاميرالية الالمانية كانت ترقب اتمامها بصبر نافد ، واكمال قرينتها تيربيتز ، ولم يكن هناك سبيل يمكن لهتلر ان يستخدم فيه بارجتيه الهائلتين بطريقـــة أكثر فائدة وجدوى من وجودهما على أهبة الاستعداد دائما في الاطلنطيك ، واشاعة الامتناع عن خروجهما المحتمل من وقت لاخر وكان مثل هذا العمـل سيفرض علينا ان نركز قواتنا بقدر المستطاع في سكابافلو أو ضواحيها ،لنكون كفوءا لاستعداده ، بينما يظل هو حرا تماما في اختيار وقت العمل ، ولاضطرار البوارج لان تذهب الى قواعدها بين الحين والحين بسبب احتياجها الى بعض الترميمات والاصلاحات فقد كان يتعذر علينا دائما الاحتفاظ بمستوى مـــن التفوق والكفاءة ، فأي خطر مفاجىء كان كافيا لتدمير هذه الكفاءة ٠

وظللت افكر ليل نهار في هذه المشكلة المرعبة ، وتجمع أملي في نصـــر مؤكد ، في قدرتنا على اثارة حرب طويلة الان الى أن يأتي اليوم الذي نملك فيه التفوق الجوي ، وتقف دول كبيرة ـ كما هو المحتمل ـ الى جانبنا ، ولكن هذا الخطر الذي كان يقف بالمرصاد لاسباب حياتنا كان يفعمني الما ، وفـي بداية شهر اذار نقل الاميرال باوند الى وزارة الحرب اخبارا عن ابتلاع البحر لمجموعة اخرى من البواخر ، واستمعت الى الارقام ، ثم قلت لباوند بعد هذا الاجتماع الذي تم في غرفتي بمجلس العموم : (علينا ان نضع هذه المشكلة في اعتبارنا وان نهتم قبل أي شيء اخر ، وسأعلن بداية حرب الاطلنطيك) وأشبه هذا الاعلان اعلاني السابق عن معركة بريطانيا منذ تسعة اشهر ، ويعني ذلك الايعاز الى كافة الدوائر والوزارات المختصة بتركيز اهتمامها وجهودها على حرب الغواصات ٠

وانشأت (لجنة معركة الاطلنطي) لرغبتي في متابعـــة هذه المشكلـــة واعطائها مزيدا من العناية والاهتمام ، ولاستطيع باستخدامهـــا توجيـــه التعليمات الضرورية لازالة المصاعب والعقبات وفرض العمل على معظـــم الدوائر والفروع المختصة ، وبدأت هذه اللجنة في اجتماعات اسبوعية يشترك فيها كل الوزراء والمنفذين المعنيين من عسكريين ومدنيين ٠ ويمتد الاجتماع الاسبوعي الى ساعتين ونصف تقريبا ، نستعرض خلاله كل أمر ، ونبحث في

كل موضوع ، بل نقتل المشكلة بحثا وتمحيصا ، لننتهي الى قرارات واضحة ، وهكذا وجدت هذه اللجنة الجديدة التي كوناها من الدوائر الواسعة لقيادتنا الحربية التي تضم الالوف من الرجال ذوي الخبرة والولاء ، والتفت حول هذه اللجنة مئات العيون الفاحصة القلقة ٠

وفي هذه الاونة اخذت الغواصات تستخدم طرقا جديدة اصبحت تعرف باسلوب (جماعات الذئاب) ويعنى هذا الاسلوب ان تشترك مجموعة من الغواصات في عمل واحد ، وان تنقض على الفريسة دفعة واحدة من جوانب مختلفة ، وكانت هذه الهجمات انذاك تشن ليلا ، وعلى سطح البحر ، وفي غاية السرعة ، وكان في مقدرة المدمرات وحدها ان تلحق بهذه الغواصات بينما لم تكن اجهزة المكافحة ذات جدوى ، وكان الحل يتمثل في زيادة عدد الحارسات السريعة كالغواصات ، وفي تحسين الرادار بصورة جوهرية ، بحيث تقدر شاشته على انذارنا باقتراب الغواصات قبل وصولها واخذ العلماء والبحارة والطيارون يبذلون كل ما في استطاعتهم ، وبرغم ذلك كانت النتائج تمشي على مهل ، وكنا في احتياج الى سلاح جوي ينسف الغواصات العائمة ، والى وقت ندرب خلاله قواتنا على ذلك ، فاذا ما توصلنا الى سد هذين الاحتياجين فان الغواصات ستمضي الى الاعماق كوضعها المعتاد ، ويصبح في مقدورنا معالجة ذلك بوسائلنا القديمة وخبراتنا التي مهدنا عليها ، لكن هذا لم يتحقق الا بعد مرور عامين ٠

وفي خلال ذلك كان برايان المعروف وسواه من قادة الغواصات الالمانية يستخدمون في اندفاع اسلوب (جماعات الذئاب) الذي انتجه الاميرال دونتس قائد سلاح الغواصات ، وقبطان الغواصات الذائع الصيت في الحرب العالمية الاولى ، ولكن عدالة القصاص لم تمهلهم فقد غرق بارايان مع جميع رجاله على ظهر غواصته (يو ٤٧) في ٨ اذار بواسطة المدمرة وولفيرين .وما مرت تسعة أيام حتى نزل الغرق بالغواصتين (يو ٩٩ ويو ١٠٠) في قتال اشتد أواره عقب مهاجمتهما لاحدى القوافل ، وكان قائداهما من المع الضباط البحريين ، فأدى فقدان هؤلاء الثلاثة المتازين الى ضعف هجوم الغواصات ، وكان القادة الذين تبعوهم الى العالم الثاني من طرازهم كفاءه وشجاعة ، ففي شهر اذار غرقت خمس غواصات في المداخل الغربية ورغم ان هجوم الغواصات قد الحق بنا أضرارا بالغة ، تمثلت في (٢٤٣) الف طن ، غير (١١٣) الف طن تكبدناها على أيدي الطائرات ، فان الجولة من معركة الاطلنطي قد انتهت نتيجة متعادلة بيننا وبين العدو ٠

ولما رأت الغواصات خسائرها الفادحة في المداخل الغربية ، اتجهت الى الغرب أي الى المياه التي لا يمكن للمدمرات الكثيرة ان تصل اليها بالنظر الى حرماننا من موانيء ايرلندة الجنوبية ، والتي لا تقدر على حمايتها جويا بالنظر الى بعدها ، ولم يكن في مقدور مدمراتنا ان تحرس قوافلنا المقلعة من المملكة المتحدة في طريقها الى هاليفاكس غير مسافة ربع الطريق فقط ، وفي بداية شهر نيسان أغارت ارتال من الغواصات بطريقة (جماعات الذئاب) على قافلة بريطانية عند خط الطول ٢٨ درجة ، غربا ، قبل ان تلحق بها الوحدات المدافعة عنها ، وقد غرقت عشر بواخر من اثنتين وعشرين مقابل غواصة واحدة ، واضطررنا الى أن نبحث عن وسائل كافية لحمايتنا ، والا فان نهايتنا ستكون قريبة ٠

وتقع جزر نيوفوندلند وغرينلند وايسلنده بين كندا وبريطانيا العظمى ، وهذه الجزر جميعها تقع بالقرب من جناح الدائرة الكبرى بين هاليفاكس وسكوتلندا ، وفي استطاعة قوات تكمن في (نقطة الوثب) هذه ان تسيطر على الطريق كله بعد توزيعه الى قطاعات ، وكانت غرينلند لا يوجد بها اي مورد ، أما الجزيرتان الاخريان فالافادة منهما مستطاعة ، وكان من الاقوال الشائعة « ان من يسيطر على ايسلنده وبيده مسدس يمكنه ان يسدده في ثقة الى انكلترا وامريكا وكندا » وكانت هذه الفكرة هي التي دفعتنا الى احتلال الجزيرة بعد موافقة الاهالي عندما احتل الالمان الدانيمرك في عام ١٩٤٠ واقمنا فيها قواعد في نيسان عام ١٩٤١ لفرق حراستنا البحرية وطائراتنا وبهذه الطريقة امتد اتساع حراستنا السطحية الى خط الطول (٣٥) درجة غربا ، وبالرغم من ذلك فقد بقيت هناك ثغرة مروعة في الغرب ، لم يكن في مقدورنا انذاك سدها ، وفي شهر ايار أغير على قافلة آتية من هاليفاكس عند خط الطول (٤١ غربا) وخسرنا تسع بواخر ، قبل أن تلحق النجدة بالقافلة ٠

وبدا من المحتم علينا فرض الحماية من الطرف الى الطرف أي من كندا الى بريطانيا ولهذا طلبت الاميرالية في ٢٣ ايار من حكومتي كندا ونيوفوندلاند اعداد ميناء سنت جون في نيوفوندلاند كقاعدة أمامية لوحدات الحراسة المشتركة ، وكانت الاستجابة سريعة ، فلم تأت نهاية الشهر حتى تحققت الحراسة الدائمة على طول الطريق ، ومنذ ذلك الوقت تعهد الاسطول الملكي الكندي بأن يقوم بحماية القوافل في القطاع الغربي من طريق المحيط ، بامكانياته وحدها وكان في استطاعتنا ان نضمن من ايسلنده ومن بريطانيا العظمى حماية كافية على باقي الطريق ومع ذلك فقد ظلت القوات التي لدينا

قليلة الى درجة مزعجة واستمرت خسائرنا في التزايد ، وقد استطاعت الغواصات وحدها في الاشهر الثلاثة المنتهية باخر ايار اغراق ١٤٢ باخرة تبلغ حمولتها ٨١٨ر٠٠٠ طن منها ٩٩ باخرة بريطانية ٠

وفي غمار هذا التوتر الشديد ، قام الرئيس روزفلت ، بمقتضى السلطات التي خولها له الدستور الاميركي ، ولانه القائد الاعلى للقوات المسلحة ، بمد يد المعونة العسكرية لنا ــ فقد أصدر أمرا بعدم السماح للغواصات الالمانية والسفن الاخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الاميركي ، وان يضمن له وصول الذخائر التي كان يرسلها الى بريطانيا سالمة حتى منتصف الطريق على الاقل ، وتمخض عن الخطط التي كانت قد أعدت منذ زمن طويل مشروع يقتضي بأن تتضامن الدولتان الناطقتان بالانكليزية في حماية المحيط الاطلنطي، ولاقناعنا بوجوب اقامة قاعدة لنا في ايسلنده ، فقد بادر الرئيس روزفلت الى اتخاذ الخطوات اللازمة لاقامة قاعدة جوية أميركية في جرينلند ، وكان من المسلم به ان الالمان انشأوا محطات لرصد الاحوال الجوية على الشاطيء الشرقي من الجزيرة في مواجهة ايسلنده ، ولهذا أتى عمل الرئيس في وقته المناسب واصدر الرئيس اوامره الاخرى التي تقضي بأن تتوجه السفن المصابة في معارك البحر المتوسط او غيره من البحار لاجراء عمليات اصلاحها في الاحواض الاميركية ، مما يسر الكثير من العبء الملقى على أحواضنا ٠

وفي مطلع شهر نيسان وصلتنا انباء رائعة ، فقد تلقيت برقية من الرئيس في ١١ نيسان يخبرني فيها ان اميركا قد قررت توسيع دائرة أمنها التي تجوب فيها دورياتها ، وهو الاجراء الذي اتخذته منذ ان نشبت الحرب ، الى خط يمر بكل مناطق شمال الاطلنطي الواقعة الى الغرب من خط الطول ٢٦ درجة غربا ، وتحقيقا لهذه الغاية فهو يقترح ، ان تستخدم الطائرات والقطع البحرية العاملة من غرينلند ونيوفوندلند ونوفاسكوتيا والولايات المتحدة وبرمودا وجزر الهند الغربية مع توقع امتداد ذلك الى البرازيل ، وحثنا على ان تصله تحركات قوافلنا في طريقة غاية في السرية (لنتمكن بمجموعات دورياتنا من التنقيب عن سفن الاعداء او طائراتهم التي تعمل الى الغرب من خط منطقة الامن المذكورة) ومن جهة اخرى سيسرع الاميركيون في الاعلام بالمناطق التي تحدد دورياتهم وجود السفن او الطائرات المعادية فيها ، وقد ارسلت هذه البرقية مباشرة الى الاميرالية وانا اشعر بارتياح بالغ ٠

واعلنت حكومة اميركا في ١٨ نيسان خط الحدود الجديد الذي يفصل بين نصف الكرة الارضية الغربي ونصفها الشرقي وهو الذي اشار اليه

الرئيس في برقيته السابقة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح هذا الخط هو الحدود البحرية لاميركا ، وقد شملت الممتلكات البريطانية التي تقع في القارة الاميركية او بالقرب منها ، وغرينلند وجزر الازور ثم شملت بعد قليل ايسلنده كذلك وأكد هذا القرار أيضا أن السفن الحربية الاميركية ستقوم بأعمال الدورية في مياه نصف الكرة الغربي ، وسترسل الينا مباشرة عن أي تحركات معادية ، لكن أميركا حرصت على موقف الحياد ولم يكن في مقدورها آنذاك ان تضفي حمايتها على قوافلنا ، فظلت بريطانيا وحدها تضطلع بعبء هذه المتكلة طيلة الطريق ٠

وكانت سياسة الرئيس الجديدة بعيدة النتائج ، واستمر نضالنا ، وقد خف عبء كبير من أعبائنا ليقوم به الاسطولان الكندي والامريكي ، وبدأت امريكا رويدا رويدا تقترب من حلبة الصراع ، وقد قوى هذا التيار العالمي اختراق البارجة بسمارك الاطلنطي في نهاية شهر أيار ، فعلى أثر ذلك اعلن الرئيس في ٢٧ أيار – وهو التاريخ الذي غرقت فيه بسمارك – ان انتظارنا حتى يدهمنا الخطر نوع من الانتحار ، ولهذا فقد وسعنا أعمال دورياتنا شمالا وجنوبا في مياه الاطلنطي وما كاد الرئيس ينهي خطابه حتى اعلن في البلاد « حالة الطوارىء لاجل غير مسمى » ٠

وليس هناك أي برهان على ان الالمان قد هزتهم هذه الخطوات من قبل أمريكا فقد أراد الاميرالان ريدر ودونتس ان يصدر الفوهرر أمرا بتوسيع المجال للغواصات الالمانية ، ويطلق لها حرية العمل في اتجاه الساحل الامريكي وصد البواخر الامريكية اذا سارت في قوافل أو بدون أضواء ولكن هتلر ظل عنيدا في موقفه ، لانه كان لا يأمن عاقبة الحرب مع أمريكا ، ويصمم على ان تتجنب القوات الالمانية أي استثارة من هذا النوع ٠

ونتيجة لاتساع نشاط العدو لحقت به خسائر فادحة ، ففي شهر حزيران، كان للعدو فضلا عن العدد الموجود تحت التدريب حوالي خمس وثلاثين غواصة في قلب البحر ، وكان ما يعده من غواصات جديدة يزيد بكثير عما لديه من بحارة مدربين ولا سيما القباطنة ذوي الخبرة والتجربة ، وهكذا بدأ عدد بحارة غواصاته الجديدة يقل تدريجيا وأصبحت غالبيتهم من الشبان قليلي الخبرة ولذلك فقد فاتتهم الدقة والمهارة الكافيتان ، وأدى شمول المعركة للاطراف البعيدة من المحيط الى عدم استمرار التعاون المخيف بين الغواصات والسلاح الجوي ، ولم يكن من قديم اعداد الطائرات الالمانية الكافية او تدرب طياريها على العمل فوق البحر ، ومع ذلك فقد استطاعت في خلال اذار

ونيسان وأيار ان تغرق (١٧٩) باخرة حمولتها (٥٤٥) الف طن ، غـرق معظمها في المناطق الساحلية ، ومن بين هذه السفن عدد تصل حمولته الـى أربعين الف طن غرق بسبب غارتين جويتيـن في غايـة العنف على أرصفـة ليفربول في بداية شهر أيار ، وقد حمدت الله لان الالمان لم يستمروا في شـن هجماتهم على هذا الجانب الواهن ، وفي الوقت نفسه استمر خطر الالغـام المغنطة مسلطا على سواحلنا غامضا وخداعا ، ينزل بنا أفدح الخسائر وان كانت قد بدأت تقل شيئا فشيئا ، وقد نهضنـا بقواعدنـا في ايسلنده وكنـدا ودعمناها فورا ، ووضعنا مخططات قوافلنا على هدى من هـــذا الاعداد ، وضاعفنا الطاقة الوقودية لمدمراتنا القديمة كما وسعنا مجال تحركاتهـــا ، وخاضت القيادة المشتركة التي كونت حديثا في ليفربول بكل امكانياتها غمار المعركة ، ومع تزايد المدمرات الحارسة بالاضافة الى خبرة بحارتها استطاع الاميرال نوبل تقسيمها الى وحدات دائمة ، لكل وحدة منها ، قائد معيـن ، وتقوت روح العمل الجماعي وتعود الرجال الاتحاد والتفاهم على العمل مع ادراك عميق لوسائل قائدهم ، وهكذا أصبحت وحدات المدمرات تخطو نحـو القوة والمتعة بينما بدأت قوات الغواصات تنحدر الى هاوية الضعف والوهن ٠

ولم يأت شهر حزيران حتى كنا قد صعدنا الى درجة التفوق ، وكنا نبذل كل جهد لتطوير اسلوب قوافلنا ، وتدعيم الدفاع عنها ، وتحسين الاسلحـة والاختراعات الحديثة ، وكانت احتياجاتنا الضرورية تتمثل في حيازة عـدد أكبر وأسرع من سفن الحراسة شرط قدرتها على تحمل لوازم الوقود لاطول زمن ممكن وانشاء اكبر عدد من الطائرات ذات المدى البعيد ، ورادار علـى جانب كبير من الكفاية والصلاحية ، ولم تكن الطائرات المقاتلة في القواعـد الساحلية تستوفى الشروط المطلوبة ، بل ظلت القوافل في احتياج لطائـرات تحملها البواخر لتنقض على اية غواصة تبدو على مدى اطلاق النار في وضح النهار . وتضطرها الى أن تنسحب الى أعماق المياه فيحال بينها وبين القتال ، أو لتخبر عنها القطع البحرية الاخرى فتصل الى المكان في وقت مناسب وقـد استطاعت في مدى قصير طائراتنا المقاتلة التي تطلقها أجهزة قاذفة اقيمت لهذا الغرض خاصة على ظهر البواخر التجارية العادية او البواخر التي تحولت الى بوارج وأمدها السلاح الملكي بالرجال ، استطاعت ان تواجه خطر طائرات « الفوكاولف » وكان الطيار المقاتل الذي ينطلق كصقر يطارد فريسة يعتمد في بداية الامر على احدى سفن الحراسة لانقاذ حياتـــه ، وبهذا أصبحـــت « الفوكاولف » فريسة مطاردة بعد أن كانت الطائر المنقض ، وفرض غزو هتلر

لروسيا على القيادة الالمانية توزيعا جيدا لقواتها ، وهكذا بعد ان ارتفعت خسائرنا في شهر نيسان الى القمة حتى بلغت ثلاثمائة الف طن اسبوعيا أخذت تهبط الى خمس هذا الرقم في أشهر الصيف ٠

وقام الرئيس الان بخطوة جديدة هامة ، فقد رأى انشاء قاعدة في ايسلندة ، وان ترابط بموافقتنا وحدات أمريكية بها ، بدلا من القوات البريطانية وفي ٧ تموز وصلت الحامية الامريكية الى الجزيرة فأصبحت جزءا من الدفاع عن النصف الغربي ، وأخذت قوافل أمريكا تحت حماية بوارجها تصل بصفة مستمرة الى ريكجا فيك منذ هذا التاريخ ، وبغض النظر عن ان أمريكا لم تكن قد دخلت الحرب الا انها قد أصبحت تحمي البواخر الاجنبية مع قوافلها ٠

وفي قمة هذا الصراع ، قمت باصدار امر تعيين ، احسبه أهم ما اصدرت من تعيينات وأحسنها حظا ، في ادارتنا الحربية ، ففي سنة ١٩٣٠ ، وقد كنت خارج الحكم ، قبلت لاول مرة ولاخر مرة في حياتي ان أكون عضوا لمجلس ادارة احدى الشركات ، وكانت مؤسسة فرعية لمنظمة اللورد انشاب الخاصة بخطوط الملاحة الشرقية والهندية ، وظللت مداوما ثماني سنوات على حضور الاجتماع الشهري الذي يعقده مجلس ادارة الشركة ، وحريصا على تأدية واجباتي نحوها حرصا تاما ، وخلال الجلسات تعرفت شيئا فشيئا برجل من ألمع الشخصيات ، كان يرأس حوالي ثلاثين او أربعين شركة ، كانت واحدة منها ولعلها أصغر الجميع الشركة التي كنت أحد أعضاء مجلس ادارتها ، وقد عرفت على التو ان فردريك ليثرز هو الرأس المدبر والقوة الموجهة لهذه المنظمة بكاملها ، وكان واسع المعرفة ، ويمتلك الثقة به امتلاكا ، ومكثت الاحظه عاما بعد عام من منصبي المتواضع في الشركة التي يرأسها ، وكثيرا ما حدثت نفسي : « اذا نشبت حرب اخرى فهذا هو الرجل الذي في وسعه ان يقوم بالدور العظيم الذي أداه كبار رجال الاعمال الذين كانوا رهن توجيهي في وزارة الذخائر خلال عامي ١٩١٧ ، ١٩١٨ ٠

وكان ليثرز قد أبدى استعداده لوزارة الملاحة لدى قيام الحرب في سنة ١٩٣٩ في المساهمة بخدماتها ، ولم تقم بيننا صلة وثيقة حينما كنت في الامبرالية لان المهام التي كان يقوم بعبئها فنية وليست توجيهية ، أما الان وفي سنة ١٩٤٠ عندما واجهت صعوبات معركة الاطلنطى ، وكنا في امس الحاجة الى تنسيق الاعمال بين ادارة شئون باخراتنا التجارية وبين تحركات تموينـنا بالسكك الحديدية والسيارات من موانينا المجهدة ، فقد لمع اسمه في ذاكرتي ، وتنبهت

اليه في ايار ، وبعد مشاورة طويلة نظمت من جديد وزارتي الملاحة والنقل في جهاز واحد متكامل ، وعهدت الى ليترز رئاسته ، ولاعطى له امكانيات السيطرة اللازمة عليه أوجدت منصب وزارة النقل البحري ووليته عليها ، وكنت احس بحرج شديد امام مجلس العموم حين اقفز باشخاص الى اعلى المناصب الوزارية دون ان يكونوا قد نموا داخل المجلس ومكثوا به بضع سنين وتستبد الرغبة بالاعضاء المحنكين من غير اعضاء الوزارة لان يعملوا على مضايقة كل قادم جديد ، فيجد نفسه بدون اية مناسبة متضايقا من اعداد الخطب والقائها في المجلس ، لذلك رجوت العرش ان يتفضل بمنح الوزير الجديد لقب « لورد » •

واصبح اللورد ليثرز منذ ذلك التاريخ حتى انتهاء الحرب قائما بالاشراف الكامل على وزارة النقل الحربي ، وصار اسمه يصعد رويدا رويدا وقد استطاع ان يحرز ثقة رؤساء اركان الحرب وجميع اركان الحرب وجميع الوزارات في الوطن ، ووثق صلاته بالامريكيين اللامعين في ذلك الميدان ، وكان على صلة طيبة وفي غاية النجاح بالمستر لويس دوفلاس رئيس مجلس الملاحة الامريكي ، الذي غدا بعد ذلك سفير بلاده في لندن ، وفي استطاعتي ان أقرر ان ليثرز كان مساعدا هاما لي على تصريف شئون الحرب ، وقل ان عجز هذا الرجل ذو الكفاءة الممتازة عن القيام باعباء المهمات التي كنت القيها على عاتقه •

وحينما كانت تفشل الوسائل الوزارية او الاركانية في تصريفها لبعض الشئون كنقل فرقة اضافية او تحويلها من البواخر البريطانية الى الامريكية ، او انجاز بعض المهمات العاجلة كنت التمس عونا شخصيا ، وعلى التو اجد هذه التعقيدات قد حلت وكأنما مستها يد ساحرة •

ورابطت البارجتان ـ الطرادتان الالمانيتان شارنهورست وغنيزناو في بريست طيلة هذه الاشهر القاسية ، وكان انطلاقها الى الاطلنطي محتملا في اية لحظة ، وبفضل السلاح الجوي الملكي شل نشاطهما فقد استمرت طائراتنا تشن الهجوم عليهما وهما في الميناء ، منزلة بهما افدح الاضرار ، مما تركهما عاطلتين عن العمل طيلة العام ، وقد توجه انتباه العدو الى اعادتهما لالمانيا ولكنهما عجزا عن تحقيق ذلك أيضا حتى عام ١٩٤٢ ، وسنعرف في اللحظة المناسبة مقدار نجاح اسطولنا وقيادة سلاحنا الجوي الساحلي ، وكيف اصبحنا مسيطرين على الموقف في الداخل وكيف باتت الغواصات تنهار في نفس البحار التي عملت على تدميرنا فيها الى ان استطعنا ثانية باسلحتنا تطهير مداخل الجزر البريطانية •

الفصل الرابع عشر

ـ يوغوسلافيا ـ

فرض علينا ان نصل الى قرار حاسم بشأن جيش النيل ٠٠ هل نرسله الى اليونان ام لا وكان اجتياز هذا التساؤل في غاية الاهمية ، لا لمعاونة اليونان ومؤازرتها في محنتها وعذابها فحسب ، بل ايضا لتكوين خط دفاعي بلقاني يضم يوغسلافيا واليونان وتركيا لعدم الهجوم الالماني المحتمل مع ما يتضمنه ذلك من تاثير على روسيا السوفييتية ، لا يمكن ان نعرف مداه الان ، وان كنا لا نستطيع ان ننكر خطورته ، هذا اذا كان الحكام الروس قد تفهموا المخاطر التي تهددهم ، ولم يكن ما نقدر على ارساله هو الذي سيوجه المسالة البلقانية فغايتنا المعروفة هي اثارة العمل الجماعي وتنظيمه ، واذا استطعنا عن طريق التلويح بقوتنا ان نستثير يوغسلافيا واليونان وتركيا على الاشتراك في العمل ، فاننا سنقهر هتلر على الاختيار بين امرين ، اما ان يترك اطماعه الحالية في البلقان واما ان يخوض قتالا عنيفا مع جيوشنا المشتركة حيث يجد قوة واحدة متازرة في الميدان ، ولم يصلنا انذاك انه عقد العزم على زحفه الجرىء على روسيا ولو عرفنا ذلك في حينه لكنا على يقين اكبر من فوز خططنا وكنا نعرف انه يغامر بالسقوط بين مقعدين ، وقد يقهر على التحول عن مشروعه الضخم الى اتخاذ خطوات مبدئية في البلقان ، وهذا هو الذي حدث بالفعل ، ولم يكن في مقدورنا ان نصل الى معرفته آنذاك ، وقد يعتقد البعض ان ما افترضناه كان صحيحا ، او انه كان اصح مما كنا ندرك ، فقد سعينا الى ضم يوغسلافيا واليونان وتركيا في جبهة قوية ، اما واجبنا حتى ذلك الوقت فقد كان يفرض

علينا تعضيد اليونانيين ، ولجميع هذه الاهداف فقد كان موقف فرقنا الاربع في الدلتا في وضعه الملائـــم ٠

وفي مطلع مارس اخذت القوات الالمانية تنهال على بلغاريا ، واستعـــد الجيش البلغاري بكل قواه ، ووقف على اهبة الاستعداد على الحدود اليونانية وكانت الجيوش الالمانية بصفة عامة تزحف نحو الجنوب ، يؤازرها البلغاريون بشتى الطرق والوسائل ، واستأنف المستر ايدن والجنرال ديل في اليوم التالي محادثاتهما في اثينا ، وارسل الينا المستر ايدن على هدى ذلك ببرقية غايـــة في الاهمية ، غيرت بعض الشيء من افكارنا بلندن ، وبالرغم من ان الاميرال كنغهام كان مقتنعا بصحة ارائنا الا انه لم يدعنا في شك من الاخطار البحرية التي تهددنا في المتوسط ، والتي تحملها هذه الاراء وسجل رؤساء اركـــان الحرب العوامل العديدة التي تنمو باطراد متعارضة مع خططنا في البلقـــان وخصوصا مع نوايانا في تسيير جيش الى اليونان ولخص الرؤساء رأيهـــم في هذه العبارة : « الاخطار قد تزايدت على المشروع بصورة واضحة » لكنهـــم لم يرتابوا على الاطلاق في تأكيد القادة العسكريين العاملين في المنطقة بـــان الامور لا تدعو الى اليأس بأي حال من الاحوال وبعد ان اعملت التفكير منفردا في تشيكرز ليلة الاحد تلك وقبلت وجهات النظر التي عرضت بوزارة الحـــرب في الصباح الماضي ، ارسلت الخطاب التالي الى المستر ايدن ، الذي كـــان قد رجع الى القاهرة من اثينا ، وكان هذا الخطاب يشير الى تغير ملحوظ من موقفي ، ولكنني احمل كل المسئولية في القرار الاخير ، اذ انني كنت واثقـــا في قدرتي على ايقاف كل شيء لو اقتنعت وايقاف العمل اسهل دائما على كل انسان من العمل ، وقد جاء في خطابي :

« لقد حاولنا بكل الوسائل ايجاد اتحاد بلقاني ضد المانيا ، وعلينـــا ان نتذرع بالحذر فلا ندفع اليونان وحدها دون رغبتها الحرة ، الى المقاومة الباسلة ، في الوقت الذي ليس في مقدورنا مؤازرتها الا بمجموعة ضئيلة مـــن الجنود تستطيع ان تصل الى ميدان المعركة في الفرصة المواتية ، وقد تثـــار مشاكل امبراطورية هامة عندما نزج بالجيوش النيوزيلندية والاسترالية في عمل وصفته انت بالخطورة البالغة ٠ ولذا علينا ان نحرر اليونانيين مـــن احساسهم بالتزام الرفض لاى انذار الماني ، اما اذا اصروا من ناحيتهـــم على الكفاح فعلينا ان نؤازرهم في موقفهم بقدر المستطاع ولكن سرعة الزحف الالماني ستقف بكل تأكيد دون اشتراك جيوش امبراطورية كبيرة في القتـــال ، ولا تعتبر خسارة اليونان والبلقان بأى حال من الاحوال بالنسبة لنا خسارة

جوهرية بشرط ان تظل تركيا بكل امانة وصدق على الحياد ، ونستطيع ان نستولي على رودس ، وان نعد لاحتلال صقلية او طرابلس وتشير علينا جهات عديدة بأن الاطاحة بنا من اليونان يضر بسمعتنا في اسبانيا وفيشي ، اكثر من تركنا للبلقان ، الذي لا نقدر على الحيلولة بينه وبين السقوط في يد العدو ولضالة قواتنـــا ٠

وقد ارفقت بهذه البرقية التقرير الهام الذي وصلني من رؤساء اركان الحرب ٠

وعندما قرأ رسالتي سفيرنا لدى اليونان ، اصيب باليأس وخيبة الامل ، وارسل الى وزير الخارجية برقية يقول فيها (كيف يتسنى لنا ان نترك ملك اليونان وحده بعد ما ابدى له القائد العام ورئيس اركان حرب الجيش تأكيدات واضحة عن الفرص المتاحة للنصر ؛ انني لا اتصور موقفنا كهذا لاننا سنضع انفسنا موضع التشهير في اليونان وفي كافة انحاء العالم ، وسيشاع اننا نعرف الوفاء بالوعد ، فليس هناك مجال لان نترك لليونانيين حرية رفض او قبول الانذار الالماني ذلك لانهم قد بيتوا العزم على قتال المانيا وحدهم اذا لزم الامر والقضية الان هي : انمد لهم يد العون ام لا ؟

على هدى ذلك قررت وزارة الحرب تأجيل خطتها الى ان يصلنا رأى المستر ايدن ، وفي اليوم التالي وصلتنا برقية يعبر فيها عن رايه بقوله : « لا شك في انهيار اليونان دون ان نحاول انقاذها بالتدخل العسكري ، خصوصا بعد ان ادرك العالم كله ان انتصارات الصحراء قد وفرت لنا القوات المطلوبة ، سينذر بفاجعة محتمة ، فحينئذ ستهوى يوغسلافيـــا ايضـــا ، ولن نثـــق في امكانيـــات تركيا على الصمود اذا استطاع الالمان والايطاليون ان يحتلـــوا اليونان دون ان نقاومهم بأي مجهود من جانبنا ، ولا اشـــك في ان سمعتنـــا ستتأثر من طردنا من اليونان طردا معيبا، لكن القتال في اليونان وتكاليفـــه اخف بكثير على اي حال من ان نتخلى عنها لتقابل اقدارها بلا معين وبالنسبة الى الظروف الحاضرة ، فكلنا هنا نرى ان ما رايناه سابقا يجب ان ينفذ ويجب ان نمد اليونان بكل عون ٠

وذهبت انا ورؤساء اركان الحرب ، الى وزارة الحرب التي كانـــت تحيط علما بكل شيء اثر وقوعه لتقرر بصدده الرأى الاخير ، وهناك عرضنا القضية للبحث ، وعلى الرغم من ادراكنا للحقيقة الماثلة التي تؤكد عجزنا عن ارسال طائرات اكثر عددا من التي قد ارسلناها او من التي ما زالت في طريق وصولها ، فاننا لم نجد سبيلا للتردد ولـــم تختلف اراؤنا وقـــد ادركـــت ان

المسئولين هناك قد مروا بتجربة مفيدة ، لم يكن ثمة ريب على الاطلاق في انهم يقعون تحت اي ضغط سياسي من لندن ، وقد اقتنع سمطس بوجهة النظر هذه وهو الدقيق الراى ، الذي يتمتع باستقلال فكري خاص ، ولم يكن في طاقة اي انسان ان يدعي او يفترض اننا تطفلنا على اليونان واجبرناها على العمل ضد ارادتها ، اذ لم تكن ثمة دولة اكثر منها اقتناعا بالسير في الطريق الذي سلكته ، وكنا بقرارنا قد حصلنا على تعضيد كافة الرجال المسؤولين الذين أصدروا حكمهم في حرية كاملة ، وعلى هدى من أدراكهم التام للموقف من مختلف جوانبه ، وكان زملائي الذين حنكتهم التجارب قد انتهوا بكامل حريتهم الى النتيجة ذاتها ، وكان المستر منزيس الذي تثقل المهام كاهله بالنسبة لهذا الموضوع في غاية الشجاعة لقد كان من جذوة متقدة تنادي بالعمل وكان الاجتماع قصيرا والقرار حاسما والرد مختصرا وهذا هو : « رأي رؤساء أركان الحرب ، انه بالنظر الى اصرار قادة المنطقة ورئيس أركان حرب الجيش البريطاني ، ورؤساء الوحدات المعدة للعملية ، على وجهة نظرهم في ان يستمر تنفيذ القرارات السابقة ، فقد انتهى راي وزارة الحرب الى ان تتحمل أنت مسئولية تنفيذ العملية ، وهي في قرارها هذا تتحمل كافة التبعات ، وستتصل بحكومات استراليا ونيوزيلنده تنفيذا لهذا القرار ٠

وعلينا الان ان نتحدث عن مصير يوغوسلافيا ، كان الدفاع عن منطقة سلانيك يعتمد اعتمادا كاملا على دخولها الحرب ، وكان في غاية الاهمية ان نقف على حقيقة نياتها وقد اجتمع سفيرنا في بلغراد المستر كامبل في ٢ اذار بالمستر ايدن في أثينا ، وأوقفه على مدى الفزع الشديد الذي يستولي على يوغوسلافيا من المانيا ، وان الاحوال الداخلية ليوغوسلافيا يسودها القلق بسبب النزاع السياسي ، لكن هناك فرصة لضمان تأييد اليوغوسلافيين اذا ما أدركوا سياستنا في مساندة اليونان ، وارسل وزير الخارجية في ٥ اذار مستر كامبل الى بلغراد ومعه رسالة مخطوطة الى ولي عرش يوغوسلافيا الامير بول ، وقد صور المستر ايدن مآل يوغوسلافيا اذا وقعت في أيدي الالمان ، وأبدى له تصميم تركيا واليونان على الدفاع اذا وقع أي هجوم عليها ، فعلى يوغوسلافيا في مثل هذا الموقف ان تنحاز الينا ، وطلب من السفير ان يبلغ الامير بول شفويا ان بريطانيا قد أعدت قوات كبيرة برية وبحرية لتمد بها اليونان بصورة عاجلة وانه اذا ما وصل الى أثينا احد ضباط الاركان اليوغوسلافيين فسيشترك في المباحثات الدائرة ٠

وانعقد الكثير من الامل على ظروف الوصي ، فقد كان الامير انسانا محبوبا ، يحب الفنون ولكن سمعة الملكية في البلاد كانت سيئة للغاية ، وكان في هذه الاونة يحرص على موقف الحياد حرصا تاما ، وكان يخاف من تفسير الالمان لاية حركة تتخذ من جانب يوغوسلافيا على انها استشارة لهم ، فيزحفون جنوبا في اتجاه البلقان ، وقد ابدى اعتذاره عن قبول زيارة للمستر ايدن كان قد رغب في القيام بها ، وكان الرعب مستوليا عليه ، ولم يكن في وسع الوزراء والساسة المرموقين ان يبدوا رأيهم بوضوح ، ولكن كان هناك رجل واحد فقط يدعى سيموفيتش يخرج على هذا الاجماع وهو جنرال في السلاح الجوي ، يمثل العناصر الوطنية بين ضباط الجيش وقد أصبح مكتبه الخاص منذ حزيران مكانا سريا لمقاومة التسلل الالماني الى البلقان ، ومناهضة موقف الجمود الذي طبع تصرفات حكومة يوغوسلافيا ·

وقام الامير بول بزيارة سرية لبيرختيسغارن في ٤ اذار ، وانصياعا للتهديد الشفوي الشديد تعهد بأن تنحو يوغوسلافيا منحى بلغاريا ، وعندما عاد كانت في انتظاره وجهات نظر متعارضة في مجلس التاج ، وفي المحادثات الفردية التي قام بها مع القادة ـ سياسيين وعسكريين ـ وكان الجدل حادا ، ولكن الانذار الالماني كان حقيقة صارخة ، وعندما استدعي الجنرال سيموفيتش الى القصر الابيض حيث يقيم الامير بول على التلال المطلة على بلغراد ، عارض الاستسلام بشدة ، واكد ان مثل هذا القرار سترفضه بلاد العرب وان الاسرة المالكة ستواجه الاخطار ، ولكن الامير كان قد بذل تعهده السالف باسم بلاده ·

وعقد مجلس الوزراء ليلة ٢٠ اذار جلسة وانتهى فيها الى قرار الاشتراك في المعاهدة الثلاثية فاستقال ثلاثة وزراء احتجاجا ، ومن محطة جانبية للسكة الحديدية استقل رئيس الوزراء ووزير خارجيته القطار الى فيينا ، وأبرما الميثاق في اليوم التالي مع هتلر ـ واذيع النبأ مباشرة من راديو بلغراد وسرعان ما أعقبته شائعات في جميع مقاهي العاصمة اليوغوسلافية ومنتدياتها عن الويلات المتوقعة ·

وكانت المجموعة الصغيرة من الضباط الموالية لسيموفيتش قد فكرت منذ أشهر في القيام بعمل ايجابي اذا ما استسلمت الحكومة للالمان ، وعندما شاعت في ٢٦ انباء رجوع الوزيرين من فيينا الى بلغراد رأى هؤلاء ان يبدأوا العمل ، ولسنا نعرف عددا كبيرا من الثورات كان في مثل نعومة ثورتهم ، حيث لم ترق قطرة من الدماء فقد قاموا باعتقال عدد من كبار الضباط ، وساق

رجال الشرطة رئيس الوزراء الى مكتب سيموفيتش حيث وقع مرغما على استقالته ، واخبر الامير بول بأن سيموفيتش قبض على ناصية السلطة نيابة عن الملك واصدر أمرا بحل مجلس الوصاية ، واقتيد على التو الى مكتب سيموفيتش الامير نفسه ، حيث فرض عليه وعلى زميله ان يوقعا على وثيقة تنازلهما عن الوصاية ، وامهل الامير بضع ساعات ليحزم متاعه ، وليغادر البلاد مع أسرته الى اليونان في الليلة نفسها ٠

وقد وضعت هذه الخطة وتم تنفيذها بواسطة مجموعة صغيرة من الضباط الوطنيين الصربيين الذين تحسسوا بوعي مشاعر الجماهير الحقيقية ، فاثار عملهم موجة طاغية من التأييد الشعبي ، وانطلقت الجماهير الصربية في شوارع بلغراد تهتف « الحرب ولا المعاهدة » والموت والعبودية » وتناثرت حلقات الرقص في الميادين العامة وانتشرت الاعلام الانكليزية والفرنسية في كل مكان ، ورددت الجموع الصربية اليائسة المناضلة النشيد الوطني في اندفاع عارم وشهد الملك في ٢٨ اذار صلاة شكر في كاتدرائية بلغراد ، وكانت الظروف وحدها هي التي خلصته من مجلس الوصاية ، وحضر الصلاة جمهور ضخم مندفع ، ووجهت علنا الاهانات لوزير المانيا المفوض ، وبصق الشعب على سيارته واثارت المفاجاة العسكرية موجة فياضة بالحماس والوطنية واستيقظ الشعب الذي كان قد حرم من حرية العمل ، تحت سلطة حكومة مستبدة ، وحكام فاسدين ، والذي رأى الكثير من الشباك تنصب من حوله ، استيقظ ليعلن تحديه للطاغية وهو يحلم بالفتح في عزة بطشه وسلطانه ٠

وكأنما اصيب هتلر بلدغة ثعبان ، فاهتاج ذلك الاهتياج المدمر الذي يعوق التفكير السليم لبعض الوقت والذي كان يؤدي به أحيانا الى أخطر مغامراته واكثرها جراة ، واستدعى في فورة اهتياجه رجال القيادة العليا الالمانية ، فأسرع جورنج وكايتل ويودل ، ولحق بهم على الفور ريبنتروب ، وقال ان يوغوسلافيا قد أصبحت عاملا مريبا في الخطة المدبرة ضد اليونان ، وفي خطة « بربروسا » القادمة ضد روسيا كذلك ، واستطرد قائلا ان اعلان يوغوسلافيا عن حقيقة نواياها ليس سيئا على كل حال قبل الشروع في عملية « بربروسا » ثم أضاف : يجب تدمير يوغوسلافيا ووحدتها القومية والعسكرية ، ويجب أن تنزل بها ضربة قاضية ، وامضى القادة العسكريون طيلة الليلة يعدون خطط العملية ويحضرون اوامرها ، وقد أيد كايتل وجهة نظرنا في ان الخطر الاكبر الذي تتعرض له المانيا يتمثل في هجوم من المؤخرة على الجيش الايطالي ، واستطرد قائلا : « وكان قرار هتلر بالهجوم على

يوغوسلافيا يعني نقض كافة الخطط والترتيبات العسكرية التي أعددناها حتى ذلك الوقت وفرض علينا ان نضع ثانية ترتيبات الهجوم على اليونان ، وان ننقل وحدات اخرى من الشمال عبر المجر ، أجل لقد فرض علينا الارتجال في كل شيء ·

وكان تاثر المجر متوقعا بصفة عاجلة ، وبالرغم من أن الغزو الالماني المباشر ليوغوسلافيا سيمر عبر رومانيا ، الا أن كافة سبل المواصلات تخترق الاراضي المجرية ، وكرد فعل لما حدث في بلغراد بعثت المانيا بوزير المجر في برلين الى بودابست بالطائرة ، ومعه رسالة فورية الى الاميرال هورتي الوصي على عرش المجر هذا نصها :

« ستمحى يوغوسلافيا من الوجود ، لمناهضتها علنا لسياسة التفاهم مع المحور ، ويجب ان تعبر معظم القوات الالمانية المسلحة اراضي المجر أولا ، لكن الغزو الرئيسي لن يتم عبر الجبهة المجرية ، وعلى القوات المجرية ان تتدخل في هذه الجبهة ، ومقابل هذه المعاونة سترد للمجر كل الاراضي التي كانت لها سابقا والتي ارغمت فيما مضى على التنازل عنها الى يوغوسلافيا ، ان المشكلة عاجلة تماما والمانيا تنتظر الرد السريع الايجابي » ·

وكانت المجر قد أبرمت مع يوغوسلافيا معاهدة صداقة في كانون اول ١٩٤٠ ، لكن الرفض الصريح لمطالب المانيا سيؤدي الى احتلال المانيا للمجر في غمار الزحف العسكري الذي أصبح متوقعا في كل حين ، ولا سبيل الى اغفال الاغراء الالماني برد مناطق الحدود الجنوبية التي انتزعتها يوغوسلافيا من المجر بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان الكونت تيليكي رئيس وزراء المجر يحافظ باستمرار على حرية بلاده في التصرف ، ولم يكن مقتنعا باية حال بانتصار المانيا في الحرب وعندما وقع المعاهدة الثلاثية ، وكان غير متأكد من استقلال ايطاليا كشريكة في المحور

وكان معنى انذار هتلر له أن يتخلى عن الوفاء ليوغوسلافيا بما تفرضه معاهدة الصداقة لكن القيادة المجرية العليا تحت قيادة الجنرال ويرث وهو الماني الاصل ، قد تسلمت زمام المبادرة منه ، ووضعت مع القيادة الالمانية العليا خطة مشتركة بدون أن تدري حكومة المجر ·

وقد أسرع تيليكي فاتهم الجنرال ويرث بالخيانة ، ووصلت برقية من وزير المجر المفوض في لندن الى رئيس الوزراء في ٢ نيسان سنة ١٩٤١ ، يخبره فيها ان وزارة الخارجية البريطانية تعتبر ـ كما ابلغته رسميا ـ ان مساهمة المجر في أية عملية ضد يوغوسلافيا اعلان من بريطانيا للحرب ضدها·

وهكذا رأت المجر نفسها في موقف اختيار بين مقاومة لا جدوى منهـــا لاختراق الجيوش الالمانية لاراضيها ، وبين الوقوف علنا ضد الحلفاء وخيانة يوغوسلافيا ، ولم يجد الكونت تيليكي سوى طريق واحد لانقـــاذ شرفـــه الشخصي ، فما تجاوزت الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم بقليل حتى كان قد ترك وزارة الخارجية وذهب الى غرفته الخاصة بقصر ساندور ، وبعـد محادثة تليفونية يغلب على الظن انها اخبرته باجتياز القوات الالمانية لحدود بلاده ، أطلق الرصاص على نفسه منتحرا ٠

وبذلك قدم حياته قربانا للتكفير عن نفسه وعن شعبه من جريمة الغزو الالماني ليوغوسلافيا ولا شك في ان هذا العمل قد برأ ساحته أمام التاريـخ ولكنه لم يوقف الغزو الالماني ، ولا ما تسبب عن هذا الغزو من نتائج ٠

وبدأت في خلال ذلك عملية زحفنا في اتجاه اليونان ، وقد سار الزحـف تبعا لترتيب قيامه من اللواء البريطاني المدرع الاول ، والفرقة النيوزيلندية ، والفرقة الاسترالية السادسة وقد جهزت هذه القوات بالعتاد الكامل علـى حساب غيرها من الفرق في الشرق الاوسط وكان المفروض ان يذهب في اثرها اللواء البولندي ، والفرقة الاسترالية السابعة ، واعدت الخطة على ان تأخذ قواتنا خط الياخمون الذي يبدأ من مصب النهر الذي يسمى الخط باسمه مارا بفيريا وادهيسا حتى الحدود اليوغوسلافية ، وكان على جيوشنا ان تنحاز الى الجيش اليوناني المقيم في هذه المنطقة ، والذي كان يبلغ حوالي سبع فـرق ، على ان يتولى القيادة العامة الجنرال ويلسون ٠

وكانت القوات اليونانية اقل عددا مما تعهد به الجنرال باباغوس بادىء الامر ، فقد كان القسم الاكبر منها يبلغ خمس عشرة فرقة في البانيا ، امـا الباقي ففي مقدونيا ، وقد رفض باباغوس ان يسحبها ، وقد أصبحت قوة غير عسكرية بعد أربعة أيام من الغزو الالماني ، وتكونت قواتنا الجوية من حوالي ثمانين ، طائرة محاربة أمام قوة جوية المانية يبلغ عددها عشرة أضعاف ذلك العدد ، وكانت نقطة الضعف في خط الياخمون تتمثل في جناحه الايسر الـذي يتمكن الالمان بزحف سريع عبر المناطق الجنوبية اليوغوسلافية من محاصرته ، ولم يكن هناك اتصال بالقيادة اليوغوسلافيـــة العليا حيث لم نكـــن نحن واليونانيون قد وقفنا على مدى استعدادها ونوع خطتها للدفاع وعلى اية حال فقد تمثلت امامنا في الارض الوعرة التي يجب ان يجتازها العدو ، وطبيعتها التي تستطيع ان تعطي الفرصة لليوغوسلافيين لتعويق الزحف فترة مـــن الزمن ، ولكن هذا الظن تبدد سريعا ولم يجد الجنرال باباغوس ان عمليـــة

الانسحاب من البانيا تستطيع ان تواجه حركة التطويق هذه فهي ستؤثر أولا في الروح المعنوية للجيش ، كما ان وسائل النقل السريعة غير متاحة للجيش اليوناني كما أن وعورة الطريق تجعل هذا الانسحاب متعذرا جدا ولا شك في ان تأخير قرار بهذا الشأن قد ضيع الفرصة المتاحة . وفي غضون هذه الملابسات وصل الى الجبهة الامامية لواؤنا المدرع في ٢٧ اذار ، وتبعته بعد أيام قليلـة الفرقة النيوزيلندية ·

ولا شك في ان أخبار ثورة بلغراد ، قد بثت في نفوسنا الارتياح والامـل فهي على أقل تقدير مكسب وحيد ملموس لما بذلنا من جهود متوالية في سبيـل قيام جبهة للحلفاء في البلقان · ولمنع ان تسقط الدول واحدة بعد اخرى في يد هتلر بسهولة ويسر ورؤى أن يظل ايدن في اثينا للتصرف في أمر تركيا · وان يتوجه الى بلغراد الجنرال ديل ، وكان في استطاعة كل انسان ان ييأس من وضع يوغوسلافيا الا اذا تكتلت سائر الدول المعنية في جبهة واحدة بمنتهـى السرعة ، وكانت الفرصة متاحة بالنسبة ليوغوسلافيا على الاقل لتسديـد ضربة الى مؤخرة الجيوش الايطالية المضطربة في البانيا ، واذا سدد الجيش اليوغوسلافي ضربة فورية حاسمة استطاع ان يحقق عملا جوهريا من وجهـة النظر العسكرية فمع ان بلادهم معرضـة للغزو من الشمال الا ان هـذه الفرصة ستمكنهم من احراز كمية هائلة من الذخائر والعتاد ، تقـدر علـى تموينهم في حرب العصابات بالجبال ، وقد أصبحت أملهم الوحيد ، ولا شك في أن تحقيق مثل هذه الضربة سيكون أمرا عظيما للغاية ، ويسدي صداه في ارجاء الجانب البلقاني بأكمله وهذا ما كنا ندركه تماما في لندن ·

لكن اخطاء السنين لا يمكن معالجتها في ساعات ، فعندما هدأت شعلـة الحماس العام التي اتقدت في صدر كل انسان ببلغراد بدأ كل منهم يدرك ان بلاده على حافة الهاوية ، وان ليس في مقدوره أن يقوم بأي عمل لانقاذهـا ، وكان في استطاعة القيادة العامة على الاقل ان تحشد قواتها لكن لم يكن لديها أية خطة استراتيجية ، ولم ير ديل الا الركود وسوء النظام وربما تكـون الحكومة اليوغوسلافية نتيجة لخوفها من الوضع الداخلي قد عزمت على تجنب أي عمل يثير المانيا ، وها هي الجيوش الالمانية تتدفق عليها كجبال من الثلج، وكان بمقدور أي انسان حين يتأمل في موقف الوزراء اليوغوسلافيين وارائهم ان يظن أنهم عقدوا العزم منذ أمد بعيد تجاه الحرب مع المانيا او الصلح معها والواقع انهم لم يبدأوا التفكير في هذا الصدد الا في غضون الاثنتين والسبعين ساعة · التي سبقت اجتياح الالمان لبلادهم ·

ولاحت طائرات المانيا في سماء بلغراد صباح ٦ نيسان ، وأمطرت الطائرات العاصمة اليوغوسلافية بوابل من القنابل ، ثلاثة أيام متوالية بصورة منظمة نموذجية وكانت تحلق على ارتفاع قريب من أسطح العمائر بدون أن تهاب أية مقاومة ، فشاع الدمار في كل أنحاء المدينة بصورة تخلو من احساس بالرحمة او الانسانية ، وقد عرفت هذه الغارات باسم « عمليات العقوبة » وعندما خيم الهدوء ثانية على سماء بلغراد في ٨ نيسان تكشف عن حوالي سبعة عشر الف انسان من أبناء العاصمة وقد صاروا جثثا هامدة على جوانب الطريق او تحت الانقاض وانطلقت الوحوش الضارية الى فك حصارها من حديقة الحيوانات بعد هذه الغيوم الثقيلة السوداء المليئة بالدخان والشرر، وسار دب ذاهل لا يدرك شيئا مما يحدث حوله وسط هذا الجحيم في خطوات ثقيلة ومرعبة نحو نهر الدانوب ، ولكنه لم يكن اخر دب لا يفهم ٠

وفي الوقت نفسه وبلغراد تعاني أهوال الغارات الوحشية ، كانت القوات الالمانية تجتاح من كل الجوانب حدود يوغوسلافيا ، ولم تتحرك القيادة اليوغوسلافية العليا لتسديد ضربتها الوحيدة القاتلة الى مؤخرة الايطاليين ، واعتبرت ان الواجب يلزمها بعدم التخلي عن كرواتيا وبلاد السلوفين ولذلك فقد حاولوا الدفاع عن جميع مناطق الحدود ، ولم يمض وقت طويل حتى وجدت الفرق اليوغوسلافية الاربع العاملة في الشمال نفسها ، محاصرة بالوحدات الالمانية المدرعة ٠ تؤازرها الوحدات الهنغارية التي عبرت نهر الدانوب ، والوحدات الالمانية والايطالية الزاحفة نحو زغرب ٠

واضطرت الجيوش اليوغوسلافية الى الانسحاب الى الجنوب في ارتباك وفوضى ، ووصل الالمان الى بلغراد في ١٣ نيسان ، وفي خلال ذلك كان الجيش الالماني الثاني عشر المرابط في بلغاريا قد اجتاح بلاد الصرب ومقدونيا واقتحم « موناستر » و « يانينا » في اليوم العاشر من نيسان ، فقطع بذلك كل اتصال بين يوغوسلافيا واليونان ودمر جيش يوغوسلافيا في الجنوب ٠

وما مرت سبعة أيام حتى اعلنت يوغوسلافيا استسلامها ، ونسف هذا الانهيار آمال الاغريق وكان هذا مثالا جديدا لخطة هتلر « عدو واحد في كل مرة » وقد بذلنا ما فوق الطاقة ، لايجاد نوع منظم من العمل ، ولكننا عجزنا ، وليس الخطأ في ذلك خطأنا ، وبدت لنواظرنا صورة قاتمة مروعة ، فقد تعاونت خمس فرق المانية ــ ثلاث منها مدرعات ــ على غزو أثينا من الجنوب وبدا لنا ان مقاومة يوغوسلافيا في الجنوب كانت تلقى تدميرا كاملا وان جناحنا الايسر على نهر الياخمون سيدهمه الخطر عما قريب وفعلا بدأ الهجوم على

حرس جناحنا في ١٠ نيسان ، ولكنه توقف اثر مقاومة عنيفة ظلت يومين في طقس ااس للغاية · وغربا كانت فرقة واحدة من الفرسان اليونانيين متصلـة بالقوات المرابطة في البانيا ، فرأى الجنرال ويلسون التراجع بجناحه الايسر نتيجة لما يلقاه من ضغط شديد ·

وتم هذا في ١٣ نيسان ، ولكن القوات اليونانية اخذت حينذاك فـي التمزق ، ومنذ ذلك الوقت أضحت القوات البريطانيـة في الميدان وحدها ، وبالنظر للخطر الذي يحدق بالجناح الايسر رأى الجنرال ويلسون التراجع به الى ترموبولي ، واستشار باباغوس فوافق على رأيه ، وعرض بدوره انتنسحب في هذه المرحلة الوحدات البريطانية عن اليونان ، وكانت الايام القليلة التي أعقبت ذلك أياما فاصلة وبعث ويفل في ١٦ نيسان برقية يقول فيها ان باباغوس اعترف للجنرال ويلسون بأن القوات اليونانية تواجه ظروفا قاسية ، وتعاني مصاعب جمة في التمرين والادارة نظرا للغارات الجوية ، وكانت أوامر ويفل الى ويلسون تشير باستمرار القتال بجانب اليونانيين ما داموا قادرين على القتال ولكنه ترك له حرية تقدير الجلاء عندمـا تحتم الظروف ، وأعطيت التعليمات لكافة البواخر الذاهبة الى اليونان بالعودة اذ كان الموقف في غناء عن امدادات جديدة أما البواخر التي بسبيل تنزيل حمولتها فيجب ان تتـم مهمتهـا ·

وقد قلت ردا على خطورة هذه الانباء غير المنتظرة انه لا يهمنا الاستمرار في اليونان ضد رغبة قائدها العام ، اذ نكون بذلك قد عرضنا البلاد للدمـار والخـراب ·

ولذلك اصدرت اوامري بالانسحاب فورا اذا ما رأت حكومة اليونـان ذلك وأضفت الى ذلك قولي : « أما كريت ·· فمن المحتم الابقاء عليها في يدنا بكل وسيلـة » ·

واستقل الجنرال ويلسون في ١٧ نيسان زورقه البخاري من طيبة الى القصر الملكي في تاتوي حيث اجتمع بالملك والجنرال باباغوس وسفيرنـا ، وقرروا التراجع الى ترموبولي كعمل حازم ممكن ، وكان الجنـرال ويلسون على يقين من مقدرته على الصمود بهذا الخط الى وقت ما ، وتركـز الحديث على أسلوب الانسحاب ونظامه ، واستقر الراي على الا تجلو الحكومـة اليونانية الا بعد أسبوع على الاقل ·

وقد أوردت سابقا اسم المسيو كوريسيس رئيس وزراء اليونان ، وقـد وقع الاختيار على هذا الرجل ليسد الثغرة التي خلفها ميتاكساس بوفاته ،

وكانت مؤهلاته التي رشحته لهذا المنصب ٠٠ سيرة شخصية نظيفة ، ومعتقدات واضحة ثابتة ، واتضح لي ان ليس في مقدوره ان يشاهد تدمير بلاده ، كما لم يعد في وسعه النهوض بأعبائه ، فحذا حذو الكونت تيليكي ، رئيس وزراء المجر وقرر ان يضحي بحياته ثمنا لكل ما حدث فانتحر في ١٨ نيسان ، ولا شك أن ذكراه ستبقى محفوفة بكل تقدير ٠

وكان الانسحاب الى ترموولي مهمة قاسية ، ولكن تغطية المؤخرة البارعة ، صدت رغبات الجيش الالماني المتحفزة ، منزلة به أضرارا جسيمة ، ولم يأت يوم ٢٠ نيسان ، حتى كانت جيوشنا قد سيطرت تماما على مواقعها الجديدة ، وكانت الجبهة قوية أما جنودنا فكانوا متعبين جدا ، واستمر الجيش الالماني في زحفه ببطء ، ولم تحدث أي محاولة شديدة وجادة لاختيار الموقع ، وفي اليوم نفسه اعلنت القوات اليونانية التي كانت لا تزال على حدود البانيا استسلامها وفي ١١ نيسان ابلغ جلالة ملك اليونان الجنرال ويفل ، ان الزمن وحده هو الذي لم يساعد اية قوة يونانية على مؤازرة الجناح البريطاني الايسر قبل أن يملك العدو فرصته للهجوم ، وقد قال ويفل ان واجبه في مثل هذا الموقف يهيب به ان يعمل على انسحاب سريع للجيش ، حتى ينقذ منه ما يمكن انقاذه وقد لاقى هذا الرأي قبولا تاما من الملك فيبدو انه كان يفكر فيه وعبر عما يشعر به من أسف لانه كان السبب في ان تلاقي الجيوش البريطانية هذا الوضع المحرج وأبدى استعداده لتقديم كل ما في وسعه من مساعدة ، لكن هذا كله كان هباء ، وفي ٢٤ نيسان استسلمت اليونان استسلاما تاما للزحف الالماني الجبار ٠

***

واصبحنا الان أمام عملية انسحاب تشبه تلك العمليات التي فرضت علينا عام ١٩٤٠ ، واتضح لنا ان اجلاء ما يزيد عن خمسين الف رجل بصورة منتظمة من اليونان ، في مثل هذه الاوضاع القاسية ، امر مستحيل ، ففي دنكرك كنا متفوقين جويا أما اليونان فالالمان يقبضون بيد من حديد على ناصية الجو ، وفي وسعهم الاستمرار في الاغارة على الموانىء وعلى القوات المنسحبة ، وكان من الواضح ان الجلاء لا يمكن أن يحدث الا اثناء الليل ، وان المفروض على الجنود الا يبصرهم العدو نهارا قريبين من الساحل ، انها قصة النرويج تعود من جديد ، مع تزايد الصعوبات التي تلقاها عشرة اضعاف على الاقل ٠

وقذف الاميرال كنجهام بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء

وتتألف هذه الوحدات من ستة طرادات وتسع عشرة مدمرة ، وبدأت عمليات الجلاء ليلة ٢٤ من الموانيء اليونانية الصغيرة ، وسواحلها الرملية في الجنوب واستخدمت فيها فضلا عن القطع البحرية ، سفن النقل ، وسفن الهجوم ومجموعة من القطع الصغيرة ٠

وتواصل العمل طيلة خمس ليال متوالية ، وسيطر العدو في ٢٦ على الجسر الهام على قناة كورنث ، بهجوم جوي عن طريق جنود المظلات ، وانهالت القوات الالمانية على شبه جزيرة البلوبونيس ، يمطرون جنودنا المجهدين وابلا من النيران الحامية ، بينما هم يجاهدون لكي يصلوا الى الشطآن الجنوبية ، ونزلت بنا في نوبليون احدى الكوارث ، فقد مكثت الناقلة « سلامات » في الميناء وقتا أكثر مما ينبغي في محاولة مستميتة ـ ولكنها غير مجدية ـ لتنقذ أكبر عدد من القوات ، وما كادت تقلع من الشاطيء بعد الفجر حتى انقضت عليها طائرتان فأغرقتاها ، وسعت مدمرتان لانقاذ القوات التي كانت تقلها ويبلغ عددهم سبعمائة جندي ولكن الغارات الجوية اغرقت المدمرتين أيضا ، ولم ينج رجال من القطع الثلاث سوى خمسين رجلا تقريبا ٠

وقام طرادان وست مدمرات في ٢٨ ، ٢٩ بنقل ثمانية الاف جندي وحوالي الف وأربعمائة لاجيء يوغوسلافي من السواحل القريبة من كالا مانا ، وما كادت تصل احدى المدمرات الى المكان لتبدأ في عملية الاجلاء حتى كان العدو قد احتل البلدة وشوهدت نيران الحرائق مشتعلة ، فعدلت المدمرة عن المهمة ، وفضلا عن ان قواتنا شنت هجوما على القوات المحتلة وارغمتها على الانسحاب من البلدة ، فلم يقدر النجاة لاكثر من أربعمائة وخمسين رجلا من الشواطيء الشرقية ، عن طريق اربع مدمرات استعانت به الزوارق ، وكانت هذه الاحداث نهاية لعمليات الانسحاب الاساسية ، واستطاعت قطعنا البحرية انقاذ جماعات صغيرة متناثرة في عديد من الجزر او في زوارق صغيرة بالبحر في غضون اليومين التاليين ، كما استطاع حوالي الف وأربعمائة ضابط وجندي بفضل اليونانيين ورغم الاخطار الهائلة ان يمهدوا السبيل لهم نحو مصر فرادى في خلال الاشهر التالية ٠

وهكذا خسرنا حوالي احد عشر الف جندي ، ولكنا استطعنا انقاذ (٥٠ر٦٦٢) رجلا ، من بينهم رجال السلاح الجوي الملكي ، وعدة الوف من قبرص وفلسطين واليونان ويوغوسلافيا ، وهذا العدد يبلغ حوالي ٨٠ ٪ من القوة الاساسية التي أرسلت الى اليونان ، وكان هذا ـ بكل تأكيد ـ بفضل بحارة اسطولنا التجاري وأساطيل أصدقائنا وما امتاز به اولئك البحارة من

عزيمة قوية وخبرة وافرة ، وتصميم على اداء المهمة تحديا لكل ما ق
العدو من محاولات مستميتة عنيفة ، وقد خسرنا نتيجة للهجوم الجو
باخرة منذ ٢١ نيسان حتى نهاية الانسحاب • وقد بذل السلاح الجوي
ووحدة من سلاح الاسطول الجوي من كريت كل ما في طاقتها ، ولكن ا
كان يتفوق دائما عليهما بأعداد ضخمة من الطائرات ومع ذلك فقد ق
سلاحنا الجوي بمهمات رائعة منذ تشرين الثاني الماضي الى آخر مع
اليونان فقد اسقط بكل تأكيد (٢٣١) طائرة معادية ، وامطر العدو بما
بخمسمائة طن من القنابل • اما خسائر سلاحنا فكانت فادحة ايضا .
اسقطت (٢٠٩) طائرات منها (٧٢) في المعارك الجوية ، التي شهدت
نادرة من البطولة •

وكان الاسطول اليوناني الصغير قد فر الى الاسكندرية وكان عبا
طراد وست مدمرات حديثة ، واربع غواصات ، وصلت كلها سالمة
نيسان وانضمت الى قواتنا تحت اشراف قادتنا وقد أبدى هـــذا الا
الصغير مهارة ملحوظة في كل المعارك التي خاض غمارها بجانبنا منذ
التاريخ في البحر الابيض المتوسط •

واذا كانت كتابتي عن هذه الكارثة توحي بأن جيوشنـــا البريط
والامبراطورية لم تعضدها المساعدات العسكرية اليونانية ، فان علينا أن
ان هذه الاسابيع الثلاثة من الحرب في شهر نيسان ضد الحشود الهائل
تعتبر لدى اليونانيين قمة النضال الذي امتد خمسة أشهر ضد ايطاليا ،
قضى على كل منابع القوة والحياة في البلاد ، فقد هوجم اليونانيون
أيار من عام ١٩٤٠ دون سابق انذار بقوات تبلغ ضعف ما لديهم على
فصمدوا امامها أولا ، ثم شنوا هجوما ارغم العدو على الانسحاب مس
أربعين ميلا داخل البانيا ، كما استمر اليونانيون طيلة الشتاء القاسي ي
في الجبال عدوا قد تفوق عليهم في العدد والعتاد • ولم تكن في حوزتهم
النقل في الشمال الغربي او سبله اللازمة للقيام بمناورة سريعة يصدور
الهجوم الالماني العنيف في اخر لحظة والذي يطوق مؤخرة الجيش اليو
ويحاصر جناحه ، ولقد استنفد جيش اليونان كل طاقته في الدفاع الباس
حياض وطنـه •

ولم يكن ثمة سبيل ، لالقاء التهم ، فما لقيناه من اخوة ومساع
الجيش اليوناني قد استمرا في صدق واخلاص الى النهاية ، وكان سكا
وغيرها من مناطق الانسحاب الاخرى ، مهمتين بسلامة من عرفوا أنهم

جاءوا الا لحمايتهم ، اكثر من اهتمامهم بسلامتهم الشخصية ، وسيظل الشرف العسكري اليوناني نقي السيرة ·

ووجهت اذاعة الى الشعب حاولت فيها ان لا اعبر عن مشاعر العالم الناطق بالانكليزية فحسب ، بل ان اعرض الظروف التي صنعت أقدارنا أيضا وجاء فيما اذعته :

« وبينما ننظر قلقين متألمين الى أحداث أوروبا وأفريقيا والى ما قد يحدث في اسيا علينا ان نسيطر على أعصابنا والا يستبد بنا الفزع أو الاحساس بوهن العزيمة ، وعندما نسلط نظرة فاحصة على المتاعب التي ما زالت تنتظرنا ، فاننا نتذرع بالايمان من جديد اذا ما لاحظنا العقبات التي استطعنا اجتيازها الى اليوم ، وكل ما يحدث اليوم لا يمكن ان تقاس أخطاره بالاخطار التي واجهناها في العام الماضي ، ولا شيء مما قد يحدث في الشرق يمكن ان يقاس بما يعد اليوم في الغرب

واني لاذكر أبياتا من الشعر ، أحس بأنها تتوافق مع ظروفنا الراهنة ، ويملؤني الاعتقاد بان كل أرض تنطق بالانكليزية ستصدر عليها هذا الحكم وكذلك كل بلد تخفق فيه راية الحرية ·

« وبينما – عبثا – تتكسر الامواج الواهنة
يائسة من الحصول على شبر من الشاطيء الهاديء
بعيدا ·· هناك ·· عبر الخلجان والمداخل
تأتي الموجة الغامرة ·· في هدوء
وعبر النوافذ الشرقية ·· وحدها ·· لا يأتي الضوء
عندما يشرق نور الصبح ·· وتنسل الاشعة من النوافذ التي تصعد الشمس أمامها الى أجواء الفضاء ··
بطيئة وعلى مهل ···
بل هناك ·· الى الغرب ·· لا تزال الشمس مشرقة ···

الفصل الخامس عشر

جناح الصحراء

اصبحت كل مهمتنا تكوين جبهة بلقانية مع الابقاء على جناح الصحراء في شمال افريقيا ، وكان في مقدورنا ان نكون هذه الجبهة في طبرق ، ولكن ويفل اختار ان يستمر في زحفه السريع غربا وان يستولى على بنغازي ، مما مهد لنا الاستيلاء على برقة كاملة ، وكانت الزاوية البحرية في « العقيلة » هي المدخل لهـذه المنطقـة ، وتقرر في القاهـرة ولندن ان تستمر هـذه الجبهة بكل الوسائل ، وافرادها بالاولوية دون اية مغامـرة اخـرى ، وقد اقتنع ويفـل نظرا الى تحطيم الجيوش الايطالية تحطيما كاملا في برقة ، وبالنسبة للمسافات البعيدة التي يفرض على العدو اجتيازها قبل ان يستطيع الاتيان بقـوات جديدة ولا في استطاعته الى فترة طويلة الابقاء على هذا الجناح الفعـال بوحدات معقولة والاستعاضة عن الوحدات المجرية باخرى اقل منها خبرة ، ولم يكن يخطر ببال احد ان يضحى بهذا المرتكز الذي يعتمد عليه كل شي في الصحراء او تعرضه للخطر في سبيل اليونان او من اجـل اى شيء اخـر في البلقـان ٠

ولكن صعد الان على المسرح وجه جديد ، هو مقاتـل الماني سيفرض نفسه كثيرا على اساطير قومه وبطولاتهم الحربية ٠

***

ولد ايروين رومل في هايد نهايم دورتمبرج في تشرين الثاني سنة ١٨٩١وفي

الحرب العالمية الاولى اشترك في معارك الارغون ورومانيا وايطاليا ، وجـرح مرتين واستحق ارفع الاوسمة من الصليب الحديدي ومنع وسام الاستحقاق ، وتولى في بداية الحرب العالمية الثانية قيادة مقر الفوهرر في الحملـة علـى بولندا ثم تولى قيادة الفرقة السابعة المدرعة (البانزر) من الفيلق الخامس عشر ، وقد سميت هذه الفرقة باسم « الاشباح » وكانت خلال جبهـة المـوز بمثابة رأس الرمح للاختراق الالماني ، ونجا من الاسر بما يشبه المعجـزة عندما شن البريطانيون هجوما مضادا على اراس في ٢١ ايار سنة ١٩٤٠ ، وكانت فرقته ثانية رأس الرمح الذي اخترق السوم متقدما نحو السين فـي اتجاه روان مطوقا الجناح الفرنسي الايسر ، وموقعا عددا كبيرا من الفرنسيين والبريطانيين حول سان فاليري في أسره ، واحتلت فرقته شربورج ، بعد ان تم انسحابنا ، واستسلمت له المدينة وما بها من القوات الفرنسية التي كان يبلغ تعدادها ثلاثين الفا ٠

وكانت هذه المهام الجسيمة هي الدافع الى اختياره ، في بداية عام ١٩٤١ قائدا للقوات الالمانية المرسلة الى ليبيا ، وكانت اماني الايطاليين في ذلك الحين تنحسر في الابقاء على مقاطعة طرابلس وتولى رومل قيادة الفرق الالمانيـة النشيطة تحت الاشراف العام للقيادة الايطالية ، وحاول اثر وصوله تدبيـر هجوم قوي وعندما طلب منه القائد الايطالي في بداية شهر نيسان ان يتعهد له بعدم تحرك القوات الالمانية الافريقية بدون أوامره قال له رومل محتجا : «بصفتي قائدا المانيا يجب على اصدار التعليمات حسب ما يملي علي الموقف»٠

ولقد ابدى رومل في الحملة الافريقية ضروبا من البراعـة في قيـادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصا في ارجاع التجمع على الفور بعد اية عملية ، والاستمرار في اكتساب النصر والغلبة ، ولقد كان مغامرا عسكريا نادرا ، يسيطر بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيـادة العليا الالمانية قد القت له الزمام في بداية الامر فادهشها بانتصاراته ، وجنحت الى تقييد تصرفاته ، وقد انزلت بنا حيويته اضرارا فادحة مؤلمة ، ولكنـه جدير بالتحية التي ارسلتها في مجلس العموم في كانون الثاني ١٩٤٥ ، مع ما جلبه الي من لوم الجماهير فقلت انذاك ان امامنا خصما جريئا بارعا ، بل اني لاجد من الجراة في نفسي ما استطيع به ان اقول: اننا نواجه جنرالا عظيما، خليقا بكل تقدير ، لانه على الرغم من كونه جنديا المانيا مخلصا ، بدا يمقت هتلـر ويكره كل اعماله ، واشترك في مؤامرة عام ١٩٤٤ لانقاذ المانيا من قبضـة الدكتاتور المجنون ، وقد دفع حياته ثمنا لهذا العمل ٠

كان مضيق العقيلة مرتكز الموقف كله ، فاذا استطاع العــدو اجتياح جبهتنا والوصول الى اجدابية ، فان بنغازي وكل ما يقع الى غرب طبرق ، تغدو في خطر ، وكان على العدو ان يختار بين ان يمضي في الطريق الساحلي الممهد الى بنغازي وما وراءها وبين الطرق الصحراوية التي تصل مباشرة الى المخيلي وطبرق ، والتي تتخلل منطقة صحراوية يبلغ طولها مائتي ميـل وعرضها مائة وقد اخترنا نحن هذا الطريق في شهر شباط الماضي فحاصرنا واسرنا بضعة الاف من الايطاليين المنسحبين عبر بنغازي ولم نكن نفاجأ قط اذا اقتحم رومل الطريق نفسه ، وواجهنا بلعبتنا السابقة ، ولكن مادمنــا مسيطرين على العقيلة فانه لن يستطيع استغفالنا بهذه الصورة ٠

وقد اعتمدت كل خطوة على ادراك طبيعة الحرب البرية والصحراوية معا فان الحرب في الصحراء تستلزم تفوقا في السلاح المدرع ، وفي نوع الجنود لا كميتهم وتستلزم جوا معينا ٠ ولو ضمنا هذه الامور لاستطعنا ان ننتصر في معركة الانهيار والتماسك في الصحراء حتى ولو اصبحنا ببوابة العقيلة ، ولكن اي وضع من هذه الاوضاع لـم يتهيأ لنا برغـم كـل الاعدادات التـي اتخذناها ، كانت قوات العدو الجوية متفوقة علينا ، وكان سلاحنا المدرع في حالة غير صالحة لاسباب ساذكرها فيما بعد ، كمـا كانت احـوال جنودنـا التدريبية ومعداتهم الى الغرب من طبرق تثير الاسى ٠

وبدأ رومل في هجومه على العقيلة يوم ٣١ اذار ، وتراجعت وحدتنـا المدرعة التي لم تكن في الحقيقة تتالف الا من لواء واحد مع مساعديه تراجعت في بطء خلال اليومين التاليين ، وضح منذ البداية تفوق العدو الجوي ، ولـم نكن نلقي بالا ـ للطائرات الايطالية ، فثمة مائة طيارة المانية مقاتلة ، ومائة من القاذفات المنقضة وفي مواجهة قسوة هذا الهجوم انتثر نظام جيوشنا ونزلت بنا افدح الخسائر وانهار في يوم واحد ، وفي ضربة واحدة ، جناح الصحراء الذي كان اساس جميع خططنا ٠

وارسلت التعليمات بالجلاء عن بنغازي ، ولم تات ليلة ٦ نيسان ، حتى كان الاخلاء يتم بسرعة بالغة ، وكانت طبرق قد دعمت بقوات اضافية واصررنا على الاحتفاظ بها ، ولكن الفرقة الثانية المدرعة وكتيبتان هنديتان مدرعتـان فوجئت بحصار من قوات العدو فاستطاع عدد من الرجال اختراق طريقـا للنجاة بأنفسهم من هذا المأزق واسروا حوالي مائة جندي الماني ، ولكـن الاغلبية قـد استسلمت مرغمـة ، وعلـى التـو اندفـع العدو الى البرديـة والسلوم بواسطة عـدد كبيـر مـن السيارات المدرعـة الثقيلـة والمشـاة

المحملين على السيارات ، بينما شنت قوات اخرى هجومها على خطوط طبرق الدفاعية ، واستطاعت قواتها الصمود امام هجومين منزلة بدبابات العدو اضرارا بالغة ، وهكذا استتب الامر في تلك الاونة بكل من طبرق والحدود المصريــة •

***

كانت الهزيمة التي منى بها جناح الصحراء على حين وجود جيوشنا في معركة اليونان فاجعة من نوع فريد ، واستبدت بي الحيرة الكاملة فــي العوامل التي ادت الى هذه الكارثة ، ولذا فقد اسرعت في مساءلة الجنرال ويفل في بداية فترة التوقف ، وطلبت اليه ان يوضح لي بصورة كافية كــل ما حدث ، وكان مما لاينسى ان الجنرال نسب الى نفسه كل تقصير ، ورأى انه سبب الكارثة التي استنفذت كل مالديه من سلاح مدرع •

وبينما كنت في رتيشلي اقضي عطلة الاسبوع في يوم الاحــد ٢٠ نيسان وصلتني رسالة كتبها الجنرال ويفل الى رئيس اركان حرب الامبراطوريــة يوضح فيها خطورة الموقف ، وقد توسع في الحديث عما يوجــد لديــه مــن دبابــات •

ورسم لي لوحة قاتمة ، واستطرد قائلا : « ويظهر من هذا بوضوح ان هناك فرقتين فقط من الدبابات السريعة في مصر في اواخر شهر ايار ، بينمــا لم تكن هناك اية قوة متوافرة لسد الفراغ حين وقوعه ، وبالرغم من ان لدينا بمصر قوات مدربة ومتفرقة تكفي لعدة كتائب ، وان مدنا بالدبابات الثقيلــة والسريعة امر جوهري وخصوصا ان الدبابات الثقيلة تنقصها السرعــة وتحتاج الى مجال العمل الفسيح الذي تحتمه العمليات الصحراوية ، ارجوك يا رئيس الاركان ان تبذل شخصيا كل ما في وسعك » •

وقد فزعت من قراءة هاتين الرسالتين ورأيت ان اتغافل عن كل تردد يبدو على الاميرالية من ارسال القوات عبــر البحــر الابيض المتوسط ، وان ارسل الى الاسكندرية رأسا قافلة تتضمن ما يحتاج اليه الجنرال ويفل مــن الدبابات • وكنا قد جهزنا قافلة بامدادات مدرعة ضخمة ، وكادت ان تقلــع الى مصر عن طريق رأس الرجاء الصالح فقررت ان تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات في القافلة من جبل طارق نحو مصر متخذة اقصر طريق حيث توفر اربعين يوما ، وحضر الجنرال ايسماي ليراني عند الظهيرة وكان يقيم بالقرب من المنزل الذي اقيم فيه ، فدفعت اليه برسالة خاصة ليبلغها بدوره

الى رؤساء الاركان ، ورغبت اليه في ان يذهب بها عاجلا الى لندن ، وان يؤكد لرؤساء الاركان انني اعطي اهمية بالغة لتنفيذ هذه الفكرة عاجلا .

وكان رؤساء الاركان في الوقت الذي وصل فيه ايسماي الى لندن يعقدون اجتماعات ، فأخذوا يناقشون رسالتي في ساعة متأخرة من الليل . وكانت احساساتهم الاولى لا تؤيد ما جاء بها ، كما كان املهم ضعيفا في ان تستطيع السفن المحملة بالدبابات ان تمخر عباب المتوسط ، متجنبة كل خطر بينما تواجه بعد اجتيازها مالطة ودخولها في المضايق هجمات من طائرات العدو المنقضة ، بينما لا تستطيع طائراتنا المقاتلة فرض حماية عليها من قواعدها الساحلية ، واشار بعضهم الى حاجتنا للدبابات في داخل البلاد والى ان اي خسارة في الدبابات خارج البلاد تستلزم ـ لتعويضها ـ ارسال دبابات اخرى من سلاحنا الداخلي .

وعندما اجتمعت في اليوم التالي مع لجنة الدفاع احسست بالارتياح لوقوف الاميرال باوند الى جانب رأيي ، وموافقته على عبور القافلة في البحر المتوسط وتعهد ماريشال الجو بورتال رئيس اركان السلاح الجوي بأن يبذل كل ما في وسعه لارسال وحدة من طائرات «اليوفاتير» ، لتضفى من جزيرة مالطة حمايتها على القافلة ورغبت حينئذ الى اللجنة ان تبحث في ارسال مائة دبابة سريعة اخرى مع القافلة ، فاعترض الجنرال ديل على ذلك بحجة افتقارنا الى الدبابات في الدفاع الداخلي ، ولكنني تذكرت انه ابدى موافقته سابقا وقبل عشرة شهور على ارسال نصف ماتحت يدنا من دبابات الى الشرق الاوسط عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان هذا في تموز سنة ١٩٤٠ ، لذلك لم أسلم بحجته الراهنة ، ولعل القارىء يذكر ان خطر الغزو لم يكن بالنسبة لنا في نيسان سنة ١٩٤١ خطرا مهددا بالنظر الى ما اعددناه من ترتيبات المقاومة ، وها نحن اليوم نرى ان رأيي كان صائبا وقد استقر الرأي اخيرا على تنفيذ هذه الخطة التي دعوناها باسم « النمر » .

***

وبينما حدث كل هذا كانت طبرق لا تزال تملأ خواطرنا ، فقد فقدنا كل طائرات « الهاريكين » في اليونان ، وفي طبرق حطم عدد منها او أسقط ، وأكد ماريشال الجو لونغمور ان كل محاولة للابقاء على سرب من الطائرات المقاتلة في طبرق ستضيف خسارة جديدة دون ان

تخدم غاية ، وهكذا سيمضي العدو في سيطرته الكاملة على سماء طبرق الى ان نقدر ثانية على تجهيز قوة جوية محاربة ، ومع ذلك فقد صدت قواتنا هناك هجوما جديدا للعدو وكبدته خسائر لا يستهان بها ، وأسرت من رجاله مائة وخمسين ٠

وقد ارسل الينا الجنرال ويفل عاجلا اخبارا مروعة اخرى عما ينتظره رومل من امدادات جديدة ، واخبرنا بأن نزول الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشرة الى الساحل سيتم في ٢١ نيسان ، وكانت هناك علامات على استخدام بنغازي في هذه العمليات بشكل منظم ، وعلى الرغم من ان حشد المؤن يستلزم خمسة عشر يوما على الاقل الا ان ويفل توقع ان تبدأ الفرقة الالمانية الجديدة المدرعة ، والفرقة الخامسة الالية الخفيفة ، والفرقتان الايطاليتان اريتي وتورنتو هجوما في منتصف حزيران ، وقد ازعجنا ونحن في الوطن ان نعجز عن استخدام بنغازي قاعدة ، مفيدة ، بينما يستطيع الالمان بعد سيطرتهم عليها استخدامها على هذا النحو ٠

وفي الاسبوعين التاليين اخذ اهتمامي وقلقي يجتمع في سير عملية « النمر » ولم اهون ابدا من مدى الاخطار التي اخذ على عاتقه لورد البحر الاول مواجهتها ، وادرك ان الاميرالية تنظر للعملية بقلق وخوف ، ومرت القافلة المكونة من خمس بواخر تسير بسرعة خمس عشرة عقدة بمضيق جبل طارق في ٦ ايار تحت حراسة من قوة الاميرال سرموفيل التي تتكون من ربناون والملايو وارك رويل وشيفلد واحتوت القافلة كذلك على المجموعات التي بعث بها لتدعيم اسطول متوسط وتتكون من الملكة اليصابات ـ ونایاد وفيجي ، وصدت الغارات التي شنت على القافلة في ٨ ايار دون ان تصاب احدى القطع باي سوء ، لكن الالغام في تلك الليلة قد انفجرت في باخرتين لدى اقتراب القافلة من مضيق صقلية فنشبت الحرائق في احداهما وغرقت بعد الانفجار الذي حدث على سطحها ، وقدرت الثانية على الاستمرار في الرحلة مع القافلة وعندما وصلت القافلة مدخل المضيق من جانب قناة سكيركي غادرها الاميرال سومر فيل بقواته وعاد الى جبل طارق وجاء الاميرال كنجهام الذي تهيأت له الفرصة في ٩ ايار لتسيير قافلة الى مالطة فالتقى بقافلة «النمر»باسطوله على بعد خمسين ميلا جنوب الجزيرة ، وشقت كل هذه القوات طريقها نحو الاسكندرية حتى رست بها في امان دون اي ضرر او خسارة ٠

وبينما كان قدر العملية كلها مجهول المصير ، ذهبت بافكاري الى

جزيرة كريت التي كنا على يقين من وقوعها تحت وطأة هجوم جوي بين لحظة واخرى ، وفكرت في ان الالمان اذا قدروا على احتلال مطارات الجزيرة واستعمالها ، فستكون لديهم الفرصة دائما لتعضيد مركزهم وتدعيم أوضاعهم، وان في مقدور اثنتي عشرة دبابة ان تفرض عليهم حرمانا ابديا من هذه الفرصة ، ولهذا طلبت من رؤساء اركان الحرب ان يدرسوا احتمال اقلاع عدد من بواخر القافلة « النمر » الى كريت لتمدها بعدد قليل من هذه الدبابات قبل ان تصل الى الاسكندرية •

وعلى الرغم من موافقة زملائي الخبراء على الاهمية القصوى لارسال هذه الدبابات الا انهم رأوا ان الاسلم عدم استهداف بقية ما تحمله الباخرة لخطر مؤكد نتيجة لهذا التغيير ، واستنادا لهذا طلبت في ٩ ايار تجنبا لما يحدث من اخطار انه لو ابحرت احدى السفن كطلان لامونت مثلا الى خليج سودا في كريت ، ان تبحر هي او سواها بعد ان تنزل حمولتها في الاسكندرية وتحمل اثنتي عشرة دبابة لتنزلها هناك ، واصدرت التعاليم بمقتضى هذا مباشرة ، وارسل الينا ويفل في ١٠ ايار انه قد تمت الاجراءات لتبعث الى كريت بست دبابات ثقيلة وخمس عشرة دبابة خفيفة •

ويحتمل وصولها خلال الايام القليلة القادمة اذا واتت الظروف ، وكانت الامور تسير سيرا حسنا لكن الزمن كان معنا في سباق •



الفصل السادس عشر

معركة كريت

في مختلف شئوننا في البحر الابيض المتوسط بدت بوضوح الاهمية الاستراتيجية لكريت فالبوارج البريطانية التي تتخذ من خليج سودا قاعدة لها او التي تتزود منه بالوقود تستطيع ان تفرض حماية ـ ليس من السهل تجاهل اهميتها ـ على جزيرة مالطة ، فاذا استطعنا حماية قاعدتنا في كريت ومقاومة كل الغارات الجوية ، فان تفوقنا البحري يصد بصورة كافية كل هجوم عن طريق البحر ، ولكن على بعد مائة ميل فقط من الجزيرة كانت توجد قلعة رودس الايطالية بما جهزت به من مطارات شتى ومنشآت حربية هامة ، بينما لم يكن يوجد في كريت سوى الصمت والجمود وكنت قد ارسلت التعليمات المتوالية بضرورة تحصين خليج سودا ، واشرت في احداها الى ضرورة تحصين هذا الخليج «سكابا فلو» بطريقة جديدة ، والان وقد مرت على الجزيرة وهي تحت سيطرتنا اكثر من ستة اشهر ، وليس في وسعنا تدعيم الميناء بمجموعة حديثة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات الا اذا انتقصنا من حاجتنا الماسة في جوانب اخرى ، كما ان قيادة الشرق الاوسط كانت لا تعرف السبيل لسد احتياجاتها الى العمال اللازمين لتوسع المطارات واصلاحها ، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لوجود قوات كبيرة في كريت او حشد وحدة جوية كبيرة في مطاراتها ما دامت بلاد اليونان في يد الحلفاء ، ولكن كان المفروض ان تعد كريت كقاعدة تستقبل الامدادات حين توفرها ، وعند اقتضاء الظروف لارسالها ، ولا شك في ان تبعة القصور في تفهم المشكلة ، وفي ضعف التنفيذ

للاوامر الصادرة تتوزع بين القاهرة وهوايتهول معا ، ولـم تتضح لي جسامة الاعباء التي يحملها كاهل الجنرال ويفل وجهازه ، ومدى القصور في تكوين هذا الجهاز الا حين حلت بنا الكوارث في برقة وكريت والصحراء ، لقد جهد ويفل وسع طاقته ، لكن الجهاز التنفيذي الذي كان تحت يده لم يكن كفوءا لتحمل الاعباء الكثيرة الهائلة المفروض اضطلاعه بها نتيجة لاربع أو خمس معارك تنشب في وقت واحد ٠

***

وكان جهاز مخابراتنا في ذروة دقته ومهارته في تلك الآونة ، ففـي غمـار الاضطراب الشديد الذي اجتاح اثينا غداة الاحتلال الالماني لها ، بدأ ضباط الاركان الالمان يتخففون مما اشتهر عنهـم من حيطة وحذر ، وكتمان شديد للاسرار الحربية ، فدب النشاط في وسائل استخباراتنا ، وتذرعوا بالجرأة والحيوية ، مما اتاح لنا في الاسبوع الاخير من شهر نيسان ان نتلقى معلومات هامة عن الضربة القادمة لالمانيا ولم يكن في مقدور الالمان التستر على تحركات الفيلق الجوي الحادي عشر ولا نشاط رجاله ، او اخفاء سرعة تجميع القطع البحرية الصغيرة في الموانيء اليونانية عن العيون اليقظة والاذان المرهفـة ، وقد تحملت بما لم يسبق له مثيل ـ متاعب شخصية في دراسة كافة التقارير وتقدير شتى البراهين ، للتأكد من درجة الوعي اللازمة لدى القادة بالاهمية الخاصة للهجوم المنتظر ، وللتأكد من انهم قاموا بنقل هذا الوعي الى قادة العمليات الفعلية في الميدان ٠

وكنت قد رغبت الى رئيس اركان الحرب ، ان يتولى الجنرال فيريبـرغ قيادة ـ جزيرة كريت ، فابلغ الرئيس بدوره رغبتي الى الجنرال ويفل الذي وافق على الفور ، وكان فريبرغ صديقي من سنين عديدة ، وكان حائـزاً على وسام صليب فكتوريا ووسام الخدمة الممتازة ، ووسامين اخرين ، مما يؤكد تفوقه في اداء واجبه العسكري ، وكان كمثيله الاوحد ـ كارتون دي ويارث ـ يستحق لقب « الضفدعة » الذي اطلقته عليه ، فكلا الرجلين بطل جابه النيران بصلابة وكـاد ان يطير اشلاء دون ان يتأثر في جسده او في معنوياتـه بمـا يتعرض له من اهوال ، ولم يكن احق منه في بداية الحرب بتولي قيادة الفرقة النيوزيلندية فتولى قيادتها ، وكان يدور بذهني في شهر ايلول سنة ١٩٤٠ ان يعهد اليه بقيادة اكثر فاعلية ، وها هي الفرصة المواتية التي تتقدم اليه فيها هذه القيادة المهمة ليتولى زمامها

ولم يكن أي من فيربرغ وويفل واهما او خياليا ، فالوضع الجغرافي لجزيرة كريت يجعل من الدفاع عنها معضلة ، فهناك طريق احد يسير في محاذاة الشاطىء الشمالي للجزيرة وتوجد على امتداده كل النقاط الصالحة للهبوط والغزو في الجزيرة وكان من المحتم ان تصبح كل نقطة الوسائل الكافية لتامينها ، ولم يكن في وسعنا توفير قوة احتياطية ، حرة التحرك تتمكن من الانتقال الفوري الى أي نقطة يقع عليها تهديد بعد ان يكون العدو قد قطع الطريق المشار اليه ودعم موقفه فيها ، وهناك طرق غير صالحة للسيارات تمتد من جنوب الجزيرة الى شمالها وعندما اقترب الخطر من الجزيرة اخذت العقول الموجهة تبذل ما في وسعها لحشد الامدادات والتموين والاسلحة وخاصة المدافع في الجزيرة ، ولكن الوقت كان قد مضى ، ففي الاسبوع التالي من شهر ايار كان السلاح الجوي الالماني من قواعده في اليونان وجزر بحر ايجه قد قام بتطويق عنيد وكبدنا اضرارا جسيمة في وسائل النقل وخاصة على الساحل الشمالي ، وهو مكان الموانىء الوحيدة في الجزيرة فلم نستطع انزال اكثر من ثلاثة الاف طن من سبعة وعشرين الفا من الامدادات الهامة ارسلناها في الاسابيع الثلاثة الاولى من شهر ايار الى البر ، وقد عادت بقية الحمولة ،وكنا قد أوجدنا في الجزيرة حوالي خمسين مدفعا مضادا للطائرات ، واربعة وعشرين كشافا ، وكان لدينا هناك كذلك خمس وعشرون دبابة خفيفة بعضها كان في حاجة الى اصلاحيات وتناثرت حامياتنا في شتى المناطق التي يتوقع هبوط العدو بها وكان مجموع هذه القوات يبلغ حوالي ثمانية وعشرين الفا ٠

ولكن السبب الرئيسي الذي مهد لهجوم الالمان هو ضعفنا الجوي ، فكانت طائرات سلاحنا الجوي في بداية ايار لا تعدو ستا وثلاثين طائرة ، يصلح النصف منها فحسب لدخول معركة وقد وزع هذا العدد القليل على ريبتمو وماليمي وهيراقليون وكانت شيئا لا يعبأ به بالنظر الى الافواج الهائلة التي انهالت على سماء الجزيرة وقد أدرك جميع من يهمهم الامر ضعف سلاحنا الجوي ، وفي ١٩ ايار اعطيت التعليمات بانسحاب ما تبقى من طائرات الى مصر ، وكانت وزارة الحرب ورؤساء الاركان والقاعدة العاملون يدركون ان عليهم ان يختاروا بين امرين : اما الاشتباك وسط هذه العوامل المروعة ، او الجلاء عن الجزيرة كما كان ذلك متاحا في مطلع شهر ايار ، ولكن اتحدت وجهات نظرنا على ضرورة الاشتباك ، وعندما ندرك الان بالنظر الى ما توفر لنا اخيرا من دلائل ، انا بغض النظر عن كل صعوباتنا كدنا ننتصر في القتال وان ما احرزناه بفشلنا كان مكسبا بعيد المدى ونحس بالارتياح لاننا قررنا ان

نغامر وسط هذه الاخطار ، وان ندفع الثمن مهما كان غاليا ٠

***

بدأ القتال في صباح ٢٠ أيار ، ولم نشهد حتى هذا التاريخ هجوما أكثر منه اندفاعا وعنفا ، فقد كان لاسباب كثيرة طرازا وحده ، لم ير العالم مثله ، لقد كان أول هجوم في سجل الحروب ينقل بالجو على نطاق واسع ، وكان الفيلق الالماني يمثل عنفوان حركة الشبيبة الهتلرية ، كما كان تجسيدا عنيفا للثأر من اندحار عام ١٩١٨ ، وكان جنود المظلات النازيون بولائهم الشديد وبسالتهم النادرة تعبيرا عن عنفوان الرجولة الالمانية ، وعاطفتها المندفعة للتضحية على مذبح مجد المانيا ووهم السيطرة على العالم ، وقد شاء القدر لهم ان يصطدموا بكبرياء جنود أتى اكثرهم من طرف العالم الاخر عبر المحيطات والبحار متطوعا للدفاع عن الوطن الاب وعن كل ما يؤمن به من قيم الحق والحرية ٠

وبذل الالمان اقصى ما في وسعهم من قوة ، فقد اعتبر غورنغ هذا الهجوم أعظم ما سيقوم به ، وكان من المحتمل ان يفرض هذا الهجوم على انجلترا ذاتها سنة ١٩٤٠ لو دمر سلاحنا الجوي آنذاك ، ولكن هذا الامل ضاع هباء ، وكان ربما يقع على مالطة ، ولكننا أسرعنا بتفادي هذه الضربة ، وقد لبث الفيلق الالماني الجوي ينتظر ما يزيد عن سبعة اشهر ليسدد هذه الضربة ، وليكشف عن مدى قوته ونوع معدنه ، وها هو غورنغ يجد في وسعه أخيرا ان يصدر الامر الذي تحرقوا شوقا اليه ، وعندما شب القتال لم تكن لدينا المعلومات الكافية عن جنود المظلات لدى العدو ، وكان من المحتمل ان يكون الفيلق الجوي الحادي عشر وحدة من مجموع وحدات ست من هذا الطراز ، وقد مرت بضعة شهور على المعركة قبل ان نعرف يقينا ان هذا الفيلق كان وحده كل ما لدى الالمان من هذا الطراز ، لقد كان في الواقع رأس الرمح للسلاح الالماني ، وهذه هي حكاية نجاحه وحكاية تدميره ٠

تم اسكات مدافعنا المضادة للطائرات في ماليمي دفعة واحدة ، وقبل انتهاء الضرب الجوي اخذت الطائرات التي تسير بلا محركات تنزل غرب المطار ، وكانت الطائرات تمطر قواتنا حيث توجد وابلا من قذائفها ، واستحال القيام بهجوم مضاد في وضح النهار ونزلت هذه الطائرات او ناقلات الجنود على السواحل وعلى السهل الضيق وعلى أرض المطار الذي حطمته القذائف، واستطاع خمسة الاف جندي الماني النزول الى الارض في أول يوم حول

ماليمي وكانيا وفيما بينهما ، وقد كبدتهم نيران النيوزيلنديين الذين التحموا معهم في معركة بالسلاح الابيض اضرارا جسيمة ، وعندما أتى المساء كان المطار لا يزال تحت أيدينا ، ولكن من كان لا يزال باقيا من الفوج انسحب عنه الى النقط المساعدة أثناء الليل واستهدف القصف الجوي العنيف ريتيمو وهيراقليون في ذلك الصباح ، واعقب ذلك هبوط جنود المظلات عند الظهيرة ، وشبت معركة حامية ، وعندما جن الليل كان كل من المطارين تحت سيطرتنا الكاملة ، وهكذا كانت نتيجة الاشتباك في اليوم الاول مرضية الى حد ما باستثناء القتال في ماليمي ، ولكن عدد الجنود الذين نزلوا في كل نقطة من النقاط كان ضخما ، وقد كان عنف الهجوم أكثر مما دار في خواطرنا كما ان العدو لم يكن يتوقع هذا الدفاع المستميت ٠

وفي اليوم الثاني واصل العدو غاراته القاسية ، عندما اطلت الطائرات من حاملات الجنود ، وبالرغم من ان مطار ماليمي ظل تحت وابل من نيران مدافعنا القريبة منه ، الا ان حاملات الجنود استمرت في النزول به ، وغريبا منه رغم وعورة الارض ، وبدا ان القيادة الالمانية كانت تستهين بالخسائر فقد دمرت حوالي مائة طائرة على الاقل خلال نزولها في تلك المنطقة ، ومع ذلك واصل العدو عنفوان هجومه ، وشنت هجوما مضادا في تلك الليلة ، زحفت فيه نحو أسوار المطار ، ولكن عندما بزغ النهار عادت الطائرات الالمانية من جديد فاستحال على قواتنا الابقاء على مكاسبها ٠

وأصبحت ماليمي في اليوم الثالث بالنسبة للعدو مطارا حسنا للعمليات واستمرت ناقلات الجنود تنهال بما يبلغ عشرين طائرة في كل ساعة

وكان في مقدور هذه الطائرات ان تكرر عملياتها ، وقد بلغ عدد الطائرات التي هبطت في تلك الايام التالية حوالي ستمائة طائرة ، ونتيجة للضغط المتفاقم بدأ اللواء النيوزيلندي يتراجع الى ما بعد ريتيموا ، فقد بقيت لنا السيطرة على الموقف في هيراقليون بدأ العدو في عملية انزال شرقي المطار ، وأخذ في تثبيت اقدامه على مساحة تتسع شيئا فشيئا ٠

وفي الليلة التالية رأت قواتنا المجهدة نارا تشتعل في صفحة السماء من ناحية الشمال وشاهدوا بريق انفجارات ، فأيقنوا ان اسطولنا بدأ يدخل المعركة واخذت أول قافلة المانية بحرية تبذل محاولة مستميتة ، فتعقبتها البوارج البريطانية طيلة ساعتين ونصف الساعة مغرقة اثني عشر زورقا على الاقل وثلاث بواخر مفعمة بالجنود الالمان ، ويبلغ عدد الغرقى من رجال العدو حوالي أربعة الاف في تلك الليلة ، وفي خلال ذلك كان الرير أميرال كنغ قد

أمضى الليلة يمخر عباب البحر أمام هيراقليون على طراداته الاربع ومدمراته الثلاث ، وعندما اطل صباح الثاني والعشرين بدأ يذهب نحو الشمال ، فاغرق احد الزوارق المزدحمة بالجنود ، ووصل الى جزيـرة ميلوس في الساعـة العاشرة ، وبعد دقائق قليلة رؤيت مدمرة معادية ترافقهـا بعض الـزوارق الصغيرة في شمال الجزيرة ، فناوشتها الوحـدات البريطانية وشب بينهمـا القتال ، ولاحت مدمرة اخرى وهي تنفث سحبا من الدخان ، وتحـت هـذا الستار يغيب عدد اخر من القوارب ، وهكذا اعترضت وحداتنا البحرية طريق قافلة اخرى مبهمة للعدو محملة بالجنود ، وقد أخبرت طائرات الاستطلاع هذا الى الاميرال كانينغهام ، ولكن مرت اكثر من ساعة قبل ان يتأكد الاميرال كنغ من هذه الاخبار ، وكانت قطعة البحرية تغير عليها الطائـرات المعاديـة منذ الصباح وعلى الرغم من سلامتها التامة فان ذخيـرة المدافع المضادة للطائرات قد قاربت الانتهاء ، ولم يدرك الاميرال أي مكسب كان علـى بعـد خطوات منه ، ولكنه احس بان استمراره في المضي شمالا ، يهدد قواته بالتوقف تماما عن الحركة ، ولذا فقد اعطى تعليماته بالتراجع غربا ، وعندما وصلته التعليمات الى القائد العام اصدر أوامره الحاسمة ٠

« احرص على موقعك ، واتصل بنا باستمرار ٠٠

يجب الا ينزل الجيش الالماني في كريت ، من المهم جدا الا ينـزل جنود الاعداء من البحر في الجزيرة » ٠

وقد مضت الفرصة الان لتدمير القافلة التي رجعت ادراجها وتناثـرت في اتجاهات شتى بين مختلف الجزر ، وهكذا فر خمسة الاف جنـدي المانـي من نفس المصير الذي لقيه زملاؤهم ، ولعل مـا وضح الان من غرابة هـذا التصرف للقيادة الالمانية ، واصدارها الامر لهذه القافلـة بالسير محملـة بالجنود ، ودون ان تفرض عليها أية حماية في مياه لا تسيطر بحريا عليها ولا جويا ، يعتبر مثالا لما كان يمكن ان يحدث ، وعلى مدى اوسع في بحر الشمال وقناة المانش في ايلول من سنة ١٩٤٠ انه يشير الى نقصان خبـرة الالمـان ومدى فهمهم القاصر لاثر القوة البحرية في مقاومة القوآت المهاجمة ويشيـر كذلك الى الثمن الباهظ الذي قد تدفعه حياة البشر عقابا على هـذا النـوع الغريب من الجهـل ٠

وكان الاميرال كننجهام قد عقد عزمه ، على تحطيم الغزاة بطريق البحر مهما اتخذ من وسائل ، ولذلك فقد القى بكل جنوده في لهيـب المعركـة ، ولم يعتره أي تردد في هدفه فقذف بعدد من بوارجه الغالية في الميـدان بل اقحـم

كل اسطول الشرق الاوسط عن اخره ، وقد اجمعت الاميرالية اجماعا تاما على قراره ، ولم تكن القيادة الالمانية تقامر وحدها بكل شيء لديها في هذه المعركة ، ولذلك اكدت الاحداث التي وقعت في الثماني والاربعين ساعة بين الحرب البحرية للعدو ان محاولة انزال قواته من البحر مستحيلة ، فلم يكرر المحاولة نفسها مرة اخرى حتى تحدد مصير جزيرة كريت ٠

وفي يومي الثاني والعشرين والثالث والعشرين من أيار دفع اسطولنا ثمنا غاليا فقد مني طرادان منه وثلاث مدمرات بالغرق كما توقفت البارجة ووورسبايت عن التحركات لمدة غير قصيرة ، ومنيت البارجة الاخرى فاليانت وغيرها من القطع البحرية بخسائر فادحة ، وبالرغم من كل ذلك حمينا الجزيرة بحريا ، ووفق الاسطول في اداء واجبه ، ولم يستطع الماني واحد ان يطأ بقدمه الجزيرة عن طريق البحر الى ان انتهت المعركة ٠

وكان يوم ٢٦ أيار يوما فاصلا ، فطيلة الايام الستة الماضية كانت قواتنا هدفا لقسوة ضارية ، ولم يكن في وسعها ان تصمد اكثر ، فاتخذ في تلك الليلة قرار الانسحاب من كريت ٠ وفرض علينا ان نقوم من جديد بتلك العمليات الشاقة المزعجة ، وان نتوقع أفدح الخسائر ، وان يقوم الاسطول المنهك القوي بعملية ترحيل لحوالي اثنين وعشرين الف جندي اغلبهم من الساحل المنكشف في « صفاقية » وكان من المحتم ان تستتر القوات بالصخور الى ان تدعى لركوب البواخر ، وكان هناك على الاقل خمسة عشر الف جندي يتخذون من شقوق الارض واخاديدها مخابيء لهم بالقرب من صفاقية ، بينما استمرت المؤخرة في مناوشات مستمرة مع الاعداء ٠

وحدثت فاجعة للحملة التي جهزها الاميرال رولينجز في نفس الوقت لانقاذ رجال الحامية الى الطرادات المنتظرة بالخارج ، وتمت المهمة في الساعة الثانية والنصف صباحا ، وابحر اربعة الاف جندي على السفن الحربية التي اخذت سبيل العودة وكانت القيادة قد دبرت تامينا جويا لها ولكن الطائرات المقاتلة لم تستطيع الوصول ، ولا العثور على السفن لتغيير المواقيت وفي السادسة صباحا بدأت الغارة العنيفة تمطرهم بوابل من القذائف ، وتواصل ذلك حتى الثالثة مساء عندما بدت القافلة على بعد مائة ميل من الاسكندرية ، واصيبت المدمرة « هيروورد » اصابة شديدة في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ولم تقدر على الاستمرار في رحلتها وفر الاميرال وكان محقا في ذلك أن يدع المدمرة المصابة لتواجه اقدارها ورؤيت للمرة الاخيرة بالقرب من شواطيء كريت ، وقد نجا اكثر من كانت تقلهم من الجنود ، ولكن

الالمان قد أسروهم ، وفيما بعد حدث اسوأ من ذلك ، فقد اصيب الطرادان ديدو ، وأوريون ، والمدمرة ديكوي في خلال الساعات الاربع التاليـة وخفـت سرعة القافلة الى احدى وعشرين عقدة ، ولكن سائر قطعها استمرت في السير نحو الجنوب ، وعلى سطح الطراد أوريون كانت الاحوال مثيرة للرعب فعلا ، فقد كان هناك الف ومائة جندي فضلا عن رجالها ، وقد قتـل حوالـي ٢٦٠ جنديا ، وأصيب ٢٨٠ جنديا اخر بجراح نتيجة لاختراق قنبلة ظهر الطراد ، وقد سقط قبطان الطراد « باك » قتيلا وشبت فيه الحرائق ولاحت في الافق لدى الظهيرة طائرتان من نوع الفولمار من سلاحنا الجوي فاثارت في النفوس مشاعر التفاؤل ، وبرغم ما قام به سلاحنا الجوي منجهود فلم تستطع طائراته أن تعثر على الوحدات المعذبة ، مع انها اشتبكت في أكثر من قتـال وأصابت طائرتين من طائرات العدو على الاقل ، وعندما انتهت القـوات الى ميناء الاسكندرية في الساعة الثامنة مساء ٢٩ ، رؤي ان مجمـوع الذين قتلوا او جرحوا او أسروا يبلغ خمس قوات الحامية التي كتبت لهـا النجـاة مـن هيراقليـون ٠

***

وبعد هذه المحن كان على الجنرال ويفل ورفاقه ان يفكروا الى أي مدى سيحاولون انقاذ جنودهم من جزيرة كريت ، لقد كان الجيش في خطر داهم ، وليس في وسع السلاح الجوي أن يفعل شيئا ، وكل الاعباء تثقل كاهل الاسطول المنهوك القوى الذي أصابته القذائف وكان من رأي الاميرال لينجهام ان ترك الجيش ليواجه قسوة هذا الاختبار أمر يتجاوز حدود تقاليده البحرية وصرح الاميرال بأن انشاء سفينة واحدة يستغرق من الاسطول ثلاث سنوات ولكن تدعيم تقاليد جديدة يتطلب ثلثمائة عام ، ولذلك فلن تنقطع مهمة نقل الجنود٠

وعندما اتى صباح ٢٩ كان خمسة الاف جندي قد انقذوا ، ولكن ما زال عدد كبير يدفع ثمن بقائه ، ويتستر في مداخل صفاقية ، ويتعرض لنيران العدو اذا ما غادر مخابئه بعض الوقت وكان اتخاذ قرار الانقاذ بما فيه من مغامرة اخرى بخسائر بحرية غير معروفة المدى قرارا يحمل مبرراته ليس بالنظر الى بواعثه فحسب ، بل باعتبار النتيجة ايضا ٠

وأبحر الاميرال في يوم ٢٨ الى صفاقية واستطاع ستة الاف جندي في الليلة التالية أن يصلوا الى سفن النقل دون ما تدخل من الاعداء ، وعلىالرغم من استهداف القوات البحرية للهجوم ثلاث مرات يوم ٣٠ من نفس الشهر الا

انها وصلت الى الاسكندرية سالمة ، وهم مدينون لحسن حظهم لطائرات السلاح الجوي الملكي ، التي استطاعت رغم عددها الضئيل ، ان تصد الطائرات المعادية في اكثر من غارة قبل ان تتمكن من أهدافها ، وفي صباح يوم ٣٠ ابحر القبطان ارليس ثانية الى صفاقية وبصحبته مدمرات اربع ، اضطرت اثنتان منها الى العودة ، واستطاعت الاخريان اجلاء الف وخمسمائة جندي بنجاح • وبرغم الاضرار التي اصيبتا بها في طريق العودة الا انهما وصلتا الى الاسكندرية بسلام • وكانت القطع البحرية قد نقلت ملك اليونان بعد أن صادف كثيرا من الصعاب وفي رفقته وزيرنا المفوض في أثينا ، وفي تلك الليلة أيضا ، تم انقاذ الجنرال فريبرج عن طريق الجو تنفيذا لاوامر القائد العام •

وأرسلت التعليمات بالقيام بمحاولة اخيرة في ٣٠ ايار لاجلاء من ظل هناك من القوات ، وكان عدد الموجودين في صفاقية لا يزيد في احتمالنا عن ثلاثة الاف جندي ولكن الانباء التالية اكدت ان هذا العدد يبلغ الضعف ، وفي صباح يوم ٣١ ابحر الاميرال لينتج ثاثنية ولم يكن هناك رجاء في اجلاء الجميع ولكن تعليمات الاميرال كننجهام اقتضت بأن تحمل البواخر اقصى ما يمكن ، وقيل للاميرالية في الوقت نفسه بان هذه اخر ليلة في عمليات الانقاذ ، وتم الركوب في امان وفي الساعة الثالثة من صباح أول حزيران ابحرت البواخر وعلى ظهرها حوالي أربعة الاف جندي وصلوا الاسكندرية بسلام •

وبقي في كريت اكثر من خمسة الاف جندي من الوحدات البريطانية والامبراطورية واذن الجنرال ويفل لهم بالاستسلام ، ولكن كثيرين منهم تناثروا في انحاء الجزيرة الجبلية التي يبلغ طولها مائة وستين ميلا ، وقد أعانهم أهل القرى والريفيون بحاجاتهم من المؤن وضمدوا جراحهم ، هم والجنود اليونانيين ، ولكن وقعوا تحت طائلة عقاب وحشي عندما عرف الالمان حقيقتهم ، وامتدت هذه العقوبات الوحشية للفلاحين الطيبين الابرياء فصدرت أوامر اعدامهم بالجملة في مجموعات يبلغ عدد كل منها عشرين او ثلاثين انسانا •

وكان هذا هو السبب الذي دفعني لاقدم اقتراحا بعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩٤٤ الى مجلس الحرب الاعلى يقضي بمحاكمة مرتكبي هذه الجرائم الوحشية في جزيرة كريت وان يحاكم المتهمون في قلب الجزيرة ، فاخذ باقتراحي وسددت كثير من الديون الضخمة •

***

انسحب الى مصر في سلام ستة عشر الفا وخمسمائة جندي ، اكثرهم من قوات بريطانيا وامبراطوريتها ، واستطاع حوالي الف جندي اخر ان يمهدوا لهم طريق الفرار بمعاونة الفدائيين الباسلة ، ووصلت خسائرنا الى ثلاثةِ عشر الفا بين قتيل وجريح وأسير فضلا عن الفين من رجال القطع البحرية ، وقد احصيت بعد الحرب بالقرب من ماليمي وخليج سودا حوالي أربعة الاف قبر الماني ، والف قبر اخرى بالقرب من ويتمو وهيراقليوان فاذا ما اضيف الى هذا الاعداد الضخمة المجهولة التي ابتلعتها الامواج ، بدت لنا خسائر الالمان في صورة باهظة ، فلن يبلغ عددها اقل من خمسة عشر الفا بين قتيل وجريح ، كما دمرت حوالي مائة وسبعون طائرة من طائرات النقل ، وايا ما كان الامر ، فان النصر الذي احرزوه لا يمكن ان يقارن بالمجازر الذي نزلت بهم ٠

فمعركة كريت ليست سوى مثال للنتائج الفاصلة التي يتمخض عنها قتال عنيف بعيدا عن قدرات المناورة للفوز بمواقع استراتيجية ، ولم نكن ندري شيئا عن عدد فرق جنود المظلات الالمانية ولكن الفرقة السابعة المحمولة بالجو كانت الفرقة الوحيدة التي في حوزة جورنج ، وقد دمرت هذه الفرقة في كريت ، فقد قضى على اكثر من خمسة الاف جندي من اكثر محاربيه شجاعة وقد تهدم الكيان الكلي لهذه الوحدة بصورة يعز ترميمها ، فلم تظهر ثانية بشكل حيوي فعال ، وتستطيع القوات النيوزيلاندية والبريطانية والامبراطورية واليونانية ان تقول انها احتملت عبئا لا ينكر في عملية جلبت لنا الكثير منراحة الاعصاب في ظروف مروعة ٠

فقد زال الخطر الرهيب لسلاح جنود المظلات الالماني فلم يعد الى الظهور بصورة حيوية في معارك الشرق الاوسط ، نتيجة للاضرار البالغة التي حاقت به في محاربيه الممتازين ، وقد نال جورنج في كريت انتصارا اشبه بالهزيمة ، لان الجهود التي بذلها هناك كانت كافية لسيطرته على قبرص والعراق وسوريا وربما فارس ايضا فمثل القوات ضرورية للاستيلاء على مناطق واسعة الاماد ، حيث لا تواجه بمقاومة جادة او عنيفة ، ولعله اصيب بكثير من خطل الراي الى الدرجة التي اطاح فيها بمثل تلك الفرص السانحة بينما ضحى بقوات لا تعوض في قتال بائس لعب فيه السلاح الابيض الدور الاكبر مع مقاتلي الامبراطورية البريطانية ٠

وقد حصلنا على « تقرير المعركة » الذي اعده الفيلق الجوي الالماني الحادي عشر الذي كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضا منه ، وعندما

نوجه نقدنا القاسي الى أنفسنا والى خططنا ، فقد يكون من المفيد أن نضيف الى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد « لقد كتب الالمان ما يلي : كانت قوات البر البريطانية في كريت ثلاثة اضعاف ما دار في احتمالنا ، وقد أعدوا في غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع في الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة٠٠ واتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا الى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقفه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوي الحادي عشر للخطر ، وكبدناه اضرارا جسيمة ظهرت نتائجها ٠٠

واهتز الموقف في البحر المتوسط نظريا على الاقل بالاضرار الجسيمة التي حاقت بنا في جزيرة كريت وحين الانسحاب منها ، وكانت معركة ماتايان في ٢٨ اذار قد اضطرت الاسطول الايطالي بان يلتزم مواقعه حينا ٠ اما الان فقد منى اسطولنا بخسائر جديدة باهظة ، وبانتهاء القتال في كريت لم يجد الاميرال كننجهام تحت تصرفه سوى بارجتين وثلاث طرادات وسبع عشرة مدمرة ، وهناك تسع طرادات اخرى ومدمرات رهن الاصلاح في مصر ، اما البارجتان وورسبايت و « برهام » ، وحاملة الطائرات الوحيدة «فورميدال» وسواها من القطع البحرية ، فكان عليها ان تبحر من الاسكندرية حيث تستصلح في مناطق اخرى ، وقد خسرنا ثلاث طرادات وست مدمرات وعلينا ان نرسل فورا بالامدادات التي تعيد التكافؤ للموقف البحري ، ولكن كوارث اخرى كانت معنا على ميعاد وهذا ما سيتضح بعد حين ، وهيأت ظروفنا الشائكة احسن الفرص للعدو ليتحدى سيطرتنا على البحر المتوسط والشرق الاوسط ، ويتمادى في الشك بهذه السيطرة ، بكل ما يعنيه هذا الشك وذلك التحدي من اخطار علينا ، ولم نكن نستطيع ان ننكر عدم فوزه اذا خاض غمار التجربة ٠

الفصل السابع عشر

الجهد الاخير للجنرال ويفل

بينما كان وطيس المعركة في كريت والصحراء الغربية يشتد الى ابعد مداه والبحث عن البارجة « بسمارك » باقتناصها ومواراتها في امواج الاطلنطي كانت مصاعب لم تسفك فيها كثير من الدماء ، ولم يبلغ في اخطارها حدا كبيرا قد بدات تعترض طريقنا في سوريا والعراق ، وكانت معاهدتنا مع العراق سنة ١٩٣٠ ، تسمح لبريطانيا في اوقات السلم ـ فضلا عن اشياء اخرى ـ بانشاء قاعدتين اولاهما قرب البصرة والاخرى في الحبانية ، وتعطي لقواتنا المسلحة ومعداتها حق المرور في سائر الاوقات وتضمنت المعاهدة ايضا ان لجيوشنا في حالة الحرب ان تجد كل تسهيلات مستطاعة من خطوط حديدية وانهار وموانىء ومطارات لتيسير التنقلات ، وعندما اعلنت الحرب ، قطع العراق علاقته الدبلوماسية مع المانيا ، وان كان لم يشهر عليها الحرب ، وصارت المفوضية الايطالية في بغداد هي مقر الدعاية للمحور ، واثارة مشاعر العداء لبريطانيا وكان يسهم في تلك المهمة مفتى القدس الذي فر من فلسطين قبيل ، اعلان الحرب وذهب الى بغداد كلاجىء سياسي وتعرضت سمعة بريطانيا بعد مزيمة فرنسا للتدهور ، وانتابنا القلق للاوضاع هناك ، ولكننا لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الاوان ، واي ضعف ينتاب افضل ما نستطيع من وسائل .

وفي اذار عام ١٩٤١ حدث التغير السيىء ، فقد اصبح رشيد عالي الذي كان منساقا للالمان رئيسا للوزراء ، وفر من العراق الامير عبد الاله

الوصي المتضامن مع بريطانيا ، وتحتم علينا ان نستوثق من بقاء البصرة ، الميناء الرئيسي للعراق على الخليج العربي ، مؤمنا لحسابنا ، ولذا فقد ارسل الجنرال اوكنلك القائد العام في الهند مجموعة لواء ، استقلت الشاطىء في ١٨ نيسان دون مقاومة ، وبدأ رشيد عالي الكيلاني العمل مستندا الى مساعدة الطائرات الالمانية وجنود المظلات في تحركاته :

وكان اتجاهه في بادىء الامر نحو الحبانية قاعدتنا الجوية للتدريب في صحراء العراق ، وبها حوالي ٢٢٠٠ جندي وتسعة الاف عامل مدني ، واصبحت مدرسة الطيران هناك ذات اهمية خاصة ، فبدأ مارشال الجو الذي كان يتولى قيادة القاعدة في اتخاذ اجراءات مؤقتة صغيرة ، وكان كل ما في القاعدة من طائرات كان طائرات تدريب او طائرات اصابها العطب ، فطلب من مصر بعضا من طائرات « الجلاد يتيور » فتوافد الى القاعدة على الفور حوالي اثنتين وثمانين طائرة شكلت في اربع مجموعات ، ووصلت دفعة اخرى بريطانية من الهند في ٢٩ نيسان وكان محيط كل هذا القطاع حوالي سبعة اميال ليس به من وسائل الدفاع سوى خط واحد ضعيف من الاسلاك ، وفي ٣٠ نيسان لاحت القوات العراقية القادمة من بغداد على ربوة لا تبعد عن المعسكر اكثر من ميل واحد ، وتطل عليه وعلى المطار في نفس الوقت ثم انضمت اليها قوات اخرى للتعزيز حتى بلغ العدد حوالي تسعة الاف جندي وخمسين مدفعا ، ومر اليومان التاليان في مباحثات من الجانبين بلا جدوى ، وفي فجر ٢ ايار بدأ الاشتباك .

وواجهنا في سوريا خطرا مماثلا مع ضيق مواردنا وقلتها وكانت سوريا احدى ممتلكات فرنسا فيما وراء البحار ، ورأى الفرنسيون فيها ان الهدنة التي وقعتها حكومتهم في فيشي تسري عليهم شروطها ، وكانت السلطات في فيشي من جانبها تحاول جاهدة ان تحول بين جنود فرنسا في الشرق وبين الانضواء تحت لواء الحلفاء في فلسطين ، وفي شهر اب عام ١٩٤٠ وصلت لجنة الهدنة الايطالية الى البلاد ، وافرج عن المعتقلين الموالين للالمان الذين تحفظ عليهم منذ نشوب الحرب ، فاتيحت الفرصة ليبذلوا كل الجهود ، ولم تات نهاية العام حتى وصل عدد اخر من الالمان واستطاعوا بالاموال الكثيرة التي بذلوها ان يوقظوا المشاعر المعادية لبريطانيا والصهيونية بين العرب في نفس الوقت الذي استولى رشيد عالي فيه عنوة على السلطة . فاثارت سوريا قلقنا ايضا . كانت الطائرات الالمانية قد بدأت في شن غاراتها على السويس من قاعدتها في جزر الدوديكانيز ، وكان

في مقدورها ان تعمل اذا رغبت ضد سوريا ، وخصوصا بقوات منقولة عن طريق الجو ، ولو استطاع الالمان التمكن من سوريا لاضحت مصر وقناة السويس ومعامل تكرير الزيت في عبادان واقعة تحت خطر التهديد المباشر من الهجوم الجوي المتواصل ، وستكون طرق مواصلاتنا البرية بين فلسطين والعراق معرضة للخطر ايضا ، وربما تثير هذه التغيرات قلاقل في مصر ، كما ان هذا سيعتبر ضربة قاصمة على سمعتنا في تركيا وسائر دول الشرق الاوسط ٠

وما كان رشيد عالي يطلب العون العسكري من هتلر حتى بدا الاميرال في اجراء مباحثات مع الالمان حول اتفاق مبدئي عن سوريا واتفقوا على توصيل ثلاثة ارباع المواد الالمانية الموجودة لدى بعثة الهدنة الايطالية في سوريا والعراق ، وان تسهل للطائرات الالمانية سبل النزول في مطاراتها ، وصدرت التعليمات للجنرال وانزل المفوض السامي الفرنسي والقائد العام بتنفيذ هذه الاوامر ، وما اقترب ايار من نهايته حتى استقبلت مطارات سوريا مائة طائرة المانية وعشرين ايطالية ٠

ومنذ ان بزغ هذا التهديد الجديد ، بدا على الجنرال ويفل تردد واضح في القدرة على استيعاب مهام جديدة ، وابدى ان كل ما في وسعه ليعده ضد سوريا لا يعدو مجموعة لواء واحد ، وقال انه سيبذل كل ما في وسعه ، وسيطلق الشائعات عن وجود قوة كبيرة على اهبة الاستعداد في فلسطين فربما تفكر حكومة العراق في موقفها ، ولكن ما يقدر على توجيهه بالفعل لا يحقق النتيجة المرجوة وربما يكون بعد فوات الاوان ، واي ضعف ينتاب قواتنا في فلسطين يوقفها على حافة الخطر ، خصوصا والحث على الثورة يجوب انحاءها ، وابرق قائلا : « لقد حذرتكم دائما ان من المستحيل ارسال اية مساعدة للعراق في الظروف الحالية عن طريق فلسطين ، وكثيرا ما نصحت بالابتعاد عن اي التزام هناك ، فقواتي منتشرة الى ابعد مدى في كل مكان ، وليس في استطاعتي ان اقامر باي فريق منها في عمليات يملؤني اليقين بعدم جدواها » ٠

اما الجنرال اوكنلك ، فقد عرض علينا مدى المساعدات التي في مقدوره ان يمد بها العراق ، اذا حصلت على الحماية الكافية في وسائل النقل الضرورية ، والتي اوضح انها تصل الى خمسة الوية من المشاة عدا قوات اخرى مساعدة ، مما اثار اعجابنا بحماسته واندفاعه ، اما الجنرال ويفل

فلم يكن ينصاع للتعليمات دون ان يرفق بذلك احتجاجه وتبرمه ، وفي ٥ ايسار ارسل لنا برقية قال فيها :

« ارى من واجبي ان احذركم بلا تردد في ان امتداد القتال في العراق يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر للخطر ، وقد يترتب عليه من النتائج السياسية مالم يدر في الحسبان ، وقد يحدث نتيجة له ما بذلت عامين في محاولة تجنبه ، وهو اندلاع فتن خطيرة داخل قواعدنا ، ولهذا فاني استحثكم ثانية بكل قوة واصرار على ان الواجب يحتم عليكم التباحث مع العراق من اجل الوصول الى ترضيات مقبولة في اقصر مدى مستطاع » .

ولم اكن مقتنعا بذلك ، وعندما عرفت ان رؤساء اركان الحرب يوافقونني عرضت القضية على لجنة الدفاع عندما انعقدت ظهر اليوم التالي ، وانتهى الاجتماع الى قرارات نهائية مؤكدة ، فارسلنا الى الجنرال ويفل تبعا لذلك التعليمات الاتية : « لا نقبل انهاء الموقف عن طريق المباحثات الا بخضوع العراقيين وتعهدهم بالتخلى عن اية مشاريع قادمة للمحور في العراق ، اما الوضع هناك فانه يؤكد الولاء التام للمحور من جانب رشيد عالي ، وانه كان ينتظر الوقت الذي يمد فيه المحور له يد العون ، قبل ان يكشف عن حقيقة اتجاهاته ، وقد اضطره وصولنا للموصل الى الافصاح عن نواياه ، قبل ان يقدر الالمان على مساعدته ، وهناك فرصة لا شك فيها للسيطرة على الموقف ثانية بالعمل الفوري الحاسم .

« وقد تعهد رؤساء اركان الحرب بتحملهم لكل مسئولية تنتج عن ارسال القوات المعينة في برقيتك على الفور ، وتطلب لجنة الدفاع الابراق الى نائب ماريشال الجو سمارت بأن المساعدة المطلوبة في طريقها اليه : وان الواجب يحتم عليه في خلال ذلك الدفاع عن الحبانية الى اقصى ما يمكن ، ومن المحتم ان نرسل الى العراق غاية ما في الوسع من المدد الجوي لتعضيد العمليات هناك بشرط ان تستمر حماية الامن في مصر » .

وفي خلال ذلك بدأت طائراتنا في الحبانية وقاذفاتنا العاملة من طراز ويلنجتون من قاعدة الشعيبة تشن هجومها على القوات العراقية المتجمعة على ربوتها ، وقد اجابت هذه القوات بمدافعها المضادة ، واسهمت الطائرات العراقية بقذائفها ونيران مدافعها الرشاشة ، وقد قتل وجرح حوالي اربعين جنديا من قواتنا في اليوم الاول كما تحطمت حوالي اثنتين وعشرين من طائراتنا ، وعلى الرغم من الخطورة التي تهدد الطيران من منطقة تقترب منها نيران مدفعية العدو ، الا ان طيارينا خاضوا التجربة ببسالة ، ولم

يهاجمنا المشاة العراقيون . وصمتت مدافعهم بعد قليل ، فلم تستمر في قصفها لغاراتنا الجوية ، او لطائراتنا حينما تحلق فوق قواتهم ، فكانت حالتهم العصبية فرصة لنا انتهزناها في اليوم الثاني ليقوم بهجوم جوي جزء من سلاحنا الجوي على قواعد السلاح الجوي العراقي ، وشنت الدوريات هجومها في ليلتى الثالث والرابع على الجبهة العراقية ، وفي الخامس وبعد اربعة ايام من هجمات سلاحنا الجوي الملكي ، كنا قد انزلنا الكثير بالعراقيين فاضطروا في تلك الليلة الى الجلاء عن مواقعهم وتبعتهم قواتنا في حملة ناجحة كانت نتائجها ان اسرنا اربعمائة عراقي ، واستولينا على اثني عشر مدفعا وستين مدفعا رشاشا وعشر سيارات مصفحة . ووجدت طائراتنا قوات في طريقها للتعضيد فأمطرتها وابلا من نيرانها ، وفي ٧ ايار فك الحصار ، وفي ١٨ من نفس الشهر وصلت طلائع المدد الحربي المرسل من فلسطين .

وعندئذ اصبح العراقيون غير منفردين ، ففي ١٣ ايار هبطت بالموصل طليعة الطائرات الالمانية وغدت المهمة الاولى لسلاحنا الجوي شن الهجوم عليها ، وقطع طرق تموينها من سوريا في الخطوط الحديدية وبعد بضعة ايام كنا قد دمرناها ووصلت مجموعة من الطائرات المقاتلة الايطالية فيما بعد ، ولكن تحركاتها قد شلت تماما ، ووصل الضابط الالماني الذي يحمل عبء توزيع العمليات في العراق بين قوات المحور وقوات العراق وهو ابن الماريشال بلومبرج ، وصل الى بغداد ، مصابا في راسه ، بطلق ناري من حلفائه ، ولم يستطع من جاء بعده ـ وقد انتهى الى مطار بغداد سالما ـ للقيام باي عمل ، فتبدد كل امل للمحور ، في ان يكون عاملا له اثره في العراق .

وفي ٣٠ ايار زحفت مقدماتنا حتى مشارف بغداد ، وعلى الرغم من وهن قواتنا ، ومن وجود فرقة عراقية كاملة ببغداد ، الا ان اعصاب رشيد عالي وزملائه ، لم تستطع الصمود امام زحف جيوشنا ، فالتمسوا الفرار الى ايران ، وبصحبتهم وزيرا المانيا وايطاليا في بغداد ومفتى فلسطين ، وفي اليوم التالي عقدت الهدنة واعيد الوصى الى منصبه وشكلت حكومة عراقية جديدة ، وسيطرت قواتنا على جميع المناطق الهامة في العراق .

وهكذا حاق الفشل بالخطة الالمانية التي هدفت الى احداث انقلاب في العراق والاستيلاء على هذه الجبهة العريضة بثمن زهيد في اللحظة الاخيرة ، وكان لديهم في ذلك الوقت بكل تاكيد قوات تنتقل عن طريق الجو ، وتمهد لهم وسائل الاستيلاء على سوريا والعراق وايران بكل ما تملكه من ابار البترول الغنية ، وكان في استطاعة يد هتلر الممتدة ان تصل بعيدا الى الهند ، وان

تمر على اليابان ولكنه على اية حال قد رغب ـ كما عرفنا ـ ان يوجه سلاحه الجوي بكل قواه في طريق اخر ، ولا شك انه لم ينتهز هذه الفرصة طمعا في هدية اعلى بتكاليف اقل في انحاء الشرق الاوسط طولا وعرضا ٠

واضطررنا لكبح امال الالمان في سوريا ان نوالي الضغط على ويفل ، وقد رغب في الا نحمله تبعات حملة في سوريـ ، الا اذا اصبحت الحاجة ماسة الى ذلك ، وقد اجابه رؤساء اركان الحرب بان لا مندوحة له عن حشد اكبر عدد ممكن لغزو سوريا على الا تتأثر سلامة قواته المرابطة في صحراء الغربية ، وفي ٢١ ايار في الوقت الذي بدأ الالمان فيه يشنون هجومهم على كريت، كان ويفل يبلغ تعليماته للجنرال ويتلاند ولسون بالاستعداد للزحف ٠

وبدأت الاغارة في ٨ حزيران بتعضيد من احرار الفرنسيين ، وقوبلت بالمقاومة بادىء الامر ، ولم يكن من الواضح مدى ما ستحارب اليه فيشي ، وعلى الرغم من عدم وجود عنصير المفاجأة في زحفنا ، الا ان البعض قد ظن اننا سنلقى مقاومة رمزية ليس الا ، ولكن عندما ادرك الفرنسيون ضعف موقفنا قويت عزائمهم على القتال وربما لا نجد سببا اخر لعنف مقاومتهم سوى الاحتفاظ بسلامة شرفهم العسكري ، وبدا لويفل بعد قتال دام اسبوعا ان عليه ان يرسل مؤازرة اخرى ، فاستطاع ان يعد فوجا اخر ومن بين قواته الوحدة التي استولت على بغداد فيما سبق ، واستولى الاستراليون على دمشق بعد ثلاثة ايام دار فيها قتال مرير وكان ذلك في ٢١ حزيران ، وقد عضدت زحفهم على المدينة عملية باسلة استوجبت الثمن غاليا هبطت فيها وحدة من الفدائيين الحادية عشرة خلف خطوط العدو من البحر ، واحس الجنرال رانتز بانه بذل ما في وسعه واستنفد طاقته ، وكان لا يزال حوالي اربعة وعشرين الف جندي يقاتلون معه ، ولكن امله في الاستمرار كان قد انهار فلم يبق من قواته الجوية الا حوالي الخمس ، وفي الثامنة والنصف من صباح ١٢ تموز وصلت رسل من فيشي ترغب في الهدنة ، وقد استجبنا اليهم بالطبع ، وابرمنا اتفاقا ، انضمت سوريا على اثره الى سيطرة الحلفاء ، وكانت خسائرنا حوالي ٤٦٠٠ بين قتيل وجريح ، بينما كانت خسائر الاعداء ٦٥٠٠ ، ولم يبق هناك غير اجراء واحد مثير ، فقد قامت السلطات الفرنسية بترحيل الاسرى الى فيشي ، ومعنى هذا انهم سينقلون بكل تاكيد الى معسكرات المانيا ، وعندما عرفنا هذا الاجراء الغريب الذي عجز الفرنسيون عن تفسيره قمنا باعتقال الجنرال رانتز وكبار ضباطه كرهائن ، مما ادى الى احسن النتائج اذ عاد جنودنا في سلام ٠

وتحسنت اوضاعنا الاستراتيجيــة في الشرق الاوسط نتيجة للعمليات الموفقة في سوريا والعراق فسد الطريق امام اية رغبة للعدو في التوغل شرق البحر المتوسط ، وامتد شمالا خط دفاعنا عن قناة السويس مسافة مائتيـن وخمسين ميلا • وزال القلق عن حدود تركيا الجنوبية ، واصبح في يقينهـا الان ان باستطاعة دولة صديقة ان تمد يد العون العاجل في اي وقت يلوح لها الخطر ، وقد دمرت معركة كريت مع ما دفعنا فيها من ثمن باهظ القوة الضاربة للعدو ، وسحقنا اخيرا الثورة العراقية ، وبقوات صغيرة تستدعي الشفقـة اعدنا سيطرتنا على منطقة شاسعة وحدد استيلاؤنا على سوريا وهجومنـا عليها الذي ارغمتنا عليه الضرورة الملحة رغبات العدو في الانطلاق باتجاه خليج البصرة والهند بصورة حاسمة ولو استجبنا لدواعي التريث والعقل ولم تحول وزارة الحرب كل مشروع الى عملية ظافرة ، ولو لم نفرض وجهة نظرنا على كافة القادة العسكريين في المنطقة ، لكنا في موقف الراضين عن الاضرار الجسيمة التي تكبدناها في كريت ، ولم نحقق الارباح العظيمة التي جنيناهـا من حربنا المجيدة هناك ولو تخاذل الجنرال ويفل تحت وطأة السهام الجسيمة التي القتها الحوادث على عاتقه ، وصمدت امامنا وجهة نظرة ، فان مـا اسفرت عنه الحرب وان مستقبل تركيا كان سيحدث فيها تغيرات رئيسيـة ، فاذا كانت هناك حسنات لتخلي الانسان عن كل ما ليس في وسعه ، وعن اقلاعه عن كل عمل لا يقتنع به شخصيا ، فلكل قاعـدة ــ في الحـرب وفي الحيـاة ــ شواذهـا •

ويجب الا ننسى ان ثورة العراق ، والانطلاق الى سوريا لم يكونـا غير احداث صغيرة من الاخطار المفاجئة في الشرق الاوسط التي عاش فـي غضونها الجنرال ويفل ، واحاطت بكل كيانه ، وعلى نفس النمط والمثال كان ميدان الشرق الاوسط بأكمله ليس سوى امر ثانوي بجانب مشاكلنا العالميـة التي كنا نبصرها في لندن ، حيث يقفز فيها الى مقدمة اهتمامنا خطر الغزو ، وحرب الغواصات ، والتهديد اليابانـي ، وقد انتصرنا علـى سائـر هـذه الاختبارات القاسية بدون ان ننسى ما منينا به من خسائر فادحة بفضل قوة وزارة الحرب والتفاهم بين اعضائها ، وصلات الاحترام المتبادل ، واستعراض وجهات النظر بين القادة العسكريين والسياسيين ، وبفضل جهازنا الحربي الذي كان يعمل في هدوء ورتابة ، وليس امامي الان ما اعرضـه في مجـال البحث سوى القتال في الصحراء العربية ، وكان موضوعها يستأثر بعظيـم

اهتمام مني ومن رؤساء الاركان ومع اننا لم ننل فيها اي انتصار الا اننا فرضنا على رومل التوقف لمدة خمسة شهور اخرى ٠

***

وكانت مخابراتنا في ذلك الوقت قد نفذت الى مقر قيادة رومل وتولى عميلنا ارسال ادق الاخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى في موقفه المتجمد الغريب وكنا ندرك تماما الثغرة الوحيدة التي كان يأمل القائد الالماني في الابقاء عليها ، كما كنا نقف على الاوامر الصارمة والتحذيرات الشديدة التي كانت تصله من القيادة الالمانية العليا ، منذرة اياه بالا تهرب المكاسب التي حازها حتى هذه الاونة في خضم اعتماده اكثر مما ينبغي على يمن الطالع ٠

وكنا نمد ويفل بكافة المعلومات ، وقد رغب بدافع شخصي بحت ، وفي غمار القتال الدائر في كريت ان يجرب مخالبه في رومل قبل ان تلحق به الفرقة الالمانية المدرعة التي تنشر الرعب ، وهي الفرقة الخامسة عشرة ، عابرة طريق طرابلس الطويل وقبل ان يتاح له فتح ابواب بنغازي ، لتكون الطريق القصير لوسائل تموينه ، واراد ان يشن هجوما حتى قبل ان تباشر الدبابات التي ارسلناها في عملية « النمر » اداء مهمتها ، وارادت قوة صغيرة يتولى قيادتها الجنرال غوت ان تتولى هي شن هذا الهجوم ولكنه اندحر تماما وفاتت الفرصة التي كانت متاحة لهزيمة رومل قبل ان تلحق به التعزيزات اللازمة ٠

وعلى الرغم من اسراعنا في اتخاذ الاعدادات ، الا ان التاخير في تفريغ واستصلاح وتجهيز دبابات عملية النمر للقتال ، كان في غاية القسوة واتضح بعد القيام بتفريغ الشحنة ان بعض الدبابات التي كانت بطيئة من الناحية الميكانيكية لا تصلح ، وعاجلا ما سهلت الامور ، فقد جمع رومل القسم الاكبر من فرقته المدرعة الخامسة عشرة ، وحشد قواته على الحدود بين كابوتزر وسيدي عمر ، ودار في احتماله قيامنا بهجوم عنيف للسيطرة على طبرق ، ولذلك فقد قرر الاستيلاء ثانية على حلفايا والابقاء عليها ليصبح هذا الهجوم صعبا للغاية وكانت الدفعة الثالثة من حرس جولد ستريم وكتيبة مدفعية الميدان ، ووحدتان من الدبابات تقوم بحماية هذا الممر المعروف في ٢٦ ايار بدا العدو تقدمه ، واستولى على مركز في الشمال ، يشرف على سائر النقط التي يرابط فيها الفوج ، وفي صباح اليوم التالي ، وبعد أن دوت

طلقات المدافع ، قام فوجان المانيان تؤازرهما على الاقل ستون دبابة بهجوم مجتاح ، جعل قواتنا على حافة الخطر ، وكانت الوحدات الاضافية بعيدة بحيث لا تملك المشاركة في القتال ، ولم نجد امامنا سبيلا سوى القيام بانقاذ قواتنا في هدوء ودون جلبة ، وقد قمنا بذلك فعلا ولكن الثمن كان باهظا ، فلم تبق من دباباتنا الا اثنتان صالحتان للعمل ، ووصل رومل الى ما يريد وبدا يدعم موقفه في حلفايا • وقد كانت سيطرته على هذا الموقع ـ كما كان يتطلع ـ سبيلا بتعويق قدرتنا على العمل بعد ثلاثة اسابيع •

***

وظللنا نعد في هجوم حيوي حاسم سميناه « فاس المعركة » ولكن كان امامنا جانب مظلم ففي يوم ٣١ ايار ارسل الينا ويفل يخبرنا بالمصاعب الفنية الجمة التي تعترض طريقه في اعادة تجهيز الفرقة السابعة المدرعة ، وذكر اول موعد يسمه ان يبدأ فيه الهجوم هو ١٥ حزيران ، واكد انه يدرك تبعات التأجيل ، وقد تصل الى العدو امداد جوية اخرى ، وقد شن هجوما عارما على طبرق ، الا ان المعركة القادمة فيما يرى ستكون قتالا بين الدبابات ولهذا فعليه ان يمنح فرقته المدرعة كل ما يستطيع ، واكد لنا ان فرصة التأجيل والتريث تزيد من احتمالات النصر •

وفي هذه الاثناء كنت نافد الصبر يتجاذبني الرجاء والخوف من جراء هجومنا في الصحراء متعجلا لوقوعه ، متيقنا انه قد يحول الى لغتنا سير المعركة الافريقية كلها ، واستطاع الالمان استغلال ميناء بنغازي في سرعة ، مع اننا لم نوفق الى ذلك في بداية العام ، وعن طريق هذا الميناء وصلت اليهم كثير من المؤن والذخائر ، وقد عرفنا ـ فيما بعد ـ أن الالمان استطاعوا رصد جزء كبير من سلاحهم المدرع في خطوطهم الامامية وحشدوا حوالي مائتي دبابة في مقابل دباباتنا البالغة نحو من مائة وثمانين •

وفي صباح ١٥ حزيران بدأت عملية « فاس المعركة » وفي بداية الامر سارت الامور كما نحب غير انه في ١٧ حزيران اي في اليوم الثالث من المعركة اخذ كل شيء ينقلب على عقبة ، وأدركنا اننا منينا بالفشل في غارتنا ، فبدأت عمليات التقهقر المنظم ، تحت حماية من سلاح الطيران ، ولم يبدِ العدو اى محاولة لتعقبنا ، وربما يكون ذلك بسبب الاضرار التي انزلتها بسلاحه المدرع قاذفات قنابلنا ، وربما تكون هناك اسباب اخرى فقد علمنا فيما بعد ان اوامر رومل كانت تحرص على الدفاع وتوفير القوى لهجوم في الخريف ، ومعنى

ذلك ان القيام بمطاردتنا يتنافى مع خطته ، فضلا عما يتكبده من اضرار فادحة ٠

ومع ان هذا القتال كان محدودا اذا قورن بالمعركة الواسعة المدى في البحر الابيض المتوسط في شتى اشتباكها ، فان ما اصبنا به من فشل كان ضربة مؤلمة ، لان نجاحنا في الصحراء يعني تدمير جيش رومل المغامر ، والاستيلاء على طبرق وانقاذ حاميتها ، وسرعان ما انسحب العدو الى ما بعد بنغازي بنفس الطريقة التي زحف بها ، وقد كلفنا هذا الهدف كثيرا فنحن لم ننس الاخطار التي صاحبت عملية « النمر » ، ومقامرتنا باشياء كثيرة ، ولم اكن بعد قد عرفت شيئا عما وقع في يوم ١٧ ٠ ولكن الاخبار كانت ستصلني حتما بعد قليل ، لذلك فقد ذهبت الى شارتويل ، الوصدة ومنذ مدة ، انشد هناك نوعا من العزلة ، واحيا وحيدا ، فجاءتني هنالك الانباء فمضيت اتجول في الوادي حزينا وحيدا ٠٠٠ عدة ساعات ٠

***

ولا شك في ان القارىء الذي تابعني ، قد تهيأت نفسه لتقبل القرار الذي انتهيت اليه في الثلث الاخير من شهر حزيران سنة ١٩٤١ ، فقد قر شعورنا في لندن بأن ويفل اصبح شخصية شائكة ، ومن الصائب ان يقال اننا ركبنا الجواد حتى استنفد قواه ، ولا شك ان اجتماع خمسة او ستة ميادين للقتال في تقارب مثير بما تزخر به من نصر او هزيمة ، تتغلب فيه الاخيرة دائما ، ثم وقوع ذلك كله على كاهل القائد العام فرد ، يؤلفان عبئا لم يسبق ان صادفه الا عدد قليل من القادة ، ولم اقتنع بما قدمه ويفل تبريرا لفشله والذي عزاه الى قتالنا في كريت ، والى عدم امداده بعدد اخر من الدبابات ، وكان رؤساء اركان الحرب قد تخطوا اراءه فعلا في عملية العراق البسيطة الناجحة ، والتي ادت الى السيطرة النهائية على الحبانية ، والى ان نحصل على نجاح محلي هام ، ثم جاءت خطة « فأس المعركة » التي نفذها ويفل نظرا للاخطار الشديدة التي احاطت بعملية « النمر » ولم اكن راضيا عما استقبلت به قيادة الاوسط دبابات « النمر » من اجراءات مع ما اعترضها من مصاعب تغلبت عليها لحسن الحظ ولكنني كنت معجبا من ناحية اخرى بروح المغامرة التي ابداها في هذه المعركة الصغيرة وعدم التفاته لما يهدد شخصه من اخطار حين طيرانه ذهابا وايابا ، فوق هذه المساحات الشاسعة ، التي تشب في انحائها والمضطربة في مثل هذه المعارك الراهنة ولكنني كنت واثقا من عدم التوفيق ، في وضع خطته

العملية ، خصوصا حين فشلت في تحقيق اندفاع من ناحية طبرق ، في الوقت الذي حدث فيه الهجوم ليكون تمهيدا لذلك ليس اكثر ، وحركة مصاحبة في ذات الوقت ٠

وفضلا عن ذلك كانت هناك الضربة التي سددها رومل لجناحهـــا في الصحراء فقضت على كل الخطط التي كنا على اهبة تنفيذها باليونان ، ودمرت كيانها بما تنطوي عليه من جوانب قائمة وانتصارات باهرة ، كانت تلوح لنا على اطراف المسرح البلقاني الكبير ، وتذكرت قولي السابق ؟ « ان رومـــل قد نزع اكاليل الغار عن رأس ويفل ومرغ بها في الرمال » وقد لا يكون ذلـــك مستساغا ، ولكنه على اية حال نتيجة لحزن ملم ، ولكن الحكم الصائب على كل ماحدث من المكن ان يستمد دعائمه مما تشير اليه الوثائق المدونة فـــي أوانة ، ومما يكشف عنه المستقبل من ادلة اخرى ، والذي حدث انني انتهيت الـــى راي حاســم بعـــد معركة « فاس المعركـــة » وهـــو ضرورة تغيير جوهري في القيـــادة ٠

وكان الجنرال اوكنلك القائـــد العـــام في الهند ، ما زال يثير اعجابـــي بما فعله في نارفيـــك في خلال الحملة النرويجية ، فقد لمست فيه الميل الشديـــد للسلامة والتحسس بالنتائج ، وهما امران مفقودان في الحرب ، مع القناعـــة بكل ما يتوقع منه تحقيق الحد الادنى من الرغبات لكنني على اية حال كانت تثير أعجابي مواهبة الشخصية ، وذهنه المتالق واخلاقه الرفيعة ، وعندمـــا كان قائدا للمنطقة الجنوبية بعد نارفيك في انجلترا ، وصلتني كثير من الرسائل من جهات رسمية وغير رسمية نصف مابثة مـــن حيويـــة ونشـــاط في قيادتـــه الجديدة ، وقد استحسن الجميع توليه للقيادة العامة في الهند وقد وقفنا قبل هنيهة على مقدار حماسته لتسيير القوات الهندية للبصرة ، وضرورة القضاء على ثورة العراق وكنت اعتقد ان اوكنلك دم جديد سيثير الحيوية ويتحمل التبعات بشجاعة اذا تولى قيادة الشرق الاوسط كما ان ويفل سيصادف فـــي توليه قيادة الهند العظيمة فرصة لاستعادة انفاسه ، قبل ان تهجم الاخطـــار المتوقعة في كل حين ، ووجدت موافقة تامة لارائى هذه في الوزارة ، وبين رؤساء الاركان في لندن ولعل القارئ لا ينسى انني لا احرص قط على ان اتولـــى اى سلطات استبدادية وان ارائي كانت تتمشى دائما مع وجهات نظـــر الخبراء السياسيين ، واصدرت اوامري الجديدة في ٢١ حزيران ، فتلقاها ويفل فـــي هدوء ، وكان يهم برحلة الى الحبشة سرعان ما وضحت امامه مخاطرهـــا ، وقد كتب من ارخ حياته قائلا ان الجنرال عندما وصلتـــه برقيتـــي قال : ان

رئيس الوزراء على حق فالموقف هنا يحتاج الى يد جديدة وعين اخرى » ٠

***

وكان القلق ينتابني منذ اشهر لما وجدت عليه قيادة القاهرة من نقصان الكفاءة الواضح ، وادركت جيدا مدى الاعباء الثقيلة التي تتراكم على كاهل القائد العام المنهك ، وكان ويفل نفسه وغيره من القادة العامين قد عبروا عن احتياجهم في ١٨ ايار الى بعض المعاونين ، وقد اكد ذلك ايضا رفيقاه القائد العام الجوي والقائد البحري ، وكانت زيارة المستر ايدن تثير الارتياح في نفوس جميع القادة لاحساسهم بوجود شخصية ذات سلطة سياسية عليا معهم ، وعند عودته الى الوطن شعروا بفراغ كبير ٠

وكنت لم اسمع عن ولدي راندولف كثيرا في الايام الاخيرة وقد كان واحدا من الفدائيين الذين تفرق شملهم الان الى حد ما في الصحراء ، وفي ٧ حزيران وصلتني برقية منه عن طريق وزارة الخارجية ارسلها من القاهرة بعد اطلاع سفيرنا عليها السير مايلز لاميسون ، ويقول فيها :

« ارى ــ لننتصر في القتال ــ ضرورة وجود شخصية مدنية ذات كفاءة في الميدان توضح المعالم السياسية والاستراتيجية يوما بعد يوم ، فلم لاتبعث بأحد اعضاء وزارة الحرب هنا يرأس كل الجهود الحربية ، وكل احتياجه لا يتعدى ــ فضلا عن مجموعة صغيرة من الموظفين ــ الى رجلين قديرين ينسق احدهما شئون التموين ، ويقوم الاخر بالرقابة والدعاية ٠ ويرى هنا كثير من المفكرين ان الحاجة ملحة لتغيير جوهري ، وليس الى تبديل الافراد فحسب ، فالفرصة سانحة تماما لاجراء تعديل في الكيان كله ، ارجو أن تغفر اقلاقي لك ، فقد اضطررت اليه ليقيني بان الوضع هنا اصبح لا يحتمل وان العمل العاجل ضروري لاي نصر متوقع » ٠

ولا ريب في ان هذه الرسالة دعمت نواياي نحو العمل النهائي الحاسم ، وقد ارسلت اليه بعد اسبوعين : « لقد توافقت اراؤك القيمة والمرتبة في رسالتك الى مع ما كان يخالج نفسي من افكار منذ مدة غير قليلة » ، وعلى هدى من ذلك اتخذت طريقي ٠

وكان الكابتن اوليفر ليتلتون قد اشترك في الوزارة وزيرا للتجارة منذ تشرين اول سنة ١٩٤٠ وكنت اعرفه منذ صباه ، ففي غضون الحرب العالمية الاولى اشترك في وحدة قاذفي القنابل ، واصيب مرات عديدة ببعض الجراح ، واستحق عددا من الاوسمة ، وبعد ان ترك الخدمة العسكرية خاض غمار

الاعمال الحـرة ، واصبح عضـو مجلس الادارة المنتدب لشركـة معدنيـة كبرى ، ولما كنت واثقا من مواهبه الخاصـة فقد عملت علـى اشراكـه فـي البرلمان واسهامه في الوزارة ، وقد استأهل تقديرا من جميع زملائه في حكومتنا القومية ، وكنت قد تعديت وجهة نظره في توزيع الملابس بالبطاقات ، ولكن لما وافق مجلس الوزراء ومجلس العموم على ذلك رضيت به ، ولا شك في ان ذلك جاء في اوانه ، لقد كان رجلا كفؤا للعمل بمهارة في كافة الميادين ، ممـا جعلني اثق في صلاحيته للمنصب المقترح الجديد ، كعضو في وزارة الحرب مقره الشرق الاوسط ولا شك في ان هذا العمل سيخفف كثيرا من العبء الواقع على القادة العسكريين ، وأيد كل زملائي من جميع الاحزاب هذا الرأى ، وعلـى ذلك عين على ان تكون مهمته الاولى « المساهمة في حمل التبعات المنوطة بالقادة العسكريين واصدار التعليمات العاجلة على هدى من تفهم سياسة حكومـة جلالته في شتى الشئون المتعلقة بمختلف الوزارات والدوائر التي كانت تصل قبل ذلك الى لندن للفصل فيها »

ولا شك في ان هذه التنظيمات الجديدة ، بما تتضمنه من نتائج ادارية ، جاءت ملائمة كل الملاءمة للتغيرات التي حدثت في قيادة الشرق الاوسط ٠



الفصل الثامن عشر

نيميسيس
الهـة الثأر السوفياتيـه

تقول الاساطير ان نيميسيس الهة غاضبة ، تنـزل النقمة بكـل خـط يتجاوز الحدود ، وتحد من غلواء كل مغرور ، وتثار من كل من يقترف جريمة نادرة الوقوع »

وعلينا هنا ان نوضح تماما ما تردت فيه الحكومة السوفييتية من اخطاء فاضحة ، وغرور مافون قدرت على اثره الموقف هي وجهازها الشيوعي الضخم ، وان نكشف ما كان يسودها من جهل ابعدها عن ادراك حقيقة موقفها ٠

وكانت هذه الحكومة قد ابدت عدم اهتمامها بمصير الـدول الغربية على الرغم من ان هذا لا يعني سوى تحطيم الجبهة الثانية التي قامت بعـد ذلك بقليل للمطالبة الملحة بها ، وظهر ان هذه الحكومة لم يدر في خاطرهـا ان هتلر قد عقد العزم منذ شهور ستة على تدميرها ، واذا كانت مخابراتها قد اوصلت اليها انباء انتشار القوات الالمانية على مدى واسع في اتجاه الشرق ، وقد اخذ يتضاعف يوما بعد يوم ، فانها تكون قد تغافلت عن اتخاذ اجراءات حاسمة لمواجهته ، فهاهي المانيا تحت رضائها تجتاح البلقان باكمله ، وحكومة السوفييت تنكر الديمقراطيات الغربية وتستهين بها ، ولكن كان في استطاعتها ان تؤازر بريطانيا في تكتيل دول البلقان الاربع ، تركيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ويوغسلافيا في حلف واحد لمقاومة هتلر بالنسبة لان هذه الدول تعتبر ذات اهمية خاصة لامنها وسلامة حدودها ، ومع ذلك فقد رضيت بأن تنهار وان تجتاحها الفوضى والاضطراب ، وان تختفي واحدة بعد واحدة عدا تركيا –

من الوجود ، وقد تكون الحرب في مجملها مجموعة من الاخطاء ، ولكني اشك فيما اذا كانت هناك جريمة اخرى تعادل في شناعتها ما ارتكبه ستالين وقادته السوفييت من جرم عندما تغاضوا عن كافة امكانيات دول البلقان ولبثوا في حالة خمول وتراخ أو جهل وحاجة المزيد من الادراك ، ينتظرون الخطر الجامح الذي كان مسلطا على رقبة روسيا ، وكنا انذاك نعدهم فئة من الانانيين في تقديراتهم ، ولكنهم اكدوا لنا في تلك الفترة انهم سذج مغفلون كذلك وكان علينا ان نرى في ميدان المعركة كل ما اشتهر عن « روسيا الام » من شجاعة وقدرة على الحشد والاحتمال ، ولكن بالنظر الى الاستراتيجية والسياسة وتفهم الامور فقد بدا ستالين ورفاقه في هذه الفترة اغبى الناس في تاريخ الحرب العالمية الثانية ٠

وكانت عملية «بربروسا» الذي اصدر بها هتلر تعليماته في ١٨ تشرين اول سنة ١٩٤٠ ، تتضمن الخطة لحشد القوى بصورة عامة كما وضحت التبعات الاولى للجيوش التي حشدها ضد روسيا ، وكان كل عدد الوحدات الالمانية الموجودة في المانيا عند اصدار هذه التعليمات يزيد عن اربع وثلاثين فرقة ، وزيادة هذا العدد الى اكثر من اضعافه الثلاثة عمل هائل يدل على التخطيط والاعداد ، استنفذ الاشهر الاولى من سنة ١٩٤١ ، واحتاجت المغامرة البلقانية ، التي رضي هتلر ان يخوض غمارها ان يوجه في شهركانون ثاني وشباط حوالي خمس فرق ، من الشرق الى الجنوب ثلاث فرق منها مدرعات ، ولم يات شهر ايار حتى كانت القوات الالمانية في الشرق قد وصل تعداد فرقها الى سبع وثمانين ، بينما كان هناك خمس وعشرون فرقة تواجه الموقف في البلقان ، واذا ما نظرنا جيدا الى ما ينطوى عليه غزو روسيا من اخطار ، وما يلزمه من قوات ، فقد كان من خطل الراي تحويل الحشود لهذا العمل الخطير ، وسنعرف بعد قليل كيف ارغمت احداث البلقان ، ومقاومتنا الصامدة هناك ، ولا سيما ثورة يوغوسلافيا ، ارغم كل ذلك هتلر على ان يؤجل مغامرته الكبيرة خمسة اسابيع اخرى ، ولم يكن احد يعرف مدى اهمية هذا التاخير واثاره ، الا حين حل الشتاء ، وما صحبه من تغيير في اقدار الزحف الالماني على روسيا ، ومن الطبيعي ان يرى الانسان ان الفضل لهذا التأجيل في تجاه موسكو ، وقد تم خلال شهر ايار وبداية حزيران سحب اغلب الفرق الالمانية المدربة تدريبا جيدا من البلقان الى الجبهة الشرقية ، وكان الالمان في ابان هجومهم يملكون مائة وعشرين فرقة من بينها سبع عشرة فرقة مدرعة واثنتا عشرة فرقة الية ، وتبعت ست فرق رومانية اخرى مجموعة القوات

الجنوبية ، وكان هناك ست وعشرون فرقة اخرى تجمعت او هي على وشك التجمع كقوات احتياطية ولم يكد يطلع تموز حتى كان لدى القيادة الالمانيــة فرصة استخدام مائة وخمسين فرقة على اقل تقدير ، تسندها قــوة الســلاح الجوي الالماني الضاربة ، وتقدر بحوالي الفين وسبعمائة طائرة ٠

وكان يخالجني الشك حتى شهر اذار في تصميم هتلر على قتال روسيا ، ولم يدر بخاطري ان ذلك سيحدث قريبا جدا ، وكانت مخابراتنا قد امدتنــا بمعلومات مفصلة عن تحركات الجيوش الالمانية الكبيرة في اتجاه دول البلقان ، وهو ما شهدته الشهور الثلاثة الاولى من عــام ١٩٤١ ، وكــان في مقــدور جواسيسنا الانتقال بحريــة في تلك البــلاد نصف المحايدة ، وان يواصلــوا اطلاعهم الدقيق على تحركات الجيوش الالمانية الهائلة في السكك الحديديــة او في الطرق المعبدة الى الجنوب الشرقي ، لكن هذه التحركات كافة لم تكن تقطع الشك بأي محاولــة لغــزو روسيــا ، وكان مــن السهل تفسيرها برغبة المانية في المحافظة التامة على مصالحها برومانيا ، وما تضمره نحو اليونان ، واوضاعها مع يوغوسلافيا والمجر ، أما التقريرات عن التحركات الواسعــة التي تقع عبر المانيا تجاه الجبهة الروسية اساسية وهي التي تمتد من رومانيا حتى البلطيق ، فكانت اقل واصعب تفهما مما سبق ، وكان في تفكيري ان فتح المانيا لجبهة رئيسية اخرى مع روسيا في هذه الاونة ، وقبل ان تستقــــر الاوضاع في البلقان امر يثير الدهشة حقا لانه بعيد في غرابته ٠

ولم يحدث ما يشير الى انتقاص القوى التي تواجهنا بها المانيا عبــر المانش ، فما يزال الهجوم الجوي الالماني على بلادنا في عنفوانه ، وكان مجرد غفلة روسيا السوفييتية ثم قبولها اخيرا لهذا التدفق الالماني على رومانيــا وبلغاريا ، والبراهين التي بين ايدينا على مدى العون الضخم الذى تمد به روسيا المانيــا ، والاشتراك الواضــح في مصلحــة الدولتيــن حيــن تسحق الامبراطورية البريطانية ويجتاح الشرق ، كل هذا يوحي لنا بان هتلر وستالين يفكران في صفقة مشتركة على حسابنا ولن يقف احدهما موقف العداء مــن الآخر ، وها نحن الان قد ادركنا ان هذه الصفقة كانت من بين امال ستالين الواسعة التي طالما طافت باحلامه ٠

وكان يتفق معي في هذه المشاعر والتقديرات افراد لجنة للمخابرات ، وقد حملوا الى في ٧ نيسان ان اخبارا تجوب الان انحاء اوروبا عن خطة المانيا في اجتياح روسيا ، ولكنهم رأوا ان هذا الاحتمال مستبعد في الظروف الراهنة على الاقل ، لانه بالرغم من تدفق جيوش المانية ضخمة على الشرق ، واحتمال

قتال المانيا لروسيا في وقت اخر ، فان الوقت الحاضر غيـر ملائـم لتخوض المانيا مع روسيا غمار معركة رئيسية . وقد رأوا ان الاحتمال المعقول ان يظل هدف المانيا الجوهري في عام ١٩٤١ هو انزال هزيمة ببريطانيا ، وفي ٢٣ ايار رأى اعضاء هذه اللجنة المشتركة ممن يمثلون القوات المسلحة الثلاثة ، ان شائعات الهجوم الالماني على روسيا قد ضعفت قليلا ، وان الشائع الان هـو اعتزام البلدين توقيع معاهدة جديدة بينهما في اقرب فرصة ٠

وكان رؤساء اركان حزبنا اكثر معرفه من معاونيهم ، واشـد تثبتـا ، فقد ارسلوا تحذيرا الى قيادة الشرق الاوسط العامة في ٣١ ايـار ، جـاء فيه : « لدينـا البراهين الدالة على ان الالمان يجمعون قوات هائلة وسلاحـا جويا كبيرا ضد روسيا ، ومن المحتمل ان يطلبوا منها مهددين لها طلبات تضر بصالحنا . فاذا ابى الروس شنوا عليهم الهجوم »

وفي ٥ حزيران رأت لجنة المخابرات المشتركة ان الاعدادات العسكريـة الالمانية في شـرق اوربـا واسعة النطاق ، وان شيئا حاسما سيحدث اكبـر اهمية من اي اتفـاق اقتصادي وربمـا تهـدف المانيا الـى ان تزيـل مـن حدودها الشرقية اي خطر محتمل ان يكون مصدره القوات السوفييتية الهائلة العدد ، ولكـن اللجنة حائـرة تمامـا في تعيين الهدف الحقيقـي وهـل هـو الحـرب ام المعاهـدة ؟ »

ولم اقتنع بهذا الاسلوب من التقارير العامـة ، وملـت الـى ان اطلـع بنفسي على مصادر هذه التكهنات ، فرغبت الى الرائد (الميجور) ويزموند مورتون ، بأن يجهز لي قصاصات مختاره من التقارير منذ بداية الصيـف لسنة ١٩٤٠ ، وان يستمر في هذا العمل يوميا ، مما استطعت به استنباط وجهة نظر خاصة عن القضية قبل وقوع احداثها بزمن كاف ٠

وعندما اطلعت على تقرير المخابرات ، ارسله احـد عيوننا الموثوقـة جدا ، في يوم من الايام الاخيـرة من شهـر اذار سنة ١٩٤١ ، شعرت بكثيـر من الارتياح لدى قرائه ، وكان عن تحركات المدرعات الالمانية ، والتحركات المضادة لها على الخطوط الحديدية والواصلة بين بوخارست وكراكاو ، وقد اوضح هذا التقرير انه عقب توقيع الوزراء اليوغوسلافيين على الميثاق الثلاثي، فان ثلاث فرق مدرعة (بانزر) من بين خمس فرق كانت قد عبرت رومانيا جنوبا في اتجاه الحدود اليونانية واليوغسلافية قد اتجهت الى الشمال نحو كراكاو ثم عادت على التو دراجها بعد ثورة بلغراد ، ورجعت الفرق الثلاث الى رومانيا وليس من سبيل الى ان تسير هذه الاعداد الضخمة من القطارات

التي تصل الى ستين قطارا ثم تنقلب على عقبها فورا ، دون أن يقع علــى ذلك عملاؤنا اليقظون في المنطقة ٠

واضاءت لي هذه المعلومات الطريق لتفهم الموقف ، فتوجه هذا العدد الضخم من المدرعات الى كراكاو وتحوله عن المسرح البلقاني في اشد الاوقات احتياجا له ، يعني بصورة واضحة ان هتلر قد بيت عزمه على الهجوم على روسيا في شهر ايار ، وهذا ما وثقت فيه غاية الثقة ٠ اما عودة هذه المدرعات فلا تعني سوى ان تأجيلا حدث لموعد الهجوم على روسيا من ايار الى حزيران ، واتجه تفكيري الى تلمس سبيل لاستثارة ستالين وانذاره بهذا الخطر المحدق ، محاولا ان يكون بيني وبينه من الصلات مـا بيني وبيـن الرئيس روزفلت ، وارسلت اليه رسالة مختصرة يحوطها الغموض ، املا ان يثير هذا الغموض وكونها اول رسالة ارسلها اليه بعد الرسالة الرسمية التي ابرقت اليه بها في ٢٥ حزيران سنة ١٩٤٠ اوصي فيها بقبول تعيين السير ستافورد كريبس سفيرًا لنـا في روسيا ، ان يثيـر هذا وذلك انتباهه للموقف وهـذا هـو نص رسالتـــي :

– « من رئيس الوزراء الى السير ستافورد كريبس ، ٣ ابريل ١٩٤١ »

– « مع هذا رسالة خاصة الى المستر ستالين ، بشرط ابلاغها اليــه شخصيـــا ٠ »

– « لدى براهين وثيقة من مصدر لا يتطرق اليه الشك بأن الالمان عندما يتيقنون من وقوع يوغسلافيا في قبضتهم – اي بعد ٢٠ اذار – بدأوا يتحولون بثلاث فرق مدرعة من فرقهم الخمس من رومانيا الى جنوب بولنده ، وعندما فاجأتهم ثورة الصرب ، عادت الفرق على اعقابها ، ولا شك في ان فخامتكم ستقدرون هذه الحقائق الهامة » ٠

ولم يصلني رد من السفير الا في ١٢ نيسان عندما اخبرني انـه قبيـــل تسلمه رسالتي كان قد وجه خطابا خاصا الى فيشينسكي ، واوضـــح فيــه تخاذل الحكومة السوفييتية عن مواجهة اجتياح المانيا لدول البلقان ، وحـث الاتحاد السوفييتي بعبارات شديدة ، من اجل مصالحه الخاصة ان يحـول سياسته الى سياسة متازرة مع الدول التي لا تزال تحارب المحور في تلـك الجبهة ، واضاف السفير قائلا :

– « واذا كنت الان سابلغ ستالين عـن طريق مولوتوف برقيـة رئيس الوزراء ، التي يفهم منها نفس الفكرة ولكنها تعرضها بصورة اكثر اختصارا

وحزما ، فاني اخشى ان يكون تاثيرها الوحيد اضعافا للاثر الذي ابقتـه رسالتي في نفس فيشنسكي ... »

وقد احنقني هذا التصرف ، والتاخير الذي حدث ، وكانت هذه هي الرسالة الوحيدة التي ارسلتها الى ستالين شخصيا قبل ان يشن الهجوم ، وكان الهدف من ايجازها ، والظروف الخاصة بها ، وصدورها عن رئيس حكومة لتبلغ مباشرة وبصفة شخصية عن طريق السفير الى رئيس الحكومة الروسية ، كان الهدف من كل ذلك ان تقع موقعا خاصا من نفس ستالين وتثير انتباهه لما حوله ، وقد عرفت اخيرا ان السير ستافورد كريبس قد سلمها الى فيشنسكي في ١٩ نيسان ، وان هذا بدوره قد ابلغ السفير في يوم ٢٣ ، ان مضمون الرسالة قد بلغ الى ستالين .

وليس في استطاعتي ان اقرر جازما مدى ما كانت تفعله رسالتي لو سارت في الطريق الذي رسمته لها ، وما فيه من اختصار وشكليات ، في مجرى الحوادث ، ولكنه ما زال يحز في نفسي الا تنفذ تعليماتي كما رسمتها ، فلو اتيح لي اتصال شخصي بستالين لاستطعت في الاعم الاغلب ان احول دون تدمير جزء كبير من سلاحه الجوي على الارض .

الان نحن نعرف ان تعليمات هتلر في ١٨ كانون اول قد عينت يوم ١٥ ايار موعدا لشن الهجوم على روسيا ، وان الغضب الذي اجتاحه بسبب ثورة يوغوسلافيا قد اجلت هذا الموعد شهرا ، ثم عاد الموعد فتاجل ثانية الى يوم ٢٢ حزيران ، ولم تتطلب طبيعة التحركات الالمانية في شمال الجبهة الشرقية حتى منتصف شهر اذار اية وسائل لاخفائها وعلى كل فقد اقتضت الاوامر الصادرة من برلين في ١٣ مارس اغلاق البعثات الروسية العاملة في المانيا وارجاعها الى وطنها ، فلم يصبح من المحتمل ان يستمر الروس في المانيا بعد يوم ٢٥ اذار وفي خلال ذلك الوقت كانت مائة وعشرون فرقة المانية من افضل الجند تنتشر على مدى الجبهة الروسية ، وتتوزع في ثلاثة تشكيلات ، وكانت المجموعة الجنوبية تحت قيادة رونشتادت ـ منهوكة القوى للعوامل التي سبق ان اوردتها ، ولم تكن فرقها المدرعة (البانزر) قد قدمت من اليونان ويوغوسلافيا الا منذ فترة قليلة . وكانت على الرغم من ان الغزو قد تاجل الى ٢٢ حزيران في اس الحاجة الى الراحة والاستصلاحات ، بعد ما بذلته من جهد الي في البلقان .

وفي ١٣ نيسان وصل الى برلين شولنبرج من موسكو ، ولم يستدعه هتلر للقائه الا في يوم ١٨ من الشهر نفسه ، واشبعه شتائم في روسيا

ولكـن شولنبـرج تمادى في تأكيـد الرأي الذي ابـداه في كافـة رسائلـه ، وذكـر ان روسيا قـد اكدت لمندوبينـا الاقتصاديين استعدادهـا اذا طلبت وعبر عن ثقتـه الشديدة في استعـداد ستاليـن للتنازل عـن اشيـاء جديدة في ظروف ملائمة تقـدم الينا خمسة ملاييـن طـن قمحـا في العـام » ورجـع شولنبـرج من اصرار هتلـر على القتال ، ويبدو ان تحذيـر سفير روسيـا في برليـن الـى موسكو في ٣٠ نيسان مصابا بخيبة الامـل من هذا اللقـاء ، فقـد ايقـن ديكانزوف من الموقف واستمـر شولنبـرج في موقف الذود عـن سياسة التفاهم الروسي ـ الالماني حتى النهاية ٠

وكان دايزاكر ، الرئيس الرسمي لوزارة الخارجية الالمانية ، من نـوع الموظفين المهرة الذين تجدهم في دوائر الحكومة في كل الدول ، ولم يكن دايزاكر سياسيا صاحب سلطات تنفيذية ، وهو في اعتبار التقاليد البريطانية لا يعـد من بين المسئولين عن سياسة الدول ، ومع ذلك اصدرت عليه محاكم الحـرب التي انشأها المنتصرون حكما بالسجن لمدة سبع سنوات ، وعلى الرغـم من معاملته كمجرم حرب الا انه قد قام بالنصح الحسن لرؤسائه ومن يمن طالعنا انهم لم يستمعوا اليه ، فقد لخص رأيه في هذه المقابلة بقوله « بودي ان اوجز رأيي عن العلاقة بين المانيا وروسيا ، فلو كانت كل مدينة روسية تسعى الـى تدميرها تساوي عندنا اغراق بارجة بريطانية ، فانني كنت حينئذ اؤيد فكرة الهجوم هذا الصيف على روسيا ، ولكنني متأكد اننا سننتصر على روسيا عسكريا فحسب ، اما اقتصاديا فسنبوء بالخسران ٠

وقد يكون من المثير حقا تسديد ضربة قاضية الى النظام الشيوعـي وقد يقال ايضا ان المنطق يقتضي نشـر سيطرتنا على هذه القـارة الاوروبية الاسيوية ، لنستطيع بعد ذلك حشد قوانا في الصراع ضد العالـم الانجلو ـ سكوني وتابعيه ، لكن السؤال الذي سيظل يتردد ، هل هجومنا على روسيـا سيعد خطوة في سبيل القضاء على انجلترا ٠ وسيمنح غزونا لروسيا طاقـة معنوية جديدة لبريطانيا ، فسيفهمونه على ان الباعث اليه عدم ثقتنا فـي الانتصار عليهم ، ويعتبر قيامنا بهذا الغزو ليس اعترافا بأن الحرب ستمتـد فحسب بل عملا فعالا على امتداد زمنها بدلا من تقريب نهايته »

وفي ٧ ايار اخبر شولنبرج حكومته بأن ستالين قد تولى بنفسه رئاسـة الحكومة السوفييتية (مجلس مفوضي الشعب) بدلا من مولوتوف وكان هذا بالنسبة اليه يبعث الامل من جديد ، فاضاف الى ذلك قائلا « انني متأكد من ان ستالين بحكم منصبه الجديد سيكون عاملا فعالا في استمرار الصـلات الطيبـة بين

روسيا والمانيا والحرص عليها »

وردد نفس الفكرة ملحق المانيا البحري في موسكو ، كما جاء في البرقية التي ارسلها « ان ستالين هو مرتكز التعاون الالماني ــ السوفييتي » وتضاعفت البراهين على رغبة روسيا في خدمة المانيا ، فاعترفت الحكومة الروسية في ٣ ايار اعترافا رسميا بحكومة رشيد عالي في العراق الموالي لالمانيا ، وطرد المفوضان الديبلوماسيان لحكومتي بلجيكا والنرويج من موسكو في ٧ ايار ولقي الوزير اليوغسلافي نفس المصير تلمسا لرضاء المانيا ، وفي بداية شهر حزيران انهت روسيا عمل المفوضية اليونانية في بلادها وقد سجل الجنرال توماس ، رئيس قسم الاقتصاد في وزارة الحرب الالمانية في تقرير كتبه فيما بعد عن اقتصاد الرايخ الحربي ما يلي :

ــ استمر الروس في ارسال عونهم حتى مساء اليوم الذي بدأ منه الغزو ، وقد نقلنا بسرعة المطاط من الشرق الاقصى في الايام الاخيرة باستخدام القطارات السريعة »

ولم تصلنا معلومات كافية عن حقيقة الاوضاع في روسيا ، ولكن الغايات الالمانية كانت في غاية الوضوح ، وقد ارسلت برقية الى الجنرال سمطس في ١٦ ايار قلت فيها : « يبدو ان هتلر يعبىء قواته ضد روسيا ، فهناك تحركات مستمرة للحشود والفرق المدرعة وسلاح الطيران من البلقان شمالا ، ومن فرنسا والمانيا شرقا »

ولا شك في ان ستالين قد بذل الكثير في سبيل الابقاء على انطباعه النفسي الخاص نحو هتلر ، للدرجة التي استطاع شولنبرج ان يرسل الى وزارة الخارجية في ١٣ حزيران اي بعد مرور شهر باكمله على تحركات القوات الالمانية الضخمة وحشدها ، يرسل مايلي : « ابلغني مفوض الشعب مولوتوف منذ قليل محتوى البيان الذي ستذيعه وكالة تاس الليلة ، والذي ستنشره صحف موسكو في الغداة ، وهذا نصه :

« قبل ان يذهب سفير بريطانيا كريبس الى لندن ، وبعد عودته خاصة ، روجت كثير من الشائعات ، عن قتال يوشك ان ينشب بين روسيا والمانيا ، وقد روجت هذه الشائعات الصحف الانجليزية والاجنبية ...

وبالرغم مما في هذا من كذب سخيف ، فان المسئولين في موسكو راوا ان يؤكدوا ان هذه الترهات ليست سوى مناورات سيكلوجية طائشة ، يشنها اعداء الاتحاد السوفييتي والمانيا هادفين الى نشر الحرب واندلاعها » .

وبات في مقدور هتلر ان يحس بالرضا لنجاحه في اضفاء السرية التامة

على تحركاته ، وفي خداع الفريسة التي ما زالت تحيا تحت سيطرة الاوهام ٠

وخليق بنا ان لا ننسى هنا غفلة مولوتوف الى اخر لحظة ، فقد ارسل شولنبرج برقية في الساعة الواحدة والدقيقة السابعة عشرة من صباح ٢٢ حزيران ، الى وزارة الخارجية الالمانية جاء فيها : « في التاسعة والنصف من هذا المساء استدعاني مولوتوف ، وبعد ان حدثني عن حوادث اختراق طائراتنا مرارا للحدود الروسية قال : « هناك براهين عديدة على عدم رضاء الحكومة الالمانية عن الحكومة الروسية ، وقد تضافرت الانباء على ان القتال اصبح لا محالة منه بيننا وبين المانيا ، وليس في استطاعتنا ان نجد مبررا لهذا التغير من جانب المانيا ٠٠٠ ولذا سيكون شاكرا اذا ابلغته العوامل التي طورت الموقف الى هذا الحد في الصلات بين المانيا وروسيا »

وقد اجبته بأني لا املك التفسيرات للموقف ، لانني محتاج الى معلومات كافية ، كما وعدته بأن ابلغ رسالته الى برلين »

ولكن الموقف كان قد وصل الى غايته ، وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم نفسه اى في يوم ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ ، كان ريبنتروب يقدم اعلان الحرب الرسمي الى سفير روسيا في برلين ولدي الفجر كان هناك لقاء بين شولنبرج ومولوتوف في الكرملين كذلك ، وانصت جيدا الاخير الى الرسالة التي تلاها السفير ثم قال :

« اذن هو القتال ، لقد اغارت طائراتكم منذ هنيهة على عشر قرى مكشوفة ، فهل انت على يقين باننا نستأهل منكم ذلك ؟ »

وكان من الصعب علينا بعد البيان الذي اذاعته وكالة تاس ، وقد اوردته منذ قليل ، ان نقول شيئا بعد التحذيرات الكثيرة التي وجهها ايدن لسفير روسيا في لندن ، او الى ما قمت به بنفسي لاثير انتباه ستالين للخطر الذي يدهمه ، وكانت حكومة امريكا قد اطلعت روسيا على تفاصيل دقيقة لتطور الاوضاع ، ولكن ما فعلناه ذهب هباء ازاء المصطلحات النهائية التي حال بها ستالين بينه وبين رؤية الموقف الرهيب ، وعلى الرغم من ان التقديرات الالمانية ذكرت ان مائة وستا وثمانين فرقة روسية قد وقفت على الحدود ومن بينها مائة وتسع عشرة فرقة في مواجهة القوات الالمانية ، فان الواضح ان الحشود الروسية قد فوجئت تماما بالزحف الالماني ، ولم يجد الالمان اثرا لاية استعدادات دفاعية في المناطق المتقدمة ، وقد اسرعت الى الانهيار كل الوحدات الروسية التي حشدت على الحدود ، وكان من المحتم ان كارثة كتلك التي حاقت بالسلاح الجوي البولوني في اول ايلول سنة ١٩٣٩ ، ولكن

على مدى أوسع ، بالمطارات الروسية ، وفوجئت مئات الطائرات هناك عند الفجر وهي رابضة في ارض مطاراتها ، فتحطمت قبل ان تستطيع التحليق في الجو ، وهكذا كان دوى القذائف الالمانية عند الفجر أقوى من صوت الدعاية الروسية التي قامت في اثناء تلك الليلة بشن حملة واسعة ضد بريطانيا وامريكا وهكذا نرى ان الشريرين ليسوا دائما اذكياء ، وان الطغاة ليسو دائما على صواب ٠

وليس لي ان استمر في البحث دون الاشارة الى الاجراء الفظيع الذي قرر هتلر ان تتبعه السياسة الالمانية ضد اعدائه المحدثين ، والذي اتخذ تحت هول القتال المرير في المناطق المجدبة وبين غضب الشتاء ففي يوم ١٤ حزيران سنة ١٩٤١ عقد اجتماعا اصدر فيه توجيهات شفوية بشأن معاملة القوات الالمانية لجنود الجيش الروسي وافراد الشعب السوفييتي ، تلك المعاملة التي بلغت غاية القسوة والوحشية ، وقد ادلى الجنرال هولدر في محاكمات نورمبرج بالشهادة التالية :

« قبل بدء الهجوم على روسيا دعا الفوهور الى اجتماع خاص حضره جميع القادة والافراد الذين على علاقة بالقيادة العليا ، ليتناقش معهم بشأن الهجوم المنتظر على روسيا وقد نسيت موعد الاجتماع بالضبط ولكني لم انس ما قاله هتلر من ان القتال الذي سينشب مع روسيا يجب ان يكون مغايرا تماما للقتال الذي شن على الغرب ٠٠٠ واضاف الفوهرر ان النزاع بين روسيا والمانيا هو نزاع روسي ، ولما كانت روسيا لم تشترك في معاهدة جنيف فان اسرى الحرب يجب ان يعاملوا معاملة خاصة غير التي تنص عليها المعاهدة ٠٠ وذكر ايضا ان من يسموا بالمفوضين يجب الا يعتبروا من اسرى الحرب »

وكتب كايتل ما يلي :

ـ « كان هتلر يرى ان القتال سيكون حاسما بين مبدئين وانه نظرا لذلك فلا يجب ان نستخدم مع روسيا في هذا القتال الاساليب التي نقرها نحن الجنود ، التي يقر العرف القانوني الدولي بأنها الاساليب الوحيدة الصائبة »

وفي مساء يوم الجمعة ٢٠ حزيران ذهبت وحيدا بسيارتي الى تشيكرز ، وكنت اعرف ان الاجتياح الالماني لروسيا قد يبدأ بعد ايام او بعد ساعات ، وكانت قد انتويت توجيه رسالة من الاذاعة في مساء السبت ، خاصة بهذا الشأن ، فكان على طبعا ، ان اصوغ افكاري في كلمات دقيقة ، اختارها بكل عناية ، خصوصا وقد اعتبرت الحكومة الروسية فيما سبق كل ما يصدر

عنا من نصائح او تحذيرات ـ جهلا منها او تكبرا ـ ليس سوى محاولة يائسة من قوم حاقت بهم الهزيمة لدفع الاخرين الى نفس المصير ، وعلى هدى من هذه الخواطر التي دارت بنفسي في السيارة ، رأيت تأجيل الاذاعة الى مساء الاحد ، اذ يزداد الموقف وضوحا ، وهكذا مضى يوم السبت باعبائه العادية .

وعندما صحوت صباح الاحد ٢٢ حزيران ، استمعت الى اخبار مشروع هتلر في هجومه على روسيا فانتقل اليقين الى واقع ، ولم يعد لدي اي تردد في اختيار الموقف الذي يجب علينا ان نلتزمه ، كما كنت على يقين مما سأذيعه ، ولا ينقصني في هذا السبيل الا اعداده ، وطلبت من الاذاعة ان تعلن عن اذاعة لي في تمام التاسعة مساء ولحق بي الجنرال ديل من لندن ، حاملا لي كل تفاصيل الموقف ، لقد كان الهجوم الالماني على منطقة عريضة ، وفاجأوا قسما كبيرا من طائرات السلاح الجوي الروسي وهي رابضة في اماكنها ، ويبدو ان الالمان يواصلون توغلهم في سرعة كبيرة وبمنتهى الغلظة والعنف ، وأضاف رئيس اركان حرب الامبراطورية قوله وانا واثق من ان الجيوش الروسية سيتم حصارها في مجموعات كبيرة »

وامضيت النهار في اعداد كلمتي ، ولم تكن لدى الفرصة لاستطلع اراء وزارة الحرب كما لم اجد ما يحتم هذا فقد كنت على ثقة من مشاركة الجميع لي بمشاعرهم ازاء هذه المسألة وزادني المستر ايدن واللورد بيفر بروك والسير ستافورد كريبس ، الذي كان قد ترك موسكو في ١٠ حزيران ، وقد قلت في غضون الخطاب الذي وجهته للاذاعة « لا تكاد النازية تختلف عن اسوأ ملامح الشيوعية ، فالنازية مجدبة من كل اعتقاد ومن اي مبدأ ، اذا استثنينا نزعة السيطرة العنصرية الغاشمة ، ان النظام النازي في عنفه ووحشيته يفوق كل ما يتصور من نظم همجية قاسية وانا اشد الناس كرها للشيوعية ، واكثرهم عداء لها ومقاومة في مدى الخمسة والعشرين عاما الماضية ، وبكل تأكيد لن اتنازل عن اية كلمة ضدها قلتها سابقا ، ولكن هذا كله يتوارى امام مانشهده اليوم ، ان الماضي يتوارى في لمحة بصر بكل ما ينطوي عليه من جرائم وحماقات ومآسي وكل الذي اشهده اليوم هو الجنود الروس ، وقد وقفوا على عتبات بلادهم ، يحرسون الحقول التي قلب اباؤهم تربتها منذ فجر التاريخ ، ويذودون عن البيوت التي تصلي فيها امهاتهم وزوجاتهم ، حيث يضرع الجميع في مثل هذه الاوقات الى الله ، ان يحفظ لهن احباءهن ، ومن يتولى امورهن ، ويدافع عنهن ، ويحميهن ، واني لاشهد عشرة الاف قرية

روسية ، ينتزع فيها القوت انتزاعا من الارض ومع ذلك ، مع هذه الحياة الجافة فما تزال هذه القرى تموج بأمواج انسانية اصيلة ، حيث تنطلق ضحكات العذارى ، ويتمادى الاطفال في لهوهم ، واشهد معدات القتال النازي تغير على هذه القرى في هجومها المجتاح وفي مقدمة المغيرين الضباط البروسيون يصلصلون ويجلجلون ، ويتأنقون في لباسهم العسكري ، والعملاء الماكرون الذين اجادوا وسائل اخضاع الشعوب وتعذيبها ، (واشهد كذلك الجموع المنهمرة من جنود الهون بكل ما عرف عنهم من بلاء وخشونة ووحشية وانقياد اعمى وهم ينطلقون في كتل زاحفة كالجراد المنتشر ، وارى القاذفات والطائرات المحاربة الالمانية وهي تذرع الفضاء جيئة وذهابا ، وعلى ظهورها اثار جراح احداثها السياط البريطانية ، وقد هزها الفرح لوقوعها على ما ترى انه فريسة سهلة الاصطياد .

« وخلف كل هذا الرجاء ، وكل هذه الرياح الهوجاء ، يوجد فريق من الرجال الاوغاد يضعون الخطط ، وينظمون ، ويثيرون هذه الجبال المتراكمة من الشر والحقد على الانسانية جمعاء .

« واني لاعلن قرار حكومة جلالته ، واني على يقين كبير بأن دول الدومينونات المستقلة ستجد في هذا القرار ما توافق عليه وتؤيده في الوقت الملائم ، وذلك لان الظروف تحتم علينا ان نتكلم مباشرة وبدون ارجاء ذلك الى يوم واحد سأعلن هذا القرار ، ولكن هل يخالجكم شك فيما سننهجه من سبل ؟ ..

ان لنا هدفا واحدا واضحا ، واملا لن نتواني عن تحقيقه ، فنحن نصر ونصمم على ضرورة القضاء على هتلر وتدمير نظامه النازي ، ولن يحول بيننا وبين هذه الغاية شيء على الاطلاق ، فلن نتحدث او نتباحث مع هتلر او مع اى واحد من افراد عصابته ، بل سنقاتله في البر ، وسنقاتله في البحر ، وسنقاتله في السماء ، حتى نستطيع باذن الله ، انقاذ البسيطة منه ومن شبحه ونحرر الشعوب ومن قبضة استذلاله ، وكل رجل يقاتل هتلر وكل دولة تقاتل النازية ، سنمد اليها يد العون ، وكل من ينحاز الى جانب هتلر فهو عدونا اللدود .

هذا هو نهجنا ، وهذا هو قرارنا . وعلى هدى من ذلك سنبذل لروسيا ولشعبها كل ما نستطيع من مساعدة ، وسنناشد كافة اصدقائنا وحلفائنا في شتى انحاء العالم ان يسيروا في نفس هذا السبيل ، كما ستسير فيه سياستنا بكل اخلاص واصرار .

« وليست هذه الحرب صراعا طبقيا ، وانما هي نضال مشترك بين الامبراطورية البريطانية وجامعة شعوبها ، دون تميز بالعنصر او الدين او الحزب ، وليس من حقي ان اعبر عن امريكا ، ولكن الذي استطيع قوله انه اذا كان هتلر يظن ان زحفه على روسيا سيؤدي الى خلاف في الراي او اضعاف في البذل ، في جانب الديمقراطيات العظيمة التي تصر اليوم على محقه والقضاء عليه فانه لبالغ الخطأ اذ ان العكس تماما هو الذي سيحدث ، فهذا الهجوم الجديد لن يؤدي الا الى مضاعفة الجهود المبذولة لانقاذ البشرية من وحشيته ، وستضاعف مواردنا وجهودنا وعزيمتنا ٠

ولا ارى الوقت مناسبا لتدعيم القيم الاخلاقية ورثاء حماقات الدول التي اعطت العدو كل فرصة لضربها واحدة بعد اخرى بينما كانت تستطيع بالتكتل والعمل الجماعي ان تنجو بنفسها وبالعالم كله ، من هذه الكارثة ، ولكن عندما اشرف منذ قليل الى ظمأ هتلر للدماء ، وشهواته البغيضة التي دفعت به الى مغامرة الهجوم على روسيا ، قلت ان هناك هدفا بعيدا من كل ذلك العنف ، فهو يتطلع بعد ان يحطم القوة الروسية الى ان يعود بقواته الرئيسية وجيشه الجرار وسلاحه الجوي من الشرق الى هذه الجزيرة التي يعلم ان عليه ان يسيطر عليها والا فسيعاقب على كل ما اقترف من اثام ، فهذا الغزو لروسيا ليس الا تمهيدا لهجوم كبير على بريطانيا ، وهو يتطلع بلا ريب الى الخلاص من مغامرته قبل هجوم الشتاء ، لينطلق الى بريطانية فيفرض سيطرته قبل ان يستطيع اسطول امريكا وقواتها التدخل ، انه يستطلع الى استخدام تلك الخطة التي انتهجها كثيرا في تدمير اعدائه واحدا واحدا وقد اصاب نجاحا الى اليوم في تنفيذها ، حتى تتهيأ له كل الظروف للقيام بعمليته الاخيرة التي بدونها تظل كافة انتصاراته لا معنى لها ، وهذه العملية هي محاولة السيطرة على نصف العالم الغربي ٠

ولذلك فان ما يواجه روسيا من اخطار يواجهنا نحن ايضا ويواجه امريكا كذلك ، كما ان قضية كل روسي يهب للدفاع عن ارضه وبيته هو قضية كل انسان حر في سائر ارجاء العالم ، وهي قضية الشعوب الحرة جميعا وعلينا الا ننسى عبر هذه المحن التي نقاسيها جميعا ، وان نبذل ـ جهودا مضاعفة ، وان نسدد متحدين ضربة قاصمة ما دامت فينا ارادة ، واحساس بالحياة ٠

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني



